أقوالنا وأفعالنا

بقلم

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

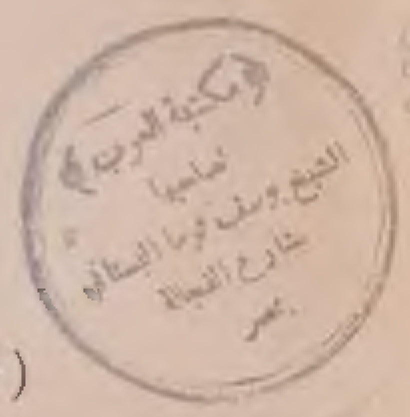

(١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م)

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الإهداء

لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول صاحب المملكة المصرية

أيده الله

لما حظيت في السنة الفائتة بشرف المثول بين يدي مولاي المليك الحكيم ، كان من جملة ما تفضل وتحدث به أخلاق بعض المصطنعين من الرجال . وإذ كنت حاولت في تأليفي الأخير « أقوالنا وأفعالنا » معالجة بعض مشاكلنا الاجتماعية ، وعرضت لوصف طبقة من الناس عاصرتها ، تجاسرت وقدمت إلى سدتك الملكية هذا الكتاب على أن يكون من إلقاء نظرك الكريم عليه ما يعود منه فائدة على الجماعة .

وفق الله جلالتك إلى إتمام ما تعمل له ليل نهار لإصلاح ملكك العظيم ، وسدد خطاك في خدمة الإسلام والعرب ومصر المحبوبة .

جسرين (غوطة دمشق)

بيوم { ٢٥ المحرم ١٣٦٤
٩ كانون الثاني ١٩٤٥

محمد كرد علي

القول فى أقوالنا وأفعالنا

أكلما جنى جان قلنا له : استغفر وتب ، وأنت فى حِلٍّ مما كسبت يداك ، فإذا عاد لما نُهى عنه أملينا له ما أملى هو لنفسه فى الباطل . وكيف لعمرى يسامح صاحب الكبيرة على كبيرته ، وهو مصرٌّ عليها لا يَحيد عنها ، ويقال للظالم لنفسه أو لغيره : إن باب التوبة مفتوح أمامك ، تدخل منه متى شئت ، فتعود كيوم ولدتك أمك .

إذا كان القاتل يَقتل ويقول تُبْت ، والظالم يظلم ويقول رجعت ، والفاجر يفجر ويقول أنبت ؛ فلم الشرائع نحتفظ بحدودها ، وما الفائدة من القوانين ، نُعنى بتطبيق مفاصلها ؟

كان أحد المشايخ يسترضينى عن رجل أساء إلىّ على إحسانى إليه ، ويورد ما أُمرنا به من معاملة المسىء والعدو ، فقلت له : إنى خُلقت كما خُلق هؤلاء الذين تراهم من لحم ودم ، وعصب وعظم ، يُغضبنى ما يغضبهم ويرضينى ما يرضيهم ، وأرى السلامة فى البعد عن أساءوا ، ولا رجاء منهم أن يحسنوا ، ألوى وجهى عنهم ، لا أنظر إليهم ما عشت .

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكَدْ إليه بوجه آخرَ الدهر تُقْبِلُ

أنا لا أحاول الاشتغال بمداواة نفوس مريضة ، ومرضها عُقام ، ولا أُغامر بمداناة الموبوء المتفسخ ، ولا أرجو خيراً من مأفون الرأى ، ولا أُدارى مَن هُم أشبه بالحيوان المفترس منهم بالإنسان المدرك . أتخير لصداقتى من يلائمنى ، ولا تتناكر روحى وروحه

وليس هناك ما يضطرنى إلى مراعاة كل الأمزجة ، ومسايرة جميع الأهواء . فقد خالقت قوماً بأخلاق فما أفلحت ، وأرادونى أن أخالقهم بأخلاقهم فما أفلحوا .

ما جريت ولن أجرى على سياسة الترقيع ما إن وجدت إنساناً أ كله ، والصالح فى العالم غير قليل ، وما عقدت ولن أعقد مع المنحلين من كل عقد صلحاً على دَغَل ، رجاء أن أستديم به عشرتهم ، ولا أرمُّ جرحاً نغاراً على فساد ظاهر يتبين منه تفريطى ، ولن أحاول نزع الحسد من قلب الحسود ، وتعرية اللئيم من لؤمه ، وزحزحة المبطل عن طبيعته . أحسنت الظن ببعض الأشرار ، وعملت بما قيل : « الأصل براءة الذمة » فما حمدت غبّ تساهلى معهم ، وندمت على مغالطة النفس فيهم ، وأعترف أنى أخطأت الحزم ، وما أصبت شاكلة الصواب .

ليقل علماء الدين ما يقولون ، وليقرر علماء النفس ما يقررون ، وليكرر علماء الأخلاق ما يكررون ، فأنا أكره الشر ولا أقصد الآن إلى مداواة صاحبه ، وأعشق العدل ولا أغضى عمن يهدم عموده ، وأرغب فى النظم السليمة ولا أغالط النفس فى استصلاح الفاسد ، فالأخلاق ليست ثوباً تنزعه ، وتستعيض عنه غيره فى ساعة ، ولا الفضائل ببضاعة تعرضها على أول مبتاع فيحسن الانتفاع بها فى الحال . ومن يقلّ للصالحات استعداده أنتَ لن تخلق فيه ما حرمته الفطرة إياه ، ولو جهدت كل جهدك .

نصحنا للمدمنين أن يُقلعوا عن عادتهم فضحكوا وأغربوا ، وأردنا المقامرين أن يكفوا فقال قائلهم : إنا نعلم مالا تعلمون فهزأوا وسخروا ، وذكرنا للبخلاء سوء أثر التقتير فما توسطوا ولا اعتدلوا ، وكرّرنا على مسامع المسرفين عاقبة إسرافهم الوبيل فما ارعووا ولا اتزنوا ، وحذرنا الكذابين عواقب كذبهم فما انتصحوا ولا صدقوا ،

وصرخنا فى الجاهلين صرخة كادت تسمع الصم ، فظنوا أنا نغالطهم فأصروا واستكبروا .

وطال الأمد على هـذه الدعوة ، والمدمن ما برح على إدمانه ، والمقامر ما فتئ مثابراً على قماره ، وظلّ البخيل متمسكاً ببخله ، والمسرف راضياً عن سرفه ، والكاذب مغتبطاً بكذبه ، وانقضى العمر فى أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يرتجى وصُرفت فى هذه السبيل جهود لم يسترد منها عُشرها ، فهل من مطمع بعد هذا فى أن نجعل من جذع يابس غصناً نضيراً ، ومن جسم ميت كائناً حياً ؟

فى الحديث الشريف : « إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوا ، فإنه يصير إلى ما جبل عليه » .

كلما علت بى السنّ يتعاظمنى ما أرى من سر بعض المشهورين وعلانيتهم ، وما يتجلى من قلة الصدق فى أكثر الطبقات ، وما يُعنى به بنوها من غرور . ورأيت معظم من كانوا بحسب العرف أمناء الشرع هم أول الجانين عليه ، ومن كانوا يتناغون بالفضائل هم فى مقدمة من يعقها ، ورأيت المتزمتين المتزهدين يأكلون بصلاتهم وصيامهم .

وعاصرت طوائف من الخلق تستحل ما أُخذ فى سر وجاب مغنماً . وشهدت بعض من أُطلق عليهم ، أو أطلقوا هم على أنفسهم اسم « أرباب الشخصيات البارزة » أو « طبقة الخواص » لصوصاً فى مظهر حَمَل وديع لا يتعففون عن بيع المروءة فى أقل عرض تافه .

معشر أشبهوا القرود ولكن   خالفوها فى خفة الأرواح

وآلمنى أن جُلّ من وقفوا فى الصفوف الأولى كانوا من الأَثَرة على ما استحلوا به

أن يجعلوا غرضهم الشخصى فوق الأغراض كلها ، فما ربحوا وما ربحت تجارتهم ، وكنا بهم أمام الأقربين والأبعدين من الخاسرين .

كان بعضهم ينتمى إلى فريقين ، ويلعب فى آن واحد على حبلين ، وأنت لو أخذت عليه العهد بالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، على أن يُخلص القصد ويعمل بجد ما صدق ولا برّ .

ولو كانت الأمة تعرف عدوها من صديقها ، لعاملت أصحاب هذه الأخلاق كما يعامل الخائنون ، وبئست الأرض أرض لا يجازى فيها الخائن على خيانته ، ولا السارق على سرقته ، وتعساً لأمة تنسى من يسىء إليها ، وترقّ على من يستحق القتل .

عشت فى جيل كانت فيه السرقة والرشوة والتجسس مما لا يُستهجن، إذا أنكرت على فاعلها فأضعف إنكار . وعهدت بعض أدعياء الفهم يصمون بالبلاهة كل من لا يجمع المال بطريقتهم ، ولا يتوصل إلى المعالى بأساليبهم. ورأيت المقتنى إذا اغتنى ، والمتصدر إذا تصدّر ، لا يسألهما أحد عن مالهما كيف جمعاه ، ولا عن جاههما كيف وصلا إليه ، ويعدون من يحاسب على ذلك داخلاً فيما لا يعنيه .

أتى علىّ زمن كنت أتمنى فيه ألا أعرف تراجم من عرفت ، فإنى بما تَقِفْتُ من أحوال الناس كاد يسوء ظنى بالإنسانية ، ولا منى أن أصرح أنى شهدت الإفرنج أقرب إلى السلامة من المغرورين من الشرقيين . الإفرنجى يعمل لمقصد ، ولا يُسِفّ حبّ الإسفاف ، ولا يؤذى طمعاً بالإيذاء ، وقد يرجع إلى العقل ، ويصدر عن تفكر ، ويبتعد ما أمكن عن الفضول . والصالحون للمجتمعات من الافرنج أكثر من الصالحين لها منا ، ونسبة من يعمل لغاية حسنة منهم ، أعلى من نسبة

من حاله كذلك من بنى جلدتنا ، والسر أنهم يتعلمون ويتهذبون ، ونحن لا نتعلم ولا نتهذب ، وهم مولعون بالتجدد ونحن جامدون .

نحن قوم ليس لنا إلا الدعاوى العريضة وكأننا أصبنا بعقولنا ، وكانت إلى عهد قريب ثاقبة ، وضعف على الأيام تفكيرنا ، وكان سليماً صحيحاً ، نستحسن كل ما فينا ، ونستهجن حتى الصالح مما عند غيرنا ، نكفر وأسباب الهدى موفورة لدينا ، والمكتوب عندنا غير المخطوب ، والمكسوب غير الموهوب .

قال أحد ساسة الغرب لأحد أشراف مكة ، وقد رأى فى خزانته مصحفاً شريفاً ، ما هذا الذى أراه ؟ قال : هو القرآن الكريم ، وأخذه وقبّله . فقال له الغربى : دعنى أنا أيضاً أتشرف بالنظر إليه « إنا لقومٌ عَمِلْنا بتسعين بالمئة مما فيه ، وأنتم أصحاب هذا الكتاب لم تعملوا بغير عشرة فى المئة منه » أوليس ما قاله الغريب قريباً من الصحة إذا أنصفنا ؟

غبر العمر بين جاهل وحسود ، ومن العناء رياضة البهيم ، ومن أشق المكاره مداراة الحاسد الممازق ، ومضت الأعوام فى إصلاح أغلاط الجهلة ، ومداواة أسقام العوام، واستهدفت طول العمر لسهام من أهمتّنى وقايتهم من المهلكات، ولشد ماغامرت لاجلب إليهم السعادة ، وما عقدوا لى مِنّةً فى أعناقهم ، كأن ما أقوم به ليس من باب التفضل ، بل هو دَيْن علىّ واجب الأداء ، وفرض لابد معه من الاقتضاء . ولولا أن اليأس على العاقل حرام ، لما قلت بعد الذى عانيت كلمة فى إصلاح معوج وتقويم زائغ ، ولكن الواجب على من يعرف أن يقول مهما أساء أبناء الزمان الفهم.

ولقد كنت كلما مَنّيت النفس بأن الخير سيكون فى الجيل الذى يجىء بعد الذى أنا أشكو منه ، أرى الزمان هو الزمان والناس هم الناس ، وإذا الأبناء ينشأون على غرار الآباء ، وإذا اللؤم والحسد والدناءة عسيرة العلاج .

كم أردنا ذاك الزمان بمدح   فشغلنا بذمّ هـذا الزمان

وعلى قدر ما كنت أحسن لإنسان كان ينالنى مكروهه ، أخجل من تصرفه معى ، ولا يخجل من إساءته إلىّ . ومن التوفيق أن بعض من قابلوا خيرى بشرهم عُرفوا بسقوط الأخلاق فانصرفت الوجوه عنهم . باعوا أنفسهم لقاء تافهات توهموها مغنماً فخسروا خسراناً مبيناً .

ولكثرة ما رأيت من أصحاب هذه الأخلاق أنشأت أقول لأصحابى : بالله عليكم اقتصدوا حتى فى عمل الخير ، فالمرء كلما توسع فى الإحسان يجيئه الضرر عظيماً على نسبة إحسانه، فالأولى أن يسمح بما لا يأسف عليه إذا ضاع، ويعدُّه ساعة يُسديه من المال المفقود ، لا يرجو عليه مكافأة ولا ثواباً .

قومى أبداً يحيلون على الأقدار ، ويتوهمون أنهم صنف ممتاز من أجيال البشر، وطالما نسبوا كل ما هم فيه من الأمراض إلى من يتولى أمرهم، يعْفُون أنفسهم من كل لائمة وتقصير . إنهم فى حاجة إلى أن ينصفوا غيرهم وينصفوا أنفسهم ، وأن يخلعوا هذه الأثواب البالية عنهم ، ويستجِدُّوا لهم كسوة جديدة ، وأن يدركوا أنهم إذا لم يكونوا صالحين فى أنفسهم فإنهم لا يخدعون بحسن حالهم أحداً .

وسواء كان قانوننا دستورياً جمهورياً ، أو ملكياً مقيداً أو مطلقاً ، أو استبدادياً طاغياً ، أو كنا مستقلين محررين من كل قيد ، لا تنفعنا حكومة إن لم نكن فى أنفسنا شيئاً . وقد تؤلف الحكومات الشورية ، ونجمع المجالس النيابية ، ويكون لنا جيش وأسطول وطيارات ودبابات ، فإذا أعوزنا الصدق ، وما انتظمنا الجدّ ، فأيقن أننا علة استعبادنا ، وأنا بيدنا نفتح أبواب دارنا لندخل إليها عدونا .

القول فى تمدننا

قالوا إن المتمدن من يعرف بعض أسرار القوى المحيطة به ، والهمجى هو الذى لا يفهم شيئاً من أمور العالم. ومعرفة الأشياء تستلزم إمكان الانتفاع بها وتطبيقها على حاجاتنا. ونكون فى عداد المتمدنين متى عرفنا أن الجدرى ينشأ من جرثومة، وأن فى إمكاننا وقاية أجسامنا إذا اتقينا تلك الجرثومة بجرثومة أخرى ، والتمدن جزء من معرفة الأشياء . وهو بالمعنى الصحيح الذى يدل عليه مقدار عظيم من السعادة تحف حياتنا البشرية ، ولا تقوم إلا بمعرفة الأشياء وباستعمالها لما يفيد. يضاف إليها ما له علاقة بالأخلاق كالتسامح، والإخاء الإنسانى ، وحرمة الحق .

وعرّفوا المدنية بأنها وحدة مركبة من الأفكار المستندة والعادات الراسخة التى يعيش فى سلطانها كل إنسان مجتمعاً مع غيره ، ويوصف بالمتمدن كل مكان جمع أناساً كانت بينهم علائق مستقرة أو متزلزلة ، وكان من هذه العلاقات بعض قوة أو ضعف . والفرق بين الشعوب الهمجية والشعوب المدنية ما تمتعت به هذه من أوضاع سياسية وإدارية، وثروة عامة، وثقافة أديقونيسية وعلمية، واستقلال سياسى، ورقى اقتصادى وعقلى وأدبى . والرجل المتمدن هو الذى يرمى ببصره إلى المستقبل ، والمتوحش يعيش كل يوم بيومه : ويستهلك فى الحال كل ما يستحصل ، ويسرف فى قوته تبذاً بالإسراف واللعب فقط ، وهو أبداً ينظر إلى الماضى ويؤخذ بالحاضر ولا ينظر إلى المستقبل . وقال بعضهم : تعرف درجة الأمة المتمدنة من مقدار ما تصرفه من الصابون وطوابع البريد .

ولقد توفرت بعض الأقطار العربيـة وفى مقدمتها مصر على السير فى طرائق المتمدنين من أهل الحضارة الحديثة فبلغت بعد ثلاثة أجيال درجة عالية من التمدن، وظل الجمهور الأعظم من بنيها على صبغته القديمة، أى أن مسافة التمدين ما زالت شاسعة بين ابن الريف وابن المدينة. وكذلك يقال فى الشام فان المدنية دخلت مدنها وظلت البوادى ومعظم القرى على ما كانت عليه. وإنك لترى فى هذين القطرين لعهدنا تمدناً لا يقل عن تمدن الشعوب الأوربية، وإلى جانبه انحطاطاً لا نسبة بينه وبين الترقى الذى بلغه سكان الحواضر.

لا جرم أن مظاهر الحضارة فى كل بلد من بلدان الشرق متفاوتة، فان المدينة غير ابن القرية أبداً، والتفاوت عظيم بين الحواضر والأرياف وبين القروى والبدوى، وأكثر منه بين البدوى والحضرى، والمتعلم والجاهل.

قضى العلم الحديث على كثير من الخرافات كان الناس فى العصر السالف يعدونها حقائق ثابتة، فيعتقدون مثلاً أن القمر يخسف بفعل حوت يريد أكله، وأنهم إذا ضربوا له بما يهيجه يفلت من أنياب الحوت، وأن الأرض واقفة على قرن ثور، وأنها ثابتة لا تدور. وأن الطواعين والأوبئة من فعل الجن، ولا يعتقدون بالعدوى ولا يعترفون بوجود الجراثيم، مع أن فى السيرة النبوية أحاديث تحذر من مداناة المريض، وتقول بالمسببات المهلكة، أى بالجراثيم. وكانوا يتطيرون ويتيمنون بالأيام والأسماء والحيوان والطير، ويتطببون بالأدعية والتعاويذ، ويحتمون بالطلاسم والرقى، ويؤمنون بالمغيبات والكرامات، ويأنسون بالخرافات والخزعبلات

كان الناس، حاشا العلماء، يحسبون ظنهم بالطرق. فبطل هـذا الاعتقاد فى كثير من المدن والقرى. وإذ ذكرت الآن أمام أناس كانوا ممن أسعدهم الحظ بأن

تعموا التعليم الابتدائى ، أو ممن عاشوا فى بيئة راقية وسمعوا كلام المثقفين ، ضحكوا وسخروا . وعلى هذا غدا الجمهور يستعمل عقله ، وكان مدة قرون لم يكن يشكل ما سمع من كبير ، أو ممن يعتقد فيه الفهم .

وكان يهون على الشذج أن يقضوا أياماً طويلة كل سنة لحضور الموالد وزيارة المشاهد ، وكان الناس فى الشام ومصر والعراق يعطلون أشغالهم كل سنة للاشتراك بمولد بعض الأولياء ، ومدفن أحد الشهداء ، فقل عدد المعتقدين بذلك ، وأبطلت الحكومات هذه الاجتماعات الضارة فعدّ ذلك من علائم التمدن ، وكم من اعتقاد كان راسخاً فى الصدور تسلسل الجهل من الأجداد فى الأحفاد ، فعاق المرء عن التعلم والأخذ بالأسباب ، ونزع بعمل الحضارة من الصدور ، ووقف المتدينون من المتعلمين عند حدّ ما رسمته الشريعة من المعتقدات ، ونبذوا ما زاد عليها ، وهذا أيضاً من التمدن .

كان معظم الأمة يؤمن إيماناً غريباً بالسحر والتنجيم ، واستخراج البخت والفأل ، وتأثير العين ونفع الطلسمات والرقى ، فغدا اليوم صغار فتيان المدارس ينكرون هذه الأمور ، ولا يسع آباءهم وأمهاتهم إلا أن يقلدوهم فى معتقدهم ، وهذا اعتراف ضمنى من الأميين ، أو ممن كان فى طبقتهم ، بأن المتعلم أكثر تمدناً ممن لم يتثقف . كانوا إلى عهد قريب يأخذون بكلام كل من يقص عليهم غريبة فيعتقدون للحال صحتها ويعظمون أمر من رواها ، فاضمحل أكثر ذلك ، وهذا أيضاً من المدنيـة ، حلّ العقل محل الجهل .

وإذا جئنا نوازن بين حالنا اليوم وحالنا فى أواخر القرن الماضى ، من حيث الاجتماع والتنظيم والبعد ما أمكن عن التخريف ولا اعتقاد بالمجهولات ، نشهد مغتبطين

أنا خطونا خطوات واسعة فى خمسين سنة فى سبيل التمدن، وإنا نرى ابن الثممة عشرة ممن درس الدروس الثانوية أرقى عقله ومعرفته من معظم من يروى التاريخ أخبارهم، ويشير إلى أنهم من العلماء والأدباء . وعلى هذا ترى أهل الطبقة الوسطى اليوم يعيشون عيشة تقرب من عيش أعظم قدماء الخلفاء، بما اقتبسوه من مقومات المدنية، وحمله الغرب إليهم من قوانين وأنظمة وأوضاع ومصطلحات فى البيوت والمجالس والموائد والمراسم والملاهى والملابس والآلات وغيرها، وكلما عمت هذه الأفكار والأوضاع، وتناولها الأميّون كما تناولها المتعلمون، زادت سعادة البيوت وسعادة المجتمعات .

من علائم المدنية ما نشهده من مراعاة النساء فى المجالس والطرق والسكك الحديدية والترام والمقاهى والمطاعم والفنادق، وكان منذ جيل موضع سخرية وامتهان، وهذا لا شك من آثار استمتاع النساء بحقوقهن فى هذا العصر، وتبدل عظيم فى نظر القوم إليهن . ومعنى هذا أن ما تتمتع به المرأة من الحرمة والكرامة أكثر مما كانت عليه فى الدهر السالف .

ذكر المقريزى فى السلوك فى حوادث سنة ثمان وسبعمائة أن والى قمة القاهرة الملقب بالمجنون كان يتسلط على النساء فيخرج أيام المواسم إلى القرافة ويستكل بهن فامتنعن من الخروج فى زمانه إلا لأمر مهم مثل الحمّام وغيره . وذكر فى حوادث سنة ٧٣٢ أن الملك محمد بن قلاوون أراد الاحتفال بعرس ابنه فجلس على باب القصر وقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحداً بعد واحد ومعهم الشموع، فإذا قدّم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر، وفى ليلة العرس جلس السلطان على باب القصر أيضاً وجلس ابنه تجاهه، وأقبل الأمراء جميعاً وكل أمير يحمل بنفسه شمعة

وخلفه مماليكه تحمل الشمع فتقدموا على قدر رتبهم وقبلوا الأرض واحداً بعد واحد طول ليلهم، حتى إذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر إلى حيث مجتمع النساء فقامت نساء الأمراء بأسرهن وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى، وهى تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة والنقوط حتى انقضت تقدمهن جميعاً، ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضاً واحدة بعد واحدة، والمغانى تضرب بدفوفهن وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير تلقى على المغنيات، وتقبيل الرجال والنساء الأرض على مخالفته للدين أكبر دليل على عبودية يفرضها مليك على الأحرار.

وذكر ابن الفرات فى حوادث سنة ٧٩٣ هـ أنه صدر مرسوم الأمير الكبير فى القاهرة بأن لا تخرج امرأة من بيتها إلى التربة، وأن كل من وجد منهن فى تربة من الترب وُسِّطت هى والمكارى والحمار[1]، وألا يتفرج أحد فى مركب فى البحر، وأن من وجد فى مركب أحرق هو والمركب والمراكبى، فتحامى الناس ذلك فى أيام العيد، ولم يجسر أحد أن يتفرج، ولم تجسر امرأة أن تطلع إلى القرافة ولا إلى الترب.

وذكر أيضاً فى حوادث تلك السنة أن نائب الغيبة فى القاهرة أرسل جماعة من الأوجاقية السلطانية ومعهم جماعة من مماليكه، فداروا الأسواق والقياسر والطرقات بالقاهرة وظواهرها، فقطعوا أكمام النساء الواسعة بسكاكين كانت معهم، وحصل لبعض النساء رجة عظيمة، لأنهم كانوا يأتون المرأة على حين غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها، وبعض النساء وضعن حملهن من الرجة، وسقط بعضهن مغشياً عليه، وامتنع النساء من لبس القمصان بالأكمام الواسعة ونحسبها. قال المؤرخ: ولو تم ذلك لكان خيراً عظيما، لكن النساء أعدن ذلك بعد حضور السلطان من الشام اهـ.

---

(١) أى قطعت قطعتين من وسطها.

جرى هـذا فى القاهرة أعظم حواضر الإسلام مدنيةً فى القرن الثامن كما شهد بذلك ابن خلدون المؤرخ العظيم .

وذكر ابن كثير فى حوادث سنة اثنتين وستين وسبعمائة أنه نودى مناد فى دمشق من جهة نائب السلطان أن النساء يمشين فى تستر، ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن، ولا يظهرن زينـة ولا يداً . وقال فى حوادث السنة التالية وهو مما لا يشعر بضعف المدنية فقط بل يدل على تحكم بارد وتعصب جامد . نودى فى البلد أن نساء أهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات بل تدخل حمامات تختص بهن ، ومن دخل من أهل الذمة مع الرجال المسلمين يكون فى رقابهم علامات يعرفون بها من أجراس وخواتيم ونحو ذلك ، وأمر نساء أهل الذمة بأن تلبس المرأة خفيها متخالفين فى اللون كأن يكون أحدهما أبيض والآخر أصفر أو نحو ذلك .

وقال فى حوادث سنة احدى وسبعين وسبعمائة : إنه ورد كتاب من السلطان بإلزام القلندرية بترك لحاهم وحواجبهم وشواربهم، وإلزامهم بزى المسلمين وترك زى الأعاجم والمجوس ، فلا يُمَكَّن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزى المبدع واللباس المستشنع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً ويقلع من قراره قلعاً . قال ابن كثير بعد إيراد هذا : وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخبيثة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها .

وما ندرى ما الذى حدا السلطان جقمق ملك مصر والشام على أن يرسم سنة ٨٥٥ بحرق شخوص خيال الظل (القره كوز) جميعها وأبطلها كما روى ابن اياس . أبطل هذا الملهى المباح الذى لا يخلو من عبرة وتذكير، بينما كان الغربيون يرتقون فى التمثيل الذى كان منه أنفع الأثر فى نهضتهم ونهضة الرومان واليونان من قبلهم .

ولك أن تعد فى المتمدنين كل من لا يؤذى جاره ولا مواكله ولا رفيقه ولا المرءة مهما كانت درجاتهم ولا يعبث بالقوانين والشرائع ، وكل من يعرف أين تنتهى حريته الشخصية وتبدأ حرية غيره . فمن يلزم المؤدة والوقار فى الجوامع والبيع ودور التمثيل والموسيقى والأندية والمتنزهات، ويظهر بمظهر المعتدل فى شعوره وحركاته وسمته، وظافة ثيابه وأطرافه ، ويتحرج من إيذاء مشاعره غيره وتجرحه يعد من المتمدنين ، وكذلك كل من لا يزين له حب الفضول البحث فى خصوصيات جيرانه ومواطنيه ومساكنيه ، إلا إذا كان من وراء ذلك فائدة عامة .

وكل من تجمل وتزين ، رجلًا كان أو امرأة ، على شرط عدم الافراط فى ذلك يعد متمدنًا ، ومن يهون عليه خرق النظام ، فهو فى أقصى درجات التوحش . وإذا وقف المرء عند حدود الآداب العامة ، وصان لسانه عن استعمال ألفاظ الفحش والبذاءات ، واقتصر فى كلامه على ما إذا أورده أمام العذارى لا يخجلن منه ، غدا عمله عمل المتمدنين ، وكلما أدرك المرء ألا سعادة له ولذويه إلا إذا اهتم بالمصالح العامة اهتمامه بمصالحه الخاصة ، وأن سعادة غيره سعادة له ، وأن شقاء وطنه يزيد إن لم يشارك مشاركة فعلية فى انهاضه ، وأنه إذا لم يأت هذا يخرأ عدًا لصًّا فى أرضه ، يستمتع بخيراتها ويبقى على غارب غيره متاعبها .

مثال من تمدننا وتوحش أهل القرون الغابرة . ما أظن إنسانًا نظر قليلًا فى كتب الأدب إلا ورأى بعض شعرائنا يصدعون الآداب بما قالوه فى وصف الخلخال ، وما تغزلوا به وأكبروا من جماله ، وما أبدوا من عجبهم من حركته وسكونه . ومن لم يتصور ذاك القيد الثقيل فى رجل المرأة لا يدرك مقدار العبودية التى فرضها الرجال

على السماء فى غابر الأزمان ، ولا يعرف مدى قبح الذوق من عد مثل هذه الحديدة اللامعة من المغريات .

ما الخلخال فى الواقع إلا صورة صادقة من عصور الهمجية الأولى ، ومن تأمله حق التأمل يدرك مضربه لتى أعجب بها الشعراء ، ويحكم على سوق المتقهقر عندهم . إلى اليوم ترون صورة من الخلخال فى أرجل بعض الفلاحات فى ريف مصر وريف الشام ، كما تجدون الفتيات الصينيات يحصرن أرجلهن فى أحذية ضيقة من الحديد حتى إذا شببن بقيت أرجلهن صغيرة دليل الجمال !

كلما فكرت فى هذا الخلخال أجد فيه البشاعة كلها والهمجية كلها ، وكلما رأيت كيف بطل استعماله عند سكان المدن لايخامرنى شك فى أننا قطعنا مراحل طويلة فى طريق المدنية . وكذلك كلما رأيت الخزام الذى يخزمون به أنف الفتاة وقد بطل أيضاً فى المدن ، ولم يبطل عند البدويات وبعض القرويات ، كما لم يبطل إلى اليوم ثقب أذنى الفتاة ليعلق فيها القرطان ، ولم يبطل الوشم فى أكثر الأرجاء العربية ، يسوّدون بالزرقة الساعدين واليدين والرجلين والوجه وأماكن أخرى من الجسم ، فتظل مشوهة طول حياتها ، وتفقد كثيراً من جمالها ، ويشاركها فى هذا التشويه الرجال .

كلما تأملت هذه التشويهات يحمل بها فى الأكثر القوى على الضعيف ، حتى أصبحت على توالى الأحقاب من الأمور المتعارفة التى لاتنكر ، أحمد الله على أن خلقنا فى هـذا العصر ، وخلق لنا عقولاً نميز بها الجميل والقبيح والنافع والضار .

ومن الهمجية جرأة الآباء فى مصر والحجاز على قطع جزء من جسم الفتاة لأمور يتوهمونها مهما ادعيت وكثرت ، يغيرون بذلك صنع الخالق مع مخلوقة لا تملك أمر نفسها .

ومن يزر متحفاً من المتاحف أو داراً من الدور القديمة فى القرى النائية عن المدن يقع نظره على ما كان النساء يستعملنه من اللباس وأدوات الزينة . ومناطات العصبة أو الحديد التى كانت توضع على رؤوس العرائس وتلك الأحزمة والزنانير الغليظة التى يتمنطقن بها إلى الآن ، وتلك العمائم الثقيلة التى تلاث على طربوش غليظ يتعمم بها النساء كالرجال فى بعض بلاد الريف إلا صورة من تلك الهمجية ، تقيَّد مع الخلخال والحزام والوشم فى جريدة واحدة .

والأمة فى القديم كما هى فى العصر الحديث قد تخرج عن المعقول فى عاداتها كما خرج المتمدنات اليوم مثلا فى صبغ أظفارهن وبطالتهن وصبغ شفاههن بالحمرة مثلا .

ومن الغريب أن هؤلاء النائسات فى بعض العصور كن يألفن هذه العادات ولا يرضين عنها بديلا شأن بعض المحجبات اليوم يرضين حجابهن أكثر من السفور مع ما فى هذا من الفرج والحرية لهن . روى الجزرى أن نائب السلطنة بدمشق رسم فى سنة ٦٩٠ أن لا تخرج امرأة تلبس عمامة كبيرة ومن خالفت المرسوم غلظت عقوبتها فامتنع النساء من ذلك على كره منهن .

كانت أدوات الزينة عند النساء فى حالة ابتدائية ، فمن كان لها فى القرون الوسطى مكحلة من بلور وميل من ذهب وأقراط تعلقها بأذنيها ومخانق وعقود يحيط بعنقها تعد ممدنة . ومن يكون فى جملة صداقها زوج أساور ذهب وثوب طريف (طرفنده) عليه أزرار فضة تعد ممدنة .

ومظاهر التمدن تختلف باختلاف العصور فقد رأت مصر فى عهد الملك الناصر من المماليك عهد رخاء . ذكر ابن تغرى بردى أن النساء فى زمانه استجدت الطرحة كل طرحة بعشرة آلاف دينار ومادون ذلك إلى خمسة آلاف دينار . والفرجيات بمثل ذلك ، واستجد النساء فى زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة

والقدقيب الذهب المرصعة والأزر الحرير وغير ذلك . والغالب أن هـذا الترف كان خاصاً بنساء الملوك والأمراء ومن وراءهم .

وماذا كان النساء يقلن لو عدن إلى الأرض وشاهدن هذه الأزياء الجديدة عند بنات جنسهن ، وهذه الحلى وهـذه الزينة ، ورأين المزركش والمرملك والمقطع ، وقسمة تلك الثياب التى أعمها وما فيهـا ما ينم عن ذوق ولا عن رفاهية تذكر ؟ لا جرم أنهن كن يؤمن بأنهن كن على عتبة من التوحش بالقياس إلى ما حدث بعدهن من الرقى الذى كان من انتشار العلم وما تبعه من مدنية .

القول فى وطنيتنا

الوطن هو البلد الذى يولد فيه الإنسان ، أو موطن الإنسان ومحله . وقسموا الأوطان إلى ثلاثة أقسام : الوطن الأصلى وهو مولد الرجل فى البلد ، وقيل ما يكون بالتوطن والبلد ، وموطن الإقامة وهو موضع ينوى المرء أن يستقر فيه خمسة عشر يوماً أو أكثر من غير أن يتخذه مسكناً ، ووطن السكنى وهو الموضع الذى ينوى الإقامة فيه أقل من خمسة عشر يوماً .

والوطنية هى الحب الذى يشعر به من يساكن جماعة فى أرض يعيش فيها جمهرة من الخلق مجتمعين ، وهى تستلزم رغبة فى المعاونة على جلب الخير للبلد ، ليكتب له السؤدد فى الحاضر والمستقبل ، وتكون هذه الرغبة نتيجة عواطف كثيرة منها حب من عاش المرء معهم وارتباط قلبه بالأماكن التى ولد فيها ، وقضى جزءاً من حياته فى ربوعها يضاف إلى ذلك الإخلاص لجنسه ولغته ومنازعه وعاداته وقوانينه وأوضاعه وللمجتمع الذى ولد فيه وانتسب إليه .

كانت كلمة الوطن ضيقة النطاق لا تعدو منزل المرء وبلده ، فلما جاء الإسلام كان الوطن دار الإسلام عامة وما عداه دار حرب ، وكان للدين الأثر الأول فى الوطن العربى ثم للغة الواحدة ، وقلما كان الوطن – كما هو الشأن فى الدول الغربية الكبرى إلى اليوم – موحداً فى الجملة بأجناس سكانه ولغتهم ، لأن من قواعد الإسلام أن لا يكره أحد على انتحاله إذا عمل بما يأمر به ، فيبقى أهل كل دين

على دينهم إن لم يحبوا رضاهم الدخول فى الإسلام . وكانت هنــاك رابطتان رابطة الجنس وهى طبيعية فى الخلق ، لا يستخدمها صاحبها فى أغراض عامة ، ورابطة الدين واللغة يدين بها المواطنون كافة .

نعم دعا الإسلام إلى جامعته فهى الوطن وهى القومية ، وما دعا إلى الجنسية والقبلية ، فقد كتب الرسول إلى عامله على اليمن أن ينهى - إذا كان بين الناس هَيْج - عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فَلْيُقْطَعُوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله . ثم عاد العرب يتفاخرون بالقبيلة والعشيرة لما قامت المنازعات على الملك .

وقصد رسول الله بألا يكون فى جزيرة العرب دينان أن تتألف من العرب وحدة سياسية ، فتعذر قيام هذه الوحدة لأن سائر العناصر والأديان أطلقت لهــا حريتها ، فشاركت فى الوطنية إلى حد محدود . ولولا أن أكل الربا نصارى نجران ويهود خيبر وتيماء ، وكان شرط عليهم فى العهد الذى منحوه ألا يتعاملوا به لما أجلاهم عمر عن جزيرة العرب إلى العراق والشام ، ومع هذا أوصى بهم وما اضطهدهم أحد من عماله ولا رعاياه ، كما لم يضطهد النصارى ولا اليهود ولا المجوس ولا الصابئة لما انتحلوه من دين ، إذا أدوا الجزية ، ورعوا حقوق الوطنية الإسلامية .

وكانت تختلف درجة امتزاج الأعاجم بالعرب فى الوطن الجديد ، بحسب بعدهم وقربهم من الأرض العربية ، واختلاطهم بالفاتحين وأبناء الفاتحين ، وما كان يسمح - على ما يظهر - أن تعتزل الجاليات عن سكان البلاد الأصليين ، كأن تقتطع لها منطقة خاصة لا تتعداها إلى غيرها ، أو تقتني بقعة بعينه لا تخرج منه . وربما آثر بعض أهل الأديان أن يسكنوا فى حيّ خاص ليكونوا على مقربة من معابدهم ، ويأنسوا

باجتماع بعضهم إلى بعض ، ويجمع بين الأصيل والدخيل فى كل ولاية. ومزج معاوية فى الشام القبائل والأديان المجتمعة فى الساحل والداخل حتى لا يكون النصارى أكثرية ، ولئلا تتخذ منهم دولة بيزنطية آلات لأغراضها السياسية . أما فى الأندلس وشمالى إفريقية فقد أنزل من جاءوا من القبائل العربية فى مقطعات خاصة، ثم اختلطوا كلهم بعد وبرز مع السكان الأصليين ، وبتدرج الموطنين تتألف منهم على الأيام كتلة واحدة وينسى الأعاجم أصولهم .

وما كان لغير العربى أن يتطاول لأن يكون لأمته شأن مع اللغة العربية ، وما حاول أحد أن يتحلل من هذه الرابطة التى أحكمها الإسلام ؛ وقدس لغة كتابه تقديساً ؛ وكان من أثر ذلك تعريب كل قطر بسط الفاتحون سلطانهم عليه بسطاً محكماً ، فأصبحت العربية لغة الدين والسياسة والعلم . وقد حاول أحد شعراء الفرس ـ والدولة العباسية فى إبان مجدها ـ أن يتلو قصيدة له فى حفل فأبى عليه أمير الولاية سماعها . ولما ضعف أمر العباسيين أصبحوا إذا جاءهم شاعر فارسى بقصيدة يتلونها فى مجالسهم كما يتلون الشعر العربى .

ولم تقو الجامعة الوطنية: أى جامعة أرض معينة الحدود والمعالم ، جمعت بين أهلها المصلحة المشتركة ، بقدر ما قويت الجامعة الدينية . وما خرج خليفة ولا سلطان ولا أمير عن حكم هذه الجامعة ، ثم امتزجت العناصر بعد الفتح بقليل ، وما انتهى القرن الأول حتى أصبح أهل المملكة الأموية يتكلمون باللغة العربية على اختلاف عناصرهم ، وأمسى كل مواطن يشعر بأن مصلحته ومصلحة مواطنيه متحدة .

شهدنا العباسيين يهون عليهم التساهل بحقوق الجنسية ، للسياسة التى اضطروا لانتهاجها مع أبناء خراسان الذين قام ملكهم على أيديهم ، ولم يعدوا بذرة من

حقوق الوطن الإسلامى : أى أنه كان همهم حفظ حقوق الوطن الأكبر ، ويغضون الطرف عن بعض العناصر كالفرس ، وقد حذوا فى القرن الثالث يحيون لغتهم بظهور شعراء فيها ، وما تعرّبت الجبال والقصبة من فارس قط ، وظلت فى الإسلام محتفظة بفارسيتها .

ومن الصعب حصر الوطنية فى أقطار واسعة متنائية الأطراف على نحو ما يتيسر ذلك فى بلد ضيق معروف الحدود متماسك الأجزاء . وفى أصقاع يتعذر حكمها على غير قاعدة الحكم الذاتى كالأقاليم الإسلاميـة ، لا يسهل أن يربط سكانها إلا برباط واحد ، وهو رابطة الدين أولاً واللغة ثانياً ، وكيف يرتبط ابن فاس ومكناس مثلاً بابن مسقط وعُمان بغير هذا الرباط ؟

بسط العثمانيون الأتراك سلطانهم على ديار العرب ، وكانوا الى آخر أيامهم يؤثرون أبناء جنسهم بالمناصب الكبرى ، ولا يشركون أبناء العرب فى سياستهم ، وما جاهر العرب بمعاداتهم لمدة قرنين ، بل رضوا منهم لما سمعوا عن عدل ملوكهم الأولين وما نازعوهم فى سلطانهم ، جاءوا باسم الإسلام ، والإسلام هو الجامعة الوطنيـة الكبرى ، واستنام العرب وغيرهم لدولة العثمانية ، فحكمتهم قروناً باسم الوطنيـة الإسلامية ، ولما قويت فى نفس بنيها الدعوة إلى القومية التركيـة ، وحاول دعاتها بالجرة أن يرفعوا العرب من قوميتهم أخفقت دعوتهم . وما استطاعت الدول العربية تحقيقه من تعريب الأعاجم تعذر على الترك إنفاذ مثله ، لأن العرب دعاة دين ومدنية وقد نجحوا فى الدعوتين ، أما الدولة العثمانية فما خرجت عن كونها دولة فتح وتغلب ليس إلا .

لما قَتَل سليمن بن قُتُلْمُش التركى مسلمَ بن قريش العربى صاحب الموصل وما إليها ، انتقل ملك الشام (٤٧٨) من العرب الى الترك ، ولم يحكم الشام بعدها إلا أتراك وجراكسة أو أكراد ، فتأثرت بذلك القومية العربية ، ولم يقع حيف على الوطنية الاسلامية . لأن ذلك التركى الغالب جاء يحمل أيضاً تعاليم الإسلام ، يكلم القوم بالعربية ، ويكاتبهم بالعربية ، فمحال أن يخرج العرب عليه ، وإن فصلوا حكم العربى .

ولقد رأينا المصريين فى القرن الرابع يستدعون الفاطميين من شمالى افريقيـة ليسلموا إليهم ملك مصر ، غير آبهين لما بينهم وبين الفاطميين من اختلاف فى المذهب ، بل نظروا إليهم فقط أنهم أصحاب دولة عربية . قوية ومع أن مصر كانت دار تشيع كما يقول ابن زولاق منذ أيام محمد بن أبى بكر ، وكانوا كانوا يتبعون جعفر الصادق ولا يعدون عن قتداه ، ومع أن الفاطميين نشروا مذهبهم الإسماعيلى فيها أكثر من قرنين ونصف قرن لا نجد لمذهبهم أثراً فى مصر ونجد ميلاً إليهم لأنهم عرب مسلمون أنشأوا مدنية عربية عظمها ، والقوم إلى اليوم يذكرونهم بالخير كما يذكرون الأتراك والجراكسة أسوء مذهبهم .

كان أرباب الدولة إذا اقتضت الحال حلاء فريق من السكان عن قطر أو عن إقليم ، وإنزاله فى قطر آخر أو إقليم آخر ، لا يخطر للمهاجر بعد إن كان عربياً أو غير عربى أنه برح عن أرضه ، بل يعتقد أنه انتقل فيها من بقعة إلى بقعة ، ويحتاج فقط إلى زمن قصـير حتى يتعرف إلى من نزل عليهم ، ويألف طبيعة الأرض التى حل فيها . كان هذا شأنهم منذ الفتح ، أنزلوا قبائل عربية عظيمة فى الشام والعراق ومصر وشمالى إفريقية والأندلس ، فعربوا من نزلوا عليهم حتى بدأ نقص محسوس فى سكان

جزيرة العرب بعد القرن الثانى هجرة مئات الألوف من أهلها ومنهم حملة الدين وقواد الجيوش . فكان شأن الجزيرة فى إقفارها من الرجال شأن شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال عقيب فتح أميركا ، هاجر منها معظم أهل الذكاء والشجاعة من رهبان وجنود ، فأثرت هجرتهم فى أوطانهم الأولى وانتفعت بهم الأقطار التى نزلوها .

وقد يرى السلطان نقصا فى سكان البلدان التى دانت لحكمه فيدعو من القاصية كل من يختار السكنى فى مملكته ، ويهيئ لهم وسائل العيش فيها ، كما فعل الملك العاقل المنصور قلاوون سنة ٦٨٧ فكتب إلى أكابر السند والهند والصين والحجاز والعراق والعجم أن يحضر من يحب التكسب أو السكنى إلى الديار المصرية والبلاد الشامية ، وبين لهم ما فى مملكته من خيرات . وفى هذا دليل على أن الوطن الإسلامى وإن تعددت حكوماته لا يحتاج المهاجر إلى شهادة بجنسيته ، ولا لجواز يمكنه من التنقل فى الأرجاء .

بل كان العالم أو التاجر يتنقل فى البلدان الإسلامية على ما يهوى ، وهو يعد كل بلد يرله بمثابة بلده ، لا يجد فيه أدنى عائق يحول دون استمتاعه بحقوقه ورغائبه ، حتى ليتزوج ليلة وصوله إلى البلد الجديد ، ولا يسأل إلا عن دينه ، أما الجنسية فقلما يعرض لها . وشهد الملوك والخلفاء يأتون برجال غرباء عن مملكتهم بحسب عرفنا اليوم ويولونهم وزاراتهم ، ويفوضون إليهم سياسة ملكهم ، وعلى هذا النحو يعملون فى جيشهم فقد يختارون لقيادته البعيدين عن مراكزهم وربما اختاروهم من غير أهل الإسلام .

أما القضاء والتدريس وغير ذلك من المراتب الدينية الكبرى فقد توسد فى ديار الشرق لمن نشأوا فى الغرب ، فيقضى العالم ويفتى ويدرس ويعظ ويخطب ،

ويتناول من الأوقاف أو من بيت المال راتباً مقرراً كأنه فى مسقط رأسه ، وبهذا تمازجت الشعوب الإسلامية تمازجاً غريباً ، وكيف لا تتمازج والمحور الذى تدور عليه الوطنية هو الإسلام الذى ساوى بين الأبيض والأسود والعربى والأعجمى والسيد والمولى .

لما أخذ الفرس بمخنق الدولة العباسية لأول أمرها ، وكاثروا العرب فى الحكم ثم تسلل الأتراك إلى مملكة العباسيين وقبضوا على زمام الأمر لم يُصب الوطن الإسلامى بما يخالف أصوله لأن جميع هؤلاء المتغلبين كانوا من المسلمين ، وسواء حكم العربى أو الفارسى أو التركى أو الديلمى أو البربرى فالإسلام كمّ الأفواه عن التفوه بمسائل الجنس ، وأصبح الدين جامعتهم والوطن وطنهم ، والقوم قلما تعنيهم جنسية من يحكمهم ولا نحلته إذا حكم بالعدل . ولما سأل هولاكو علماء بغداد هل الحاكم المسلم الظالم أفضل أم الحاكم الكافر العادل أجمعوا فى فتواهم على أن الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم .

وما حدث من مسائل الشعوبية والتفاضل بين العرب والعجم ما كان مما يقره الإسلام ، وما خرج فى الواقع عن حد منفثات كان الداعى إليها منافسات ومطامع شخصية طبيعية الحدوث فى كل بلد كان أهله أخلاطاً وأمشاجاً ، ومع هذا لم يطرأ على الوطن الأعظم أدنى خلل لمكان الدولة من القوة ، والعقلاء من جميع العناصر ما كانوا راضين عن هذه المهاترات .

أما أبناء الذمة فى الملك الإسلامى فكان شعورهم شعور وطنى يحب خير أمته لأنهم هم أيضاً يمعمون فيه كالمسلم ، وقد تساووا فى الحقوق والواجبات مع مواطنيهم المسلمين . وكان الصالح منهم يرى من عطف حكومته ومن عطف السواد الأعظم ما لا يكاد يرى مثله من ابن دينه ، وما عقدت حكومة إسلامية معاهدة مع دولة

غير إسلامية إلا ذكرت فيها المعاهدين وحفظ حقوق الذميين . وكانوا إذا أسر النصرانى أو اليهودى أو المجوسى أو الصابئ، يفادونهم كما يفادون المسلمين ، وإذا كانت لهم حقوق تجارية وارثيـة فى دار الحرب تطالب لهم حكوماتهم بها كما تطالب بحقوقهم لو كانوا من المسلمين ، وإذا قتل مسلم ذمياً يقتل به أو يؤدى دية كدية المسلم إذا رضى أهل القتيل ، وتكون الدية من أعظم أصناف الدية . وما كنت تشهد الحكومات الإسلامية إلا حريصة على إعطاء أهل الذمة حقوقهم ، والمسارعة بحمايتهم من السفلة والغوغاء ، حتى إن مسلما إذا قال لمواطنه يا نصرانى وأراد بقوله تحقير مخاطبه يعاقبه السلطان على كلمته . فكان المسيحيون فى ديار المسلمين أسعد من أبناء دينهم تحت حكم النصارى فى الغرب .

يقول بارتولد فى تاريخ الحضارة الإسلامية : إن الشعوب التى عاشت فى حكم المسلمين استفادت من العلاقات التى اتسعت بقيام الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم أكثر من المسلمين أنفسهم ، كما أن انتشار النصرانيـة والمانوية فى بلاد عاليا ، واليهودية والنصرانية فى القوقاز وشواطئ الفولجا يعود إلى العصر الإسلامى أى إلى عصر التسامح والحرية الدينية .

ولو نجا الملوك من ضغط المتعصبين من رجال الدين لأعفوا أبناء الذمة من الكسوة الخاصة التى كان الذميون فى بعض العصور يلزمون بالاكتساء بها تمييزاً لهم عن المسلمين ، ولأعفوا أخذ الجزية منهم حتى لا يشعروا بشىء من الذل فى أوطانهم ، وعلى عهد العباسيين الأول امتنعوا من أدائها وأغضت الحكومة عنهم . قال القرافى : « إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم ، وسد خلة فقرائهم ، وإطعام جائعهم ، وإلباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال أذى الجار منهم ، مع القدرة على الدفع ، رفقاً بهم لا خوفاً ولا تعظيماً ، وإخلاص النصح لهم فى جميع أمورهم ، ودفع

من تعرض لإيذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ،
وأن يعمل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يعمله » .

كان من مصلحة أهل الذمة أن يمتزجوا بأبناء وطنهم تحت سلطان الرابطة الوطنية ،
كما كانت مصلحتهم منذ الفتح أن يتعلموا العربية ، فاستعرب السواد الأعظم منهم ،
ونسي السريان في الشام والأنباط في العراق والأقباط في مصر لسانهم الأصلي وتعربوا
بتوالي الأجيال ، لكثرة اختلاطهم بالعرب ، واشتباك مصالحهم بمصالحهم . وفي كل
جيل كان الوطن العام وطنهم ، وسماحة الإسلام سبيل جذبهم ووئامهم . ورأى معظم
المجوس والصابئة أن يسلموا فأسلموا ، ومنهم من خدم الدولة الإسلامية خدمة صادقة
قبل إسلامهم وبعده ، وكانت الحكومات كثيراً ما تعتمد عليهم وعلى النصارى
واليهود في إدارة الملك ، وربما كانت الثقة بهم أكثر من الثقة بالعريقين في الإسلام
من العرب ، وهذا من جملة ما حبب إلى غير المسلمين الدخول في الإسلام كما وقع للقبط
في مصر ، فكان للذكي منهم ولو ظل على قبطيته صوت مسموع في سياسة مصر
وإدارتها ، على ما يفوق فيه العربي المسلم والتركي المسلم في بعض العهود .

وصاحب الشأن ينظر إلى مصلحة دولته ، ومصلحته في اصطفاء من يعتقد فيه
الغناء في خدمتها ، لا فيمن تقل الصفات المطلوبة فيه ، ويكون حبيباً إلى قلبه كل
من يخلص في خدمة الوطن مهما كانت نحلته ، والملك مصلحة لا عاطفة .

ذكر آدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع : أن من الأمور التي
نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، فكان
النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في ديار الإسلام والشكوى من تحكم أهل الذمة
في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ... وقد تقلّد ديوان جيش المسلمين رجل
نصراني مرتين خلال القرن الثالث فوجه اللوم للوزير لأنه « جعل أنصار الدين وحماة
البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره » .

* * *

خفت صوت الوطنية والقومية أجيالاً طويلة على عهد الدول الأعجمية وفى الأدوار التى استغرقت فى الفتن والاضطرابات . وربما كان لانتشار الفكرة الوطنية والقومية فى الغرب خلال القرن الماضى تأثير فى عقول الناهبين من العثمانيين ولا سيما العنصر الحاكم منهم أى الترك . ثم سرت هذه الفكرة إلى العرب باختلاط رجالهم رجال الغرب ورجال الترك أنفسهم . وبدأ انبعاث الدعوة الوطنية من مصر بغزو نابليون وادى النيل ، وكانت حملته أول عهد باحتكاك الغربى بالشرقى فى عهد ارتقاء الغربيين . ومع أن المصريين كانوا يومئذ قلائل بعددهم وعدتهم تألفوا برباط الوطنية الدينية يردون ما استطاعوا هجمات الفاتح مستندين إلى قوتهم وتدبيرهم أكثر من استنادهم إلى العثمانيين وبقايا المماليك .

أخذت الرابطة القومية تنمو وتستحكم فى مصر على نسبة انتشار المعارف وزادت شدة فى ثورة عرابى ، وكانت ثورة أثارها المصريون الأقحاح على العناصر غير العربية لاستئثارهم بالأمر وحدهم . وكانت ثورتهم الحجر الأساسى فى قيام الوطنية المصرية . وسبق المصريون سائر الشعوب العربيـة إلى إدراك معنى الوطنية والقومية لسبقهم بالأخذ من علوم الغرب واختلاطهم بأهله .

وقال بعض العارفين[1] من المصريين : ان روح الوطنية المصرية عادت إلى الحياة منذ زمن غير طويل إذ لا ترجع إلى أكثر من أربعة أو خمسة أجيال ، وكان محمد على مؤسس البيت المالك أول من تصور عصر حياة وطنية بعد أن مضت عليها قرون طويلة فى ضعف وانحطاط ، وبعد ذلك العهد المجيد لم تنم الوطنية المصرية نمواً كبيراً إلى أن تيقظت مرة أخرى فى القرن الحاضر وأخذت تقوى وتثبت ويرجع هذا التطور إلى أسباب كثيرة من بينها تأثير الشعوب الأخرى التى جاهدت جهاداً شاقاً لاكتساب

(١) سياسة النقد لمريت بطرس غالى .

حريتها فكانت قدوة لنا ومثالاً احتذيناه ، وكان لإنشاء مبدأ استقلال الأمم فى الخمسين سنة الأخيرة وزمن الحرب العظمى على الأخص أثر عظيم فى مصر شبيه بأثره فى البلاد الأخرى ، وينضم إلى هذه العوامل أن مصر كانت خاضعة للاحتلال الأجنبى فكان لها ومنه الأثر الفعال فى إنماء روح الاستقلال المصرى ، وهكذا نمت وطنيتنا وتكونت وحدتنا القومية فى جو المعركة والنضال .

كانت الدعوة إلى الوطنية والقومية تقل وتكثر فى الولايات العربية العثمانية بمقدار نشر العلم فى أرجائها ، وربما كانت فى الديار الشامية أقوى منها فى سائر الولايات كالعراق والحجاز واليمن ، لأن الشام تعلم قبل غيره ، وهو أقرب إلى عاصمة الملك العثمانى وإلى أوربا ومصر ، وكانت تشتد نغمة ترك وعرب كلما كثر عدد طلابنا الذين يأخذون العلم من مدارس الترك العالية ، وهذا ما أراد حكام المملكة من الترك أن يقضوا عليه فقتلوا فى الحرب العامة فئة من رجال الشام حاولوا نزع قطرهم من ربقة الحكم التركى ، أو إعطاءه حقوقه التى تحفظ عليه قوميته ، لما كان يخشى من فناء العرب فى غيرهم .

أتى الدور الحديث فى الأقطار العربية على النظم القديمة وأخذ الناس يسمعون نعوت جديدة ما كانت تعرف ، ويتغنون بالقومية ويتشدقون بالوطنية ، وأخذ كل عنصر من العناصر الإسلامية يدل بعصريته على ما هو الحال فى شعوب أوربا ، ولا يعلم إلا الله ما ينشأ فى المستقبل من دعوات جديدة .

ورأينا بعض دهاة السياسة يستغلون الوطنية لمنافعهم الشخصية وللصعود إلى مناصب الحكم فيعيثون بعقول العامة ويلقونهم فى مزالق تضيع بها أوقاتهم وعروضهم وكثيراً ما تودى بهم وبمصالح الوطن الحقيقية ، فإلى هؤلاء المتجرين بأرواح غيرهم وأموالهم وراحتهم كتب أحد علماء الأخلاق من الإنكليز « سمول سميلز »

صفحة بديعة وجهها إلى من يغشون الناس بادعاء الوطنية قال : ما كثير مما يقال له الوطنية إلا ضعف فى العقل ، وخرق فى الرأى وتطرف لا معنى له ، وتهور على غير حدوى ، وطنية تظهر فى التحمل والصلف والحقد ، وطنية لا تعرف العمل ، وطنية كلها تفاخر وتظاهر لا ترى فيها غير « صخب ولجب ، وضوضاء وجلبة ، وهيمات مضطربة ، وصياح وعويل ، واستغاثة يأس ، ودعاء قنوط » وطنية كل ما فيها رفع أعلام وشيد أغان ولحان ، وطنية لا يتوانى أبناؤها جهداً فى تحريك آلام سكنت وندوب صحت ، ألا إن من أشد مصائب الأمم أن تمنى بوطنية هذه حالها .
وإذا كانت هذه وطنية كاذبة فإن من الوطنية ما هو صدق ، الوطنية التى تنشط الأمة من عقالها ، وتدعو أبناءها إلى الرقى بالعمل الصالح ، الوطنية التى تدعو الأمة إلى القيام بالواجب بشهامة وكرامة ، الوطنية التى تنادى فى أهلها بالإخلاص والرزانة والاستقامة وتدعوهم إلى الانتفاع بما يعرض لهم من ضروب الإصلاح ، الوطنية التى تعلم أبناءها كيف يذكرون ما فعل العظماء من المصلحين الذين اكتسبوا عظمة لا تمحى بما عانوا من الصعاب فى سبيل الدين والحرية ، واكتسبوا أممهم حياة طيبة وحكومات صالحة كانت حقاً لهم وميراثاً اهـ » .

وبعد فليس الوطن حدوداً محددة وبروراً وبحوراً ممددة ، وجبالاً ونجوداً وسهولاً ممددة ، ليس هذه المدن والقرى ولا هذه البيوت والمصانع ولا هذه الحدائق والحقول والغابات ، الوطن أرض درجنا عليها وربينا فى حجرها وغذينا بخيراتها وألفناها وألفنا أهلها وألفونا ، وتعاطفنا وتراحمنا سواء فى ذلك قاصينا ودانينا وحاضرنا وباديتنا ، والوطنية روح وعقيدة يستسهل فى سبيلها بذل كل عزيز وتفدى بالحياة لأن بها تحفظ الحياة شريفة سعيدة .

القول في عاداتنا

من عاداتنا في اللقاء أن يبعث الرجل صاحبه في بيته، أو في محل شغله في الوقت الذي يناسب الزائر وقد لا يناسب المزور. ومن النادر أن يتلطف الطارق ويقرع الباب ويقف ريثما يسمح له بالدخول. وقد نسيت عادة الاستئذان، وكانت مستحكمة عند أجدادنا، فعدنا نقتبسها اليوم من الافرنج. ومن المؤسف ألا تكون لنا أوقات معينة للزيارات، ولقاء الإخوان والمعارف، وأن نركن إلى الفوضى في مثل هذه الأمور. وقد جعل بعض السيدات في المدن يوماً خاصاً لاستقبال صويحباتهن وذوي قرباهن، فيقلدن في هذه الدائرة رجالهن. وفي الغالب أن يحضر هذه الجلسات من الرجال والنساء من لم يسبق له أن عرف بعض من في المجلس، ولا يهتم صاحب الدار بتعريف زواره ومدعويه فيكون اجتماعهم اجتماع الموكى في الحق كما يقول العرب.

كان الرجل إذا دخل مجلساً وسعوا له فقط، فيسلم ويسلمون على عادة العرب في الجزيرة إلى اليوم. وفي الحديث: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا» وكان يندر القيام للزائر إلا إذا كان لعظيم، يقومون له مرة واحدة، وألفوا بعدهم أن يقوموا قائمين لمن كان ذا حرمة في ذاته، كلما دخل المجلس وخرج منه، يزعمون أنهم يكرمون صاحبهم بذلك، وقد يكون الرجل في بيته، وهم يحاولون إكرامه وإجلاسه في المكان الذي يتخيلون أنه رفيع، وما أرى وجهاً لإكرام الرجل في داره.

وإذا دخل المجلس صاحب شأن فى الدولة ، فالحفاوة به تزيد على الحفاوة بغيره ، وكلما كان الداخل رب جاه وغنى أو ممن يخشى شره ، وإن كان لا يرجى خيره ، يزيد الاحتفال به والاقبال عليه ، فيهب كل من فى المجلس هبة رجل واحد ، ويأخذون بيده ، ليجلسوه فى المكان الممتاز أو الذى يتوهمون هم أنه ممتاز ، وقد تكون المقاعد كلها مشتركة لا فرق بين ما كان منها عند الباب وما جعل فى صدر المجلس ، فيقف الحضور على الأقدام دقائق حتى تتم هذه العملية ، وتسمع خلال ذلك الحلف بالمولى وبغيره ، ويعملون مثل ذلك كلما استووا للدخول إلى مجلس أو الخروج منه . فإذا اجتمعوا يتعب المجتمعون حتى يرضى الداخل أن يتخذ مقعده الذى يجرى الاتفاق على أن يخصوا به رأيهم وجنسهم ، ويقتنعون بأنهم قاموا بإجلال صاحبهم ، وفى الغالب أنه لا يتم ذلك كله حتى يشدوا الداخل من يده ، أو يدفعوه فى صدره إذا أبى مطاوعتهم على ما يخصونه به من الإكرام .

وطالما ابتعدت عن الوقوع فى حكم هذه العادات القبيحة التى تؤذى القادم على المجلس ، وتعطل وقته وأوقات من اجتمع فيه . وقد لا أنجو من هذا التكريم الذى لا معنى له إلا بعد استماع من يحاول جذبى كلاماً قاسياً أدفعه به عنى ، فأجلس حيث ينتهى بى المجلس ، على ما أهوى لا على ما يهوون ، لا أستجيز أحد مقعد أحد يعده المسكين مكاناً مشرفاً له ، ولا أختار موضعاً يأتى بعد لحظة شخص أكبر منى فأضطر إلى أن أتنازل له عنه .

وكانت الطبقة الأعيان فى مجالسهم عدة من قبح ما يستجل من أنواع العادات ، سرت إليهم من العثمانيين ، وهى عملية أخرى تأتى بعد العملية المتقدمة التى كان فيها الدفع والجر والحلف ، لا تقل عن صيغة إجلاس القادم غرابة ، وهى أنهم إذا جلسوا يسودهم السكوت بضع ثوان ، وناظورة المجلس ، ومن كان فى طبقته ومقامه

يتغامرون، يرجو الواحد من صاحبه أن يبدأهم بالتحية. فيصرف المتشاكلون في السن أو المقام وقتاً حتى يتم السلام، ويتخيل كثير في نظرهم هذا التشريف، وبعض هذا الإشكال، وبعد ذلك يحق لأهل المجلس أن يسلموا على القادم الجديد وقد بطلت هذه العادة، وهي من أسخف ما ألف (١).

وتجيء بعد ذلك مشكلة أخرى وهي تقديم القهوة للحاضرين. فيأتي من يقدم الخادم أو الخادمة أنه كبيرهم ويخصه بالفنجان الأول فلا يرضى أخذه، فيمشي المناول بما يحمل من ضيف إلى ضيف، ويأبى كل من يقدم إليه تناول فنجانه، ويشير هنا بأنه يخص بهذا الشرف من هو أكرم منه، وتبدأ الأيمان والرجاءات، وقد يقوم بعضهم من مكانه ويحمل فنجاناً إلى آخر يراه لائقاً بالإكرام، وعندئذ يستقر الرأي على أن يتناول المتقدمون أقداحهم ويمتنع اللاحقون بأخذها. وذلك بعد أن يمتد الصبر وتبرد القهوة أو الشاي وغيرها.

وفي الغرب يتناول المرء ما يعرض عليه وقد يؤثرون السيدات بالتقديم، ثم يأخذ الرجال بدون تفريق بين كبير وصغير، ويرجع ذلك إلى تقدير السابق. وقد اقتبسنا عن شيوخنا عادة البداءة بالميمن، فيقدم الساقي أحداً من اليمين أي يمينه، ولو كان المتناول الأول وليداً أو وضيعاً لا يقاس إلى من في صدر المكان، وهي عادة مستحسنة توفر على الناس أوقاتهم وأعصابهم.

---

(١) يكاد يجمع أرباب الرحلات من الغرب على أن عادات الدمشقيين في السلام والطعام والاحترام غريبة في بابها تخرج عن حد المجاملات وتدخل في باب التكلفات. ومن حسن الحظ أن ضعفت هذه المصطلحات بانتشار المدنية الحديثة، ولا نزال نذكر صنفاً منها بين شيوخ من طبقات شتى كان ينظر إليها في أحسن المعاني. وقد تفشت هذه العادات في سكان الحواضر على الأكثر، ورأيت منها في عاصمة القطر المصري ما لا يقل عما يرى في عاصمة الشام، ومصر حكمت الشام والشام حكمت مصر والروح واحد في القطرين، والعادات مشتركة إلا قليلا.

ومن منكر عاداتهم إذا اجتمعوا أن يخطوا فى الأحاديث ، وقد يهمس الجار مع جاره ، ويخرجان عن أدب الاجتماع ، هذا إذا لم يتكلموا كلهم معاً بحيث يضيع الكلام ، وفى الحديث « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » ومن أسخف العادات التى سرت إليهم حديثاً أن بعض الظاهرين، أو الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر المدنيين من أهل السواحل خصوصاً يكلمونك بالعربية فيها بعض ألفاظ يلقونها من الفرنسية ، على حين ليس للمتكلم معرفة بهما من الملاحين ومثل الفنادق . فإذا جتمعت إلى مثله أزعجك برطانة ممزوجة بلغات شتى تشبه لغة مالطة ، وربما اعتذر إليك هذا المحدث أنه لا يحسن إلا الفرنسية فلا يدور لسانه بلغة العرب على ما يجب .

وقد رأيت المصريين على اختلاف طبقاتهم ممن يحسنون إحدى لغات العلم أو أكثر من لغة لا تشعر بها ولا تشعر أنهم يعرفون لغة غربية ، يخاطبونك بألفاظ عربية فقط لا يخلطونها بمفردات أعجمية ولا يتبجحون أمامك بغير لغتهم . وهذا هو الفرق بين من تمدن حقيقة ومن يحاول أن يعد من المدنيين . إن هذه الظاهرة فى المصريين والشاميين تمثل لنا ما بين المثقفين من فروق ، وتوشك لهجة بعض أهل الساحل الشامى أن تكون كلهجة أهل الجزائر لا يفهمها العربى القح لما دخل فيها من لفظ أعجمى .

ومن أشنع ما ألفوا من عادات عادة لهم يطلقونها فى الشارع ، وذلك أن أحدهم إذا صادف أحد معارفه وقد يكون هذا مع صاحب له أو مع سيدة ، ووقته يحفزه للاسراع لا يتحرج من أن يستوقفه ويسأله أسئلة عرضت لخاطره فى تلك الساعة ، ورفاقه ينتظرون الفرج لحل عقاله ليحلّ عقالهم معه ، وقد يكونون مثله ضيقاً وقتهم ، ويحاولون الوصول إلى مكتبهم مسرعين ، وربما كان إيقافه هذا لسؤاله عن الحوادث

التي تنشرها الجرائد كل يوم أو لأخذ رأيه فى مسألة سياسية تشغل البلد ، ويحتاج الجواب عليها إلى بضع دقائق أو أكثر ، أو لتوسط لمظلوم ، أو لسؤال عن عطل إلى غير ذلك من التافهات[1] .

ووهبك الله من سخفات القوم فى دعواتهم ، وفيها تتجلى درجتهم فى المدنية ، وتقرأ نفسياتهم الغريبة . فقد يدعو الرجل أحبابه ومعارفه لا رابطة تربطهم ،

---

(١) كثيراً ما كان يستوقفنى بعضهم [illegible] ، وهم يقسمون على أن أجيبهم إلى سؤالهم دقيقة واحدة فلا أحب ولا [illegible] ، [illegible] الكلام فى الموضوع لا يليق فى شارع وإن مثل هذه المسائل يبحث فيها على خلوة وفى وقت فراغ . كنت فى [illegible] لأول مرة خارجاً من [illegible] قاصداً مكتبى على قدمى ، وكان شارع [illegible] والطريق تجرى [illegible] ، [illegible] جانبه ، [illegible] محمولة على [illegible] ، [illegible] الأحمر والأصفر [illegible] ، والفلاحون [illegible] الأسواق على [illegible] ، [illegible] لا [illegible] أن أتقدم ولا أن أتأخر . وفى هذه [illegible] الخطر [illegible] من أحد [illegible] ، [illegible] أحد أقربائه [illegible] : أود أن تدلنى رأيك الأخير ، [illegible] على [illegible] ، [illegible] أن أرجع فى الإشارة [illegible] ، [illegible] الآن يتعذر ذلك ، [illegible] فى خطر من [illegible] الزحام ، [illegible] مصروف [illegible] من كلامى ، [illegible] . أنت تخرجت من مدرسة عالية ، وتوليت أموراً إدارية فى [illegible] أحسن ، [illegible] أكثر من غيرك معنى الرجوع فى المعاملة الجارية ، فما هذا التحكم ؟

وكان [illegible] أن [illegible] ، كما [illegible] إلى [illegible] أن يعطيهم [illegible] يصفها [illegible] وهو [illegible] كانت [illegible] ، [illegible] يعمل لأرباب المصالح [illegible] ، [illegible] فى الوزارة [illegible] إلى [illegible] شرطى [illegible] على قدمى ! [illegible] شرطى أكثر مما يخشون الوزير ، لأن الشرطى [illegible] عن [illegible] بالعنف أو بالعسف ، [illegible] فلا يستطيع [illegible] إلى شيء من هذا ، [illegible] أن [illegible] فى مكتبه ، [illegible] ساعات من [illegible] ، وهو وديوانه مستعدون [illegible] كل [illegible] ويلاطفون ويؤانسون .

ولا سبق لهم أن تعارفوا ، ويتفق أن يكون فى المدعوين بعض المتعادين المتخاصمين ، أو المتنافسين المتباغضين ، فتحصل سكتة فى الجلسة ، ويقطب بعضهم ، وتهيج أعصاب آخرين ، ولا يهنؤهم الطعام والشراب ، ولا يطيب سمرهم وحديثهم ، وقد يقذف بعضهم بعضاً بتعريض مؤلم ، ويسمعه ألفاظاً جارحة يتألم المقذوف فيه أو المعرض به . ويتقض صدور من لا غرض لهم فى سماع أشياء هم فى غنى عن سماعها فى مثل تلك الساعة وهى ساعة السرور والراحة ، وصاحب البيت يحار فى ارضاء ضيوفه ، ويحاول التوفيق بين المتعادين . ولهذا جرت على انه عدة الأمريكية بتعريف المدعوين شفهاً أو خطاً بمن دعى معهم وكثيراً كان بعضهم يعتذر عن إجابة دعوتى بوجود من لا تروقه حضرته بينهم ، وجرى على هذا أحد أصحابى فارتفع بعض الحرج فى الدعوات .

وفى العادة أن يأتى المدعوون بعد الموعد الذى ضربه لهم صاحب الدعوة ، وكثيراً ما يتخلف بعضهم ساعة عن الوقت المقرر ، وصاحب المائدة لا تسمح نفسه أن يقدم طعامه لمن اجتمع فيشتد بهم الجوع ، ولا يدرك الداعى أنه بإكرامه من حضر على انتظار من تخلف يحتقر من لبى الطلب فى الوقت المعين ويضيع عليهم أوقاتهم ، وقد تكون لهم مواعيد أخرى ، ولا يأذن بإطعام مدعويه إلا إذا تم الحشد كله . وربما حدثته نفسه أن يرسل ولده أو خادمه يسأل عن المتخلف ويستحثه أو يهتف له بالهاتف ، وفى الغالب أن المتخلف لا يعتذر شفهاً ولا كتابة . وعلى هذا يستلزم تناولُ وجبة من الطعام أن يصرف المدعوون ساعات .

ومن المستحيل ضبط المواعيد فى هذا الشرق القريب ، فالقوم ما عرفوا التوقيت ، وربما كان ضبط المواعيد مما يستغربونه ويصعب على عمومهم ومسألة المواعيد

مما شغل جانباً من وقتي ، وكنت آلم من الاخلال بها وقد تغلبت عليها اجمالاً ، وغرستها في صدور بعض الناشئة بصعوبات كثيرة ، وامتنت من أحاطوا بي ورأستهم — وان شق عليهم تحكمي بادئ بدء — أن يراعوا المواعيد أبداً لما في مراعاة الأوقات من الضرر لهم ولغيرهم ، وبالإخلال بالمواعيد يثبتون أنهم شعب منحط .

وتراهم إلى اليوم متى اجتمع المدعوون على الخوان يشد بعضهم بعضاً ، فيجلسون من يحاولون بجلاسه في مقام التكرمة ، ثم يجلسون الأمثل فالأمثل بحسب نظرهم أو عرفهم . وعاداتهم في تناول الطعام قد دخلها تحسين كثير ، فتراهم اليوم كالفرنجيين يجعلون أمامهم أطباقاً لكل شخص ، ومعها كأسه ومنديله وسكينه وملعقته وأدوات أكله ، يتناول كل إنسان المقدار الذي يكفيه ، يضعه في طبقه من الصحن الكبير الذي يقدمه الخادم أو غيره ، أو يكون على متن المائدة مع سائر الصحون والأطباق . وكان المدعوون كلهم قبل خمسين سنة يتناولون المرق والحساء وجميع السوائل من إناء واحد ، على نحو ما كانوا يتناولون المائعات ويشربون من إناء واحد ، وكان والدي وأنا طفل يخص كل إنسان من أسرته أو ممن يدعوهم بإناء يجعل لنا فيه حصتنا من المرق والحساء ، وبعض المدعوين يستغربون ذلك منه . وكانت سكاكينهم أصابعهم ، وملاعقهم حصتهم ، والملاعق إذا وجدت تكون من الخشب غالباً ، ولا يزال لها أثر في بيوت الفلاحين المعدمين . وإذا طعموا أو شربوا سمعت لهم قرقرة على صورة مستنكرة ، تدل على جشع ونهم . ومن عاداتهم إذا تناول أحدهم كأس ماء أن يبادره الحضور كلهم بقولهم (هنيئاً) فإذا شرب على المائدة ثلاث مرات وكان مؤاكلوه عشرة أشخاص فقط يضطر إلى أن يجيب كل واحد بمفرده (الله يهنيك).

ومن عدات العرب الجديدة التي سرت إلينا التأنى في الطعام وإجادة المضغ والبلع ، وقلما يسمع من أحدهم صوت ماضغيه عند التهامه ، أو كرع الماء أو الشراب ، أو تناول الحساء أو المرق . ومعيب أن ينفخ أحد على الشاى أو اللبن الساخن أو القهوة أو غيرها حتى تبرد ، وعليه الا ينتش أشياء من الطبق العام إلا بمعلقة خاصة بالطبق نفسه ، ويدخر ملعقته وشوكته لطبقه الخاص ، فيأخذ ما يأخذ جرعة جرعة بدون أن يسمع صوت له يكرع أو يتفرق ، ولا يمد يده زيادة عن اللزوم ، ولا يقف على قدميه لأخذ ما بعد عنه من الأطباق والأباريز والمشهيات والخبز والماء وغير ذلك ، مما يحمل على الخوان عادة ، وله أن يطلب ذلك بأدب وصوت خفت إلى مجاوره ومواكله القريب ، وهما يرى من واجبه أن يخدمه في ذلك ، ولو كان كبير السن . وإذا تعدت حدود مقعدك فمددت يدك إلى شيء بعيد عنك تمد حركتك احتقاراً لمن كان إلى جانبك .

ومن أبشع ما يأتيه بعضهم التجشؤ بصوت عال ، والتمخط بما يسمع صداه ، وأن يعيد المتمخط طى المنديل الذى ألقى فيه مخاطه أما البصق على الأرض والتمخط باليد كيف اتفق ، وادخال الأنامل في الأنف لاخراج المخاط وادخال اليد في الأذن لاستخراج أوساخها (قذى) واستخراج وسخ الأظافر (بتنظيفها) فمن أفظع العادات ، ومن أبشعها أيضاً خروج بعضهم إلى السوق بمنامته (بيجامته) ، فثوب النوم لا يجوز أن يظهر به في الشارع إنسان يحترم نفسه .

ومما يستنكر ان يضع الجالس يده على المائدة ويضغط عليها بكاتيه ، وان يؤذى جاره برجليه ويديه . ويستنكرون تشديد الداعى على أحد مدعويه ليطعموا من لون لا تميل إليه نفسه ، والزيادة من لون تخطاه وما استطابه ، أو اكرهه على أخذ قطعة

من الحلوى يعتقد أن معدته لا تحتملها ، وتضطره من الغد إلى مراجعة الطبيب . وكم تحدث أزمات فى مثل هذه الأحوال حتى ينزل المدعو على إرادة الراغب ويتناول بالإكراه ما يحب له صاحب المائدة .

ومن عاداتهم فى المآتم أن يجرى العزاء ثلاث ليال على الميت فى بعض البلدان ، فيأتى إلى دار الفقيد أصحابه ومعارفه يستقبلهم أولاده وإخوته وأبناء عمه وأهله ، ولا يجرى حديث سوى السلام ثم تداول القهوة والدخان ، على حين أن آل الفقيد أو الفقيدة هم فى حاجة ماسة إلى من يسليهم ، ويحول مجارى أفكارهم ، ويهون عليهم مصابهم ، والرجل فى هذا الباب كالنساء إلا أن النساء لا يتناولن القهوة ولا الدخان فى وسط الجمع . وهذا من أسخف ما يبدون أيضاً ، كأن المعزين يقولون بلسان الحال : ها قد جئناكم وعزيناكم ، ولو جلسوا دقيقة واحدة ، والغالب أنه لا يتجاوز مقدار الجلوس دقائق قليلة ، وإذا كان المعزى به جليل القدر بين قومه ، والمعزون به يكثرون ، والمكان مهما اتسع لا يستوعب القادمين فى ساعة واحدة ، ولذلك يعمدون فى مصر إلى الخيام ينصبونها فى الحارات يتلقون فيها المهنئين فى الأفراح والمعزين فى الأتراح .

وعند بعض الطوائف الإسلامية فى الشام تكون التعزية بالميت — ويسمونها الأجر — مصيبة على آل الفقيد لأن معارفهم يأتونهم من أماكن بعيدة فيضطرون إلى إطعامهم وإيوائهم .

هذا وصف قليل من عاداتنا ، وهو موضوع جدير بأن تكتب فيه الكتب والرسائل ، وتوضع فى بيانه الخطب والمحاضرات ، ومن حسن الحظ أن عادات الأمم التى نعموا أحقاباً فى إصلاحها ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الكمال فى الجملة ،

أخذت تسرى إلينا من حيث لا نشعر ، وتدخل علينا من طرق مختلفة . من طرق الاختلاط بالغربيين ، أو بالرحلة والسياحة والهجرة ، أو من طريق التعلم في المدارس ، ومن الاختلاف إلى الفنادق والمطاعم التي ينزلها الأجانب . وقد نسوغنا بعضها وتمثلنا بعضها لما حوت من اليسر والنفع .

ومن العادات التي نشأت مع المدنية الحديثة جلوس الرجال إلى المائدة الرسمية وملاحظة قربهم و بعدهم من الكبير صاحب الدعوة فن المصطلح الذى جرى العمل به في مآدب الملوك والأمراء والوزراء والكبراء مما يصعب تطبيقه وربما أدى بعض الخلل فيه إلى مشاكل وأخذ ورد تعد في نظر العقل من العبث . والغالب أن أمثال هذه الضيافات تنفض عن حدوث شيء في بعض الصدور وقل أن يرضى أحد بحقه ومعظم الناس لا يرون أن يتقدم أحد عليهم لاعتدادهم بأنفسهم أو لأنهم هم شيء بالنسبة إلى المختصين الذين لم تسودهم غير رتبهم ومناصبهم ، وهم يوم يتخلون عنها أناس عاديون أو أقل من ذلك . يسمون هذه العملية (البروتوكول) وإذا اشترك النساء في هذه الولائم الرسمية تتصدر المرأة بحسب رتبة زوجها ومقامه الرسمي ، وهناك مصطلحات في اللباس والأوسمة وغيرها مما يحتاج مدعيه إلى درس خاص أو إلى مراجعته في كتبه كلما دعى إلى دعوة .

في أمثال الافرنج (قل لي من تعاشر أقل لك من أنت) ثم قاسوا عليه معنى آخر فقالوا (قل لي ما تأكل أقل لك من أنت أو قل لي ما تطالب به أقل لك أنت) ونحن نقول (أرني كيف تعاشر قومك أقل لك من أنت) . لا جرم أن لكل أمة نوعاً من الآداب الاجتماعية قد تختلف عن آداب أمة أخرى ، وإن كانت المصطلحات المعقولة عامة للخلق ، ولو تباعدت أقطارهم واختلفت أصولهم وعناصرهم . كانت للعرب

عادات حسنة اقتبست بعضها الأمم الغربية ، ولما جاءنا الغربيون بهذه الحضارة الحديثة، وأصبح من اللازم اللازب أن نأخذ عنهم بعض ما ينفعنا من عاداتهم المستحبة ، سنة طبيعية في الحقيقة يأخذ المتأخر عن المتقدم والجاهل عن العالم .

يقول الافرنج: إن الظهور في كل مكان بمظهر لائق لا مطعن عليه يحتاج معرفة العادات المتبعة في الأحوال العادية وغير العادية . إن السير والجلوس والقيام والسلام ودخول المجلس والاشتراك في حديث ، كل ذلك في ظاهره من الحركات السهلة يقوم بها المرء في يسر ومعرفة ، وعلى الإنسان ألا يخرج عن حد الحركات الطبيعية . وحالة المرء بين الجماعة لا تشبه حالته في بيته ، فان الجماعة آدابًا ولها مجتمع مصطلحات من لم يراعها عده العارفون أخرق .

اصطلح الغربيون إذا التقى شخصان في الطريق وكان يعرف أحدهما الآخر ولا يريدان أن يقفا ليتكلما أن يسلم الأصغر سنًّا على المتقدم في السن ، وأن يبدأ المرؤوس رئيسه بالسلام ، وأن يتقدم الرجل فيسلم على المرأة، وإذا وقع اجتماعهما فأحبا أن يتكلما فالكبير أي الأكبر سنًا أو المرأة يجب عليهما أن يصافحا جليسهما أولا.

لا تقبل يد فتاة ولا يد سيدة في مقتبل عمرها ، وتقبل يد المتقدمة من النساء احترامًا لها . وإذا التقى رجلان على سلم لا يحيي أحدهما الآخر إذا وقع الوجه على الوجه إلا إذا كان أحدهما شيخًا . وفي تلك الحال يجب على الشاب أن يبدأ بالسلام والاحترام. وإذا التقى رجلٌ بامرأة في هذه الحالة وجب عليه أن يفسح لها الطريق ويسلم عليها ، وعلى الصبية أن تفسح المجال للطاعن في السن حتى يجتاز السلم . وواجب الرجل إذا صاحب امرأة أن يتقدمها في الصعود والنزول من السلم . ومن واجبه في دار ذات آلة مصعدة إذا لقى امرأة وإن لم يكن يعرفها أن يخرج آخر الراكبين في المصعدة ويعيد أدوات الصعود والنزول إلى حالها السابق .

ويُعرض على أهل الصنعة الواحدة ، ومن تكون لهم بحسب حرفتهم علائق مؤقتة كالقضاة والأطباء والموظفين ورجال الدين وغيرهم أن يرعى بعضهم بعضاً ، وأن يعامل كل واحد صاحبه بأعظم مايكون من الأدب . وعلى الساكنين فى دار عظيمة ذات مساكن كثيرة أن يتحاشوا كل ما يضايق الجيران ويضجرهم بدون ضرورة ، فلا يحدثون جلبة وضوضاء فى ساعة متأخرة من الليل ، ولا يأتون بحركة تسمع على غير ميعاد ولا يمتاحون الماء من بئر ويستقون من منهل فى وقت يضر الجار .

وعلى الرجل المهذب أن يحترم عادات المؤمنين فى بيوت العبادة ويحرص على القيام بها . وأن يلزم الصمت وإن كان ممن لا يشاركهم فى عقيدتهم ، ويحافظ على الشعائر الظاهرة من مثل رفع القبعات عن الرؤوس عند النصارى ، والاحتفاظ بها عند الإسرائيليين ، ونزع الأحذية من الأرجل عند المسلمين .

التزاور أنواع : فمنه زيارة المرء للشكر على هدية ، أو لمعروف أسداه إنسان لآخر ، أو لتهنئة بمنصب بلغه الصاحب ، أو لحدث سعيد وقع فى الأسرة من مثل ولادة ولد وزواج أحد . وعلى الجملة فإن الصاحب يزار للاعتراف بالواجبات التى تربط الزائر بالمزور بروابط الحب ، وعندهم نوع من الزيارة يدعونها زيارة الهضم ، وهى زيارة تجرى بعد حضور مأدبة ببضعة أيام . والمدعوة إذا لم يستجب لها المدعو كان عليه أن يزور الداعين معتذراً . وتجرى عندهم زيارات التعزية بين أقرباء المتوفى خلال ستة أسابيع تمضى على دفن الميت . وإذا كانت الصلات وشيجة مع أسرة المتوفى ، فمن العادة أن يزور المرء بيته عندما يعلم نعيه ، ومن كانت علاقاتهم كثيرة يضعون عند الأبواب سجلاً يسجلون فيه أسماء من يود أن يظهر بمظهر لطف وأدب .

وفى زيارة العروسين يقدم كل منهما زوجه إلى جميع أهله وأصحابه ، وكانت هذه الزيارات إجبارية فأصبحت اليوم اختيارية ، وتقتصر على الأدنين من ذوى القربى ، أو من يراد عقد صلات معهم من المعارف . والزيارات الرسميـة يقوم بها الموظفون فيزورون أرباب الدولة من رجال الادارة والقضاء والجيش زيارة مرؤوسين لرؤسائهم ، يزورونهم جماعات أو فرادى ، خصوصاً عند نصب الموظف الجديد أو مغادرته منصبه ، وكذلك يزار فى أول يوم من السنة . وقد بطلت زيارات العام الجديد فلا يزار إلا الشيخ من الأقرباء فى رأس السنة . ويمكن أن تتم هذه الزيارات خلال شهر كانون الثانى بأجمعه . وقد يستعاض عن هذه الزيارة بإرسال بطاقة .

وإذا كان المرء متغيباً عن داره ، أولا يحب أن يستقبل زواره يدفع الزائر بطاقته إلى الخادم الذى يفتح له الباب ، بعد أن يثنى منها الجهة اليمنى أو يثنى إحدى زواياها الأربع . وله أن يكتب عليها كلمة تأسف على عدم الاجتماع . وإذا لم يكن الزائر ممن يعرف صاحبة الدار وكانت زيارته لها أول مرة ، يخبر عن نفسه بواسطة الخادم ، أو يعرّف نفسه عند تسليمه عليها . وعلى الزائر أن يطرح فى مدخل الدار معطفه وقبعته ويأخذ بيده تفرّيه . وعلى صاحبة الدار فى تلك الحال أن تعرّف ضيوفها بعضهم إلى بعض ، تبدأ من الصغير فتقدمه للكبير ، ومن الفتى فتعرفه إلى الشيخ ، وتقدم الرجل للمرأة . وعلى الداخل أن يجلس على المقعد جلسة أدب لا كبرياء فيها ، وأن يشارك فى الحديث ، ولا يحول لفت الأنظار إليه فقط ، وعليه ألا يتوخى إطالة الزيارات بدون ضرورة . فالزيارات الرسمية قصيرة بطبيعة الحال ، وإذا كان الحشد كثيراً يستأذن من يحب الانصراف صاحبة الدار مكتفياً بالسلام على الحاضرين .

وعلى المتكلم أن يبين فى كلامه ، ويتخير العبارات التى يلقيها على المسامع ، ويبتعد عن التعابير العامية الساقطة ، ولا يعمد إلى الثرثرة والتفخيم ، فان فى حسن

الاستماع وحسن السكوت فى الوقت المناسب جمعَ فن التحدث إلى الجلاس .
والأدب يحظر على المخاطب كلامه بدون ضرورة ، وإذا ارتكب المرء ذلك فالواجب
أن يعتذر .

إذا جرى على لسان المتكلم ذكر امرأته فطلق عليها (امرأتى) أو (السيدة فلانة)
وهذا فى حالة كلامه رجلاً أقل منه مرتبة ، وتطلق المرأة على زوجها كلمة (زوجى)
أو (السيد فلان) وإذا جرى بين رجل وآخر حديث امرأته أو ذكرت المرأة رجلها
فيقال (سيدتى فلانة) أو (سيدى فلان) ولا يقال (سيدك) و (سيدك) ولا ينادى
الأشخاص بأسماء أسرهم خلال الحديث بل يقال (سيدى) (عقيلتى) (آنستى) فقط.

ترسل الدعوات الى المدعويين قبل المأدبة بشهر على الأكثر وثمانية أيام على
الأقل من الأجل المضروب لها . وتقضى العادة أن يسارع المدعو الى الإجابة بالقبول
أو الرفض ليعرف الداعى عدد المدعوين بالضبط فإذا عرض ما يمنع المدعو من إجابة
الدعوة بعد قبولها فمن الواجب ارسال كتاب بالاعتذار . ويعدّ التخلف عن القول
المقطوع بدون أسباب جوهرية خروجاً على قواعد الأدب والتهذيب .

وإذا اضطر الداعى أن يعدل عن إقامة مأدبته أو يغير تاريخها لمرض عرض
أوحزن وقع ، أو لغير ذلك من الأمور التى ما كانت فى الحسبان ، فعليه أن ينذر
جميع المدعوين عما أمكن من السرعة ببرقية أو رسالة هاتفية مبيناً لهم أسفه العظيم
لما جرى . وأول واجب على صاحب الدار وعلى من دعوا إلى دعوة رسمية أو دعوة
أصحاب خاصة أن يدققوا فى المواعيد ، فإذا طال تخلف أحدهم أو جُلّهم فمن اللائق
بمن حضروا ألا ينتظروا من تخلفوا عن الحضور أكثر من ربع ساعة . وإذا تقدم
المدعوون للجلوس الى المائدة وجب على صاحب الدار أن يأخذ بيمين أكبر الحضور

سناً أو أعظمهم مقاماً ، وتتقدم صاحبة الدار آخر الداخلين ، وقد تأبطت ذراع أكبر الحاضرين سناً ومنزلة . ولا يجلس أحد الى الخوان قبل جلوس صاحبة البيت وتكون مقاعد التكرمة المشرفة على يمين أصحاب الدار ثم على يسارهم ما أمكن ، ويجعل امرأة الى جانب رجل ، ورجل الى جانب امرأة ، وفى المآدب المتكلفة والدعوات الرسمية ، وفى البيوت التى يجرى فيها استقبال الموظفين وأرباب الألقاب والمراتب ، يكون حق التصدر والتقدم من المسائل المعقدة . ويخص أرباب البيوت الذين يدعون لحضور مائدتهم بعض رجال الدين بمقعد تكريم إن لم يكن المدعو من أبناء الأسرة أو صديقاً حميماً لها . ويتصدر الشيوخ والأهل فى المقاعد الأولى بعد المدعوين ، وذلك فى الدعوات الكبرى ، أما فى الدعوات الخاصة الأهلية فلهم مقاعد التكرمة حتماً ، ويجلس ذوو القربى حسب أعمارهم لا بحسب درجات القرابة ويشغل أولاد الدار مقاطع الكراسى الأخيرة .

وتزين سفرة الطعام بأشياء لا تربك من يجلس إليها بحيث يترك المجال للجالسين أن يرى بعضهم بعضاً وأن يتحدثوا بدون عائق . وقد بطلت الزينات المعقدة من المائدة ، ويكتفى اليوم بزنبيل أو زنابيل من الفاكهة ، وبحامات تضم زهوراً وورداً طبيعياً ، وقد يستعاض عن الأزهار بسلات أو جامات من الفاكهة .

وفى الموائد العادية يبسط غطاء على الخوان وتتخير الأوانى من الملونة الألوان الجذابة لتورث فى الدعوات الأهلية سروراً وبهجة . ويرجع تنويع ذلك الى ذوق ربة الدار . ولا يجب أن يشغل وسط المائدة ولا يلقى على متنها أشياء تزينها زينة حقيقية ، ولا يكون عليها من الأدوات إلا ما لا بد منه . ويجب أن تكون الأوانى والعصيات والجامات نظيفة براقة تلمع وتتلألأ ، وأن يجعل المدى بين مقاعد المتآكلين من ٦٠ الى ٧٠ سنتيمتراً ، ويجعل تحت السماط أو غطاء المائدة ما يمسك به ، وتجعل

الشوكة الى يسار الصحن والملعقة على اليمين ، ويدار حد السكين الى جهة الصحن ، وتصف الكاسات بحسب حجمها ، وتوضع صراحيات الماء على المائدة وحقة الملح والفلفل . ومن المتعذر تعداد جميع الأدوات الصغيرة التي اخترعت لإكمال فن الأكل .

أما الجلوس إلى المائدة فان الشخص المهذب لايجلس ملتصقاً كثيراً بها ولا بعيداً عنها ، ويكون منها على بعد مناسب ليتأتى له أن يتحرك في سهولة ، ويكون حركاته موزونة رصينة ، فيتوقى الآكل بمراعاة ذلك ما قد يحدث له من أمور يضحك منها الحضور ، كأن يقلب الشراب على غطاء المائدة ، أو يلقى الطعام أو الأواني ويلوث الثياب . وحسن جلسة المرء إلى المائدة صفة حسنة يقدرها أرباب الذوق السليم .

وليس للجالس إلى المائدة أن يستند إلى مؤخرة الكرسي ولا أن يتكىء على المائدة ، وإذا تكلم كان عليه أن يخفض صوته ، ولا يسأل ضيفاً جالساً في الناحية الأخرى من المائدة شيئاً . ويمسك الفوطة مطوية نصف طية على ركبتيه ولا يبسطها على صدره ، وعلى الآكل ألا يسرع ولا يبطىء في القضم ، وألا يخرج صوتاً بفمه أو بأصابعه ولا يحدث حركة في الأواني التي أمامه ولا يتكلم ولا يشرب إذا كان فمه ملآناً ، ولا يمسك العظام بيديه ولا يغمس خبزه في الطبق ، ولا يقطع الخبز بأصابعه ، ويتناول الملعقة بيده اليمنى ويمسكها بين الإبهام والسبابة تدعمهما الأصبع الوسطى ، ولا تملأ الملعقة بحيث يثقل حملها إلى الفم ، وإذا انتهى المدعوون من تناول الحساء توضع الملعقة بلطف في الصحن ، وتدار إلى تحت الوجه المستعمل منها ، ويقبض على الشوكة باليد اليمنى ليتناول الطعام الذي لايحتاج إلى قطع كاللحم الرخص والسمك والخضروات والبيض . أما اللحم الصلب والفاكهة اللحيمة والجبن القاسى

والحلويات السميكة فانها تستلزم استعمال السكين وهذه تمسك عليها في تلك الحال باليد اليمنى ، وباليسرى يمسك الآكل بالشوكة القطعة التي يراد قطعها . ويتناول الآكل كل لقمة عندما يقطعها حاملا لها إلى فمه باليسرى ، ويجب ألا تقطع كل القطعة دفعة واحدة ثم يشرع بأكلها .

يبدأ في الموائد الرسمية بالسيدات الجالسات على يمين صاحب الدار ، وتقدم الأطباق من يسار الشخص الجالس ويحمل الصحن أو تقدم من اليسار ، وفي المآدب العادية غير الرسمية التي جرت العادة أن تقطع فيها صاحب الدار اللحوم ويقدمها لمآكليها ، يرسل الصحون والأطباق المملوءة مبتدئاً بالشخص الجالس على يمينه .

هذا بعض ما على الرجل والمرأة أن يتحلى به من آداب المعاشرة ، اقتبسته عن أشهر من يعانون هذه المسائل في الغرب ورجائي أن يعممه بنو قومي فانه لا غنية عنه لامرئ يعيش في هذا الجيل مع أمم الشرق والغرب .

القول فى نظامنا

إذا وقفت أعينكم على شخص يتخطى فى المسجد صفوف المصلين ليقف فى الصف الأول — وإذا شهدتم رجلاً فى بيئة يتنقل من مقعد إلى مقعد ليفوز بالجلوس على الدكة التى يتخيلها لائقة به — وإذا سمعتم أن أحداً يشوش على الناس اجتماعاتهم ولا يرعاهم ولو كانوا فى أقدس قرباتهم وأجمل ساعاتهم — وإذا رأيتم تلاميذ مدرسة يعلو أبداً ضجيجهم حتى يقلق أهل الجوار ، لا يحسن معلمهم أو مديرهم ضبطهم فى الفرقة أو الفسحة — وإذا رأيتم نكمة عسكرية ومجمعاً كشفياً ولحظتم أبناءها يقعدون على هواهم يقطعون إذا تكلموا ، ويتعدون إذا اجتمعوا ، ولا يسيرون على تناسق واطراد إذا مشوا ووقفوا ، وإذا طعموا أو ناموا ، وإذا عملوا واستراحوا — وإذا صادفتم سائراً فى الطريق يحاول أن يسبق المارة يدفعهم فى ظهورهم أو فى وجوههم ، أو يضغط على أيديهم أو على شمائلهم — وآخر يسرع إلى اختراق مواضع المجتمعين على باب متجر أو مشغل أو مصرف أو ديوان أو مكتب أو مقهى ، ولا يراعى فى طلوعه إلى الترام أو القطر ونزوله منه النظام المتبع — وإذا شهدتم جماعة يجيئون فى غير وقت لا يحفلون مراعاة موعد الاجتماع — وإذا وضح عندكم أن امرأً مرتبكاً فى عمله ، مخلطاً فى حساباته . رسائله مشوشة غير مصممة ، وبضاعته مركومة كيفما اتفق ، لا يعرف دخله من خرجه ولا ربحه من خسارته . وإذا قيل لكم إن مرؤوساً لا يخضع لرئيسه فلا يحضر فى الساعة التى يعينها له للحضور والانصراف — وإذا طرتم فرداً تحدثه

نفسه أن يفتح دكانه أو محرابه أو مكتبه أو معمله فى يوم عطلة أجمع السواد الأعظم من أهل بلده على تقديسه ، ودخل الاعتقاد بذلك فى جملة مقدساتهم — وإذا حدثوكم عن إنسان لا يخضع فى عمله ولا فى أكله ولا فى منامه ولا فى نزهته لقانون ، ولا يدرك فوائد التوقيت يعمل يوماً ويبطل أياماً ، ويفكر فى أمر وقبل أن يبرمه يشرع فى آخر — وإذا نقل اليك أنه غريب بين معاصريه كيف اتفق ، ولا يهتم لوضع الملبوس والمأكول والمشروب فى موضعها — إذا رأيتم كل هذا فاحكموا على من اتصفوا بذلك أنهم أعداء النظام وعشاق الفوضى .

عرّفوا النظام بأنه مجموع قواعد مقررة أو كلمة مكتوبة من شأنها حفظ الترتيب فى جماعة أو مجلس ، والنظام ضروب يتناول شؤوناً كثيرة ، والأمة التى لا تخضع لأمور النظام كالحشد غير المنظم محكوم عليه بالتلاشى . قالوا إن النظام مرآة قدمة مورد بربح البشر يراعيها منذ العصور الواغلة فى القدم أى من العصر الحجرى ، يوم كان الناس يعيشون قبائل رحالة إلى زمن المدنيات الحديثة ، والنظام هو الأساس لدى قوم عيّنه مجتمعات وهو من الضرورى تقديسه .

ولقد بالغت القوانين فى حماية الفرد حتى لم يعد يستطيع إدراك حسنات هذه الحماية ، ولا يتمثل لعصره إلا ما فيها من قيود . وأبان شوبنهور عن رأيه فى مصير العالم إذا لم يكرهوا على حرمة القوانين فقال : كانت ندوة بحقوق الفرد إلى سلطة تعلو كثيراً عن سلطته ، وأكرهته على احترام حق الغير ، وبذلك أبطل حكم الأثرة التى عشو كثيراً فى نفوس الجماعة ، وامتنعت الشقوة ، وقضى على الوحشية ، فلا يعيد الخلائق ، ومنه تنبعث فيهم ظاهرة تسويتهم وتجديدهم ، وإذا أصاب السلطة

الحاكمة
الحاكمة للدولة شيء من الوهن ـ كما يحدث أحياناً ـ لا تلبث أن تبدو للأعين شهوات الناس التي لا تشبع ، ويتجلى تزويرهم وجبنهم وعدوهم .

يقول لبون : إن النظام يحدث ضرباً من التوازن بين الدوافع الطبيعية في الخلق الإنساني وبين الضرورات الاجتماعية ، وتظهر مكانة النظام متى عرف أن الشعوب لا تصل إلى الحضارة إلا به ، إذا فقدته تعود سيرتها الأولى من التوحش . ولقد كان من فقد النظام بين الوطنيين في أثينة أن صاروا إلى العبودية . وعندما طال احترام النظام في رومية دقت ساعة انحطاطها . ولما لم يبق إرادة غير إرادة الأباطرة المؤقتين ، يتخبطهم الجند ويخلعهم ، كتبت الغلبة للعراة من البربر على الرومان . وما هلكت غالباً الممالك المستقلة على نحو ما اضمحلت أثينة ورومية إلا بقلة من يراعون النظام فيها : فسد القضاء ، واختلت الجباية وسرى الخلل إلى كل ما فيه ترتيب اجتماعي فتفتحت للقيصر طرق الفتح .

قال لبون : وقد زاد عدد العاصين على النظام في العهد الأخير ، وضعفت كثيراً سلطة الأب والمعلم والسيد في الأسرة والمعمل ، وبطلت الطاعة والخضوع ، وكل يوم يظهر ضعف الرؤساء عن فرض إرادتهم ، وتبدو النفرة من الزواجر والنواهي ، ويعادى كل ما هو سام في ذاته ، ويغض من شمائله ومن سما بذكائه ، وفقد التضامن بين مختلف الطبقات فتناحرت وتدابرت ، واستهين بالأهداف السامية القديمة ، ولا تكبح جماح هذه الريح العاتية من الفوضى التي توشك أن تقلب المدنيات رأساً على عقب إلا طبقة الأغنياء ، وهؤلاء لن يوفقوا في مهمتهم إلا إذا ارتقت أخلاقهم إلى مستوى ذكائهم .

وبعد فمن المحال أن يسعد شعب ويرتاح ويهنأ إلا بالنظام ولن ينتظم أمر ، لجماعة تعيث الفوضى فى حياتها الخاصة والعامة . وقد يتجلى العمل بالنظام فيمن ربوا تربية جندية فيحافظون على الأوقات ، ويسيرون سير من يحب وضع الشىء فى محله، ومنهم من يجمع بقية الطعام بعد انتهاء خدمته ، لا يعبث بها كأنه أم ، كأن ما جرى عليه شطراً من عمره كان صنعاً متصلاً فدقت نفسه إلى الطور بيئة الأصلى . ومن تخرجوا من مدرسة نظامية من الطلاب هم أقرب إلى النظام من أولاد ما لقنوا هذا المعنى منذ نعومتهم . النظام ابن المدنية والمدنية ابنة النظام وكلما رجحت كفة النظام فى ميزان أمة عظمت حضارتها . وإذا كان ابن العرب أقعد فى هذه المعانى من ابن الشرق جاء العربى بالطبيعة أكثر غناء وهناء .

رأينا الفلاحين وأرباب الحرف عندنا دائبين على نظام فطرى من الصباح إلى المساء كأن هناك دافعاً يدفعهم وعاملاً يحصى عليهم الدقائق والساعات . فهم يبدءون أعمالهم فى ساعة معينة ويأكلون فى وقت يختارونه لا يتعدونه ، ويحددون أوقات راحتهم ، ولا يعملون أيام العطلة ، ولا يتركون عملا قبل اتمامه ، بل رأينا راعى الغنم أو الماعز ينبهه الكرار بكرة فيسرح بماشيته وإذا كانت الظهيرة كفت عن الرعى وتطلبت ماء ثم تقيل وصاحبها مستريح بالحبسة ، وهكذا دواليك لا تخل بذلك يوماً واحداً ، وهذا أعظم نظام .

وإذا شوهد اثنان يتشاكلان بذكائهما ورأيتم أحدهما تخطى رفيقه إلى الغنى ، وحظى بالقبول عند الناس ، فاحكموا بأنه ما فلح إلا لأنه كان على شىء من مراعاة النظام أكثر من صاحبه ، ولولا التشديد فى المحافظة على النظام ما استطاع أبو بكر أن يقضى على أهل الردة لما أزمعوا الخروج على الجماعة ، طالبين أن يعاملوا

معاملة شاذة . ولولا صلابة عمر فى الاحتفاظ بالنظام مافتح ما فتح من الأقطار ولانظم ما نظم بسياسته وإدارته . وجيوش العرب يوم اليرموك والقادسية وأثرها البالغ فى الفتح ما كان إلا نتيجة من نتائج النظام الدقيق . كانت جيوشهم يوم اليرموك ويوم القادسية بضعاً وثلاثين ألفاً فى كل معسكر ، وكانت الروم والفرس أربعة أو خمسة أضعافهم ، ولكن كان فى جيوش العرب النظام وفى جيوش أعدائهم الفوضى . نعم ما كانت العدة لجيوش العرب فى كل مكان اتجهت إليه هممهم إلا لأنها كانت قوية بنظامها . ويكم أن تحكموا على كل دولة بالقوة ما شهدتم أهلها يتفانون فى حفظ نظامهم . لا جرم أن كل من تقرأون سيرتهم من العظماء الذين تقدموا وبرزوا فى مقدرات أمتهم كمعاوية وعبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك وزياد والحجاج وموسى بن نصير وطارق بن زياد والمنصور بن أبى عامر ومحمود بن سبكتكين وعشرات أمثالهم كانوا على العناية من مراعاة النظام يجرون أحكامه على أنفسهم ثم على ذويهم ، فعملوا بالقليل المنظم ما لم يعمل مثله من كان عنده الكثير المختل .

رأس الرجال على اختلاف العهود يحرصون على نظامهم تواطئوا على استحسانه . كتب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر من كبار قواد بنى العباس : « وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فان لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين فيشغلك ذلك حتى تعرض له فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك ، وبذلك أحكمت أمور سلطانك » .

وفى الرسائل الصادرة عن عقلاء الملوك إلى عمالهم شىء من هذا القبيل ، أوردها فى معرض النصح وما هى إلا قوانين فرضوها وأوامر دعوا إلى الأخذ بها . وفى كل

أولـئكم تحبيب التوقيت ووضع خطط النظام. ولو لم يكن أكثر علماء الأمة على حظ جزيل من النظام ما خلف بعضهم مئات المجلدات ، ومنهم من لو قسمت تآليفهم على أيام عاشوها أصاب كل يوم كراس أو كراسين ، ومنهم من جمعوا بين السياسة والعلم، وأعطوا بالنظام الذى اتبعوه لـكل عمل قسطه من العناية ، وخصصوا كل ساعة لعمل فنجحوا فى الخطتين . ولقد تحدث المسعودى المؤرخ من معاوية بن أبى سفيان كيف كان يقسم أوقاته فى المطالعة وسياسة الملك .

ولما فقد النظام فى نفوس من يتقمسون للعلم تزاحمت العلوم ، وأصبح من يسمونهم بالعلماء كرهبان دير تورين يقضون حياتهم بما يحبون ويختارون ، يأكلون ويشربون متى شاءوا ، ويعملون وينامون عندما يبدو لهم ، لا يوقظهم أحد ولا يحاول إنسان أن يرغمهم على تناول طعامهم ، أو على القيام بواجب ، خلافاً لمعظم أهل الأديار التى كانت حياتها بالنظام فى الحقيقة ، ولها وقت لقيامها بما تقوم به من أعمال البر وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وتمريض العليل .

يقول مورو فى كتابه من الحياة : الواجب أن يكون للعمل نظام ، ولقد رأينا الـكثيرين يشكون من قصر الأعمار وليت شعرى ألا يعيشون كل يوم ثمانى ساعات إن ما يعمله المرء كل صباح وهو جالس إلى مقعده أو مكتبه يأتى بالعجائب . مثل لميتيث كاتب يكتب كل يوم صفحتين ألا يكون له مما يخط بعد حياة طويلة ما يوازى ما كتبه بلزاك وهو غزو سعته لا بنفسه ، ليكفى جلوس المرء إلى مكتبه بل الواجب عليه أن يتقى ما يصيبه من أذى قصديه ، وهـذا ظاهر بالنظر للكاتب واحتياجه إلى وقت يعمل فيه حتى ينسى العالم الخارجى ولا يستمع لغير ما يجول فى نفسه من أفـكار ، وفى العمل المقطع عن أوباه واعتور أبداً . وعلى العامل أن يتجهم

لمن لا خلاق لهم من أكلة وقته فانه إذا لم يصمد لمقاومتهم يسلبون منه آخر دقيقة من ساعاته. قال وكان شعر الأستاذ جيته معبراً صالحاً فى هـذا الباب وهو القائل: إن الواجب أن يُقنِع الناس عن اختـلاف بعضهم إلى بعض بدون سابق انذار، طامعين إلى المَزُور أن يُغنِّى عن نفسه. وأن هذه الزيارات لتأتى بأفـكار غريبة ليس من يزار فى حاجة إلى سماعها، ولديه من أفـكاره ما يكفيه. وكان جيته إذا طرق بابه طارق على الرغم منه لا يرى إلا اعراضاً وتجهماً فيضع يده وراءه وهو ساكت لا يتـكلم، وإذا كان من يغشاه صاحب مكانة يبدأ جيته بالسعال والتأوه، ولا يلبث أن يقطع حديثه معه. وكان يقول: آه منـكم أيها الشباب، إنـكم لا تعرفون قيمة الوقت. وقد ذهب بعضهم إلى أن فى عمـل جيته شيئاً من عدم الإنسانية، ومخالفة الإنسانية هذه ـ كما قال موروا ـ هى التى مكنت جيته من أن يكتب قصة فاوست وويلهلم ميستر. لا جرم أن من يستسلم للناس فى هذا الباب يُبتلع ويموت ولا يتم شغله، والمعرم بعمله يتباعد عن الأحاديث التافهة، ويحيد عن حضور مجالس يسمع فيهـا ثرثرات وترهات.

ولقد كان ابن الجوزى ـ وهو من المؤمنين لـكثيرين من التأليف ـ يدافع لقاء الناس جهده، فاذا غلبوه وهاجموه أوجز فى كلامه ليحملهم على الانصراف، وهو أبداً يعد أعمالاً تمنع من إطالة المحاورة فيخص ساعة الاجتماع بقطع الـكاغد وبرى الأقلام وحزم الدفاتر.

طلب أحد رجال السياسة فى الهند لأخير مقابلة أمير من أمراء العرب فأجابه إلى طلبه وبعث يقول له على سبيل النكتة: تنزل عندنا على الرحب والسعة ولا نشترط

عليك إلا شرطاً واحداً وهو أن تضع ساعتك على الجسر الفلانى فى الحدود . يريد أن يقول له إنما هنا نعش فى الفوضى اللذيذة .

وفى هـذا المعنى قال شاعر المتأخرين حافظ ابراهيم عليه الرحمة فى التأفف من النظام لما شهد تشدد الغرب فيه :

أفرط القوم فى النظام وعندى ... أن فرط النظام أسر وبير
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ... ليس فيها مسيطر أو أمير
فاذا ما سألتنى قلت عنهم ... أمة حرة وفرد أســــير
ذاك رأيى ، وهل أشرك فيه ؟ ... إنه قول شاعر لا يحير

القول في عاميتنا

قد يكون المرء في مقام المعظَّم في النفوس، ويكون ممن رفعته الدولة، ويكون وجيهاً مموّلاً معروفاً بين أهل جيله بحل المعضلات والبصر بأسرار الحياة، أو إخصائياً في علم يتوقف التبريز فيه على دراسة ومرانة، كأن يكون عالماً دينياً أو فقيهاً مدنياً أو طبيباً أو مهندساً أو مؤرخاً خطيباً كاتباً شاعراً مصوراً موسيقاراً، أو إدارياً سياسياً مالياً اقتصادياً. قد يكون المرء ممن يعنى ببعض هذه المعارف، وله الحظوة عند أرباب السلطان وفي الملأ، ويلقى الحفاوة والإجلال، وهو ينطوي على أفكار عامية، وأدنى إلى أن يسلك في طبقة العوام.

ما العلم إلا صناعة يتقنها أو فن يقص شقه من يدرسه زمناً، أما تمثل العلم حتى يدخل شغاف القلب ويختلط باللحم والدم، وتصفو به نفس صاحبه فتخرجه من سقيم الأفكار ولوثات الجهالة، فهذا هو الأمر الذي يخطئه الأكثرون؛ وإنك لتشهد الرجل يعجبك سمته، وإذا حدثته سكت، تحدث حديثاً جافياً لم يورثه التعليم بدلاً كبيراً في عقليته وخلقه، فلا نبرح نحس من مجموع حالاته أنه بعض الباعة أو العامة ولكن بكسوة غير كسوتهم.

كنت مع أحد أصدقائي ذات يوم في حفلة تكريم وكان إلى جانبنا رجل نعرفه ونعرفه لم يفتن شخصيتنا مكان الضعف في عمره. فقال لي صاحبي أنصت بالله عليك لنستمع إلى حواره مع أصحابه، فألقيت سمعي، فإذا كلامه لا يتعدى البحث

فى الأكل والشرب ، كلام العامة حذو القذة بالقذة . وكان هذا الرجل تولى أعظم عمل دينى ، وله فى الفقه باع ، ويعدونه أكبر رجال الإصلاح لهذه العصور الأخيرة . فقلت لصاحبى : عجيب أنه لم يزل على ما كان يوم أرسله أهله من مزرعته لتلقى العلم فى الأزهر ، لم تنزع منه المقامات التى وصل إليهما ما ورث عن آبائه من خلق ، وما أثر فيه ما رأى فى الحضر من آداب . وأزيد الآن أن تآليفه أيضاً كانت مشبعة بروح العامية ، وبمجادلاته مع خصومه ترشح من العامية ، ليس لها من جلال العلم كبير أمر .

قال لى شيخ تولى كبريات المناصب الدينية متمجداً : إن أباه كان من أولياء الله تعالى وأنه كان صاحب كرامات ، ومن كراماته أنه كان يطعم من طعام إنسان واحد خمسين ألف إنسان ، وهذا أيضاً على عمه الذى سلم له به أمثاله كان مفرطاً فى عاميته ، ما أدرك على ذكائه فيه أن مثل هذه الدعوى من رجل على شاكلته فى هذا العصر وفى مصر لا تصدر إلا عن رقيع لا يعرف الدين ولا الدنيا .

وسمعت شيخاً من هذا العيار الثقيل يتدغى فى مجلس ضم بعض النبهاء بعوائد الطرق الصوفية ، وما عادت به على المسلمين والإسلام من الخير ؛ ويثبت لأربابها من المزايا ما لا يعتقده فيهم من لم يقرأ حياته كتاباً ولا نظر صحيفة ، وعجبت لصدور مثل هذا الكلام من رجل كان يعد صدراً فى الشريعة ، وما كان فى الأمور الأخرى التى تُمَيّزُ الرجال إلا رجلاً تعلم العلم وما محت نفسه من تخريفات ، انتقلت إليه من بيئته وبيئته ، وعاش فى سلطانها حتى ضم قبره رفاته .

وعرفت شيخاً جلداً ألف فى الدين وأجاد فيما تمحض له ، وحاول أن يدخل فى أمور لا يحسنها ، فظهر عواره . كان من طبعه أن يسارع إلى الطعن فى كل من

يخالف رأيه ، وربما كذب عليه ليزيد فى إسقاطه ، ولا ينفك يحدثك بما نال من أعدائه وما نالوا منه ، ويذكر لك عظيم خدمته للدين والسياسة ، حتى لتمل منه مهما كنت صبوراً ، وتتمثل فيه غبطة بعض القرويين ، على كثرة من لقى فى أمدن مدن الشرق من أعيان العصر الذين تمدنوا المدنية حقاً ، وبلغوا من التهذيب مبلغاً عظيما . وقد دون فى بعض ما دون سيرة أمه الخاصة ، وصورها بصورة أكبر العالمات وما قاله : إنها كانت تعتقد فيه أنه نبى لكثرة صلاته ، أما أخوه فكان يعتقد فيه الولاية ، وكان هذا الرجل مغرماً بتلقيب نفسه بالألقاب الضخمة يمروها لأناس مجهولين ممن يراسلونه ، ولا يستنكف من أن يسب أعظم الأحياء والأموات من علماء الملة وأقطابهم ، لا يعترف لأحد بشىء منها . وقل أن ظهر رجل مغرم بمدح نفسه مثله ، اللهم إلا أن يكون ذاك الذى قال عن شخصه : إن أدبه من صنع الله وإن ثقة الجمهور بأدبه من فضل الله ، وأنه لن يرتاب أحد بأنه أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر فى هذا العصر .

وعاصرت شيخاً آخر ألف مجلدات كبيرة فى موضوعات زعم أنها من الدين ، وكان على شىء من البيان والفقه ، بقى على جمود العامة ومن فى حكمهم إلى آخر أيامه ، وما كنت تظنه إذا اقتربت منه أكثر من خطيب فى قرية ، وكنت لو خرجت معه عن موضوعه قليلا تتجسم لك عاميته الحريلة وكان يرى الجمود تديناً ، والتقرب من قلوب العامة بما يرضيهم سياسة ، والكذب على المخالف قربى ، والحط من أقدار العلماء حظوة .

ورأيت شيخين اتفق أن ضم إلى خمسة عهد إليها وضع برنامج لمدرسة دينية ، فأصرا كل الإصرار على طرح درس التاريخ من المنهاج بدعوى أن التاريخ من لغو

الحديث ، وأنه يهيئ من نظر فيه إلى الكفر والإلحاد ، وجادلا فى ذلك طويلا حتى نفد صبر المتناقشين العارفين ، وما أتيتَ فى تتبت الدروس بعد الُدنيـا والتى إلا درس تراجم الصحابة فقط . وقد وصل أحدهما إلى رتبة كبير لمفتين ، وكان فى فقهه كالببغاء يعيد ما سمع بأمانة ، والثانى شارك فى بعض علوم القدماء وحفظ فى زاول من علوم الروح ، وما لمع فى كل ما عنى من فنون ، وكنت إذا اجتمعت إليه يتراءى لك أنك تخاطب مجذوبا أبله وما نعم فى الحقيقة هو وصاحبه عما خليه أن يشتهما من زمرة جهال العلماء ، وهلـكا ولم يخلفا كتاباً ولا رسالة ، ونسى اسمهما بعد قليل .

نقل لى ثقة أن أحد رؤسـاء المحاكم كان فى جملة من أغوام بعض الدجاجلة ليحيل له النحاس ذهباً ، وأنه غرم فى ذلك مئتى دينار ذهبا ، واستغرب صاحبى انخداع رجل مثله على هذه الصورة المخزية فأجبته : إن درس القانون ، أو ما تعلمه بطول الزمن منه ، فوصل إلى ماوصل إليه من الرتبة لا ينجيه من العامية ، وحفظ مسائل وضعها أرباب العقول لا ترزق من يستظهرها عقلا إن لم يكن ذا عقل . وهذا المغرور بمخرقات صاحب الذهب كان عامياً فى أحكامه أيضاً ، عهدته يحكم فى قضية عامل سرق مال الدولة حكمَ أحط لعوامه ، برّأه وادانته ظاهرة كالشمس ، ولما أخذته على سنته اعتذر بأن إخوانه فى المحكمة رأوا هذا وأنه ما قرأ أوراق القضية والحقيقة أن إحدى الجمعيات السياسية التى جعلت شعارها (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) أرادته على بيع ضميره فباعه بيع المغبون وكثيراً ما باعه .

وجدت على أحد العارفين بالقانون عميته فزعم أنه قرأ بالجفر أن الدولة العثمانيـة ستعود إلى الديار الشامية وعين الشهر واليوم ، مدعياً أن الذى سيقوم بكبر هـذه الدولة سليم بن عبـد الحميد . وكنت كثيراً ما أقول له إن التصديق بالجفر من

الاعتقادات الباطلة ، وعلم الخمر كملم الملاحم من الشعوذات التي ما صحت يوماً من الأيام . وراهن جماعة على مائة دينار يدفعها إليهم إن لم يصدق خبره ، ليكون له من هذا العزم درس نافع كما قال ، و يتوب بعدها عن الاعتقاد بالخمر . فما حان الميعاد الذي ضربه وخسر الرهن توارى عن الأنظار .

وما خلا القضاء الشرعي والقضاء المدني من أناس عرفوا في العامية ، وكانوا في أنفسهم أعدى أعداء الحق ، يحترمون أحكام رؤسائهم ، و يعطون الحق للمبطل وينزعونه من صاحبه . وأعظم ما تشكو العمية منولاً فيمن لم تدونوا ولو قليلاً من علوم الطبيعة والرياضة والتاريخ والاجتماع ، ولا تأدبوا بأدب العصر ، ولا نفعوا بثقافة أهله ، ولا شغلوا أذهانهم في غير دائرة ضيقة ، ولا حضروا مجالس المؤرخين العارفين . وربما كان من يعتقد هذه الترهات و ينخدع بالظواهر ممن درسوا الدروس النظامية ، كما جرى في فرنسا مرة فقدم أحد المختلين وادعى أن له مخترعاً وظف فيه الأموال بشروط مغرية ، فبهرت عينيه طالب الاشتراك وجمع خمسين مليون فرنك ذهباً ، وكان معظم من خدعهم ممن يحسنون الأمور المالية من مثل موظفي الجمارك والمصارف ودواوين الجبايات والضرائب فوضعوا فيهم ثروة لا يحمل بخدعة بإنشاء مصرفه .

ويتراءى للأنظار من خلال من سكتهم عاميتهم أن أدمغتهم من الضعف لتحجر ، وضعوا في طبقة خاصة ما تعلموه بحكم حرفتهم ، وبقيت سائر الطبقات خالية لم تتأثر بشيء مما حوت الطبقة المجاورة . ولا يُحمَل ما نسمعه عن بعض المشهورين من علماء الغرب لعهدنا إلا على هذا المعنى ، فإن منهم من صعدوا في قمم المجد العلمي ولم يتحرروا من القول بألوهية البشر ، ومنهم من بلغ رتبة الإمامة في فنه وهو يعتقد باستحضار الأرواح والتنويم المغنطيسي وعجائب الورد وغير ذلك من السخافات .

لورد

استمات رجلان من المتعلمين بحب شيخ أمي وقع في نفسهما أنه من أرباب الكشف والكرامات ، متهوّسًا وهما من فئة يظن أن أربابها يسلمون من التخريف (طبيب ومحام) . فغلب بذكائه على ذكائهما ، وقوى بجهله على معرفتهما . وما كان للقانون والطب مدخل في معتقدهما ، ولا سلطان على وجدانهما . استنزلهما العامي وأعادهما إلى جهالة الأهل والجدود ، وما أفادهما درس ، ولا أغنت عنهما الشهادات والإجازات التي يحملانها . ومن الغريب أن أحد هذين المتعلمين يعتقد بالمندل ويحتفل له ويجلس فيه ، يقصد بذلك أن يرزق الفحول من زوجته !

إن علمًا لا يعود بخير ظاهر على حامله وعلى من حوله كالدينار المبهرج ظاهره براق تأخذه العين ، وما هو عند الصرف إلا زيف مصنوع . وإن فقه القانون وفقه الطب بدأ لم يعملا في توسيع المدارك ، وقال بعض من يحسبون من المدركين : « لو اعتقد أحدكم على حجر لنفعه » . فيا لخيبة الآمال في المتعلمين ، ويا بعد ما بيننا وبين الوصول إلى معارج الحكمة .

خطب أحد سراة العلماء في مضارّ الربا مرة فحمد الله على أن السلطنة العثمانية خالية من الربا ، فقلت له إن الربا يحكم به في المحاكم رسميًّا ، واستشهدت على قولي بعالم من أصحابي وأصحابه كان معنا . فقال إنكم تبغضون الدولة وتدأبون على إظهار عيوبها ، وأصرّ على رأيه بأن الربا لا أثر له في الأرض العثمانية . وتصدى مرة للرد عليّ في محاضرة ألقيتها عرضت فيها لفضل المستعربين من علماء المشرقيات على اللغة العربية فقام وأسقطهم كلهم . ولما قيل له إن المقصود الثناء على من أحيوا كتب أسلافنا قال نعم ولكنهم أعداؤنا وأعداء لغتنا وديننا . وما هذا من الوطنية ولا من الدين في شيء ، بل هو من العصبية ممزوجة بالمكابرة في المحسوس . ولا عجب في

الفقهاء عوام وفى الأدباء عوام وفى الوزراء عوام وفى الزعماء عوام وفى الصحفيين عوام وفى كل الفئات عوام .

ولقد رأينا بعض أرباب الدول يحمى الأهل والأصحاب ويعبث بقدسية الحكم الذى قيض لهم القبض على زمامه ، يستوى فى هذا الظلم المبين عالمهم وجاهلهم ، والعالم فى الغالب يأتى بمبرر ولو ضعيف لما أتى ، والجاهل لا يبالى بالمعترضين والمنكرين ، ويجهر بأن مصلحته تقتضيه ذلك ، ومصلحته فوق القانون وإرادته حُكْم ، ليس له إلا أن يأمر فيُطاع ولا يحق لأحد أن يناقشه . وهذا من العامية ، ولا شك أن نعدها بأنها أشأم عامية تزعزع بها الدول ، وتحل جامعة الشعوب .

وسمعت بعض من خدموا لا أصرح بكل ما يحبون يعطون الحق لمن سرقوا أموال الحكومة إذا أفادوا فى بعض الأعمال التى وسدت إليهم ، زاعماً أنهم عملوا المصلحة العامة وعملوا لأنفسهم ، أى يشيرون من طرف خفى أو جلى إلى أن السرقة لا شىء فيها . وما رأينا ديناً سماوياً ولا قانوناً أرضياً يجوز السرقة . وعامى أيضاً كل صاحب شأن ينفق مالاً أؤتمن عليه خرقاً فى أغراض له يتوهم تحقيقها على من يزعم أنهم يستميلون له العوام ، وينطبق بعض ذلك على العلم وعلى بيوت العلم .

وعظيم من عظماء الحكم إذا حاول أن يقرن اسمه إلى اسم من ائتمنه على سلطانه ويحاول أن يهتفوا له كما يهتفون لمولاه فحكم بأنه ما نجا من عاميته . ومن حاول وهو فى منصب يعرض فيمن تولاه أن يعدل بعدله من يرأسهم فيرقى من يرضى عنهم من ذوى قرابته وأنصار سياسته درجات كثيرة فى سنين قليلة بدون مسوغ من قانون أو عقل لا مناص من وصفه بالعامية .

اشتهر أحد كبار الصحفيين بأنه من دعاة التجدد ، وكانت جريدته مسرح أفكار المتنورين ، فوقع في نفسه مرة أن يزيد في ثروته فضارب فخسر ما يملك وانتهى به الحال أن قبل مشيخة إحدى الطرق وأخذ يجلس على مصلاه ويمنح لمريديه ألقاباً دينية يشير إلى أنه بلغ من السماء . وكان في عمله إشارة إلى أنه ما تجرد عن عاميته على طول ما عالج من مسائل الإصلاح ، ونشر من أفكار سليمة ، وعاشر من علماء ونبهاء .

ومن هذا البحر والقرية ما ادعاه أحدهم في خطاب ألقاه في حفل عظيم من أن مولانا الملك لم تخرج جزيرة العرب مثله منذ قيام محمد بن عبد الله . ومن ذلك قول أحدهم عند نعي عظيم من المعاصرين : إن الإسلام لم يصب بأعظم من هذه الرزية منذ وفاة رسول الله . وقالت جريدة متهوسة بالوطنية يوم وقع الخلاف بين الدولة العثمانية وبين الحكومة المصرية على الحدود : إن الدولة حشدت على تخوم مصر ثمانمائة ألف جندي كاملة العدة ، فلو زاد عددهم ردهم إلى السودان ، وقال إن هذا الجيش العظيم يستحيل أن تحشده الدولة في أمة غيرها في أقل من سنتين أصرت الجريدة على قولها . ولو جمع العثمانيون ومدوا على الحدود ثلثمائة جندي مُزاحي العلة لكان شيئاً عظيماً . وهذا أيضاً من العامية المروجة بدعوى الوطنية ، ولك أن تطلق عليها اسم الوطنية الجوفاء .

وحكم بالعامية المطلقة على من يطلب إلى قارئ قرآن في محطة لاسلكية في عاصمة كبيرة من عواصم الإسلام أن يأتيه بسورة ما سيتلو من الآيات حتى إذا كان فيها ما لا يروق سياسته حذفه . وعامي أيضاً ذلك الذي وضع جريدة بأسماء مئة كتاب

تثقف العقل وتسلى الفرى، وذكر القرآن من حملتهم، لكنه أوصى بمختصر منه . والجرأة على القول بمختصر القرآن كالجرأة على حذف آيات الجهاد منه فى مذهب جديد اخترعوه حتى لا يثور من يقرؤنه . ومن طووا ما لم يرقهم من كتب قدماء العرب، وأوردوا الآيات والأحاديث بدلا من قول بعضهم هم أبعد من الدمة، ومن أنكروا القسط العظيم الذى دخل فى مدنية فرنسا من المدنية العربية بدعوى أن وطنيتهم تتطلب منهم كتمان ذلك هم أبعد من الذمة . ومن طمسوا فى الرسول العربى وهم لم يعرفوه كدانتى الطليانى وهوغو الافرنسى هم أبعد من الذمة، وإن كان لهما فى أدب أمتهما مقام الذى لا يطاول كثير إليه .

وهذه السخافات لا تصدر فى الغالب عمن ربوا تربية عالية فى بيئة عاليـة . ولذلك كان بعض الحكومات الاسلامية والحكومات الحديثة يؤثر بالمناصب الرفيعة أبناء السابقة والشرف لأنهم أقرب إلى الخواص فى منازعهم ممن نشأوا من بيئة منحطة أنبتت المسلطات⁽¹⁾ منذ طفولتهم . ولقد حاولت بعض الحكومات خلق طبقة ممتازة من أنصارها فكانت تغدق عليهم فيضاً من عطفها وبرها معتقدة أنها بمعاونتها على بسط نفوذهم وإغنائهم بمشاهراتها وهباتها تخلق منهم طبقة من العلية يكون لها السلطان النافذ على السفلة . وفاتها أن المال الكثير والمراكب الفارهة والحشم والخدم لا تربى نفوساً ولا تعمر بيوتاً . المال شيء ولكنه ليس كل شيء، والجاه الموهوم غير الحرمة الحقيقية .

ومن اشتاقت نفسه لأن يرسم صورة ناتئة لهذه الطبقة العامية فليستمع أحاديثهم الخاصة يتعرّف المحل الى نفسيتهم، فهم إذا نقلوا كلاما زخرفوه بما توحى إليهم مخيلتهم يلوحون الآراء لا يعرفون الممكن من الممتنع، ويغلون فى تقدير الثروات

---

(١) كلام مسلط : مخلط .

ويخطئون في إحصاء الأرقام حتى ليخرجوا على قواعد الطبيعة ، وقد يؤكدون بالأيمان المغلظة ما يهتمون بنقله من الأخبار ، لا حد لجبنهم ولا لتعصبهم ، وحميتهم حمية الجاهلية ، إذا ناقشتهم تثور ثائرتهم لأنهم يخافون بغرورهم أن يعرضوا عبث معتقداتهم ، وهم أقرب الناس إلى تبديل مبادئهم ، يستخدمون الدين ذريعة لأغراضهم ، ويستحوذون أبداً أمة من معتقديهم من الكبراء ، ويشمخون بأنوفهم على الفقراء والضعفاء ، ولا يحترمون غير صاحب المال والسلطان ، وتعنو لهم عيونهم أبداً .

القول في اتكالنا

كان عرب الجاهلية المثل الأعلى في الاعتماد على النفس ، اشتهروا بغاراتهم ورحلاتهم لغرض التجارة ، وكانوا إذا شحت عليهم سماؤهم وأقحطت أرضهم تنبهت فيهم غريزة حفظ النوع فلا يرون غير الاعتداء على جيرانهم ، يستمدون منهم ما يسد جوعتهم .

ولما جاء الإسلام وبطل الغزو والتعادي أصبحوا يتكلون على خالقهم كما كانوا يتكلون على أنفسهم ، وعُوّضوا عن المسلوب بما أتاهم به الحدث الجديد من المغانم ، وكانوا إذا فتحوا بلداً همّوا لاستثمار غَوره ونجده ، فشادوا المدن وأحيوا الموات ، وفجروا الأنهار ، وأقاموا السدود ، وعمروا الرياض والغياض ، وبفرض العطاء — أي الرواتب — لأشرافهم ومن تبعهم ، وبتحريم الربا والبيوع الفاسدة ، وزعت الثروة فازدادوا توسعاً في معايشهم أكثر من يوم كانوا فيه ولا قوة تحميهم في السفر والحضر .

شَرْع العرب موجز وسريع التنفيذ ، وتدابيرهم معقولة مقبولة حتى في الجاهلية ، وكانوا إذا صح عزمهم على أمر فيه صلاح معادهم أو معاشهم تجلى حزمهم وجدهم ، وهذه الصفات تقوى وتضعف فيهم بحسب العصور والأمصار . ومنذ فجر الإسلام أنشأوا يبنون جوامعهم ومساجدهم بأنفسهم ، وينصبون لها الخطباء والأئمة ، ويقومون

بشؤونها لا يرزأون بيت المال شيئاً ، كانوا يعرفون عالمهم وفقيههم وداهيتهم كما عرفوا في جاهليتهم شاعرهم وخطيبهم وكاهنهم ، وما كان العرف فيهم — وعلى كل واحد زاجر من نفسه — يتصدى لما ليس له بأهل ، فلا يفتى ولا يفتى ولا يعظ ويخطب إلا إذا شهد له الثقات بالفضل حتى لا يضل به المهتدى ويزل المسترشد .

ولما نزع العرب في العصور الخالية لإدامة رباطاتهم ومدارسهم ودور مرضاهم وضيافتهم وسائر مصانعهم حبسوا عليها من الأحباس ما يقوم بها على الأيام ، طيبة نفوسهم بما بذلوا ، وإلى هذا كانوا يعوضون حكوماتهم فيما يقيم المرابطين من مؤونة وخيل وسلاح ، لعلمهم أن عزهم مناط عزة حكومتهم ، وسلامة أعراضهم وعروضهم في دفع أذى أعدائهم عن ديارهم ، وكان يندر فيهم من يحيد عن سنن العصبية ، يرون الأمانة أمراً طبيعياً ، والصدق فرض عين ، والبعد عن المأثم نبلاً ومروءة ، ولذلك خلا بعض أمصارهم في القرن الأول من السجون لندرة الجناة والمجرمين .

وقلّت ثروة العرب ، وضعفت مقومات حياتهم ، وعدا وعاظهم وحكامهم من الفريق الذي عزّ عليه تحصيل رزقه من أبواب المعاش المعروفة ، فلجأ إلى دعوى خدمة الدين يبيع بضاعته من الراعي والرعية ، وأصبح قضاتهم يصانعون في قضائهم ، ويُصادَرون كما يصادر لصوص العمال ، فزال جلال القضاء لعدم الثقة بالأمناء عليه ، وما وصف الإمام أبو يوسف في رسالته إلى الرشيد قضاة عصره إلا وصف عارف بما هنالك إذ قال : « وما أظن كثيراً من القضاة — والله أعلم — يبالي بما صنع وكيفما عمل ، ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث » ثم أخذ القضاة يتناعون مناصبهم ممن كانوا يدعون ملوكاً فيجمعون أموال السحت وهيك بها من سُبّة .

ومع أن الفردية تغلب على العربى أكثر من الجماعيـة ، كان من العرب من يشتركون فى مسائل تجارية كبرى ، ويقسمون الأرباح بينهم ، ويرضى كل واحد عما قسم له ، وقل أن يرجعوا فى اختلاف يَنْشُب بينهم إلى صاحب السلطان ، يفضُّون خلافاتهم بمعرفة أهل الرأى والتجربة منهم ، ولى اليوم نرى فى نجد مع بعدها عن العمران شركات تجارية جمعت رؤوس أموالها من الأغنياء والفقراء واشترك فيها الأقوياء والضعفاء ، على مثال شركات الغربيين ، وفيها الأمانة ماثلة كثيراً .

كانت أعمال الأفراد فى معظم العصور أكثر نجحاً وأوفر عائدة مما تتولاه الدول، ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج الى التدقيق ، وفى عمل الدولة تختفى التَّبِعات ، ويزيد الاسراف فى النفقات ، وتهون بالجزئيات وتحيدٌ بالكليات ، ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات فى الغرب والشرق من المشاريع أقل ريعاً وأكثر نفقة مما يديره الأهلون .

ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض ، تفتح للحكومات أبواب التدخل فى أمور الرعيـة ، فتستقيم بعض طبقاتهم على ما تهوى ، وتقوى بذلك سلطانها ، وتتشعب فروع أعمالها ، وتتضاءل سلطة الفرد ، ويفنى فى المجموع . وإذا قلَّ اعتماد الناس بعضهم على بعض يتكلون فى ولاتهم أمورهم ، ويطلبون إليها العناية بما ليس من واجبها معاناته ، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصىّ من أمر اليتامى جُعلوا تحت وصايته .

كلما عوَّل الناس على أنفسهم وتركوا الحكومات وشأنها اعتدوا وسعدوا ، وقد يكون غير المسلمين من سكان هذا الشرق القريب أهنأ عيشاً من الكثرة العامرة ، ومنهم من لم يتكلوا على الدولة فى كل شيء ، يرحلون ويتاجرون ويعنون ويتعلمون،

وشهدنا من مارسوا حرفهم من المحامين والأطباء والمهندسين، مستغنين عن الحكومات، أولى غنى وهناء ممن تقلدوا القضاء ومصالح الصحة والمعارف، واتكلوا على الدولة مكتفين بالرواتب المحددة. نعم كلما عظمت سلطة الدولة يفشو فى أبنائها الاتكال ويخفى الاستقلال، وتوشك أن تظهر عليها أعراض الانحلال، وإن كثر سكانها واتسعت رقعة بلدانها.

القوة للرعية فى الشعوب الانكلوسكسونية وللدولة فى الشعوب اللاتينية، وأثر التربيتين الاستقلالية والاتكالية محسوس فى أرض الفريقين وفى الأقطار التى استعمروها. قال أحد وزراء الانكليز: أنا لا أقول إن الحكومات أبداً شؤم على الشعوب، بل أقول: ويل لأمة تترك المجال لحكومة تنظر لها اليوم بعد اليوم من الطفولة إلى الشيخوخة حركة أفكارها وما ينهض بها إلى العلاء، وقالت احدى المجلات الانكليزية: مما خصّت به أرضنا من الميزات ميزة نعد فى مقدمتها، وهى أننا ندير أمورنا بأنفسنا بدون تدخل الدولة. ومن أعظم البراهين على ما يعمل الاستقلال فى الفكر والإرادة، وما ينجم عن الاتكال من انحلال وضعف، ما حدث فى تأسيس الولايات المتحدة الأميركية وكندا واوستراليا، فان جماعات من الانكليز غصبت عليهم ديارهم لشقاوتهم ومعترهم، أو عصبوا هم على الدولة لاضطهادهم فى مذهبهم، أو تعذر العيش عليهم فى مسقط رؤوسهم فنزلوا تلك الأقطار البعيدة، وما عتموا أن أسسوا معتمدين على أنفسهم ممالك عظيمة جاءت فى بعض مظاهرها أرقى من مواطنهم الأصلية.

وهذه طائفة المورمون فى الولايات المتحدة، وهى تقول بتعدد الزوجات الى مالا حد له، قد حاربتها حكومة تلك الديار فى أول ظهورها حرب إبادة فجلا بقية

السيوف من أبنائهما الى صقع قاحل ، فما هى إلا اعوام قليلة حتى عمروه فأصبح كسائر الولايات المتحدة بمدنيته وصناعاته ورحائه ، ولو كان المورمون شعباً لاتينياً أو ساميّاً لا نقرضوا لما لقوا من شدة ، أو لعاشوا عيش تَذَبْذُبْ فى انتظار نجدة من دولة ، او منحة من جمعية ، او نفحة من غنيّ جواد .

ستون الف جندى وثلاثة آلاف موظف انكليزى اخضعوا بفضل اخلاقهم لسلطان بريطانيا العظمى نحو مائة مليون من الهنود يسوسهم بذكائهم ، واستولى الاسبان على الولايات اللاتينية التى صارت بعدُ جمهوريات اميركا الجنوبية وما عهد فيها إلا الفوضى ، والسبب فى ذلك أخلاق الفاتحين . وحكمت اسبانيا جزيرة كوبا ثلاثمائة سنة فما كان فيها إلا الشقاء والظلم فلما آل حكمها الى الولايات المتحدة أصبحت فى ثلاثين سنة من أسعد الممالك .

يطلب الشرقى كل شىء من حكومته ، ولذلك يقل ابداعه ، ولا يطرد سير حياته ، ولا تنمو ثروته ، ولا تدوم نعمته . الشرقى عبء ثقيل على أبيه وأمه ، وعلى أخيه وأخته ، وعلى مورثه وأسرته ، وعلى من يعتقد فيهم القدرة من أهل حيه وبلده ودولته ، وعلى من يحبه ويعطف عليه ، وبه شىء من النقص لا تجد مثله فى صاحب التربية المستقلة ، وهذا لا ينتظر ارث أبيه ولا أمه ولا مورثه أيّاً كان ، ولا البائنة التى تأتيه بها زوجته ، ولا نصيبها من إرث أبيها ، يجمع ثروته بكده وحده ، ولايتوقع مجيئها عفواً صفواً .

روى أصحاب الاخبار أن أحد أبناء رؤساء جمهورية الولايات المتحدة شوهد غداة انتخاب والده للرياسة مبكراً إلى معمله على عادته ، فقيل له : كان عليك أن

تجعل من هذا اليوم عيداً لك ، وتنقطع عن العمل ، وقد غدا أبوك رئيس الأمة ، فقال : الرئيس أبى وأنا هنا عامل أشتغل لمستقبلى .

وهذه مصر ولا نمثل بغيرها هل تم لها الاستقلال فى التربية مقدمة لاستقلال السياسى أم هو الاتكال لا شيء غيره ؟ الحق ان التربية الاتكالية بادية فى مصر والاستقلال الشخصى كهلال الشك لا يكاد يرى . كأن التربية اللاتينية التى لقفتها مصر لأول نهضتها قد امرضتها فلم تسلم إلى اليوم من تأثيراتها على ما عولجت به من طرق حديثة فى التربية . ولو كان هناك خلق استقلالى ما شهدنا القوم يتهافتون على التوظف فى الحكومة هذا التهافت المبكى .

إن أمة يتهالك المتعلمون من بنيها ليجعلوا منهم آلات تتحرك بحركات غيرهم ، ويعيشون كالحلمة الطفيلية بامتصاص حرارة الدولة ، والأعمال الحرة رائجة كثيرة أمامهم يتركونها للنازل عليهم هى أمة محكوم عليها بأسوأ ما يحكم به على مصاب بمرض عضال ، وأى مرض أفتك فى النفوس من الاتكال الذى يقضى على فضائل جمة فى الإنسان ، ومنها عزة النفس والاقدام .

يقول الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه على هامش السياسة : « أما هذا التعليم الذى يحوّل جميع شبان البلاد إلى موظفين ، يعملون دائماً ساعات محددة فى النهار تحت إشراف رؤسائهم ، ويتناولون أجراً محدوداً يزيد فى فترات معينة بقدر معلوم ، ويمضون حياتهم على هذا النظام الميكانيكى الذى لا أثر فيه للمجهود الشخصى ، ولا يفتح باباً للمجازفة والمغامرة أو تحمل التبعات ، فهو تعليم محدود الغرض لا يفيد إلا فى تخريج العدد اللازم من الشبان لملء وظائف الحكومة ، ولكنه مضر من

جهات أخرى لأنه يفسد الغرائز الطبيعية فى جميع الشبان الذين يزيدون على هـذه الحاجة .

وأنا أعتقد أن هذا التعميم يفسد غرائز المستخدمين وغير المستخدمين من الشبان، ويقتل فيهم روح الاستقلال ، ويصبح الاتكال فيهم طبيعة ثانيـة ، وقد شهدت أذكياء أتموا دراساتهم الثانوية أو العالية ورجعت عليهم بعـد سنين وقد أحلهم الاستخدام فصاروا إلى خضوع ومسكنة ، واستولى عليهم القنوط والتشاؤم ، وأمسوا لا يفكرون إلا فى تخطى الدرجات والحصول على العلاوات .

قال لى صديق : إنه كان فى بعض العشايا فى مقهى سان استيفانو بالإسكندرية ، فجاءه الغلام الرومى يقول له : يا سيدى الدكتور اجلس هنا فانه مكان أروح لنفسك ، وأشار إلى مكان آخر لا تصل به الشمس ، فتعجب صاحبى من مبادرة غلام المقهى له مبداة من يعرفه ، فسأله وهل عرفتنى من قبل ؟ فقال له : وكيف لا أعرفك وأنت الذى خدمت مصر بما عالجته عينيك وطببتك وكنت كيت وكيت . ثم إذا أنا لم أعرفك فمن الواجب أن عرفتك ؟ أنا يا سيدى خريج مدرسة التجارة العليا فى اثينة ، وتسألنى لم امتهن هذه المهنة فأجيبك لأنى أربح منها وأنا فى أول العمر أكثر مما أربح من غيرها . ولما روى لى محدثى هـذا وهو يعجب من حال الخـادم قلت له : لا تعجب يا أخى فان القوم من أقدر الأمم على الكسب ولو أحرز أحد مواطنيك شهادة من مدرسة التجارة العليا ما كان همه إلا أن يتقلد وظيفة صغيرة فى المدرسة التى تخرج بأساتذتها ، أو أن يعين فى احدى دواوين الحكومة ، أو يقنع بشىء يتقاضاه أكثر منه من لا يحمل مثل شهادته ، أو يبقى متعطلا خاملاً حتى يهيأ له رزق هين من عمل يعتقد هو أنه شريف ، وهذا هو الفرق بين تعليمنا وتعليمهم وتربيتنا وتربيتهم،

فلا عجب والأمر على ما ذكر أن يترك الواحد منكم عشرات الألوف من الدنانير لأولاده فيمقونها في أسرع ما يمكن ، ويموت الروحى موسراً وكان فى بدء أمره فقيراً معسراً .

كثيراً ما كنت أسأل بعض الآباء عن أولادهم وما اختاروا لهم أو ما اختاروه لأنفسهم من مسالك لتحصيل رزقهم ، فكان معظمهم فى جانب الاتكاليين لا الاستقلاليين ، أى أنهم يؤثرون الأعمال الهينة المضمونة ، ولا ترتفع بهم هممهم إلى بذل النشاط اللازم أول دخولهم معترك الحياة ، ولو أنك قرأت باب الوفيات فى صحيفة يومية مصرية تذكر اسم المتوفى كما تعلم أسرة الفقيد مشفوعاً بأسماء أنسبائه وأولاده ووظائفهم لخيل إليك أن كل متعلم فى هذا القطر موظف ، وكل مشهور ليس فى ذوى قرباه إلا خدمة حكومة عامة ، وقد يزيد الرجال صفة بنين فلا يكون فيهم إلا عامل فى الحكومة أو أخ له يستعد فى المدارس ليتقدم إلى الدواوين . وأخذ البنات فى العهد الأخير يتقدمن فى هذا الشأن بالبنين ولا يسمع من شهد هذا إلا أن يأسف لما يكاد يثلم حده فى نقل عائدته ، وهو هذا تضييع على غير طائل ، فى قطر حوى جميع أسباب الراحة ، ولا يعم فيه على الأكثر إلا المستخدمون أو من خلف لهم أهلهم الأطيان والعقارات والأموال المجموعة فى المصارف ، وفيه كل شروط الغنى ولا يغتنى فيه إلا الغريب أو من يتصل بالحكومات بسبب .

ما عهدت أمة كالأمة المصرية تنفق نصف حاصلاتها على ترفيه موظفيها ، وهم يذودون عن حوزتها بكفيهم عملهم أو تحدوث ، ولو لم يكن الغرام بالتوظف تماماً عم الطبقات المستنيرة لوجهت الدولة شعبها وجهة أخرى على حين نرى أكثر ما تنصرف إليه همة من يأتون إلى الحكم تعيين أعظم عدد ممكن فى الإدارة من حزبهم ،

تخلق لهم أعمالا ترضيهم بها ، ولو كانوا غير صالحين للأشغال ويختلف نواب الأمة إلى أبواب الوزارات يشفعون فى توظيف أبناء أقاليمهم وادخال السرور على ذويهم بالعمل على ترقيتهم وترفيههم . وهل بعد هذا برهان على انتشار الاتكال فى مصر أصدق من هذا المثال ؟ ولو كان للتربية الاستقلالية السلطان الأكبر على نفوس المصريين لرأينا من تضيق بهم أسباب العيش يهاجرون إلى حد سحيق لكسب رزقهم كالشاميين والحضارمة تحوطهم الهجرة ولو إلى القطب الشمالى وخط الاستواء .

تمركزت كل قوة فى وادى النيل بالحكومة ، وربطت رعاياها برباط أضعف فيهم حرية التفكير الشخصى والعمل المستقل ، وأصبح المصرى على الأيام غريبًا فى أخلاقه ، لا يرى الشرف إلا ما جاء من طريق الحكومة ، ولا يسعد فى رأيه إلا من أسعدته الحكومة ، وعهدنا بالمدارس المصرية تخرج الألوف من الطلاب ، وما عهدنا أنه انصرف منهم إلى الأعمال الحرة إلا من لم تكف شهاداتهم للاستخدام بمرتبات معقولة ، والباقون وهم الصفوة يوسد إليهم أعمال أصيبت بالإشباع والتضخم لكثرة ما ينهال عليها من الطالبين ، فكأن المدارس فى القطر المصرى أنشئت لتخريج مستخدمين ، والراسب فى امتحانها أو من لم يتمكن من إتمام دراسته لسبب من الأسباب تسوقه الحال إلى انتحال مذهب من مذاهب العيش ، يعمل فيه متكارهًا ويكون وسطًا أو دون الوسط . ولو نزع القابضون بالأمر فى مصر أيديهم من معاونة رعاياهم فى كل شىء وتركوا الوطنى والغريب يتنافسان برأسيهما فى ميدان الأعمال ، لشهدت الدخيل يلحق بالأصيل جانبًا فيتجلى للبصير آنئذ الفرق محسوسًا بين تربية وتربية .

وليس بعجيب بعد هذا أن يصبح معظم ما تم من المشاريع الجيدة فى مصر من صنع الحكومة قام بايدى رجالها ، وكلف أضعاف ما يساوى لأنه عمل حكومى . ولو قدر أن تخلت حكومة مصر عن معونة بعض الشركات الوطنية ، لأصابها فتور فى حركتها ، ذلك لأن المشتركين ما اعتادوا أن يمشوا بدون دليل ، ولا غنية لهم عمن يهيمن عليهم من قريب أو من بعيد .

وأصدق شاهد على هذا أن تتخلى الحكومة لجمعيتين اثنتين قامت أحسن قيام بشئون الجامعة القديمة وتأسيس مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية فتثبت عجزهما واتكالهما بعد أن أنشأت المؤسسون الأول كدعوة عظيمة وفرح كل عاقل باستقلالهم المحمود .

وما أصدق ما قاله الأستاذ أحمد فتحى زغلول باشا فى مقدمة كتاب سر تقدم الإنكليز السكسونيين : « ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة فهى التى نطالبها بحفظ حياتنا ، وخصب أرضنا ، وترويج تجارتنا ، وتحسين صناعتنا ، هى التى نطلب منها أن تربى الأبناء ، وتطعم الفقراء ، وترزق العجزة ، وتمنع أسباب البطالة وتحفظ الأخلاق ، وتلم شعث العائلات ، وتجمع أشتات القلوب ، هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من إرادتنا ، وتقويم ما اعوج من سيرنا وسيرتنا ، ورد هجمات المزاحمين عنا ، والسهر على مصالح كل واحد منا ، فإذا تأخرنا فى عمل من تلك الأعمال بإهمالنا ، رميناها بسوء الإدارة واتهمناها بحب الأثرة ، وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها .

« لا ريب أن هذا الرعم قد صب السبيل ، فما الحكومة وازع لا يكلف إلا ما اقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظام ، وحفظ الأمن وإقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومساعدة مشتغليها على ما يضمن حرية التجارة ، وتشجيع أهل الصناعات والحرف ، كما تقتضيه المنافع المشتركة ؛ وعلى قدر ماتسمح به المكنات ، والجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه إلا الأمر العام ، مما يدخل تحته جميع الناس ، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه ، وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام ، وتنتهز فرصة الأمن وطمأنينة تسعى وراء منافعها ، وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها ، وفى نشر المعارف وإحياء العلوم ، وفى أداء الواجب والمحافظة على الحقوق » .

وبعد فقد نزع داء التوظف من كيان المصرى صفات صالحة كان يشترك بها أرقى الأمم فى حضارتها لو فسح له من بعجه ، وما دام أصحاب الخدمة هم من أكثر عمال الأمم رزقا ورفاهة وأنعمهم نعماً وتمعة ، فمتعلمون من أذكياء المصريين لن تكون لهم مآرب فى غير الاستخدام ، ولو فى نطاق ضيق لا يعود عليهم بكبير فائدة . ذكر الأستاذ محمد على علوبة باشا فى كتابه «مبادئ فى السياسة المصرية» أنه إذا بحثت أمر كل وزارة ومصلحة هالك لأول نظرة ما عليه الإدارة من كثرة الموظفين كثرة هائلة حتى أنك لتجد بعضهم يعترف لك اعترافاً صريحاً بأن كثرة هؤلاء الموظفين عديمة الجدوى ، وأنها فى أحايين كثيرة تعرقل العمل عرقلة مرئية ، ولطالما لوحظ من بعض الموظفين أنهم لا يؤدون إلا عملا تافها ، ويقضون أوقات عملهم فى قراءة الصحف وفى الحديث مع زملائهم أو مع زوارهم مع استمرار الشكوى من عدم ترقيتهم أو رفع علاواتهم . وبعد أن وصف المؤلف ذلك الجيش العاطل من الفراشين

والسعاة والجمود على أبواب الدواوين وأقلامها وفى طرقاتها ومنافذها ممن لا عمل لهم إلا تقديم القهوة والمرطبات وحمل بعض الأوراق من حجرة إلى أخرى قال : ولقد عمت الفوضى وساد التواكل والتكاسل من هذا النظام الذى يجب أن يزول إذ هو أثر من آثار الماضى يجب أن نتجرد من مساوئه ، ولا يمكن أن نصف مصر فى وقتنا الحاضر إلا أنها بلد الموظفين وملجأ التوظف اهـ .

القول فى أميتنا

الأمى هو الذى يكون على جبلته لا يكتب، والذى لا يكتب لا يقرأ، والذى لا يقرأ ولا يكتب أعمى جاهل. ما طردت الأمية فى العرب على قانون واحد، جاء الإسلام وليس فى الحجاز غير سبعة عشر رجلا تعلموا الكتابة من الحيرة، وليس فى اليمن من يقرأ ويكتب، فكان الرسول يدع الأسير من قريش من يحسن الكتابة يعهد إليه تعليم عشرة من أبناء المسلمين فيكون ذلك فداءه. فمشت الكتابة فى العرب وشاعت فى كل مصر فتحوه. ولم يمض قرن واحد حتى كان عدد من يقرؤون ويكتبون فى الأقطار التى رفرف عليها علم الإسلام أكثر من عدد الأميين حتى قيل إن الرجال والنساء من أهل الأندلس كانوا يكتبون ويقرؤون.

ومن طوف فى جل القرى فى ديار الشامية قديماً يشهد غرائب ممن نبغوا فيها وتعلموا وتفقهوا وقرضوا الشعر ونظروا فى الآداب. فعبد الرحيم البَيْسانى (القاضى الفاضل) لم يكن الرجل الوحيد الذى خرج من بيسان، ولا الشافعى وحده هو ابن غزة هاشم، ولا الصلاح الصفدى هو الذى أخرجته صفد، ولا جاسم فى حوران مسقط رأس أبى تمام وحده، ولا منبج مسقط رأس البحترى، ولا المعرة مسقط رأس المعرى، وكان من القرى ما هو عامر بالعلم كبعض قرى غوطة دمشق، وكان من كفرطاب — جارة المعرة فى الشمال وهى اليوم قرية داثرة — عشرات من أهل الأدب ورجال الشعر والفقه والحديث. وهكذا قل فى كثير من القرى الشامية.

ذكر ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء قصة وقعت لعالمين من علماء الشام مع فيلسوف من فلاسفة الإسلام في القرن السابع قال: حدثني نجم الدين حمزة بن عابد الصرخدي أن نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني، وقمرا ومتان قريتان من قرى صرخد، (يقال اليوم قمرا قميرة وهي قرية حقيرة، ومتان ما زالت عامرة) قال كانا قد اشتغلا بالعلوم الشرعية والحكمية وتميزا واشتهر فضلهما، وكانا قد سافرا إلى البلاد في طلب العلم، ولما جاءا إلى الموصل قصدا الشيخ كمال الدين بن يونس وهو في المدرسة يلقي الدرس، فسلما وقعدا مع الفقهاء، ولما جرت مسائل فقهية تكلما في ذلك وبحثا في الأصول، وبان فضلهما على أكثر الجماعة فأكرمهما الشيخ وأدناهما، ولما كان آخر النهار سألاه أن يريهما كتاباً كان قد تممه في الحكمة وفيه رموز فامتنع وقال: هذا كتاب لم أجد أحداً يقدر على حله وإني ضنين به. فقالا له نحن قوم غرباء وقد قصدناك ليحصل لنا النور بنظرك، والوقوف على هذا الكتاب، ونحن بائتون عندك في المدرسة، وما نريد نطالعه سوى هذه الليلة، وبالغداة يأخذه مولانا. وتلطفا له حتى أنعم لهما وأخرج الكتاب، فقعدا في بيت من بيوت المدرسة، ولم يناما أصلاً في تلك الليلة، بل كل واحد منهما يملي على الآخر وهو يكتب، حتى فرغا من كتابته وقابلاه، ثم كررا النظر فيه مرات ولم يتبين لهما حله إلى آخر وقت، وقد طلع النهار فظهر لهما حل شيء منه من آخره واتضح أولاً فأولاً حتى انحل لهما الرمز وعرفاه، فحملا الكتاب إلى الشيخ وهو في الدرس فجلسا، وقالا: يا مولانا ما طلبنا إلا كتابك الكبير الذي فيه اللغز الذي يعسر حله، وأما هذا الكتاب فنحن نعرف معانيه من زمن، واللغز الذي فيه علمه عندنا قديم، وإن شئت أوردناه، فقال: قولا حتى أسمع.

فتقدم النجم القمراوى ومعه الآخر وأوردا جميع معانيه من أول الكتاب إلى آخره، وذكرا حل الأمر بعبارة حسنة فصيحة فعجب منهما، وقال من أين تكونان؟ قالا: من الشام. قال: من أى موضع منه؟ قالا من حوران، فقال: لا شك أن أحدكما النجم القمراوى والآخر الشرف المتنى، قالا: نعم، فقام لهما الشيخ، وأصعدهما عنده، وأكرمهما غاية الإكرام، واشتغلا عليه مدة ثم سافرا.

تدل هذه القصة على أشياء: منها انتشار العلم حتى فى القرى الواقعة فى أقصى العمران، وما بحوران اليوم عدد من يقرأون ويكتبون من أهل قيرة ومتان يتجاوز العشرات فضلاً عن أن يكون فيهما مثل النجم القمراوى والشرف المتنى، واستدللنا أيضاً على كثرة غرام العلماء بالعلم قديماً، وشدة التنقل فى الأرجاء لطلبه، وأن ابن الموصلى العظيم لم يكن على جهل بمن نبغ من الرجال فى أرض نائية عن أرضه، وأن قيرة ومتان لا تخرجان رجلين من ذلك العيار فى العلماء حتى يكون فيهما عشرات من المحدثين والفقهاء والأدباء والسمعة المشتركين.

كان أجدادنا يكافحون الأمية من طرق كثيرة. كانوا يكافحونها فى الجوامع والمساجد وفى مدارس الفقه والحديث ودور القرآن والرباطات وفى الكتاتيب حتى لا يكاد يبنى جامع إلا ويشد على بابه كتّاب لتعليم اليتامى وغيرهم من أطفال الأمة، وكانت معسكرات الجند المجتمعة فى معاركها والمرابطة فى الثغور والعواصم أشبه بمدارس لتعليم الأميين. ومن نظر فى تراجم المحدثين يسقط على أسماء كثيرة من المحدثات مما يستدل به على عدد المعلمات والمتعلمين. وكان يعدّ تعلم البسائط من الكتابة والقراءة من الضرورات فى العبادات لتصح الصلاة، والأمى لا يحسن تلاوة القرآن على وجه صحيح.

نعم لا تستوى حضارة فى بلد لا يتعلم سكان القرى والمدن من أهله ما يلزمهم من المعارف العامة ، ولو تعلم أهل المدن دون أهل القرى ضروب التعليم وانمحت الأمية من بينهم لما استقام لهم وحدهم أمر ، ولا تذوقوا السعادة . ومن هذا القرن المتمدن لا يعيش الى جنب فلاح أو بدوى ، يمكن أن يقولوا انه لم يتبدل فيه شىء من أقدم عصور التاريخ . ولا أمل بتبديله بغير التعليم الأولى أو الابتدائى .

فمن الممكن أن تكون الطبقات الثلاث : العليا والوسطى والسفلى متداخلة متكافئة لا تنحط واحدة منها ، إلا كان فى ذلك الضعف على المجموع . فالتعليم الأولى مفروض على كل الطبقات ، ويكتفى الزراع والعمال والصناع به ، وحاجة الطبقة الوسطى إلى التعليم الثانوى ، وأهل الطبقات العليا يتمتعون بأنواع التعليم على اختلاف درجاته .

الأمية علة انحطاط أمة ، ولهذا الذى يجب على كل عاقل أن يسعى إلى مداواة أهله وقبيله منه ، والتعليم الابتدائى أساس النهضة ، ولا بناء بدون أساس . وأشد ما يعوز الأقطار العربية أن يفكر المفكرون فى غير العارفين ، وأن يدرك كبيرنا وصغيرنا أن الواجب علينا أن نخرج الناس من الظلمات إلى النور وكما نفهم المعتقد الدينية يجب أن نفهم أن التعليم هو المنقذ ولا مناص من الأخذ بقدر عظيم منه حتى نبرأ من أمراضنا . والجاهل فى ذمة العالم ، ومن لا يفهم حصة من يفهم ، ومحال أن يعرف الأمى الأعمى ما يصلحه ، فوجب على البصير أن يأخذ بيده ويدله على الطريق السوى .

* * *

وبعد فهذا كان من أثر النهضة فى الممالك العربية وكان يرجى بعقبها بعد جهود

سنين أن تزول الأمية من العرب ؟ كانت النتائج ضئيلة بالقياس إلى المقدمات .
كان أن جملة الملمين بالقراءة والكتابة من المصريين لا تتجاوز مليوناً ونصف مليون منهم
نحو ستمائة ألف أنثى ويتجاوز عدد الأميين اثنى عشر مليوناً مقسمة بين الجنسين
عدا الأطفال الذين ما يزالون دون الخامسة . والحقيقة أن عدد الأميين أكثر مما جاء
فى الاحصاء لأن سكان مصر عشرون مليوناً منهم مليون ونصف من العرب
الساكنين .

وأيّاً كان فهذا الاحصاء مؤلم لأن مصر ما برحت منذ قرن ونصف قرن تسعى
إلى التعلم بتخبط الطرق، وبعد هذا الزمن الطويل بقى فيها التعليم الابتدائى الذى هو
بمثابة الخبز من الغداء على حالة غير مرضية . مصر التى أقبلت على التعلم قبل غيرها
وهى اليوم تنفق على جميع مراتب التعليم نحو عشرة ملايين جنيه فى السنة عدا ماينفقه
الأفراد والجمعيات الخيرية والطائفية والتبشيرية ما تزال فيها معدل الأميين عظيماً بالقياس
إلى أحط أمة من أمم الغرب . مصر وهى فى طليعة العرب بعلمها وغناها وعظمها وعظمتها،
والتعليم فيها ما ترون أفلا تغتفر الأعذار للأقطار الأخرى على قصورها خصوصاً
الولايات التى كانت فى حوزة الدولة العثمانية كالعراق والشام وبين النهرين وجزيرة
العرب وطرابلس وبرقة ؟ وما كان تعليم الرعايا فيها مما ترضى عنه تلك الدولة وما كان
الناس يومئذ على بينة من هذا التقصير ولا فى سعة تمكنهم من مداواة مرض الجهل
ورفع هذا العار . ولا يتجاوز عمر نهضتهم الأخيرة خمساً وثلاثين سنة .

ما أدرى أن كانت مصر لم تهتد إلى طريقة حقيقية للقضاء على الأمية أو أنها
تتعمد غض النظر عن انهاض التعليم الأولى ليبقى التعليم ارستقراطياً مقصوراً على
الموسرين ، ويظل الفلاح فلاحاً لا يستهويه نزول المدن إذا هو ذاق من العلم ما يخرجه

عن الأمية ، ومصر على ما يظهر من القديم كانت ولم يبرح يعم أفراد بخيراتها ينعمون ويترفهون والكثرة العامرة لا تستطيع أن تنعم ولا أن تتعلم . مشكلة صعبة الحل نتركها لنظر من هم أعرف بها منا من المصريين ، ذلك أن مسألة التعليم عندهم معقدة ما دام أرباب القوة لا يروقهم إلا إبقاء الشعب على أميته ، وأرباب الإصلاح يتذرعون بإخراجه من حالته مهما كان الأمر .

والأمية شائعة في ريف الشام والعراق ووادي الحجر شيوعاً مستقرا . وقد أخذت تخف في المدن، وعدد من يقرأون ويكتبون في هذه المملكة يختلف في اتصل بما من عشرة إلى خمسة عشر في المئة . وما برحت الأمية في البيئات الإسلامية أكثر ذيوعاً منها في سائر البيئات . ومرة أوضح ان التعليم الابتدائي لم ينتشر الانتشار المطلوب بين الاسماعيليين والعلويين والدروز والشيعة والإباضية والزيدية وأهل السنة كما انتشر بين طوائف النصرانية . وتعليل هذا أن طوائف المسلمين اعتمدت على دولتها فكانت هذه إن لم تحل دون تعليمهم لا تنشطه ، أما سائر المواطنين فأخذوا عن كل من حمل إليهم قبساً من نور أية لغة وأي مذهب، وكان من أثر ذلك أن كثر فيمن تلقفوه التجار والصناع وتكاثر في الفريق الآخر الموظفون . كانت السمعة في الأولين لاستقلالهم في معاشهم والضيق في الآخرين من أهل الفريق الآخر .

وليست الأمية في شمالي إفريقية أقل انتشاراً من غيرها من الأقطار العربية ، وحال تونس أحسن من حال سائر تلك الأصقاع في هذا المعنى ويليها ريف مراكش فإن عدد المتعلمين فيه التعليم الأولي والابتدائي لا بأس به وهو يزيد كلما ازدادت العناية بتعليم أبناء ذاك القطر التعليم الثانوي والعالي أما سائر بلاد مراكش فالأميون بها

لا يقلون عن تسعين فى المئة مثل الجزائر والتعليم فى الجزائر افرنسى محض والكتاتيب التى يسمونها القرآنية قليلة ولا يعلم إلا الله متى يخرج سكان الجزائر من الأمية ، وحال طرابلس وبرقة فى هذا الشأن أدهى وأمر . وليس فى الشعوب العربية شعب واحد تجاوز عدد المتعلمين فيه أكثر من عشرين فى المئة من حيث المجموع ما عدا نجدا واليمن .

ولعل الطريقة العملية المعجلة للقضاء على الأمية أن تعمد الأقطار كلها إلى الطريقة التى عمدت إليها مصر والشام فى مكافحة الأمية فإن الشاب أو الكهل بفضل الأساليب الجديدة يخرج من الأمية فى أربعة أو خمسة أشهر يتعلم خلالها القراءة والكتابة وأعمال الحساب الأربعة وما ينبغى لممارسة أركان الإسلام ويقتبس بعض معلومات خفيفة .

وجرت اليمن ونجد على طريقة سهلة فى إخراج القوم من الأمية وذلك بتعليم الأطفال الكتابة فى اللوح مع القراءة فيقرأ الولد آية من الكتاب العزيز ثم يكتبها فترسخ فى ذهنه ويتعلم رسم حروفه : أى يتعلم الإملاء ويقف عند هذا الحد لا يتعداه ولو نظمت هذه الطريقة بنظام العصر لأتت بفوائد كثيرة .

ومعدل من يقرأون ويكتبون فى هذين القطرين كثير بالنسبة لمصر ، ولكن العبرة بالطراز الجيد لا بالعدد الكثير . وقد جرت مصر فى العهد الأخير على طريقة وضعت لإنكلترة فى تعليم الأميين والأميات وذلك بأن ترسم لهم الحروف الأبجدية على اللوح (السبورة) ثم يطلب منهم رسمها بالطين ويعلمونهم دروساً فى اللغة العربية وفى الحساب والصحة والدين .

على الحكومات أن تبذل جهوداً أكثرمما بذلت لمقاتلة الأمية ، وعلى الجمعيات الخيرية أن لاتنى أيضاً في تمحصت له من تعليم العامة ، ولا ينجى الدول من التبعة أن يزعم لها الزاعمون أنها قامت بواجبها ونشرت التعليم بقدر ما ساعدتها موازنتها كما لا يخلص الأهلون من المسؤولية إذا لم يعاونوا معاونة فعلية في انتشال الجاهلين من جهالتهم .

وإن لنا في سيرة الشعوب الأوربيـة الصغرى التي استقلت في القرن الماضي كرومانيا وبلغاريا وصربيا واليونان أعظم عبرة فقد حاربت الأمية قبل أن تنشيء المدارس العالية وبذلت من الجهد ما كان معه أن تقدم المقدنيون أكثر من الشعوب العربيـة تقدماً بيناً هذا مع عراقة العرب في الثقافة ورسوخهم في المعارف والعلوم قروناً كثيرة . أما الشعوب الأوربية التي حاولت أن تنشيء مجدها من طريق المدرسة كالشعب الهولاندي والفلاندي والمجرى وغيرهم فإن ما عملته لنشر التعليم في بيئتها مما يفاخر به كل عاقل .

لما جرى تقسيم مملكة بولونيا بين ألمانيا والنمسا وروسيا أواخر القرن الثامن عشر حكم القسم الروسي حكماً من شأنه أن ينسى أهله لسانهم لأن روسيا القيصرية حظرت على البولونيين أن يتكلموا بلغتهم فضــلاً عن أن يتعلموها . أتعرفون ماذا بعد ذلك ؟ كان من النساء البولونيات أن كن يأخذن أولادهن إلى الغابات يلقنهم لغة آبائهم ودام ذلك سنين حتى ظنت الحكومة أنها حققت ما تريد . ولما تحرر البولونيون في القسم الروسي أوائل القرن العشرين هموا لتأسيس مدارس وأنشأوا في شهر واحد أربعة آلاف مدرسة تامة بمعلميها ومعلماتها وهذا درس يجب أن نعده في حب القومية الصحيحة . يتوقع الشرقي كل شيء من حكومته ولا تحدثه نفسه أن

يكون هو شيئاً وأن يقوم بواجبه على ما يجب عليه . والحكومات فى الحقيقة لاتقدر كل شيء حقه وهناك واجبات كثيرة هى من شأن الأمة .

حرّت أُمية الشعوب العربية فى قبلي محاربتها بالقلم و بسان خمسين عاماً ونوعت الأساليب بدعوة لمعلم الابتدائى وكنت فى وزارة المعارف أحاول أن أمحوه بقسط عظيم من مواردها . ولو كان لى من الأمر شيء لقضيت على كل بلد أن يكون التجنيد فيه اجبارياً لأُعلم لأميين من المجندين ، والى ذلك أحكم على كل من يحمل شهادة ثانوية أوعالية أن يخدم سنتين فى المدن أو القرى براتب خفيف يجبى من الأهلين أو يعلم مئة تلميذ وتلميذة ولا أتركه يمارس مهنته إلا إذا خدم أمته هذه الخدمة . وهناك رأى متطرف لمكافحة الأمية وهو أن توقف دروس الجامعات والتحضيريات وتصرف العناية بدور المعلمين والمعلمات عشر سنين تمحض خلالها الأساتذة والتلامذة لتعليم الأميين والأميات و بذلك يأخذ الفقراء والأغنياء وسكان القرى وسكان المدن حقهم من التعليم وتصبح الأمة ذات تربية « مثالية » كما يقولون ، وتدخل الأقطار فى طور مدنية حقيقية .

—

القول فى تبدل أوضاعنا

كان من أنواع الانقلابات السياسية والاجتماعية والصناعية فى القرن التاسع عشر أثر كبير فى تبدل حالة أهله قد لا يتأتى وقوع مثله فى عصور طويلة. تبدلت الأنظمة وقوانين الحكم، وتبدلت بتبدلها عقلية الشعوب ومطالب حياتهم، واستمتعوا بحرياتهم ومنها حرية القول وحرية الاجتماع، فجسر الصغير على الكبار، وارتفع الوهم وزال الوقار الذى كان يحيط الطبقات العالية، وطالبت الطبقات النازلة بحقوقها وطالما خضعت للحكومات وأرباب الثروة خضوعاً أعمى. وكان تناول أعمال الكبير بالنقد والتجريح مما ينافى الأدب، ويحسب خروجاً على الطاعة وقانون الجماعة، فسلب هذا الكبير بعض ما كان له من امتياز، وعد فى الجملة لا اعتبار له إلا بقدر ما يملك ولا قيمة له إلا ما يحسن.

نشأ معظم ما حدث من التبدل فى الأوضاع والطبائع من انتشار المعارف وسهولة التعلم، فتهيأت للفقراء أسباب التثقيف، وكان ذلك من قبل خاصاً بالمياسير والأعيان فشارك الوضيع الرفيع والفقير الغنى فى نعمة الانتفاع بالأفكار، وبطل احتكار العلم وكان فى الدهر السالف وقفاً على طبقة خاصة، وكشفت المصونات، نعرف ابن الكوخ الحقير ما يعرفه ابن صاحب القصر الكبير، وتبدلت أحاديث الناس فى مجالسهم، وكانوا إلى عهد قريب لا حديث لهم إلا الكلام فى الأطعمة والأشربة والشهوات، والمستنير منهم يشغل جانباً من وقته فى اقتناص المنامات والخيالات، ويعد من كمال

الإيمان أن يفكر فى الآخرة أكثر مما يفكر فى الدنيا . أما اليوم فإن الطبقات النازلة قد تبحث فى المسائل العامة ، وتقلب أحياناً وجوه الرأى فى حكومتها وحالتها ، وقد تخوض فى السياسة وتعرض للاقتصاديات ، ولكل ما كان لها به اتصال مباشرة .

كان الناس فى القرن الماضى أقرب إلى سلامة الفطرة وسلامة الطوية ، وإلى هدى الدين وتعاليم الحكمة ، وبهجوم المدنية فجأة بما تحمل من الشهوات ما يفتن ويغرى ، ومن المعارف ما وسعت العقول ، تزعزعت المعتقدات وتطورت العادات ، واشتدت شكيمة الأثرة ، وكان الناس أقرب إلى الإيثار ، ويرون من واجبهم أن يعطفوا على المعوز والمحروم ، ويجاملوا الجار والعشير ، وكانت روابطهم مستحكمة ، ومن يبذل للمحتاج يَعُدُّ بذله فرضاً عليه .

كثرت الثروة بما أبدع الغرب من ضروب الصناعات ، وفتح البخار والكهرباء منافذ الطرق لرواجها ، فزادت علائق ابن الشرق بابن الغرب وابن الجنوب بابن الشمال ، وامتزجت الأمم امتزاجاً ما كان لها عهد بمثله ، ونَعِمَ ابن الشرق بمصنوعات ابن الغرب ، وتوسع ابن الغرب بمحصولات ابن الشرق ، وقام كل شىء على أساس المادة وتبادل المنافع .

كان الفرد يشتغل لنفسه ، ويتجشم بحيلته ومهارته ، ويحتمل وحده تبعة جهاده ، فشعر بالحاجة إلى التعاون مع غيره ، لتشعب الأعمال وتشابكها ، وعجز الأفراد عن الوفاء ببعضها ، فتألفت الشركات التجارية والصناعية والزراعية تفنى الفرد فى المجموع ، وتجعل الكلمة العليا للجماعة ، فنشأت من ذلك المذاهب الاشتراكية والشيوعية .

كانت النفقات محدودة معينة ، يظن كل من يَطْعَمُ طعاماً عادياً ، ويلبس لباساً

خشناً ، ويملك كوخاً ضيقاً ، به حاز السعادة ، فلما أقبلت المدنية الجديدة كثرت المطالب ، فاستلزمت الحياة الجديدة بالضرورة كدحاً متواصلا وجهداً مضنياً . وكان التاجر إذا عمل ساعات قليلة يربح ما يكفيه أياماً ، فصار يصل الليل بالنهار ليكسب عيشه ، وغدا أقل إهمال منه في عمله يطرحه إلى الحضيض خائباً فيمس ولا يجد من يرحمه .

اقتضت الحياة العصرية نفقات باهظة على الطعام والشراب ، ونفقات على البيوت وفرشها ، وعلى الكسوة والأزياء والمظاهر الخارجية ، ونفقات على الرفاهية والراحة كالنزهات والرحلات والاصطياف . كانت المرأة تعيش بثوب واحد طول السنة ، وملاءتها وإزارها وجواربها وحذاؤها رخيصة بسيطة متينة تلبسها سنين ، فأمست تحتاج إلى عدة أثواب وإلى ألوان من الأزياء ، وقد تنفق في حذائها وجواربها من المال ما كان يكفي أمها أو جدتها ، لملبسها صيفاً وشتاء . وكان الرجل يلبس قباء ، وعليه معطف أو عباءة أو فروة أو جبة أو برنس تجزئه السنين فلزمته شعب من الثياب تشبه ما تشمل عند المرأة من ذوات الزينة كالمساحيق والأصباغ والعطرية والخف والمتف والحكى والى مما شارك فيه النساء كثير من الشبان ، وكان الفتيان يطلقون لحاهم في ميعة الفتوة ويعدون حلق الجمة واللحية من المثلة .

وما كان غير الموسرين من أهل القرية أو الحي يتمتعون بلبس الجوخ والحرير ، وقد يستعير الفقراء الجبة من الغني منهم ليلبسها العروس يوم زواجه ، كما يستعير النساء البذلة الطريفة من السيدة الغنية لتكسى بها الفتاة ليلة زفافها . يجملون العروسين بطرائف غيرهما سعة ، ويعلق على الفقيرات في عرسهن من حلى الغنيات ومجوهراتهن ، وما كان حلى المتوسطات والفقيرات يتجاوز الفضة والنحاس والخرز والودع .

ويطول بنا عص القول إذا أردنا تعداد ما زاد من الأصناف للظهور والزينة والمذخ داخل البيوت وخرجه ، حتى ارتفعت النفقات الكمالية ، وأربت على النفقات الضرورية . ولقد تقتطع المرأة والرجل من طعامهما وطعام أولادهما جانباً ، ويتغذون بما اتفق ، ولا يحول الأبوان عن الظهور بالمظهر الذي يعتقدان أنه يليق بهما أمام أهلهما وجيرانهما ومعارفهما . والفقير يحاول في كل حال أن يسير بخطى لا تتفق وقوته المادية ، والمتوسط أبداً على تقليد الغنى ، وكل طبقة تمشي على أثر طبقة أعلى منها من حيث تريد ولا تريد ، يتشبهون في أمور ما كان للأجداد مثلها ، وما كانت مما يعرفونه .

وبديهي أن أدنين الخيرة كانت موجزة ، والبساطة الأصل في العيش ، وكان من البساطة اقتصاد ، ومن الاقتصاد ادخار وغنى . فتضاعفت الأكلاف ، والموارد على نسبتها إن لم تنقص لم تزد ، ودعت حالة العصر إلى الإنفاق على أشياء ما كانت تخطر لأجدادنا ببال .

أولع الناس بالسرعة في كل شيء ، فبعد أن كان الحاج يصرف أكثر من سنة في ذهابه وإيابه براً من العرب الأقصى إلى الأرض المباركة ، أصبح يصرف شهرين ، وهو لا يرضيه ما اختصر له من الأبعاد ، يود لو يحج بالطيارة في ساعات . وكان الرحل يقطع المسافة من بغداد إلى القاهرة في نحو شهرين ، ويغتبط إذا حملته خيل البريد ، فتيسر له اختصار ثلثي المدة التي تلزم القوافل ، والآن يقطع السائح المسافة نفسها في الطيارة في ست ساعات ، وربما استطال هذا الوقت القصير بعضً وود لو يكون ثلاث ساعات فقط .

وكأن الناس فى أيامنا نسوا ، وهم يجتازون البحر المتوسط من شرقه إلى غربه فى بضعة أيام على السفن البخارية ، أن أجدادهم كانوا يقطعون هذا الحوض فى أشهر على السفن الشراعية ، ثم إن سفنهم ما كانت تبحر إلا فى موسم الصيف . أما قطع الصحارى فمعوذ ان هــذا القرن من تصورها ، فضلا عن المغامرة فى اجتيازها ، وكان أقل ما يلزم لاجتيازها الشهران والثلاثة ، وصحراء إفريقيــة الــكبرى وصحارى بلاد العرب والجزيرة وخراسان والجبــال ، متعبة معطشة مهلــكة ، والطرق أتعبت الإنسان والحيوان ، وقد هلك فيهــا من أجناس الخلق مئات الألوف ، واليوم تجتاز الصحراوات من طرف إلى آخر فى يوم أو بعض يوم على متون السيارات والدراجات.

كان الفلاح يوافى الحواضر على بغله أو حماره أو فرسه أو جمله ، فغدا اليوم لا تطيب نفسه إلا إذا تصدر فى السيارة ، وتقطع المسافة بين مزرعته والمدينــة فى نصف ساعة أو ساعة ، وكان يجتازها فى يوم أو بعض يوم والفلاح لا يدرى أن ما يخرج من جيبه لا يحتمله دخله ، وأن مجموع ما يبذل فى هذه الســيارات لا يصدره هذا الشرق القريب، وأرضه لا تخرج بنزينا ولا زيتاً ولا مطاطاً ولا حديداً ، ولا يحسن بنوه صنع سيارة ولا دراجة . وحكوماته لا تقــدر إلا أن تسير باقتصاديات ممالــكها إذ تفتح أبوابها لــكل وارد من ديار الغرب .

ولقد خسرت الديار الشامية منــذ الحرب العــامة (١٩١٤ — ١٩١٨) فى السيارات نحو أربعين مليون جنيه ذهباً وما نفع الإسراف فى هذا البذل إلا للمعامل التى تصنعها ، فــكم كانت يا ترى خسارة القطر المصرى من هــذا الصنف فقط ؟ والناس مع كل ما أحسوا به من خسارة لا يرون إلا تقليد غيرهم فى حب السرعة ،

ولو كلفهم استخدام السيارات فى المسوف البعيدة والقريبة ما يذهب بثرواتهم ، وهذا من بلايا عدم البصيرة فى حساب الدخل والخرج .

والظاهر أن المدنية وحدة لا تتجزأ تدخل على الشعوب طوعاً أو كرهاً . ولا مندص لمن يقبلها إلا أن يرضى بما فيها من ربح وخسارة ومن محاسن ومقابح . ومن سرت إليهم عدوها من الشعوب ؛ وأخذها بجد فيرها على غير استعداد لها ، خرج بما اقتبسها عن طابعه القديم فجأة . ولما جاءت المدنية العربية الأقطار العربية حملت إليهم مساويها ومحاسنها ، ومن البلاء أن أخذ الناس أكثر المساوئ وقليلاً من المحاسن .

جاءت المدنية تحمل فى مطاويها المخدرات والمسكرات ، وأتى بالموبقات والمحرمات ، وتنشر القمار وما يتعرف على القمار ، وتسهل الضاربات والمقامرات ، فافتقر بعض البيوت ، وتحلل العرق بين الابن وأبيه ، والفتاة وأمها فى تكاليف الحياة ، وزاد بؤس من أخذوا بالمذاهب الحديثة فى عيشهم ولم يستعدوا الاستعداد الكافى ، واسودت الدنيا فى وجوه وابتسمت لآخرين .

لا نقول إن الشرق كان خالياً مثلاً من المسكرات فى القرن الماضى ، بل نقول إنه كان ولا يزال مبتلى بمواد مضعفة للصحة والعقل ، ومضارها أكثر من مضار المسكرات ، عنينا بها مخدرات الشرقية . فأهل اليمن يقتلهم حشيشة القات المخدرة ، وأهل مصر يتمون من الحشيش ؛ وأهل فارس يقرضهم الأفيون . والشرق مع هذا قلد الغرب حتى فى أسباب سروره ، فاختار من المسكرات ما قد يلائم طبيعة الغرب ولا يلائمه ، اختار الويسكى والكونياك مثلاً وهما شرابان كان فى المسكرات القديمة من صنع هذه الديار ما يسد مسدهما ، وربما كان أقل منهما ضرراً . واختار من

المخدرات المصرة الكوكايين والهيروين . ونظرة خفيفة على كشوف الجمارك المصرية تكفي لنتصور كم تنفق مصر اليوم على المسكرات والتدخين من الأموال مما لو صحت النية على إنفاقه على التعليم والصحة لذاق الأميون في وادي النيل ، وندر المصابون بالبلهارسيا والانكلستوما والملاريا من الأمراض الفتاكة . ومثل ذلك يقال في سائر الأشياء التي كان الناس في غنية عنها وتعد اليوم الجزء الأساسي من حياتهم .

* * *

وبعد فقد كان الناس الى الرضا والقناعة والطمأنينة والمودة في عامة أحوالهم فأمسوا لا يعرفون للرضا معنى ولا للقناعة طعماً ، ويتعجلون كل شيء قبل إبانه ، يريدون أن تواتيهم الأقدار في كل ما يحبون لا يتريثون فيما تطمح إليه نفوسهم ، يحاول الرجل أن يغتني في شهر معدودة ، فإذا لم يحقق الزمن أمنيته ، ولم يقلب له المولى نظام الكون ، حتى لإجابته فيما كان يحاول الوصول إليه ، والكتئب فعاد يندب سوء بخته ، والسوداء تعبث به ، لا يدخل المرح والهناء قرارة قلبه ، ذلك لأن نفسه لا ترتاح إلا إذا حصل على المعقول وغير المعقول من رغائبه .

نعم كثر المتشائمون ، وقلت القناعة المعقولة ، ووقع التكالب على العيش ، وعم الجشع والنهم على صورة بشعة منكرة واستحل الناس الخروج في ارضاء شهواتهم على قوانين الأرض وقوانين السماء . وركب طلاب الغنى مركباً خشناً خلا أكثره من الشرف فاستحلوا أكل أموال غيرهم بالباطل ، واستجازوا ارتكاب الغش والتزوير ، وبعدوا بعداً باعداً عن الصدق والأمانة ، وارتفعت الثقة بين أهل البلد الواحد ، بل البيت الواحد . وزورة قصيرة لإحدى المحاكم تنبئكم قضاياها الغريبة بذهبية الخلق في هذا الدهر .

وبالحرية التى لم يفهم أكثر الناس حقيقتها زاد التوحش ، وبالانحلال من الدين كثر القتل والسلب والتعذيب ، واستحل المستحلون كل كبيرة إذا أدت إلى اكتساب مال ، وإحراز جاه ، والقضاء على عدو أو منافس . وبطل ما كان يتمتع به أسلافنا من التآلف والتراحم ، وما أثر عنهم من الوداد والمروءة وصدق الولاء وجميل العطف .

غدا فى المدنية الحديثة كل فرد لا يهتم إلا لذاته ، ولا يحرص إلا على منفعته ، وصمتت الشفقة من الصدور حتى على الأهل والولد ، وخف عطف البنين على الوالدين ، وخرج الأبناء عن طاعة الآباء ورضاهم ، وقست القلوب وتحجرت العيون وكأن لسان حال كل إنسان (إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر) وكانوا ينشدون قول الشاعر :

فلا نزلت علىَّ ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

يقول الباحثون من علماء الأخلاق والاجتماع فى الغرب : إن الأخلاق على الإطلاق سقط مستواها بعد الحرب العامة سقوطاً مريعاً ، وحار معظمهم فى تعليل هذا الانحلال المفاجئ ، ونحن نعلل السبب فيه ، بحسب ما ظهر لنا من حال مجتمعنا ومجتمعهم ، بأن الناس أصابهم فى الحرب اضطراب فى الأعصاب والعقول لكثرة ما رأوا فى ساحات الوغى من الهول . شهدوا أجساماً شوهت ، وحواس عطلت ، ورأوا فى بقايا السيوف المقعد والأجذم والأقطع والأهتم والأعور والأعمى والمشلول والمؤود والمصدور والمجنون ، وهالهم ما قتل من نفس ، ويتم من أطفال ، وتأيم من نساء (والحرب مئيمة ميتمة) . رأوا منظراً من أفظع المناظر التى شهدها الإنسان .

بهذا تبدل نظر العالم فى الحياة ، فأقدموا على تغنم مبهجها وممتعها ، وبالغوا فى الإسراف وتعجل اللذائذ ، وغلوا فى سبيل الفسوق والشهوات ، وأوغلوا فى تطلب

الكماليات ، وكانوا يرون بعض ما هم فيه من قبل منافياً لقواعد الأدب ، فيراعون فيما ابتلوا به اعتبارات الخلق ، فلا يستهترون كعمل جماعة العري في بعض أصقاع أوربا تجردوا من ستر عوراتهم حتى في صميم الشتاء ، وزعموا أن عملهم للصحة والرجوع بالإنسان إلى الطبيعة .

جرأوا ، إلا من عصم الله ، على ما كانوا يتخوفون منه ، وكان المتلبس بالمنكرات يتوارى ، إذ أتى شراً يسوء من مصطلحات الجماعة ، أن يكون ذلك منه في سر ليخفى على الأهل والجار . وبتأثير التمدن الجديد اليوم يرى بعضهم أن ما يأتيه هو من الأمور الطبيعية فلا يستمع إلى من ينكر عليه ، ولا يخشى عذل عاذل ، ولا يعبأ بنصح ناصح .

ثم فتحت أبواب المسكرات والشهوات ، وكثر السرف في كل شيء ، على ما لا تتحمله حالة كل الطبقات ، ودخلت المسكرات والمخدرات في طبقة المتعلمين والمتدينين ، وعلى نسبة الترقي في العلم والعرفان كان التدلي في الأخلاق إلا من رحم ربك . زاد التبجح والتمجج وأخذ بعض الشبان يزهدون في الزواج ، ولا سيما في المدن فراراً من تأسيس بيوت ، يحذرون أن يكون الكمال أخذ كل ما فيها ، وإذا هم يتخوفون من أن يولد لهم أولاد تضيق الصدور بتربيتهم ، يتحيلون للحجة بما يبقى للحياة الزوجية من كلف موجعة ، فأحجموا عن الإحصان فحدثت بضرورة نواميس التصون والتعفف ، وكسدت السنة وزاد الهوس ، فزاد الفجور ، وضربت المصائل في ديار الإسلام وديار لا أرى في الصميم .

واختل بعد الحرب نظام الحجاب فجأة في أرضنا ، فكان في السفور الذي لم تعد له أدواته من تربية وتهذيب مضار غير قليلة ، فتشبهت المرأة في مصر والشام

ناساً طال عهده بالأكل هذه الفرصة حتى له بطيب الألوان فأكل وأسرف في الأكل بعد صيامه وحرمانه ، فذهبت بما فضل من صحته .

وشاع عدو النساء ، وولوجهن بدون محارمهن في السيارات والقطارات والمواخر ، ودخولهن في المصايف والمشاتي ، وفي الفنادق والمنازل والمقاهي والحمامات والملاعب والملاهي أموراً ما كان يجري مثلها إلا على الندرة ، وفي شيء من التكتم .

ثم إن تجنيد الجيوش — أي إبعاد المجندين طويلاً في ساحات الحرب — أبعد الرجال عن النساء فكان لبعضهن حجة للتحلل من القيود القديمة . وزاد في الفساد ارتفاع أثمان الحاجيات ، وانسداد أبواب الرزق في مصر لأعقع فتطلب النساء الرجال ، وأصبحت الخطوة الخطيرة بين الجنسين زمن الحرب ، أقرب من التقاط الحصا من أرض محصبة ، وإنبات البذور في حقول مخصبة . ونشأ من ذلك جرأة على أنظمة عيش البشر يرعاها أقوى من السنين . ومع ذلك فسد الأمر والنسل بخروج بعض النساء والرجال عن أحكام الروابط الزوجية ، وضعف الوازع وارتفع الحياء ، وكثرت القِحة والملاطفة وسوء الأدب ، وما بقي لأحد أن يطالب غيره بحقه .

ومن العوامل التي زادت في هذا الاستهتار أن اغتنى كثيرون فجأة في الحرب ، فنعموا بشقاء غيرهم ، وسلبوا حصة الجائع والعريان ، وملأوا جيوبهم بما جمعوا من أرباح ، وإذ لم يتمتعوا بما كسبوا أسرفوا في إنفاقه ، فقلدتهم الطبقات الأخرى في سفاهتهم . وكان القانون في جمع الثروات أن تجمع في المدد المتطاولة ، وأن تصرف بالحسنى ، فصار الفرد المتخلف وراء صفوف المتحاربين إذا كان على شيء من الذكاء ، وفتح له باب من أبواب الكسب يثرى بسرعة على ما لم يقدر له في جيل أو جيلين .

وقد سمعنا من جنون أغنياء الحرب العالمية ما لم يخطر لمفكر فى خاطر . رأينا منهم من كان يشعل لفافة التدخين بورقة مالية من ذات الخمسين ديناراً ، ومن يعطى فى ليلة يقضيها فى مرقصة بضع أوراق من ذات مئة دينار . وحدثنا عن بعضهم أنه كان يجلس إلى مائدة لعب فيخسر الألوف وهو باسم ، ومنهم من كان يغسل رجليه بعدة زجاجات من الشمبانيا ، وكان ثمن الزجاجة الواحدة من هذا الشراب العزيز الدينارين والثلاثة . كانوا يأتون هذا السفه والخلق يموتون جوعاً ومرضاً .

* * *

يقول أناتول فرانس : إن الجرائم الحاضرة تربى فى أرضها على غاية من السهولة ، وكانت بذور الجرائم فى الزمن الغابر تنمو فى بعض النفوس الخبيثة على جهد ، أما الآن فتنمو وتلوث جميع الرؤوس التى مست الرذيلة ، فساد السياسيين ، وفضائح المضاربين ، ومشاحنات المسرفين ، وجرائم المجرمين ، كل أنباء تطير وتسير وتفسد النفوس بسرعة الصاعقة ، أريد أن أقول بسرعة البرق الذى على معدل ثلاثمئة ألف كيلو متر فى الثانية . وإن الصحيفة غدت تسعى لإسقاط كل صاحب مكانة ليتضاحك قراؤها ، وتعلمهم ثلم الأعراض ، وكشف كل ستر ، والقحة أول ما يتجلى فى المجتمع الحديث ، ثم احتقرت الثقافة الحق ، واستعيض عنها بطلاء سطحى مستعار . وكان الخلق قبل هذه المخترعات الكبرى يتعمقون قليلا ويتحرون ، فيقتصرون فى تحصيلهم على إيراد الأمور الجوهرية . والعالم طبقتان : علماء وجهلاء ، أما الآن فقد قربت الأبعاد ، وتمهد كل صعب ، وسهل كل أمر ، وأخذ كل واحد يتحف صحبه بما عنده من التافهات والبلاهات ، يتكلمان فى كل شىء ، ولا يجهلان شيئاً من

الأشياء . قال ونحن مقبلون فى كتيبة من الجهل والغرور على مستقبل فيه فخة ، وفيه بسمة وفيه سدهة ، ولعله لا يخلو من ملاهة وعدوة .

وورد بعض العوامل المهمة التى نشأت منها هذه الظاهرة فى تبدل الأوضاع والطباع ، وقد رأينا الأخلاق انحطت انحطاطاً اضطرب له نظام الجماعات ، وانحل كل عقد أو كاد وعم البلاء وقل الخير ، وقدر من يلى مداواة هذه العلل التماس المخارج منها . وربما كان فى ضعف العقول من تهيئ هذه الأفكار وبعدها من القديم البالى لا تمت إلى المدنية بسبب . وكذلك مهد الطريق بعض أن التمدن لا حرج عليه فى شئ ، وأن مسائل الأعراض والشرف من شأن المنحطين فى المدنية أن يهتموا لها ، والمتمدن يلتمس لها المخارج ، ويعتقد أنه لا حرج على من يحول نفسه أن يرتكب كل كبيرة للوصول إلى شهواته ، وأن كلمة الحلال والحرام يجب أن تحذف من المعجم لأنها من مواضعات عصور الظلمات ، ولا يليق بأبناء هذا القرن أن يذهب مذاهب فى الحياة هى مجرد أكل لمطعم هنيء وشرب . كلا بل البحث فى مثل هذه المجارى ، والتوسل إلى مداواتها ، من واجب العلماء المفكرين والوعاظ المرشدين ، ومعالجتها من أقدس أعمال الصحافيين فى صحفهم ، والمؤلفين فى مؤلفاتهم ، والخطباء فى مساجدهم ومعابدهم .

بقيت كلمة تلحق بتعليل هذا التبدل الطارئ على الطباع وهى : هل كان فى الإمكان اتقاء هذا التبدل الذى ينافى عادات الشرق ومصلحته ، وهل كان الأولى أن يمتنع عن قبول كل ما أتاه من الغرب ، ويسد دونه أبواب أرضه ومنافذها .
فالجواب على هذا غير عسير ، إذا أدرك أن المدنية كالسيل الجارف يكتسح كل من وقف أمامه ، ومن المتعذر اقتباس الجميل كله ، واتقاء القبيح كله .

دخلت مدنية الغرب كل صقع ، ومدت إلى البوادي والصحارى نفوذها إلى الحواضر والمدن ، وقد قال المؤرخ الإنكليزي موير في كتابه (الوطنية والدولية) إنهم حاولوا قبيل الحرب العامة أن يجدوا في العالم أرضاً لم تصلها المدنية الغربية فلم يعثروا على غير ألف ميل مربع فقط . أي أن القارات الخمس سهولها وجبالها وأوديتها وبحيراتها وأنهارها سرى إليها روح الغرب طوعاً أو كرهاً . وأن الأمم والشعوب كلها أخذت بحظ ولو قليل مما أتت به هذه المدنية الحديثة ، وأن أعلام دولها وإن لم تخفق مباشرة على بعض الأصقاع ، فقد جمعت تحت سيطرتها ونفوذها وانتدابها وحمايتها ووصاياتها .

إن من ينكر حسنات هذه الحضارة كمن ينكر نور الشمس ، وما حسناتها في الواقع إلا نعمة من النعم التي لم يصب البشر مثلها في أدوار تاريخه . ولكن هذه الحضارة نسجت في القرون الطويلة حتى استقامت لأهلها ، ونحن على تباين ما بيننا وبين من قامت على أيديهم من أمم الإفرنج ، حاولنا اقتباسها في أعوام قليلة ، وفرق بين ما يؤخذ بالتدريج فيرسخ على الزمن ، وما يحاول استنفاذه بسرعة قد يضل بها المقتبس طريق الاحتذاء .

لو كانت البلاد الشرقية على شيء من الاستعداد منذ عصر النهضة في إيطاليا لتمثلت تلك الحضارة جرعة جرعة مع من كان يتمتع بها من الشعوب والأمم الغربية ، وكان الخطب سهلاً في هذا التبدل لولا ما هنالك من عوائق عنصرية ودينية وإقليمية تباعدنا قليلاً من الأخذ بتلك الحضارة . ونحن على ضعفنا نجتهد أن نحتفظ بجميع هذه الميزات والمشخصات فينا دون أن نمس أصلاً من أصولها .

قطعت الدول البائدة في الشرق أوصال أقطاره حتى غدا ابن النيل لا يعرف ما عند ابن الفرات، ولا ابن المغرب الأقصى ولا الأدنى يشارك أخاه في جزيرة العرب شيء يعتدّ به، فكان ذلك في العصور الحديثة من العوامل التي هيأت للدول العظمى أن تؤدب من استولت عليهم الأدب التي تريد لا الأدب الذي تنطسه طبيعتهم، ولم تؤلف من مجموع هذا الجسم العظيم مجموعة صالحة في الجملة تصبر على المحن والشدائد، وتصدر في توحيد جهودها عن قوة وسلطان، وصيرت أهل كل بلد أن يعيشوا كيف اتفق، والحياة في مجموعها ليست أكلا وشربا ونسلا بل فيها من ضروب المعنويات ما لا سبيل إلى لذة العيش بدونه.

القول فى ماضينا القريب

كانت أدوار الحركة فى الأمة العربية أقل من أدوار الفتور ، وكانت الأدوار الأولى مما يرفع الرؤوس ويوجب الشهادة ، وما جاء بعدها مما يخجل ويؤسف . والسبب فى استمرار الفتور مستبدو الملوك وسفهاء الفقهاء . الملوك أفسدوا الحكم والإدارة ، والفقهاء عبثوا بالدين والقضاء . ومتى تحكمت الأهواء فى حكم الناس اضمحل أمرهم ومتى فسد شرع أمة فسد فيها كل شيء . وبذلك أصيبت العقول بالضعف ، والقرائح بالركود ، والحضارة بالتراجع ، والشرائع إذا لم تعدل لا تنفع ، والعقول إذا لم تتجدد بالابتكار يضيق نطاقها ويتحكم فيها الوهم . ووهن العقل مؤد حتماً إلى هلاك الإنسان وخراب العمران .

كان ماضى الأمة يقوم على دعائم من الدين والمدنية ، ولما انحطت هذه ضعف الدين نفسه ، ومن شرط قوة الدين العود إلى لبابه لا الاكتفاء بقشوره ، وجوهره يتجلى فى المعاملات أكثر من تجليه فى العبادات ، والمعاملات تتعدى فائدتها إلى المجموع ، والعبادات مقصورة منافعها على الفرد ، ومن لا يقوى يضعف ، ومن لا يزيد ينقص ، وليس للارتقاء حد وكذلك القول فى الانحطاط .

أوهم الجامدون هذه الأمة أنها أرقى شعوب الخافقين ، وأنها ما دامت متمسكة بدينها لا يضرها التأخر فى دنياها .

أوهموهم وهم فى القرن الثامن والتاسع والعشر من الهجرة أنهم كما كانوا فى القرون الأول والثانى والثالث، تخضع لهم الأمم وتقتبس منهم فنها وعلمها وصناعتها، وأنهم القدوة الصالحة والمثال المحتذى. واتسعت هذه الدعوى مع الزمن حتى جاءت القرون الأخيرة وجمهور الأمة لايهتم لأكثر من قوت يومه لأن رب الغد متكفل به، وفى تلك العصور كان الغرب يعلو بحضارته إلى فوق، والشرق ينزل بحضارته إلى تحت.. كان الغرب بدأ بإتحاف العالم باختراعاته واكتشافاته وإصلاح أدبه، ونبغ فيه كبار الشعراء والكتاب، والشرق ينحط حتى فى بيانه وتبيانه.

كانوا إذا قام امرؤ أنار الله بصره وبصيرته، وحاول أن يدلهم على مواطن النقص فيهم ليدفعهم الى سبيل الكمال عدوه عدوًّا لأمته، خارجًا على شريعتها، ووصموه بالابتداع والضلالة، وكفروه وقوّلوه ما لم يقل، وعزوا إليه ما لم يخطر له فى خاطر. وكم من مجددين فى الأرض العثمانية — وكانت الأقطار العربية كلها من جملة ولاياتها — لاقوا كثيرًا — فكان نصيبه الحبس ونزيف آرائه، وليس أهون عليهم إذا حاموا سراية دعوة مصلح من أن يشردوه أو يسجنوه أو يتهموه بالجنون، ويشتدون فى إيذائه حتى يكاد يختل عقله بالفعل، أو يقتلوه من أول يوم يريحونه ويستريحون منه.

وتضاءل عمران هذه الأمة تضاؤلًا أصبحت معه وليس غير جوامعها ومساجدها وزواياها معمرة لها، وليس أكثرها فى طراز متقن مما ينم عن ذوق وحسن هندسة، وإذا وقع لملك أن كان على شىء من البصيرة كقلاوون وبرقوق وبيبرس وسنجر، من دولة المماليك فى مصر والشام، وأحب أن يعمر بلاده وينتفع بقرائح من فيها من المهندسين والمعماريين لا تعدى أعماله سد جسر أو ترميم سور أو إنشاء اصطبل

أو إصلاح شراريف قلعة ، وإذا فلح وأثبت تفوقه على غيره مساء نصر له ، وقصور لأبنائه وبناته . أما معظم سلاطين العثمانيين فلم تتعد أعمالهم المساجد والتكايا ، ومن بنى سوراً أو سمعة ولأسماء حربية قاهرة ، وإذا أنشئت مدرسة فلا يعلم فيها إلا ما أمره جماعة الدين فقط ، حتى لا تخرج عقلاً راقياً من عقولهم ، ولا نفوساً تقرب إلى الخير من نفوسهم . والسبية في هؤلاء أنهم لم يجمعوا حتى في نفوسهم على رأي معين ، يتقصفون ويتخاصمون ، فيتشاكسون ويتقاتلون ، وما وجد التوحيد سبيلا إلى قلوب زعماء ملة التوحيد .

لجأ كل فريق في إثبات ما اعتقد إلى الاستعانة بقوة السلطان والاستنصار بالعامة . وكان من الاختلاف بين الشيعة وأهل السنة ما أتى على مدن برمتها ، وقتلت خلائق بالألوف ، وأدت هذه المماحكات الضارة إلى بعض أهل القبلة على نحو ما أدى النزاع على الخلافة في القرن الأول إلى قتل بضعين ألف مسلم في وقعتى الجمل وصفين . ثم نشأ الخلاف بين الحنابلة وغيرهم من أرباب المذاهب فخرب جزء من مدينة بغداد ، وشغل الناس زمناً بهذه الاختلافات ، واختفت علوم الحكمة في ظلمات الرجعية ، ونال القوي من الضعيف وأكره هذا على اتباع طريقة القوي ، فكانت النتيجة ويلاً للغالب والمغلوب ، والله أعلم لمن الحجة يوم يقوم الحساب .

باعد الاختلاف في المذهب بين أهل الدين الواحد في أمور الدين ، وتعلق أهل كل دين بدينهم وتركوا دنياهم ، فكان من الشعوب العربية أن عقمت عما يصلحها عقلاً بحرية ، وتركز بفعل عصور الجهالة ما كان من الخمسة عاملاً أقوى في الفتوح وما كان من قوة الإرادة في تنظيم الملك ، وضعف حب الجنس والقومية ، وفتر الإخلاص الحقيقي للدين وخلا الجو للدجالين فتحكموا في بسط الأشياء ، وضعف العلم لدى

ضعفاً مرمضاً . وبقيت أشياء من علوم الدين والدنيا مكتوبة فى الكتب لا يفهمها إلا المهرة . ولم يبق من الصناعات إلا بقايا لا تستغنى عنها الشعوب الابتدائية بل لقد انتهى الحال ببعض الأصقاع أن جهلت الضرورى منها وأصبحت تحتاج للخيط والإبرة والدبوس والمسمار ، وأمست معظم الأقطار إذا شاء جيرانها كسوها وإن شاءوا أعروها ، وإن أحبوا عمروها وإن رأوا خربوها .

لنتصور مدينة من مدن الأقطار يعد سكانها بعشرات الألوف ليس فيهم من له صلة بالفكر غير شبه الفقهاء وعملهم أن يؤموا بالجمعة ويخطبوا فى الجمع ، ويعظوا مواعظ يدور معظمها على التزهيد فى الدنيا ، وهم ممن تعودوا أن يكرعوا منها بالكبير والصغير ، ويتولون من أمور القوم ما لا غنية لهم عن ممارسته كمسائل الزواج والطلاق والوصايا والمواريث والأوقاف . وما كانت المنازعات بين الأفراد والبيوت تنقطع لأن أرباب الشأن عجزة عن تنفيذ الأحكام ، أو لهم مآرب فى دوام الخصومات بين الخلق يصيبون لهم أقواتهم بإطالة النظر فى الدعاوى وشغلهم بالذكاء بإرجاء الفصل بينهم ، وهذا القوم يعتقدون أن الإنسان لا يثرى ويتنعم إلا إذا أحسن سرقة جاره وقريبه ، وتغلب عليه بالحق والباطل .

ثم لنتصور الآن كيف يعيش أهل تلك القصبة عيشاً رتيباً لا هناء فيه ولا صفاء ، يتحكم فى الحى صاحب الوجاهة فيه ، وليس لأحد من الحرية إلا بقدر ما يتصدق به عليه سيد حارته وشيخ عشيرته ، ولا من الثروة إلا ما تتغاضى له عنه حكومته ، والكبير والصغير يشرب كأس الذل حتى الدُّرْدِيّ ، وليس لأحد أن يعلو عن جيرانه فى أمر . والبلاهة شرط أعظم فى هذه البيئة التى ما وصل فيها أحد إلى معرفة شىء من

المعارف البشرية ، ولا يبلغ غير أفراد قلائل حداً ما تم في العلم من الارتقاء ، وليس أمامهم إلا ما يزيّن لهم الرضا بما هم فيه .

هناك لا أمن على الأرواح ولا على الأعراض ، يتكدس السكان في بقعة ضيقة لا ترى الشمس والهواء ، يحجبوا تجمعهم من اعتقاد الخرافية حماة الأمن ومن سطو أرباب الشقاوة فتحصدهم الأمراض الوافدة والأوبئة والطواعين . والسكان درجات في المظالم ، الوالي يظلم المتسلم ويأخذ منه أكثر ما يقدر عليه من الجبايات والضرائب . ويرسله إلى العاصمة ليثبت مركزه أسابيع أو شهراً ، والمتسلم يظلم من تحت يده ليبيض وجهه عند ذلك ، ولا يقطع عنه رزقه ، وهو يحتال أبداً ليجلب له المدفع فيتنزّل ما يتمتع به ، ويؤدي منه بعض مطالب المتسلم ، والرعايا يتظالمون لا يتناصفون ، والحاكم الأكبر هو الظالم الأكبر ، والعدل لا يعرف في غير الكتب المقدسة ، وقد غدا الناس بما تسرب إلى نفوسهم من الفساد لا يرهبون العادل والعالم بقدر ما يرهبون الظالم والجاهل .

تصوروا هذه المدينة التي خلت من طبيب يطب للمرضى ، ويخفف آلام المتألمين ، والخلق يهلكون في المدن والقرى لأقل عارض يطرأ على صحتهم ، ومن جسر فقال إن التطبب مشروع ، وأن الآجال تزيد وتنقص على ما هو رأي كبار علماء الأمة كفروه وبدّعوه ، ويا ويل من رمي بمثل هذه التهم . وليس في المدينة غير دجاجلة سلمت إليهم أرواح الخلق وأجسامهم .

أدركتُ مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانوني ولا صيدلي قانوني ولا حقوقي قانوني ممن درسوا هذه الفروع على الأصول ، وعرفوا صنعتهم معرفة تامة ليهتدى بهما وليس فيها محسوب لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بدون حساب ، أما العلوم

الرياضية التي كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن والحديث فقد غدت عندهم أسماء لا مسميات لها ، أو من المعارف التي يستغنى عنها ذلك لأن الأمة لا تحب التقييد ، ولا ترغب في التدوين ، وهي سائرة على البركة في كل ما يصلحها . حدثني من أثق به أن والده أراد أواخر القرن الماضي أن يفتح كتاباً في دمشق فرأى أنه لا يعرف من الحساب إلا الجمع والطرح والضرب فقصد عارفاً بالقسمة وعرض عليه أن يعلمه إياها مقابل ألف قرش و بعد يومين صرح المعلم لتلميذه الجديد أن في تعليمه القسمة قطع رزقه ذلك لأنه بدا أكثر سواد العارفين بها في المدينة انصرفت الوجوه عنه !

أما العلوم الطبيعية فما وقف على بعض حقائقها واحد في العشرة آلاف ، و يتلقف أكثر الجمهور من ذلك تخرصات من أفواه العجائز والرجعيين ، وما كان العقلاء يجرؤون أن يعطوا اسم الطبيعة وعلوم الطبيعة لأن البحث فيه مندرجة إلى الكفر عند أشباه الفقهاء ، فإذا أراد أحد أرباب البضاعة ذكرها أطلق عليها اسم (خواص الأجسام) أو غير ذلك من الأسماء التي لا تكاد تنطبق على حقيقتها ليبعدوا من ذكر اسم الطبيعة لأن من قال بالطبيعة وتعلم علوم الطبيعة أصبح دينه خفيًّا .

وحل محل علم النجوم والأفلاك ما عرفوه بالتنجيم والسيمياء ، واستخراج الفأل وأخذ الطالع وضرب الرمل والمندل ، وخلف علوم الكيمياء النافعة علم الكيمياء المزورة ، وطالما أعنق الطماعون أموالاً يحاول لهم المحتالون مدة الحديد والنحاس إلى ذهب ابريز . وأتت القرون بعد القرون وهذه الدعوى يروجها أدعياء هذه الصنعة الموهومة ويقبلها المغفلون على نحو ما يعتقدون علم الجفر وعلم الملاحم وما صح شيء منها قط .

مضت أجيال وأكثر القوم يبنون أعمالهم على المنامات ويهتدون فى سير حياتهم بالأحلام، ويعتقدون بالخوارق والكرامات، وهم أبداً فى غمرة من التفاؤل والتشاؤم، وما أفادهم الدين شيئاً فى هذه السبيل، والدين يحظر القول بمثل هذه الأباطيل، ولا يقدس إلا العقل، حتى قال جماعة من العارفين : إذا تعارض العقل والنقل يؤول النقل ليطابق العقل . ولكن المتأخرين وقحوا حتى أوهموا العوام أنهم عرفوا من الدين ما لم يعرفه أهل الصدر الأول، وجهلوا سر النقل، وضعوا نعل العقل، فادعوا ما لم ينزل به سلطان، ولا تستقيم به دولة، ولا تحيا عليه أمة . وإلى القرن الماضى كان الجيش لا يتحرك إلا إذا كان الطالع حسناً، ولذلك غلب جيش محمد على الكبير جيش العثمانيين لأن القائد العثمانى لم ير الهجوم على عدوه لانحراف الطالع بزعمه، وهجم من لم يبن أموره على مثل هذه المخرفات فظفر بعدوه .

ثم إنهم قالوا بصوفية مخترع فى وضعها، لما حسب من التخفف، وثقل ما ترتب عنها إنشاء طرق كثيرة (فى مصر منها اليوم سبع وعشرون طريقة معترف بها) سرى فى الداخلين فيها داء الاتكال والزهد فى العمل الشريف، وبلغت القحة بهم أن قالوا إن الأعمال اليدوية غير شريفة، وكان أعظم الأمة فى القرون الأولى لا يستنكفون عن العمل بعض ساعات النهار فى صناعة من الصناعات، يتهون بذلك أيام السعادة فإذا احتاجوا إليها أيام الشقاء مارسوها فغنيتهم عن الاستجداء .

وما فتئت المعتقدات الضارة إلى اليوم متجلية فى بعض الكفور والقرى البعيدة عن مواطن العلم، ومرد كل هذا إلى فشو الأمية، وما كان عدد من يقرؤون ويكتبون منذ مئة سنة يتجاوز الواحد أو الاثنين فى المئة . وكان حتى بعض من يعدون من الفقهاء لا يكتبون وقراءتهم قراءة عامية، وغاية ما تعلموا أن حفظوا سور الصلاة

وبعض الأحاديث الضعيفة في فضائل الأيام والشهور والبلدان والأطعمة والأناسي، وشيئاً من الرقائق والأشعار. ومارسوا من أمور العبادات ما شركهم الأطفال في معرفته، ورووا أحاديث آخر الزمن وأحاديث الدجال والمهدي والمعمرات مما لم يثبت من طريق مأمون، ولا روي في كتاب معتمد صححه ذو مسكة من العقل.

وكيف لا تنحط الأمة في دينها ومنذ عصر ممتد أوائل القرن الثامن يكتب أئمته في دمشق أن كل من يقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية حل دمه وماله مع أن كتبه ما خرجت عن الدين الصحيح في شيء، إلا أنها حاربت البدع والمبتدعين، وكانت المماسكة على ما يظهر بأيدي الشافعية وابن تيمية حنبلي وتعدي أرباب المذاهب معروف موصوف. ومن مضحك الأقدار أن قوماً عاشوا فيه بلاهة عصره يحرمون تعلم المنطق لأن من تمنطق تزندق بزعمه، وكل ما يقوي العقل محظور الخوض فيه ومصلحة المسيطرين ولاسيما في أن يكون القوم مقيدين خاضعين لسهل حكمهم وأمن غائلتهم. ومن المضحكات أيضاً أن يحرموا درس التاريخ وكان يدرس في الجوامع في القرون الخالية، وذلك لأن التاريخ يفتح فكراً جديداً، وهذه بدعة لا يريدونها، ونسوا قوله تعالى: «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» وقوله: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين». ونسوا أن جزءاً من الكتاب العزيز عرض لتاريخ الأمم وعبر الحوادث.

ولقد عم الظلم في عصور الانحطاط كل طبقة لأن الفوضى أصل عندهم ومن ذلك ظلم الرجال للنساء. حظروا تعليمهن إلا القرآن وسورة النور! وأغلظوا حجبهن، وقصروا عملهن على التزين والتجمل وجعلوا منهن أداة سرور للرجل وآلة للولادة

الأولاد فقط وغمطوهن حقوقهن التى خولها الشرع لهن وأمسى المجتمع الإسلامى لا رواء له ولا بهجة وحيث فقد بشاشة النساء تسود الكآبة .

وكما كان الكبار يدوسون الشعب من دون ما رحمة ولا شفقة ، وإذا أقوا عليهم ملاءمهم أداة يتوسلون بخدمتها الشاقة إلى الغنى والرفاه كذلك كانوا فى معاملة النساء فقد تأولوا آيات القرآن الكريم فى تعدد الزوجات وأغفلوا القيود التى قيده بها ليزيدوا فى استمتاعهم بأكثر من زوجة ، فرخصوا لأنفسهم الجمع بينهن فى بيت واحد ، وما بالوا بالتبعة التى تلحق من فعل ذلك من أرحاس ، وما ينال المرأة من هذا التعدد ، ويصيب البيوت من هذا التمزيق .

ولما أقفرت الحقول ، وانحطت الأخلاق ، وحتى الوازع ارتضى الناس من العيش بالدون . وطرأت عوارض المسكنة ، وعدمت الرفاهية ، وغدت المزرعة الكبيرة لا تساوى أكثر من خمسة آلاف قرش ، والقصر المنيف يشترى بألف قرش ، وصداق الأسرة الجليلة لا يتجاوز أكثر من خمسين أو ستين درهما ، واختفى النقد الذهبى والفضى من التداول فى الأسواق خبأه مالكوه فى مخابئ أحموا أمرها عن أعز ذوى قرباهم ، خوف المصادرات ، فكان القوم يظنون إذا عثروا على مال مدفون فى الجدران والأرض أنه كنز من الكنوز المرصودة ، ورجع أهل المدن والقرى إلى قانون المقايضة فى البيع والشراء على ما كانت الحال فى العصور المتقهقرة .

أما السياسة فتولاها على الغالب زعنفة من القتلة السفاكين ، ممن لا يحللون ولا يحرمون ، ولا تهمهم إلا مظاهرهم ومنافعهم ، من الصنف الذى يعتقد أن الغنى لا يتم إلا بسلب الضعفاء والمجد لا يقوم إلا على الجماجم . وكانت القضية والدانية ، للصنف المستحوذ على الناس عرضة كل حين للفتن الأهلية ، وكل من آنس من نفسه

قوة يستجيش له نفراً من الغوغاء، ويقطع السابلة، ويسلب الآمنين ويروع المساكين فإذا ازدادت قوته عدا فشق عصا الطاعة على صاحب السلطان الأكبر أو على الأمير الذي في جواره، ولا تسل عن حال الرعايا إذ ذاك كيف تصبح أرواحهم وأموالهم بين المعتدي ومن عدي عليه.

وما كان للسلام والاستقرار — وهما من أهم الأسباب في سعادة الشعوب — من أثر محسوس في بلد ولا جيل ولا قرن، وما من بلد إلا عبيد صاحب القوة يطيعونه ما عاش، ويخضعون له كما يهوى اتقاء شره، وربما حدث أن وفق إلى بسط سلطانه على أرض واسعة، وعلق بعض الأمة آمالها على تغير في صورة الحكم الجديد وعلى راحة نسبية تمنحها للأمة لتضميد جراحها وترميم ما خرب من مرافقها، ويجيء الخلف أخس من السلف، وهكذا دواليك، لأن الحكم لا يصل إليه يومئذ إلا من كان على جانب من القسوة والجبروت ومن كان يحمل بين جنبيه روحاً مداها الخبث والجنوح للشر. أما الإصلاح فمن الكماليات التي لا معنى لها، ولا يهتم بمدلولها إلا قلائل من أرباب الأذهان المفكرة، ومع هذا فهؤلاء تقصيهم أخلاقهم عن الوصول إلى الحكم.

وضعف السياسة الإقليمية ضعفت السياسة العامة فكان من مجموع الأقطار العربية كتلة تقبل الاحتلال أفسح تقبيل. ومع هذا استبد كل طامع بجزء من الأرض وسمى نفسه خليفة أو ملكاً أو أميراً يعسف من تحت يده ويستخرج ما يصرفه في أبهته من المال. ومن أجل هذا كان الخلق يتظاهرون بالصعلكة لا يأكلون إلا ما يسد الرمق، ولا يلبسون إلا ما يستر العورة. وتتوالى عهود الخصاصة والمسكنة ضعف الذوق والشعور بالواجب، وليس لأحد هدف أسمى تتطلب الأمم في العادة

تحقيقه على أيدي المصطفين الأخيار من أبنائها. وقوة الأمم – كما قال ليون – بقوة طبقتها المختارة لا بعدد نفوسها، والمدنيات من صنع الطبقة العالية، بهم تنهض، فإذا ما فقدتهم تسقط البلاد لتحل في البؤس والفوضى . وهذا ما كان محسوساً في البلاد العربية في قرونها الأخيرة .

* * *

انقلب الزمن ، والزمن قُلَّبٌ حُوَّل ، فأحدثت الأمة تشعر بما لم يكن يشعر به سلفها ، وتنظر إلى الحياة غير نظر أبيها ، ذلك لأن الحوادث التي مرت بها تدعو الغبي فضلاً عن الذكي إلى التدبر والاعتبار ، وكان القوم إلى عهد قريب راضين طوعاً أو كرهاً عن حكامهم ، تحدثت أعمالهم تحدثاً أثنى على كثير من صفاتهم الحسنة ، وطال عهد هذا التدلي حتى قام أفراد أذكياء ، وقع في روعهم أن يكسوا الأمة كسوة جديدة يستعيضون بها عن ذلك الثوب الرث البالي ، فقاومهم سدنة الزعماء وأغبياء الفقهاء ، وكان هذان الفريقان يذهبان إلى أن كل نهضة تذهب بسلطانهما ، وتقضي على نفوذ جماعتهم ، وسلطانهم إنما يقوم بجهل الرعية ، ونفوذهم متوقف على خضوعها الخضوع الأعمى .

وصلت المدنية الغربية على العلات وبحكم الطبيعة أصاب الأقطار العربية من تمدنها قسط غير قليل ، وما برح معظم الأصقاع مدفوعة عن الأخذ منه ، وكانت عصت عليه زمناً ، كما عصت بعض قريش على الإسلام يوم ظهوره ، فلم يبادروا إلى الاستجابة له ، ثم قبلوه واشتركوا في خدمته مع السابقين الأولين . وطفق العربي يتلمَّسُ الطريق إلى ترقيه ، واستعادة شيء من نضرة ماضيه . وكلما حل عروة من العرى التي طوق بها جهالة التعصب عنقه اقترب من ورود حياض المدنية .

كان الفقهاء يمنعون أصحاب الحكم من كل جديد ، فحظروا فى عاصمة السلطنة العثمانية طبع القرآن والكتب ، وحرموا على غير هدى أشياء كثيرة من المباحات كالقهوة والدخان ، فنال تعصبهم خوف من الأولياء . حملية مرهقة أسمرت بعد جيل عن ناحية مطمئنة وقد لم يعتوا به نظم الجيش نظام الغرب ، وإدخال العلوم إلى الأرض العثمانية . وحسروا على قتال أحد ملوك العثمانيين لأنه قال بالإصلاح الجديد ، فجاء من حمقه فتعصب عليهم ، ويومئذ أخذت دولتهم تضعف ، وكلمتهم تتمزق

وكلما زاد اتصال العرب ظهرت مزايا عنصرهم واستعدادهم للأمور النافعة ، وساعد على هذا الانبعاث ما لقوه من ضغط القريب والبعيد ، وكثرة الضغط تحدث انفجاراً ، وقد تظهر الشدة مزايا الأمم أكثر مما يظهرها الرخاء ، وتورى زندها بأدنى احتكاك بحرارة . وطفق العربى ينظر إلى قديمه ما حدث ، ويوجه مدنيته وجهة لم يكن يواليها ، أى شرع يدرك ضعفه ونقصه ويتحسس قوته وسيادته . وكم رفع كابوس الاستعباد عن قطر لا يعتم أبناؤه أن ينهضوا نهضة ما كان يتأتى تحقيق مثلها فى الزمن الطويل ، ذلك لأن المتأخر فى المادة يتناول فى يسر ما تعب المتقدم فى إيجاده دهراً ، وما لم يصل إليه إلا بكثير من العناء والمفاداة .

سبقت مصر إلى اقتباس مدنية الغرب لأنها تقدمت غيرها إلى التحرر من ربقة الحكم العثمانى ، وهى فى موقع متوسط بين جزيرة العرب فى آسيا وإفريقية ، وبفتح ترعة السويس زاد اختلاط الغربيين بالشرقيين ، وكانت مصر تحتفظ بجزء عظيم من تراث العرب بعد ذهاب دولتهم ، وأخذت تتمتع بشيء من الاستقرار منذ القرن الماضى إذ تولاها أمراء تابعون للدولة وفى حقيقتهم يعملون عمل الملوك المستقلين .

وبينما كانت تسرى الدعوة فى مصر للأخذ من العلوم التى امتازت أوربا بها بمعرفة الحكومة المصرية نفسها قام أناس من أرباب الصدور ، بمحض إرادتهم وبدافع من غيرتهم يتحمسون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أسلوب جديد ، ويجهرون بالترحيب بكل علم لا يعرفه قومهم ، ويحملون على الجمود حملة شعواء ، يدفعهم صوت الحق الذى كان يدوى فى أعماق نفوسهم .

بدأ الإصلاح فى المظهرين الدينى والدنيوى ، وسار كل منهما فى طريقه الطبيعى يتعارضان ثم يتفقان ويختلفان ثم يجتمعان . وكان السيد جمال الدين الأفغانى من أول من نادوا بالإصلاح فى هذا الشرق القريب . قام بدعوته والناس شبه نيام فى مصر وفى غير مصر ، لا يخرجون فى العلم عما ورد فى الكتب ، ولا يعتبرون قولاً إلا لرجل مات وشهد بحسن حاله بعض الحشو بين الحواشى بأن ذى المشرة أنه صار إلى الجنة وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لأنه أتى الحسنة الفلانية يوم كذا . قام جمال الدين بإصلاحه وأكثر شيوخ الأزهر يومئذ يحرمون ما لم يعرفوه من المعارف ، ويقولون بتكفير من يقول بكروية الأرض ، وكان أحدهم قال بهذا الرأى منذ ألف ومائتى سنة ، ويبدّعون من لا يقول بأن الأرض واقفة على قرن ثور إلى غير ذلك من تخريفهم ، نادى بإصلاحه أيام كان العالم من الطبقة الأولى من الأزهريين لا يعرف شيئاً من الجغرافيا والتاريخ والرياضيات . وكان السيد ومن تبعه على مثل اليقين من أن الشرق إذا لم يبادر إلى اللحاق بالغرب فى اقتباس العلوم يهلك ولا يرحمه تعصبه ، ولا تجبر عثرته دعواه وتبجحه .

استجاب الشباب للدعوة الأفغانية ودعوته سياسية اجتماعية ، وفى مقدمة المستجيبين له الشيخ محمد عبده ، خرج بإرشاد شيخه الجديد من طور طالب علم على الطريقة القديمة

غلب عليه التصوف والجمود ، إلى طور عالم عصرى يستعمل عقله ويدرك ما حدث في العالم من تجدد ويدعو إليه . وبث الأفغانى فى العقول حب قدماء العلماء ، ودعا إلى الاقتصار على كتبهم واطراح كتب المحدثين لما تحمل من زوائد ، كما دعا إلى الرجوع بالإنشاء العربى إلى عهد المتكلف فحرر من حمقته كتاب أبنائه ، وحبب اللغة العربية إلى العرب ، وطالما قال : إن العرب ما نجحوا فى فتوحاتهم بشكل الدين الظاهرى فقط بل بفهمهم أحكامه والعمل بآدابه ، وذلك ما لم ولا يتم إلا باللسان أى بالعربيـــة . فكانت إرشاداته كالماء الشديد الحرارة غسل وطهر العقول ، وأتى على ما علق فيها من فضلات وفضول .

وحاول السيد الأفغانى أن يقوم بمثل هذه الدعوة فى إيران ، والظاهر أن أرضها يومئذ لم تكن صالحة لإلقاء بذوره ، لما كان فيها من ادغال الحكم المطلق ، وتبين أن مصر كانت أوسع صدراً لقبول الأفكار الحرة ، ولما انتهت به خاتمة المطاف إلى الآستانة وثق دعوته مع الدولة التركية ولم يخرج عن تعاليمه ودعوته ، وأحسن ظنه بدولة الترك وسلطانها . وكان كأكثر العقلاء فى ذلك العهد يحرص على بقاء الدولة العثمانية على ما عشش فيها من ضعف وسوء إدارة .

وبينما كان السيد جمال الدين الأفغانى يعانى مع تلميذه الشيخ محمد عبده ما يعانى من معالجة الإصلاح فى مصر كان الشيخ طاهر الجزائرى فى الشام يسير على طريقة له هو اخترعها شارعاً من الأساس ، والأساس عنده المدرسة ، فيمشى المدارس الابتدائية والوسطى بمساعدة الحكومة ، ويوهمها أنه لا قصد من مدارسه إلا نشر العلم البسيط ليكون ممن يتخرجون فيها خداماً للدولة فى المستقبل ، ويحبب إلى الناس الرجوع إلى كتب الأسلاف وإتقان اللغة العربية ، ويحث على الأخذ من كتب ابن تيمية

وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وفيها بحوث ضافية فى البدع التى ألصقت بالإسلام وما هى منه بسبيل ، ويحض الناشئة على تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية ، ويؤلف لهم أسفاراً فى مباديها ، ويرغب إلى من حذقوا لغات العلم أن ينقلوا منها ما أمكن إلى لغتهم ليستفيد منها العرب عامة ، وينشر الجيد الصحيح من كتب الأقدمين ، ويحمل كل من يأنس منه استعداداً على معاناة الطبع والنشر ، وعلى شغل ذهنه بما يفيده . وكان يقول : إن السياسة تأتى بعد إعداد المعدات لها من علم وصناعة ، وكان غرامه أن يتعلم كل طالب صناعة ما ، وهو عملى فى علمه وسيره ، وطالما قال : إن الاشتغال بالعلم مضمون النتائج إن أمن الطالب فى طلبه عتو العاتين ، وما كان يخلو من استعمال شىء من التقية مخافة الإحراج فى دعوته إذا عرفت حقيقة مقصده . وهواه أبداً التوفيق بين أرباب المذاهب المختلفة فى الإسلام ، والتقريب بين أرباب الأديان السماوية المتفقة على القول بالمعاد ووجود الروح .

ورأى الشيخ طاهر الجزائرى كرأى السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده بأنه قام بين القرن الثالث والرابع أقوام ظهروا بمظهر الدين فدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت قواعد الجبر وترحت النفوس حتى أمسكت أيديها عن الأعمال وأن الزنادقة والسفسطائية أضروا الدين ضرراً ربما لم يقل عن ضرر من وضعوا أحاديث نسبوها إلى صاحب الشرع وأثبتوها فى الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة والإقدام .

يقول الراغب الأصفهانى من أهل القرن الرابع : « ولما تركت مراعاة المتصدين للحكمة والوعظ ترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم له ، فأحدثوا بجهلهم

بدعاً استغووا بها العامة ، واستجلبوا بها منفعة ورياسة ، فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم .

وشكل قرين إلى شكله كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستوراً مسبلة ، وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره ، فبدعوا العلماء وكفروهم اغتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم ، وأغروا بهم أتباعهم ، حتى وطئوهم بأخفافهم وأظلافهم ، فتولد من ذلك البوار والجور العام » .

* * *

والظاهر من دعوة الشيخ الأفغاني أنه كان يحرص على إخراج فئة مستنيرة من الخاصة تكون منها قوة صالحة للنهضة . والمفهوم من دعوة الشيخ الجزائري أنه كان يحرص على تعليم أطفال الأمة أولاً لينشأ منهم جنود يجاهدون وهم يتخذون قوادهم في المستقبل . الطريقة الأولى سريعة صعبة ، والثانية بطيئة أكيدة . وكانت دعوة الشيخ محمد عبده وسطاً ، يعلم ويفقه ويصلح الأزهر وينشئ الجمعية الخيرية الإسلامية تعلم أبناء الفقراء ، ويصلح الكتابة العربية والمحاكم الشرعية ، ويبث أفكاره في الطبقة المختارة من أرباب العقول ، ويبعث هممهم على العمل ، ويستفيد من كل قوة تعينه على بث دعوته .

وغريب ألا تكون مباءة الدعوة الأفغانية ديار الأفغانيين ، ولا دعوة الشيخ الجزائري أرض الجزائريين ، وكلتاهما في أشد الحاجة إلى الإصلاح ، وألا يكون لدعوتهما صدى يسمعه من كان في آذانهم وقر ، وأن يكون الحظ الأوفى لبلاد الشرق

القريب يخدمانه بقلبيهما وروحيهما . ضعع الرجلان في غير بلدهما ، والشجرة إذا نقلت من أرضها قد تسمو نموًّا لا تصيب بعضه في منبتها الأول . وزامر الحي لا تطرب مزامره

ويرجع الفضل في توجيه بعض متخرجي المدارس الحديثة في مصر والشام لهؤلاء الشيوخ المستنيرين في بث دعوتهم وإلى من حذا حذوهم ، فرقى وهذب سائرًا على آثارهم . والمدرسة تعطي من العلم ما تعطي ليأخذ منه التلميذ حسب ذكائه واستعداده ومهارة معلميه في تلقينه . والكتب محصور الفائدة في المدارس ، والعمدة في التثقيف على العمل الذي عاناه المصلحون . واستعملوا ما استطاعوا على بث أفكارهم ومنهم تخرج صحافيون ومؤلفون ، بثوا في العقول معلومات استفاد منها من أحب الاستفادة ، والمبتدئ أبدًا متطلع إلى تلقين ودرس تضطره إلى الدرس والتهذيب ، ورب طالب أفاد من مجالس عالم في ساعة ما لم تصل إليه به الكتب في سنوات . العالم يشرح ما أبهم ويمثل ويبسط ، ومن أضاف علمه إلى علم غيره وقص على طلابه تجاربه وتجارب غيره ، كان المعلم المرشد حقًا .

ولم يخل قطر من الأقطار العربية ، ولو كان ممن تصعب الدعوة عليه من أفراد أدركوا قصور أمتهم وراحوا يتمثلون بعض الأفكار الحرة ويبثونها في قومهم . ومن رجال الدين من صعب عليهم بادئ بدء أن يفهموا اليقظة التي أتت من طريق المجددين ، وحملوا عليها معتقدين أن في أفكارهم إفسادًا للعامة وإرضاء للمشككين . والواقع أن الجامدين ما انقطعوا عن النيل من المجددين إلا لما قنطوا من المقاومة وأدركوا أن لا محيد لهم عن مجاراة العصر وصلاح ما تمسكهم بصلاحه من أسبابهم ، والوقوف في وجه الحق ضرب من السخف لا يجدي فتيلا .

ومما ساعد فى هذا الإصلاح أن غدا الدين يدرس على أساليب جديدة وأبطلت طريقة الأزهر القديمة فى التعليم ، وقامت معاهد لتخصص تنشئ ناشئة منورة ، واعترف المشايخ بفساد طريقة متخرجين من العلماء حتى قال العلامة المراغى شيخ الأزهر فى بعض تقريره : « ولكن العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا أن لا مطمع لهم فى الاجتهاد ، فقفلوا بابه ورضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الجديد ، وجهلوا ما جدّ فى الحياة من علم ، وما جدّ فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى الذى خصصوا أنفسهم له ، وأصبح الإسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين اهـ » .

وكان من أولئك المصلحين أن تسلحوا من جملة ما تسلحوا به من الأدوات للقيام بإصلاحهم إتقان بعض اللغات الغربية ، وقد تعلموها هم بالفعل لاعتقادهم أن العربية وحدها لا تكفى طالب العلم والمدنية . وكان المأخوذ عن الأمم اللاتينية أولا أكثر من القدر الذى أخذ من طريق الشعوب الأنكلوسكسونية ، ثم تلاقت الكفتان بمن تخرج فى مصر والعراق وفى أمريكا من أبناء العرب باللغة الإنكليزية على مثال مَن تخرّج فى الشام وشمالى إفريقية بالفرنسية والإيطالية والإسبانية . فالمدارس والهجرة إلى القاصية والاختلاط بالأمم الغربية ، كل أولئك كوّن للعرب عقلية أتتهم بآداب حديثة شذبها لهم مصلحوهم الدينيون ومصلحوهم المدنيون .

ومن أهم ما ساعد على تدعيم هذه النهضة مسارعة لبنان إلى الأخذ بمذاهب التعليم فأنشأ الوطنيون والأجانب فى ربوعه مدارس تدرس بالعربية وفى حجرها

ظهرت عبقرية أفراد كان كل واحد منهم داعية عظيماً للغة العربيـة حببها إلى الدارسين، وتخرج بهم وبتلاميذهم مئات من الرجال انتشروا في الشام ومصر، وكان منهم المؤلف والصحافي والكاتب والشاعر، وبفضلهم استعادت العربية بعض رونقها القديم، ومنهم عمت المعارف بعض الطبقات. وكانت خدمة هـذا الرعيل يومئذ والبلاد أثمن من جهود ملايين مدة في مداواة العقول. وكان عملهم مع عمل مصر العقلي في هذا المعنى مما جعل للغة كياناً علمياً وسياسياً، والرجاء أن لا ينقضي عقدان أو ثلاثة من السنين حتى يعم العلم قاصيها ودانيها.

القول في دور انتقالنا

يتولد من كل دين نوع من الحضارة تكاد تختلف في بعض مناحيها عن حضارة الدين الآخر ، وحيث تتعدد المذاهب تتنوع الحضارة في مجموعها ، ويُلحظ التماسك في أنحاء من جوهرها . وهناك أديان سماوية قديمة ، ونحل أرضية حديثة ، منها ما يعبد فيه الله ، ومنها ما يعبد الشيطان ، ومنها ما يؤله البشر ، ومنها ما يكتفي بتقديسهم ، ومنها ما لا يتجاوز منتحلوه المئات ، ومنها ما يُعد المعتقدون به بألوف الألوف .

ولا أمل في إيجاد حضارة متوحدة إلا إذا عمّ العلم أرباب الأديان كافة ، ووُضع المواطنون في صبغة واحدة ، وليس أفعل من التربية المشتركة في نزع الفوارق بين أبناء الوطن الواحد . وهذا لم يتم حتى اليوم لقطر من الأقطار العربية ، والتخالف في العقيدة والزي والعشيرة والتعامل ماثل كل المثول في أرجائها لتخالف التربية بكثرة الأديان وتعدد ضروب الثقافات .

من أصعب الأدوار التي تمر بالأمم دور الانتقال من حضارة إلى حضارة ، وهو في صعوبته كالانتقال من دين إلى دين ، أو من نظام حكم قديم الى نظام حكم جديد ، فإن عادات رسخت ، ومنازع ألفت ، وعقيدة تأصلت ، في الدهر الطويل ، لا يسهل إحلال غيرها محلها فليس بدعاً أن يطول علينا هذا الدور الطبيعي في تدرجه وتلويه ، ولا ندري أن كنا قطعنا نصف المرحلة الواجب اجتيازها أو أكثر أو أقل .

تطورنا فى تفكيرنا وبلغنا من ذلك درجة لا بأس بها ، وكنا إذا حاولنا شغل عقولنا نكتفى بقليل من علوم الدين ونزر من الأدب ، وأدبنا شعر يكثر مديحه وغزله وفخره وهجره ، وفيه شىء من الميوعة ، وإلى عهد قريب كانوا يقولون أعذب الشعر أكذبه ، فأصبحنا نتطلب منه الخوض فى مجدى عيشنا ، وأمسينا نفضل استثمار ذكائنا فى ما فيه عون لنا على الغنى ورفاهة . وتخلى الزهد فى القديم فضعفت ممارسة الشعائر عن ذى قبل ، وما نعلم هل أحد من ديانات ما يوازى ما أصبنا من دنيانا ، سؤال يختلف الجواب عليه باختلاف الأقطار ، وقد تتعذر الإجابة عنه ، وأهل القطر الواحد ليسوا سواء فى هذا الباب .

خرجت الأمة عن بعض مألوفات العصور الماضية ، وكان الأعيان ومن إليهم قسط عظيم من هذا التجدد وفى إفادة أن تمتد شعلة الحضارة من قصور العظماء ، ثم تسرى فى جمهرة القوم طبقة بعد طبقة . وأدرك أرباب السعة أن سعادتهم بالمعارف وكانوا أعرضوا عنها زمناً يهمو بأجرة معلمى أولادهم ، ينفسون من سقوطهم إلى الدرس من أولاد الفقراء . وغدا أبناء الأعيان اليوم يتولون فى مصر إنشاء الصحف والمجلات وكانوا من قبل يتنزلون عن الصحافة ، والصنعة والتجارة ، ويعتقدون أنه لا يليق بهم الاشتغال بغير الحكم وما يتصل بالحكم .

تبدلت حالة المدن فى تخطيطها وتنظيفها واتساع شوارعها وساحاتها ، وروعيت قواعد الصحة فى معابدها ومجالسها ومدارسها ومعاملها ، وكثرت فى القصبات والقرى البيوت ذات الطبقات ، وكثرت المخازن والمكاتب والمعامل على الطراز الغربى . وتطورت المقاهى والمطاعم والفنادق والحمامات بنيتها وترتيبها ، ومعاملة من يختلفون

إليها ، ودخل التطور فى معظم المرافق ، نتيجة لازمة للاقبال على التعمير ، وهجوم المدنية الحديثة علينا من كل أفق .

اقتبسنا أزياء الغرب وما زلنا مقلدين فيها ، وبنى التحكم فى الألبسة من الغرام بالاحتفاظ بالقديم منها ، وربما كان أهل القرن الماضى أقرب الى وحدة الزى من أهل جيلنا هذا . ومن يشهد ضروب الألبسة العجيبة فى المدن يظن الآدميين فى ليالى المراقع اكتسوا ما يدهش الأنظار ، وما لا يسع من يراه إلا أن يسخر منه . أما أزياء النساء فطرزات على آثار الغربيات فلا تحول أحد شخصيتها ، وبعضها مما لا يورث المرأة جمالاً ، وينم عن سرف وترف ، ومنها ما لا يناسب الاقليم ولا المواسم ولا أعمار المكتسيات به ولا طبقاتهن ، لا هو شرقى فيه شىء من الحشمة ، ولا هو غربى يجمع إلى الأناقة الذوق السليم . فالنساء متصلات فى زيهن بعض الشىء ، ولا يخلو الرجال من خرق فى لباسهم أحياناً . وفى مجالسنا العربية نموذج من هذا الاضطراب ، فمن المتصدرين على مقاعدها من اكتسوا على آخر زى عصرى ، ويتكلمون كلام ابن العصر ، وإلى جانبهم زملاؤهم يلبسون ثياباً ربما من عهد نوح ، وإذا تكلموا كان كلامهم كلام أهل العصر الماضى . والعجب أن هذه المجالس تحتاج إلى زمان طويل حتى يشترك فيها المتعاونون فى الرأى والتربية والتفكير .

يعد فى باب ترقى الذوق عدول أكثر المدخنين عما كانوا يستعملونه من الأدوات كالقصبة والغليون والنارجيلة أو الشيشة ، استعاضوا عن تلك الأدوات الغليظة بهذه اللفائف الخفيفة . وبدأ يقل عدد من يدخنون التنباك فى النارجيلة ، كما يقل عدد من يتعاطون المخدرات والمسكرات . ولما كان التدخين من المكروهات كان من مصطلحهم ألا يدخن الصغير أمام الكبير ، إلا إذا سمح له بذلك ، وكان الولد إلى عهد قريب

لا يجلس أمام والده ولو أصبح صاحب زوجة وأولاد، وما كانت المرأة تواكل زوجها، وتنتصب أمامه قائمة على رجليها تحمل له كأس ماء وهو يتناول طعامه. وكل هذا طال اليوم و تقلبت العلائق بين أهل البيت الواحد إلى ما هو أقرب إلى العقل.

كان الناس يجتمعون فى بيوت أعيانهم فى المدن والقرى، أو فى المقاصف والمتنزهات، وينظرون فيما يهمهم النظر فيه من مصالحهم، ويتحدثون ويتسامرون، ولما أنشئت النوادى والمقاهى أقفرت البيوت من الضيوف ثم نشأت المقابلات والجمعيات، فأخذ القوم يتعلمون كيف يجتمعون، ويتناقشون. وهم ينزلون على إرادة المتقدر منهم، يخضعون على بسط البحث ما يرتئون له من أمورهم ملتجئين فى إقرار ما يقررون ورد ما يردون إلى التصويت، ويكثرون من ترداد لفظ الأكثرية والأقلية.

وإلى عهد قريب كانوا يرون من المروءة أن يطعم المرء من يعرف ومن لا يعرف، ومن العار أن يهرب من وجه الضيف مهما كان المضيف فقيراً معدماً، وما كان للكرم عندهم حد ينتهون إليه، وكلما ضرت على بعضهم آثاره رددوا آيات الثناء عليه، وإذا أعوز لووا وجوههم عنه. فعلّم الزمن أولئك المسرفين أن هذا الكرم الذى طالما أودى بالبيوت فدكها دكاً، لا يوجبه شرع ولا عقل، فعاد القوم يعتدلون فى سخائهم ويقتصدون فى مآدبهم. وكأن عادة إطعام الطعام هى من قضايا أخلاق المادية لم تنزعها منهم سكنى الحواضر والمدن الكبرى.

وما زلنا فى العلم عند حد النظريات نفتخر إذا أجدنا النقل، أى أن قرائحنا لا تعرف الابتكار، وما انبعثت عبقريتنا إلى الحد لدى ناسه أيام كان أجدادنا يبحثون ويبتكرون، وما زال عندنا علم الصنائع بالنسبة لعلم المهندسين: أى علماً وسطاً فيه جمود لم يسفر إلى اليوم عن اختراع جديد يصح عده مع ألوف من المخترعات قام بها الغرب وحده، ولا يتأتى أن يأتى المتوسط بكبير أمر، والمقلد لن يشبه المقلَّد.

كان الأدب أول ما عنه وزوده بالقشيب والإبدال ، فأخذنا نستعمل فيه أموراً لا عهد له بمثلها ، ونكيفه بروح الزمن ، وننهج فيه على أساليب الأفرنج ، وأدخلنا في تصانيفه فن القصة ، وأحيينا جوانب من أدبنا القديم ، وما زلنا إلى الآن التمرين المطلوب في الأدبين ، أي أنه نشأ قصصيون وشعراء وكتاب على مثل ما عند الغربيين منهم ، وإذا ظهر التجدد في انتزاح التكلف في الإنشاء ، وظهرت عليه الرشاقة والجزالة والإيجاز ، فقد حال الشعر محتفظاً بما كان يقدمه من المعاني القديمة ، ومن استطاع أعظم شعرائنا صبري وشوقي وحافظ أن يتحللوا من المدح تركوه واتجهوا ودرجوا على النحو الذي درج عليه أئمة هذا الفن مثل أبي تمام والبحتري والمتنبي ومن قبلهم ومن بعدهم ، وامتاز شعرنا الحديث بأن كثرت فيه الموضوعات السياسية والاجتماعية والقصصية والفكاهية . وما كاد التمثيل يتأصل فينا حتى جاء السينما بارعه فأنشأنا نضع الروايات السينمائية كما نضع الروايات التمثيلية ، وأخذنا نقلد في موسيقانا الموسيقى الغربية ، فقد نعشق نغمها ونحييها ، وما اهتدينا إلى الآن لحن كالحانها في تأثيراتها ، وكما تحتاج الموسيقى إلى من يبدع فيها تحتاج إلى من يحسن سماعها : أي شركة مشاركة جيدة في فهمها وتقدير المتقن وغير المتقن من مرويتها ورقيت الخطابة في مصر والشام والعراق ونشأت لنا طبقة صالحة من خطباء المعابد والمساجد والمدارس ، وأخرى من رجال القضاء والسياسة ، وأصبح من الخطباء من يرتجلون ويجودون ، ومن المحاضرين من يحاضرون على الأصول الحديثة . وكان التطور في الصحافة عظيماً والتطور في الكتب ضئيلاً . وانتشر حب الصور في صحفنا وكتبنا ، وفي رجالنا ونسائنا . وظهر نوابغ من المصورين والمثالين ، وبدأنا نقيم التماثيل لرجالنا الذين اشتهروا بالسياسة أو بالأدب على النحو الذي سار عليه الإفرنج في إعظام رجالهم

السامعين ، وكما نحرمه ذلك في الدهر الغابر ، وما عُهد في مدنيتنا قيام مثال .

قلدنا الغربيين في معظم المظاهر تقليد المبتدئ للمنتهي ، اقتدينا بهم وأحسنا في آداب المعاشرة والاجتماع والسلام والقيام والطعام ، ومشينا على آثارهم في السياحة والتنقل والاصطياف ، وفي حب الاستطلاع والاستقراء ، وبقيت أمور لم يكتب لنا اقتباسها ، أو هي موجودة لدينا وما تغيرت التغيّر المطلوب ، فالرقص مثلاً لم يرتق عندنا واقتصرنا منه على تعلم الرقص الغربي ، وأهملنا رقصنا القديم ومنه رقص السماح. والظاهر أن في المدنية الغربية أشياء يصعب على العربي هضمها الآن ، وهذا من أسباب طول أمد الاقتباس . وأمة ذات مدنية قديمة تقضي زمناً طويلاً لإحيائها أكثر من أمة جديدة لا تاريخ لها ولا تقاليد . الأولى تتوقف على حذف وإثبات ، والحذف لا يسهل كل حين ، والإثبات أقرب تناولاً . والولد الصغير يسهل تأديبه بما لا يسهل معه تثقيف الشاب .

يتجلى التمدن عندنا في معظم مظاهر الحياة ، ويبدو معه شيء من ضعف أو نقص ، ويشتد تخلفنا هذا حين ننشد مثلاً العبقري الكبير ، والمالي الكبير والسياسي الكبير ، والسبب في هذا أن انقطعت الصلة بيننا وبين العلم والنظر قروناً ، فلما جئنا نربط السلسلة المقطوعة اقتضى لنا صرف جهود طويلة لنصل إلى جبر ما أضعناه من أعمارنا في الجهل ، وإذا اقتضى جيل أو جيلان لحضانة العلم فنضجه ولا جرم يستلزم أجيالا .

ومن المبتذل أن أمثل القوم يفرطون في التبرم بما يتبرم به وما لا يتبرم ، ويكثرون من الاعتراض على ما عرفوا وعلى ما لم يعرفوا . وبديهي أن عدم رضا الناس عما صاروا إليه ، وتطلعهم إلى عيش أهنأ وسعادة أكمل هو من جملة دواعي النهوض ،

والهمم إذا وَنَت يقلُّ الاعتمال للثروة ، ومن قلَّ ماله تجمَّد ودنَّ ؛ والنفوس إذا اكتفت بما حصل تضعف المدنية ، وحب المدنية يحفز النفوس إلى طلب الكمال ، وقل أن عهد شعب رضى كل الرضا عن أعمال حكومته مهما كانت صالحة ، كما ندر أن اقتنع طلاب مدرسة أن ضغط معلميهم عليهم إنما هو لخيرهم .

لطف ذوق ابن هذا العصر ، وتفوّق على ذوق سلفه في الجملة ، وكان هذا مغرماً بخيال الظل ويعده أجمل الملاهي ، على ما فيه من بذاءة ، وأُولع بالسيما ، وكان جده يحب الصيد والقنص والرماية وركوب الخيل ، فأصبح ابنه مغرماً بالألعاب الرياضية وامتطاء الدراجات والسيارات والتجذيف في قوارب البحر والنهر . ونشأ الابن أرق من أبيه وجده ، والست طهرت أرقى من أمها وجدتها ، وأحدثت المرأة تجارى الرجل في إنشاء جمعيات التعليم والإحسان ، ونجحت في انتشال بنات جنسها من انحطاطهن ، على ما نجحت في تمريض المرضى وترفيه البائسين ، بتطوع لذلك الغنيات والشريفات على مثال بنات الغرب ، وكلما زاد خروج المرأة عن عزلتها زادت الفوائد الناجمة عن هذه الأعمال المشكورة .

ظهر التطور في استمتاع المرأة بحريتها ، وأصبح بيدها زواجها وطلاقها ، وكان ذلك لأبويها وذويها ، وأمسى من النادر أن يجمع الرجل في المدن بين زوجين فأكثر ، ولا سيما في الطبقتين العالية والوسطى . وقل الضرب والتعذيب في المدارس والمحاكمات منذ أُلغي الرقيق ، وبإلغائه بطلت عادة التسرّي بالزنجيات والشركسيات والكرجيات ، وما عاد الزنوج يمتهنون في الخدمات الشاقة ، ومحظور اليوم على رب البيت أو ربته أن يضرب خادمته أو خادمه ، فالقانون يعاقب الضارب ، وعلى هذا لم يبق من حاجة للعصا والسوط وسائر أدوات التعذيب .

وتطور الإحسان فصارت النفوس تتجه بالأفضال على الجمعيات المنظمة أكثر من التصدق على من يلحون فى طلب الصدقة فى الشوارع ، وربما كانوا من الضعف الذى لا يستحقها ، وراح الناس يجمعون ما فى مؤسسة ويدركون سر الاجتماع لخدمة المصلحة العامة ، ويتعلمون تأليف الأحزاب والنقابات وانصرفت القلوب عن الفردية وشمل الوعى القومى معظم الطبقات .

ولا نقصد بهذا أن بلغنا فى المدنية درجة استجمعت لها صفات الظرف عامة ، فهذا أمر بعيد عنا الآن ، وما وصلنا فى الواقع إلا إلى ارتقاء نسبى بالقياس إلى تخلفنا فى الماضى ، وقد صار حكمنا على الأشياء أقرب إلى الصواب ، وزدنا حرصاً على الأخذ بأسباب التجدد ومحاكاة من تخطونا إلى الرقى ، وهذه درجة محمودة تؤذن بأننا سائرون إلى الأمام بخطى مترنة وما دام الغرب ماضياً قدماً فى حضارته ونحن نقتفى أثره بخطى ربما مضمون لها أن تصبح فى مستوى أرقى الحضارات الحديثة .

كان للحربين الأخيرتين ، وانتشار السينما وشيوع المذياع ، أثر بعيد فى تعجيل نهضتنا الصناعية والاقتصادية والأدبية ، فعممت الحرب صناعات كنا فيها عالة على الغرب ، اضطررنا إليها لما وضعت الحواجز بيننا ، وحققت لنا السينما والراديو ذهنية جديدة قربتنا من ذهنية الأمم الرشيدة ، وعممت معارفنا وسمعنا أموراً ما كان يصل سوادنا الأعظم إلى معرفتها إلا بالزمن الطويل .

فيما مضى نقلت الطباعة والصحافة البشر من طور إلى طور ، وتنقل السينما والمذياع الآن حضارة العالم من دور إلى دور ، ونحن آخذون بحظ ظاهر من كل أولئك .

القول في انحطاطنا

اغتبط المغتبطون بهذا الانحطاط الملموس في بعض البيئات الإسلامية ، وذهبت بهم الظنون كل مذهب في تعليله ، فزعم بعضهم أن الدين هو السبب فيه ، وأن الإسلام دين تواكل لا يورث تابعيه غير الخمول . وقال آخرون إن عقيدة القضاء والقدر ، وما تحمل من تسليم واستسلام ، نزعت من النفوس مضاءها ، وجردت القوم من الصفات التي لا تعيش الأمم الصالحة للبقاء إلا بها .

والحقيقة أن هذا الانحطاط نشأ من مخالفة الدين في بعض ما أمر به ، ولو كان انحطاط المسلمين آتياً من طبيعة دينهم ما كان المسلمون الأولون من العرب ، ومن دخل فيه من أجناس البشر مثلاً صالحاً من بُعد الهمم ، وصدق العزائم ، وتفوق الأذهان . ولو كان الدين يضعف النفوس ما فتح أهله هذه الفتوح في الشرق والغرب ، ولو كان إيمانهم بالقضاء والقدر على ما موّه به المموهون ، ما باعوا نفوسهم في سبيل الله ليحملوا دعوتهم بين السعادتين : الدنيوية والأخروية . كانت هذه العقيدة من عوامل إقدامهم على العظائم أيام قوتهم ، فلما ضعفوا عزا إليها الماحكون من التأثير ما خالف حقيقتها .

كان المسلمون عجباً في تسامحهم مع المخالفين ، ومياسرتهم في قبول ما عند غيرهم من علوم أخذوها راضين مغتبطين ، وما قالوا — وهم في القرنين الأول والثاني ، وللدين سلطان شديد على النفوس — : إن هذا لم يجئ به نص عن الشارع ، ولا قال به أحد

من أهل الصدر الأول ، وعرفوا أن ما ينفع في الدنيا يكون قوة للدين أيضاً . (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنيا حسنة وفي الآخِرَةِ حسنة) .

هذه الفتوحات التي بهرت الأمم ، وهذه النهضة العلمية التي كان لعلوم القدماء حظ جزيل منها لا تصدر في الواقع عن منحط واهي القوى ، ولا عن خامل متموت يفكر في الآخرة أكثر مما يفكر في الدنيا . فالمسلمون قرنوا العلم بالعمل فقادوا خلال أربعة قرون جميع الأمم المعاصرة لهم ، وكان لهم من سيرة صاحب شريعتهم وأصحابه من بعده أعظم مرشد يهديهم الصراط المستقيم . وقد طفح كتابهم بالآيات الحاثة على العمل ، وفي سيرة الصحابة وصالحيهم أعظم قدوة في هذا الشأن .

ولقد أنشأ المسلمون حضارة باهرة كانت أساس الحضارة الغربية المعاصرة ، والبرزخ بين حضارة الرومان وحضارة العصور الحديثة ، وأمة تنشئ حضارة كهذه لابد أن تكون من شعوب لم يعقها دينها عن النظر في العلوم المعروفة عهدها . إذاً فالانحطاط الأخير كان لعوارض أخرى ليس للدين سبب فيه ، والدين [illegible] من تلك الجاهلية الجهلاء التي كانوا فيها ، ومن هذه الأخلاق التي أثرت عنهم ، بريء مما حملوه عليه ونسبوه إليه .

تعددت العوامل التي أدت إلى انتشار الجراثيم المرضية في جسم هذه الأمة المختلفة الأجواء والبيئات ، وكانت سرايتها لدى بدء ضئيلة ، تفشت في العمل والدين ، ثم عمت معظم فروع الحياة . ولعله كان من مرض الخديعة الأولى المعطلة للمسلمين أول خطوة خطتها الأمة نحو الكسل ، وبانقضائه خرجت التجارة من أيدي العرب على ما كان ينشأ بذلك أحد كبار الصحابة وأغنيائهم حكيم بن حزام . وكانت قريش أشرف قبيلة في العرب تعيش بتجارتها حرة فصارت تأتيها رزقها هيناً ليناً . وفي الإسلام

كان أهل كل بلد وجنس يقلدون العرب فى سيرتهم الخاصة والعامة فسرى حب الاشكال إلى الأمصار مع طول الأيام

اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ومن كان يعمل للدولة خارج المدينة وداخلها . ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصى المثمر ، وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب . وكان كل من يمت بصلة القربة إلى آل على أو إلى آل العباس مثلاً يجب على الدولة أن تمنحه وذريته كل ما تطمح نفسه إليه ، وكذلك كل من أبلى بلاء حسناً فى السياسة العربية الجديدة . وكان ذلك من جملة الأعباء الثقيلة التى تنوء بها الحكومات ، وتضعف بها نفوس أصحاب العطاء .

بدت طلائع الترف بما جاء به الفتح من الأموال فى عهد الخليفة الثانى والثالث ، وأخذ يزيد بتوالى الزمن ، حتى إذا كان العهد العباسى الأول ، أصبح أبناء الدعوة وغيرهم يستأثرون بخيره من الجباية والخراج يتناولونه عفواً صفواً . ونما أولاد العباس نمواً هائلاً حتى بلغوا فى مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين ألف إنسان يعيشون من بيت المال ، ومن ضمن له عيشه على هذه الصورة ، لا يحتاج لأن يعمل بيده ولا بعقله ، ويجد من وقته فراغاً يصرفه فى شهواته ولذاته ، والنساء من أجمل ما يلهو به ويعبث ، وكان فى مكنة الموسع عليه أن يقتنى من الجوارى ما يطيب له ، وأن يجمع بين أربع زوجات مهيرات ، ينسلون أولاداً يدفعون بهم إلى الخادمات يربينهم ، وإلى مختلفات الدم والجنس يرضعهم ، وبديهى أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيباً غير طبيعى بؤرة تحاسد وكيد ، لحرص كل زوجة على أن يكون لأولادها لا لأولاد ضرتها الشأن الأول فى البيت .

نعم عاشت الطبقة العلية المجمع على مكانتها هذا العيش الخضل، لم يفتها شيء من مباهج الحياة إلا متعت به، سواء أحله الدين أم لم يحله. هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جنيه، وهو في ذاته مرصد لمصالح المسلمين فقط. وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته، وأهلها عبيده، وعلى المولى أن يستحصل ويجد، وعلى عبيده أن يستهلك ويتمتع. وقد خصت بعض الفرق الإسلامية الزكاة بآل بيت الرسول مع أن الزكاة حرمت عليهم منذ بدء الدعوة فكان ظاهر عملها تكرمة وحرمة، وحقيقته إعانة على تكثير سواد الخاملين في الأمة.

تأصل خلق الاستجداء في هذا الفريق من ورثة الحسب والنسب حتى وهم الواهمون أن هذا العطاء غير معيب، وأن العمل حطة وضعة، ومن النادر أن تجد بينهم من كان على شيء من فقه وعلم، ومن يعيشون بالصدقات ويرون أخذها حقا من حقوقهم، وأنهم من طبقة أرقى من سائر الطبقات، لا يجوز أن يتعبوا أنفسهم بالعمل، والعالم عندهم على ما بدا من حالهم رقيق فيهم رق، كالرقيق يجب على الرعية أن تقدمه إليهم. ولم يتعلموا وهم ورثوا الشرف في دمائهم، وضعفت فطرتهم بعد العلم في متدولهم، وطبيعي الإهمال في بيوتهم، ومنهم من يعتقد المعتقدون فيهم أنهم معصومون من كل ما يجوز على الخلائق من خطأ وخطيئة، وأنهم وإن ارتكبوا المنكرات فارتكابهم لها معفو عنه. وغلا أشياعهم فيهم حتى جوزوا أن يلي أمور المسلمين طفل، فقالوا في دولة يحكمها طفل، وفي رعية هذا مبلغ عقولها من الرضا بحكم طفل.

* * *

الزوايا والتكايا والخوانق، وما قام بعد القرن الرابع في بلاد الإسلام من أضرحة

ومزارات تُشدّ إليها الرحال للتبرك هي عش المعطّلين والكسالى ، إذا استدل بها الغربيُّ على انحطاط المسلمين كان على شبه حق في استدلاله ، ومتى رأيت كثرة هذه المصانع في إقليم فاحكم ولا تتمهل بأن أهله من أكثر الشعوب انحطاطاً . ومن فضل الله أن معظمها دثر وخرب ، لولا أن دب النشاط في العهد الأخير بعض الطرق في شمالي إفريقية وفي الهند والسودان . دع ما هنالك من طرق ومشارع دينية جديدة تتمادى كلها بأنها مطية السياسة ووليدة الجهل .

وللأوقاف وتحصن القوم في أصولها إبقاءً على ثرواتهم من المصادرات ، ووقاية لهم ولذرياتهم من الفقر ، كانت أيضاً من أعظم ما أدى إلى ضعف النفوس . عاش المرتزقة منها عيشاً رخياً كما عاش أولئك الأشراف قروناً عالة على بيت المال ، كانوا أقرب إلى التواني لما حصلوا من ريع ما حبس الواقف ، وأراد به أن يضمن لهم اليسر على الدهر ، عيشة هنيئة فانقطعوا عن السعي وألفوا الانكماش .

زاد الفساد بكثرة المصادرات في الدولة العباسية على ما لم يعهد بعضه في دولة بني أمية في المغرب والمشرق . ومن تأمل حال العباسيين في عهود تدليهم ، وما اختطوه من خطط في سياستهم المالية ، وما كانت تجر إليه من تعذيب وترويع وقتل ، وتدبير مؤامرات ودس ودسائس ، لا يراهم يخرجون عن حد الإسراف في الأخذ والإسراف في العطاء . يمتص العمّال حقوق الرعية ، فيستحلون أبشارهم وأموالهم ، والوزير يستصفي نعمة عماله ، والخليفة يصادر وزيره ، وهكذا كان ملكهم سلسلة من السلب والترف ، تؤخذ الجباية بطرق فيها شيء من الظلم ، وتصرف في وجوه لا يجوّز العقل ولا الشرع إنفاقها فيها ، وكانوا يرون من الطبيعي أن يسرق كل من تولى أمور الدولة وأن يسرقه عماله ، والماهر من يفلت من العقوبات . فلا تجرى عليه الأحكام التي تجرى على

قطاع السابلة . ويمكن إيجاز هذه السياسة فى جملة واحدة : مَلِك مسرف ، ووزير سلّاب ، وعمّال لصوص ، وأمة مظلومة .

بدأت ملكات الأمة تضعف بضعف الساسة وفساد العامة ، وإذا لم يستقم أمر الساسة فى أمة لا تقوم لها صناعة، ولا تجتمع لأبنائها ثروة، ولا يخلد لها شىء من المصانع وفساد العامة بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقلّ فساد الملوك كما قال الغزالى. وأخذ هؤلاء العلماء على عاتقهم محاربة أئمة العقل من المعتزلة تقرباً من الأمراء السوء ، موهمين أنهم يخدمون بذلك الخلافة العباسية لأن المعتزلة ما كانوا يرون حصر الخلافة فى قريش، ومن رأيهم أن تفوض لمن هو أصلح لها. وهذه نغمة لا تروق المحظين من خلفاء العباسيين ، على حين كان المعتزلة من أوثق الرجال فى قصور العباسيين الأولين من بنى العباس . حاربوا المعتزلة تحت كل كوكب، ولما لم يستطيعوا إسقاط حججهم بالبرهان : عمدوا إلى الاستعانة عليهم بقوة السلطان، حتى إذا قضوا عليهم ظهر الجمود لدى أعقابه بسد باب الاجتهاد فى الدين ، وبسده ضعفت علوم السنة والقرآن .

حارب العلماء السوء الفلاسفة كما حاربوا علماء الكلام ، فبادت علوم الفلسفة وهى تقوى العقل وتدفع إلى الاجتهاد ، فخلفها علم آخر ظهر فى القرن الثانى ، وكان ضرره كثيراً ، ونعنى به علم التصوف . كان فى أصله فلسفة أخلاق كما كان علم الكلام فلسفة الشريعة ، فقيض له دعاة العوام فى القرون التالية فاسمعة أوهام أدت إلى تعطيل وتضليل ، وشغل به طوائف كثيرة من الأمة ، كما شغل فريق عظيم بالحديث ، وصرفوا فيه أوقاتاً لو صرف بعضها فى العلوم لظل المسلمون أرقى الأمم .

كان التصوف مضيعة للوقت ، وتزهيداً فى العمل ، وإشغال القلب بمكاشفات وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان ، وما أضر بهذه الأمة علم ، إذا صح أن نسميه علماً ، أكثر مما أضرّ بها علم التصوف ، خصوصاً فى عهد أنشئت باسمه تلك الطرق التى اتخذت منها بعض الدول أدوات لأغراضها ، وأقل ما فى هذه الطرق فناء المريد فى الشيخ أى تعطيل إرادته ، ومنها ما كان مشايخه يدّعون التصرف فى الكون ، ومعنى ذلك التصرف عندهم اغتيال من يعاندهم ، وقد فعلوا غير مرة ، فكانوا أشبه بالفرق التى قامت تفتك بالنفوس ، وتدعو لبعض آل البيت تعمية قيام دولة جديدة . وربما كان خوف المتفقهة من المتصوفة هو الذى دعاهم إلى التساهل معهم فيما يلحظ أنه ينافى الشرع ، ثم إن فى إغضاب المتصوفة إغضاب العوام ، والفقهاء يهتمون لرضا هؤلاء أكثر من اهتمامهم برضا الخاصة ، والعامة كثرة والخواص قلة ، والكثير أجدى من القليل .

كان شياطين الإنس فى كل زمن يحسنون استغلال سذاجة السذّج ، ويبثون بينهم ما يهوون من مذاهب غريبة ، يستحيل أن يعتقد بها إنسان يميز بين المعقول وغير المعقول . مذاهب على ما كان فيها من سخف ظاهر يتجلى بالبداهة لم تعدم أغبياء وأحياناً أذكياء يعتقدونها ، ويستميتون فى الذب عنها ، والدعوة إلى الأخذ بها . والبشر الآن بين نقيضين إما إلى إفراط وإما إلى تفريط ، وكلما تقدم نحو المدنية كثر الملحدون حتى ليسوغ أن يقال إن العالم قد انقسم إلى معسكرين معسكر المؤمنين بكل شىء ، ومعسكر المنكرين لكل شىء .

وآخر سيئات الفقهاء السوء أنهم أفتوا فى الدولة العثمانية بأن يرث ابن العالم وظائف أبيه ولو كان طفلاً رضيعاً ، أى أن العلم الإسلامى أمسى يورّث كما تورّث

الماشية والعقار ، وهــذه القاعدة ضعت حتى الفقه الذى طالما حاربوا من أجله ، وكانوا منذ عهد الغزالى فى القرن الخامس يحرصون على الفتاوى والأقضية لأنها قربهم من السلاطين ، ولا يفتون بتعلم الطب مثلاً ، مع شدة الحاجـة إليه لأن « الطب لا يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام ، وتقلد القضاء والحـكومة ، والمقدم به على الأقران ، والتسلط على الأعداء » .

* * *

وبعد فإن الداعى إلى أكثر هذا الانحطاط أصلان عظيمان ترتبت عليهما أمور وتفرعت مسائل ، وهما : الزهد فى المعقولات ، والصوفى التعلق بالخيالات . ولقد أوقد العلماء السوء نيران الفتن بين فرق الإسلام ، وما كفوا عن مكافحة العلوم العقلية ، يكشرون عن أنيابهم لكل من عالجها ، ويسلطون عليه العامة والسلاطين ، وبعملهم هلك عدد كبير من أهل العقول المستنيرة فى كل عصر ، فانحط مستوى الذكاء واختل ميزان الفهم ، وعلى نسبة ذلك ضعف كل ما له علاقة بالأمور الذهنية ، وبهذا الهول والإرهاب انقطعت الرغبة فى علوم قد يكون تعلمها من أعظم الأسباب فى قتل من ينتحلها ، وعلوم الدين مهما قيل فيها لا تخرج عما يقصد منها وهو إعداد النفوس للتزود للمعاد . أما علوم المعاش فأصبحت مبغضة محرمة لا يجرؤ على الاشتغال بها ، ولو فى سره ، إلا من تساوى فى نظره الموت والحياة . وبينما كانت هذه العلوم تزيد على الأيام انتشاراً عند الفرنجة كان تراجعها يزيد عند المسلمين ، حتى أصبح الإسلام دين آخرة فقط ، وكان فى أيامه الأولى دين دنيا وآخرة ، وغدت النصرانية ، وهى فى أصلها دين آخرة ، دين دنيا وأخرى .

سدت طرق العقل وحرم المتفقهون وحللوا ما شاءوا ، فانحط العلم فى ديار الإسلام ، وكان يرغب فى تحصيله للانتفاع بفوائده بعدما تدرس بعض فروعه للظهور والكسب فقط وبعد أن كانت خطب المساجد ودروسها تجمع ضروباً من التربية الروحية والمدنية ، أصبحت كلاماً فارغاً فى بعد لا الشهور وبركات الأيام ، تفيض فيها الموضوعات والاسرائيليات وكل ما فيه توهين العزائم ، والتزهيد فى العلم ، والرضا بالفقر ، والصبر على البلاء . غدا الخطباء يبثون جهلاً وسخفاً ، ولطالما بث من سبقوهم علماً وتثقيفاً ، على نحو ما كان من القصاص فى القرن الأول ، كان يقص الناس فضلاء الأمة فلما تبدلت الدنيا أصبح قصصهم جهلاؤهم ، وبعد أن كان المؤدبون من طبقة الإمام أبى يوسف والحجاج وعبد الحميد الكاتب وأبى زيد البلخى ونظرائهم من العظماء ، أصبحوا يؤخذون عادة من أى طبقة كانت ، فسرى الضعف إلى الطبقات العالية وكان محصوراً فى الطبقات الدنيا ، وأمسى المسلمون فى واد والإسلام فى واد آخر .

ومن أعظم ما دعا إلى هذا الانحطاط غرام المسلمين فى عصور التدلى بصبغ معظم أمور الحياة بصبغة دينية ، فأدخلوا الدين فى الشؤون الدنيوية ، وكانوا فى عصور الترقى إذا اشتغلوا بالدنيا يحصرون جهدهم فيها خاصة ويجعلون الدين بمعزل ، يصقلون بآدابه نفوسهم ، ويأتون رخصه كما يأتون عزائمه . حدث هذا فى الإسلام كما حدث فى النصرانية فى الغرب ، وقد دخل هناك مزج كل شىء بالدين أكثر من ألف سنة ثم تحرر منه فى عصر النهضة . أما المسلمون فمضوا على ذلك إلى عهد قريب .

وكان الدين فى أوربا — كما قال المؤرخ كستل دى كولانج — حاكماً مطلقاً فى الحياة

الخاصة والعامة ، فالدولة طائفة دينية ، والملِكُ حَبْر ديني ، والقاضي كاهن متبتل ، والقانون شريعة مقدسة ، والوطنية تقوى وورع .

ثم كان من خلط الدين بالدنيا حيف كبير على كليهما ، فقد رأينا المسلمين لما اشتدت حاجتهم إلى مجاراة أمم كانت أكثر منهم مدنية ، وأوسع ملكاً ، وأوفر غنى ، وأشد حمية ، كيف اضطروا إلى التحرر مما قضى حالة العصر العمل على خلافه ، وكيف أن الشعوب الإسلامية التي ظلت توجس خيفة على دينها ، متوهمة أن الاشتغال بعلوم العقل يأتي عليه ، رجعت القهقرى ونجحت فيها أغراض الانحطاط والشعوب التي فرّقت بين مطالب المعاش والمعاد وسارت فيها بالعقل ، وأعطت كلا منهما حكمه ، صحت الفريقين في نهوضها ، وما جسر أحد أن يتهمها بالخمول .

ومن أقوى أسباب الانحطاط إهمال أمر المرأة ، وكان الإسلام منحها من الحقوق ما سلبها الجهل إياه ، وجعل لها مقاماً لم يجعل لها مثله دين سماوي ، فحاول المسلم المنحط أن يجردها من حقها الشرعي ، واضطهدها وامتهنها متغفلاً عما كان لها من الكرامة في العصور الإسلامية الأولى . وكان من مغالاة الرجل بإبقائها في الجهل المطلق أن يأتي أولادها مراض الأجسام والعقول لا خير فيهم لأنفسهم ولا لمن حولهم ، ذلك لأن أمهم طبعتهم بطابعها الذي لا تملك غيره ، ومن معمل مختل لا يخرج إلا المعتلّ المختلّ .

ربما يبدو لبعضهم أن يدعي أن النصارى في بلاد الإسلام ـ مثلاً ـ لا يصدق عليهم ما يصدق على المسلمين . قول فيه وجه من الحق ولكن لا على إطلاقه . فالفلاح اللبناني في الديار الشامية مثلاً أرقى من الحوراني لأن الأول أقرب من البحر ومن

العمران ، وأوربا مدنته لغرض سياسي وديني لها . والفلاح الحوراني أهل كل الإهمال منذ مئات من السنين حتى عاد أو كاد إلى حالته في الجاهلية ، ومع هذا لو كتب له من يأخذ بيده الى سبيل التمدن ما تخلف عن المسيحي إلا بما لا بد منه من الفرق بين طبيعة الإقليمين . وليس القبطي في مصر أرقى من أخيه المسلم وهما يتشابهان كل التشابه . وكان من إنشاء الأميركان في أسيوط انتشر مذهبهم بين الأقباط ما رفع من شأنهم كما كان الشأن في بيروت مع الجامعة الأميركية .

ومن أسباب التباين الظاهر اليوم في بعض القرى المختلطة من النصارى والمسلمين أن هؤلاء شقوا قرونًا بالحكومة الفاسدة ، لكثرة ما أهلكت من أولادهم في حروبها وأرهقتهم به من فادح مغارمها ومظالمها ، بما كان أهل الذمة في الجملة في حل منه . وكان تقفل حال المرأة المسلمة وضعف أمرها في الغالب وحدها سيدة في بيتها على ما هو الحال عند المسيحيين من العوامل في ضعف البيوت ، وبضعفها ضعف مجموع الأمة .

وما حلت الرئاسة الدينية عند النصارى من محاسن ، ولا رئيس لدى عندهم سلطان على أرواح رعيته ليس للمسيح المسلم مثله ، يدبرها ، وينظم شؤونها ، ويؤلف بين قلوبها .

هذا وقد أقبل النصارى على ارتشاف العلم مبكرين قبل المسلمين ، ولما جاراهم جيرانهم شاركوهم بما كانوا استأثروا به من الصناعات ، واحتكروه من التجارات ، وبرزوا تبريزهم في معاناة المسائل الحيوية ، وخرجوا بالتربية الحديثة عن ترمتهم ، وراحوا يقتبسون أمورًا كانوا يعدونها محرمة أو غير شرعية فمارسوها راضين مختارين. أما سقوط الأخلاق ، فالطوائف كلها متشابهة فيه . لا فرق بين مسلم ونصراني

ويهودى وغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى ، والشأن الأول فى الانحطاط وتقيضه للتربية العملية والروابط الاجتماعيـة . ومن عادة الطوائف الصغيرة فى الطوائف الكبيرة أن تتماسك وتتآزر وأن تهمل الكثرة أمرها فتدب فيها الفوضى يعقبها انحطاط .

ثم إن المسلمين بعد أن نهضوا قليلاً ما قصروا فى أمور الدنيا عن جيرانهم فى شىء ، وهذه جمعياتهم فى الديار الشامية هل تقل عن غيرها من الجمعيات النصرانية نظاماً وحسن عائدة ؟ وهاهى بيوتهم التجارية ومعاملهم وصناعاتهم هل هى دون مشاريع غيرهم نجاحاً وانتظاماً ؟ وفى مصر من الأعمال العظيمة التى قامت بأيدى المسلمين ومثل مما هنالك من نهوض . إذن فالمسألة مسألة تعليم وتربية ومن سبق إليهما فاز ومن تخلف فتح المجال لأعدائه حتى يرموه بكل نقيصة .

***

أمة عاشت قروناً فى حكم الاستبداد لا ترى رواجاً فيه لغير الاحتيال والاستسلام يَعُدُّ ولاتها الجهل قوة ، والتفرقة بين الأخ وأخيه سياسة ، لا يتأتى أن ينشأ جميع أبنائها نشأة صالحة ، ودولة يطول عمرها وهى تكذب على شعبها ، وشعبها يكذب عليها ، مغتبطة بكم الألسن ، وشمل الناس بالتفرقات ، لا يكون رعاياها إلا ضعفين جاهلين ، والخنوع انحطاط والجهل موت . هـذه الأمة التى طال فى الخمول سباتها ، لطول ما نام عنها زعماتها ، ولكثرة ما عمل على جهلها دعاتها وهداتها ، وغفل عن مداواتها أساتها ، أفيقت لعهدنا تنفض عن عاتقها غبار الخمول ، وتثب الى العالم وثبة شجاع يقظ ينشد ضالته ، ويضرب من حالوا دون تقدمه ، ويقبض بيده على زمام

ترقيه ، فكان له ما أراد من منزلة بين المتمدنين يوم طرح الدعوى ، وأقر عينيه من جهل ، يلتمس أسباب الوصول إلى سعادته . وأخذت رتبة البيت ترقى رقيةً محموداً فى الحالة ، إذ قيس حاضرها بغابرها ، وهاهى تنسل أولاداً صالحين حتى ليتعذر على المتعنّت أن يصمهم بالنقص الذى كانوا عليه . كل بلد حكم الجهل فيه قام الانحطاط فى ربوعه على ساق وقدم ، وكل أرض توفر أهلوها على التغلب على انحطاطهم ينتظرها مستقبل زاهر يبشرها بالهناء والسعادة .

القول في نهضتنا الأخيرة

يقول بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية: ان القول بأن العالم الإسلامي كان في سبات عميق قبل أن ينهض بتأثير أوربا في القرن التاسع عشر مبالغ فيه كثيراً . أي أن المسلمين لم يكونوا في انحطاطهم كما صورهم بعض من تعمدوا الكذب عليهم لغرض من الأغراض . ولا مشاحة في أن العلم كان حتى في الممالك المعدودة من الأقطار الراقية في حالة نزع مؤلمة . ونقصد بالعلم هنا العلم الديني ، لأن علوم القدماء كانت قد انقرضت فيها منذ قرون . ودخل على الدين بجهل المسيطرين عليه ما ليس منه فأفسد جوهره الصافي ، وتخرج منهم فاسدون وجهلاء لا يصلحون للدين ولا للدنيا .

بدأ ضعف العلم في أرض المسلمين بعد أن سبق الضعف سياستها حقبة طويلة ، فأخذت العلوم الدينية تميل بعد القرن الخامس إلى الفتور ، وهبطت العلوم المدنية هبوطاً عظيماً في السادس والسابع ، وتراجعت علوم الحضارة فلم يبق من يسد أزرها سوى أفراد نزر عددهم منحلة روابطهم . أما العلوم المدنية الأخرى فظلت مدونة في الكتب لا تتقدم بشيء جديد ، ولا ينتفع بحقائقها حق الانتفاع . ولاذت علوم الحكمة بأهداب البقية ، وحجبت عن أنظار المستفيدين بحجاب كثيف من التعصب الذميم ، وسقطت الأمة بسقوط الهمم والعزائم ، وفساد الأخلاق والتربية ، وضعف الوازع والسلطان . ضعفت العلوم ومن ضعفها الخطر على المشتغلين بها النظر في أصولها

من الكتاب والسنة ، وتعطلت العقول ، واشتغلت الأذهان بالفضول . وبُهت عموم اللسان فانحط الشعر والنثر والخطابة انحطاطاً محسوساً حتى تكاد لا تجد منذ القرن التاسع مثالاً شاعراً أو ناثراً يعجبك بيانه ، ولا تكاد تسقط على المعنى البارع والفكر الدقيق ، ولو نظرت إلى كلام أهل هذه العصور بالجملة . وأحسن التآليف ما أجاد أصحابه الاقتباس من الكتب القديمة مع حذف الأسانيد وتعمية المصادر ، فحق لعصورهم أن تدعى عصور الجامعين والمتحيين .

وفي القرن الثالث عشر وقد بعد من العالم العربي أكثر ما تقوم به حياة الأمم من المعارف ، وأصبحت الأفكار في جمود وأهمل كل ما يرقى بها ، وأمست الأقاليم تسير على غير هدى ، لا منهاج تعمل به ولا دليل يقودها . وآلت السياسة إلى أيدي الأعاجم لا يسمحون لرعاياهم أن ينموا على حساب أنفسهم ولا على حساب غيرهم لاعتقادهم مضرة النور على العقول وإن كان هناك تعليم فهو ناقص الجهاز من معظم نواحيه .

دام هذا إلى أن قامت مصر بشبه دولة عربية ، فسرت منها شعلة ضئيلة من العلوم الحديثة إلى الأقطار المجاورة بفضل ما أنشأه محمد علي من مدارس ومعامل وما أرسله من بعثات لتخريج الأذكياء بالعلوم . وفي هذه الحقبة كان باي تونس يسير على منهاج والي مصر في التمدين . وبعد سنين توارد دعاة التبشير إلى الساحل الشامي فأنشأوا فيه مدارس ، ونشروا مع مذاهبهم مدنيتهم . فصاحب الفضل الأول في نهضة العرب هو محمد علي الكبير ، ولو كتب له أن يضم إلى مصر ديار الشام والأقطار المجاورة كجزيرة العرب وبلاد الرافدين لكانت خدمته للمدنية العربية أوسع نطاقاً وأوفر عائدة .

لا جرم أنه كان لمصر — حتى على عهد قوة العثمانيين — شيء من الحكم أشبه باستقلال داخلي ، وكان أهلها يختلطون كالشاميين بشعوب البحر المتوسط ، وبدأوا يحسون منذ أول القرن الماضي أنهم دون شعوب جنوبي أوربا في كثير من مقومات الحضارة . وإلى ذلك كان الأزهر في مصر ، وفيه حفظت ثمالة علوم اللسان والدين ، أرقى من جامعتي الزيتونة والقرويين ، ومن بعض مدارس دمشق وحلب والقدس والموصل وبغداد والنجف والحرمين وصنعاء وصعدة . ومن الأزهر خرج أناس جسروا على الأخذ عن بعض العلماء الذين رافقوا نابليون يوم وفى مصر فاتحاً ، ومن الأزهر بين نشأ بعض دعاة التجديد وأركان النهضة المصرية الحديثة . خرج الأذكياء منهم بنور سرى إليهم بعضه من تلك البيئة الصغيرة فحرصوا على استخدامه ونشره في الجملة . والأزهر في أكثر عصوره كان يخرج أئمة للجوامع ووعاظاً للقرى ، أما النوابغ المعدودون في القرن الواحد فقل أن يجاوزوا رجلين أو ثلاثة . وغاية علم العالم يومئذ أن يجيد حفظ ما روي عن القدماء لا يزيد عليه ولا ينقص .

وبعد أن دثرت المدرستان النظامية والمستنصرية في بغداد ، ومدارس الري ونيسابور وأصفهان وشيراز وغيرها في فارس ، وتعطلت دروس الحكمة والفلسفة ضعف التفكير الإسلامي ، وكان هذا الانحطاط مما لا يؤبه له في العصور الوسطى ، أيام كان الغرب في غفلته ، فلما أفاق من كبوته تبين الفرق بين ابن الشرق وابن الغرب ، وبين العالم الديني عندهم ونظيره عندنا ، والعالم المدني في بلادهم ومثله في جماعتنا .

ولولا أن قضت القدرة الإلهية ألا يخلو أكثر الأقطار من أفذاذ يقومون بالدعوة إلى الإصلاح في العصر بعد العصر بقدر ما تساعدهم وسائطهم ، لرأيت معظم الأقطار العربية كبوادي جزيرة العرب اليوم لا علم ولا عمل . وكثيراً ما كان المصلحون يستهدفون لغضب الحكومات بتأثير الرعاف من رجال الدين ، وكأن هؤلاء أقسموا أن يقاوموا المجددين بضروب من المقاومة ، ويحاربوهم حتى في المجمع عليه من الأفكار الصحيحة ، وثبت أرباب الإصلاح مستعذبين ما لقوا من العذاب في سبيل دعوتهم ، واحتالوا على حكوماتهم بنقد ما يمكن انقاذه من تعليم ، وأنشأوا المدارس والجمعيات ، وعلموا الصغار كيف يستعدون للجهاد في معترك الحياة ، يبثون العلم النافع في أقطار أظلمت بالجهل أحقاباً طوالاً . وكلما أخذ المتأخر عن المتقدم زادت النهضة العربية الحديثة انتشاراً .

وفي الحق إننا مدينون بكثير من أسباب نهضتنا للغرب ، وما زلنا عالة عليه نقتبس منه ونتمثل ولم ينته دور الأخذ والاحتذاء . أخذنا ما أخذنا منه وأدمجناه في أوضاعنا فصارت فيها كأنها أصيلة غير دخيلة . وكلما قويت الرغبات في قطر على الاقتباس من غيره ، برزت فيه المدنية في حلة أجمل مما هي في الأقطار الجامدة . فمدنية مصر أرقى من مدنية الشام ، ومدنية الشام أرقى من مدنية العراق ، ومدنية العراق أرقى من مدنية الحجاز واليمن وما إليهما ، ومدنية تونس أرقى من مدنية طرابلس وبرقة ، ومدنية الجزائر ومراكش أرقى من مدنية بلاد السودان .

ويدعو الإنصاف إلى الاعتراف بأن أكثر ما تم في الممالك العربية السائرة نحو الرقي إنما يرجع إلى الحكومات القابضة على زمام الحكم . ونهضة كل بلد موقوفة في الغالب على ما خص به رجال سياسته من حسن نية ، وبعد همم وتوثب أذهان ،

وبديهي أن رجال الإصلاح مهما بلغ من علمهم وصدقهم لا تتحقق آمالهم إذا لم يعاضدهم ولاة الأمر، لما جُبل عليه الشرق من توقع الخير أبداً من الحاكمين، خلق رسخ في النفوس أطول ما أتى على العرب من حكومات قلّ فيها الإخلاص وفقد منها النظر في مقومات الملك . وكان يحدث في كل زمن شبه مقاطعة يتصرف المتغلب بمقدراته على هواه ، والرعية تستمد من الاستقرار ، والاستقرار على كل حال أجدى من الفوضى .

نعمت مصر من بين سائر الأقطار العربية بعلمائها ، وكان فيها من مدارس يقصد منها التبشير أولاً وبالذات، وكان للأجانب سلطان عظيم على أبنائها في بعض الأصقاع ، وأخذ بعض أبنائها من مبادئ العلم الحديث ما نفعهم . وغُلّ الدينيون أيدي رجال الدين عن العمل ولم يكن لهم شيء من السلطان على الحكومات ، وحُرّروا لأنفسهم أن يكونوا فوق نادي حضرة الحكام كيف كان نوعهم ، وكانوا إذا اتهموا بأنهم خرجوا عن مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقوا بعضد هذه الدولة لأنها مسلمة وتقوم بدعوى الخلافة ، وكانوا مع الضعف ، حتى في العلوم التي يدعيها العلماء الرسميون ، إذا رأوا ما حل بالناشئة من الانحلال تذمروا وزمجروا . وبلغ منهم العجز أن كانوا لا يملكون لرد عادية المدارس الجديدة غير الدعاء على من كانوا السبب في إنشائها ، والقذف فيمن يقول بقولها ويأخذ عنها ، ومنهم من كان يتذرع بذرائع الانتقام ممن عدّوه خارجاً على الشريعة ، ولكن هذه الطرق الملتوية لم تأت أصحابها بخير لأن سلاح خصمهم ماض وسلاحهم مفلول ، سلاحه منطق ومعرفة ، وسلاحهم ثرثرة وهراء . ومن عدم السلاح المرهف الحد لا يكافح ولا ينافح .

وقد ظهرت بالاختبار صعوبة التوفيق بين أرباب المدارع المختلفة في التربية .
ورأينا خريجي المدارس الرسمية ما دبرتهم حرارة القومية لقيام بما يناسب ماضيهم
ويمنع أمتهم في الحاضر والمستقبل . وكان عوام بعض من تخرجوا من مدارس الغرب
الاستهانة ببعض ما هو وطني ، واحتقروا في الأكثر لغة آبائهم وعدوها نقيبة وصعبة.
وشعب لا يتشبع بحب ممه يفلت من يده مفتاح سعادته . والتربية الأجنبية على ما
فيها من نواقص بالنظر إلى العرب كانت أرقى من مدنية الدولة الحاكمة يومئذ ، وهي
لا يتخرج بها إلا شخوص متحركة بحسب الوجهة التي توجهها إليه السياسة . ومن
تعلموا في مدارس الغربيين في الشام ومصر كان لهم إلمام ـ ولو قل ـ بلغتهم أمامن تعلموا
بيكونوا ضباطاً وعمالاً فلم يحسنوا اللغة التي تعلموها ونسوا لغتهم . وأياً كان فقد تأتى
من مجموع هذه التربيات أساس نهضة خرج بها بعض السكان من تيه القرون
الغابرة إلى بحبوحة المدنية الجديدة ، وأثرت هذه النهضة الأوربية تأثيراً بدل معظم
مظاهر الحضارة . ومن رأى الأقطار العربية في أواخر القرن الماضي ورآها اليوم يدرك
الفرق بين ذاك التدلي وهذا الترقي ، وبين هذا النور الساري وذاك الظلام الدامس.

أصبح الناس بفضل معاهد العلم يدركون قصورهم ، وقد عمل في نفوسهم كل
ما شاهدوه من آيات الحضارة الجديدة . واقتبسوا بأنفسهم ، أو بما وصفه لهم العارفون،
بعض حسنات المدنيات الراقية وانتفعوا بما رأوه وسمعوا به من تأثيرات مدنية القرنين
الأخيرين في الغرب، ولا ينقصهم الآن إلا أن يرتبطوا برباط واحد، وإلا إلى من
يوجههم إلى غاية واحدة، وهذا يتوقف على جهود يشترك فيها الراعي والرعية اشتراكاً
فعلياً اختيارياً لا صورياً اجبارياً .

وبعد فان هذه النهضة باكورة ثمرة غرست شجرتها متأخرة فاقتضت حالة الطبيعة فى خلق الأشياء أن تأتى عليها أعوام أخرى حتى تتفرع فروعها، وتستوفى كمال نموها، ليجتنى أصحابها الطيب من ثمرتها، وبضعة عقود أخرى تجعل من هذه الشجرة دوحة أزلية، ويصبح عرب العراق والشام ومصر والغرب الأدنى والأقصى فى مصاف الغربيين من أكثر الوجوه، وربما كان لهم من حضارتهم أمور جوهرية قد تعوز الحضارة الغربية الحديثة. والمعوّل الأول فى هذا الشأن على تأليف حكومات يقصد القائمون بها نفع الجماعة قبل نفع الأشخاص ويكون همها نشر التعليم بين جميع الطبقات توجيهه وجهة عملية اقتصادية، فان النظريات التى يتلقنها اليوم صاحب الشهادة العالية فى أزيد من اثنتى عشرة سنة لا تؤهله ليكسب قوته من طرق حرة، وعملية التعليم إذا لم تنصرف إلى ما يستطيع معه المعلم أن يعلمه، يوشك أن تجعل من صاحبه عضواً مؤوفاً.

وجدير بالفرد أن يتذوق الحياة، ويسعى لها سعيها، ويعمل لراحته وهنائه، والعلم ثمرته، وطيب العيش ثمرة من ثمراته. وهناك شؤون ما برحت ناقصة عندنا، وأهمها إشراب النفوس ملكة التجويد فى الأعمال، وتقدير المسئوليات على أنواعها، ومراعاة القوانين وتطبيق المصطلحات المدنية فى البيوت وخارجها، وأن يعمل العارفون على أن تسرى بين الرحّل وابن القرار، ويشترك فيها المدنى والقروى مشتركة لا ينفصل فيها الشريك شريكه فى شىء.

وما برح الفلاح — وهو أكثر من ثلاثة أرباع السكان — يؤلمه ما يلقاه من معاملة بعض أبناء المدن وأرباب الدولة، لأخذهم من كلمة (الفلاح) معنى من معانى الجهل والفظاظة، وما الذنب على القروى فيما آلت إليه حاله، بل الذنب كل الذنب على من

أهملوا أمره . سألني رجل من الفلاحين عن سبب احتقار ابن المدينة ابن القرية ، فقلت هذا جهل كانت تنميه الحكومات لاعتقادها أن الوطنيين إذا تآخوا يتألبون عليها ولا يمدون رءوسها على العمياء ، فكان شأنها شأن من يرى بوادر الثورة في عمله ، ويريد أن يقضى عليها قبل أن تتوسع ، وأول ما يأتيه قطع الصلات بين الثائرين عليه . والحكومات هى التى ألقت التنافر بين الأسرة الواحدة فصعب بعدها جمع جماعة على مقصد واحد . قد يكون بينهم أفراد على استعداد للعمل الجماعى ، فإذا دعوتهم اختلفوا وضعف مستوى تفكيرهم ، وهم وادى كبعض أفراد الأمم الناهضة ، فإذا تألموا جماعة كانوا كأحط الناس .

وكان من التربية الناقصة أن خرج من بعض الشبان بالثرثرة وعريض الدعوى وكان عليهم تجويد العمل وحسن الاستماع . فالشبان يعورهم من يتحرجون بهم عند إلقاء دروسهم ، والكتاب وحده لا يكفيهم ، وهم فى حاجة إلى من يهذب من حواشيهم . وأن بعض ما يطلب من المتعلمين استظهاره فى الثانوى والعالى قد لا يجديهم كبير أمر فى مستقبلهم ، وحفظ أشياء لا تبقى فى الذهن إلا ريثما تؤدى الامتحان ، إذا لم يشفعها ما يؤهل صاحبها للعمل به عن أن يكون عالة على غيره لا ترفع من خمول ، ولا تنشل من انحطاط . والاعتماد على الحافظة كل حين يمرضها فلا تقوى إذا حُمِّلت فوق طاقتها على حفظ ما يعيد الدارس بعد حين . ثم إن لسنا على ثبات فى إقدامنا وإحجامنا ، ولم نعين أوضاعنا تعييناً دقيقاً . وما انصرف كل الانصراف إلى ما يستدعى عنايتنا قبل غيره من الشؤون . أخذنا ما اتفق وتركنا أموراً كانت ضرورتنا إليها أمسّ ، أخذنا البسائط السهلة وأغفلنا ما رأينا فى تمثله صعوبة ، وفى تحصيله بعض العناء والمشقة .

قال لى مطلع : إن ايران انتدبت (قبل هذه الحرب) بضع مئات من شبابها للإحصاء فى جامعات الغرب ، وكلهم يدرسون العلوم المادية الصرفة ، ويكاد لا يوجد أثر فى دراساتهم للعلوم الأدبية ، فقلت إن فارس عقلت الآن وسيكون لدولتها شأن ربما تستعيد به ما كان لها من مكانة على عهد الأكاسرة وفى القرون الأولى للاسلام ، ونحن فى وسعنا أن نوجه شبابنا توجيها حديثاً وأن نحسن شؤون الماشية أكثر مما أحسناها على رغم معاكسات المعاكسين ومدفسات المدلسين .

لا تشكو بلادنا جدباً فى تربتها ، ولا ضعفاً فى ذكاء أبنائها ، وإنما تشكو خللاً فى التربية ، وقلة اتقان فى الأعمال ، ونقصاً فى استخدام القوى الصانعة ، وأن يتعلم أبناؤنا الصدق فى القول والعمل ، وألا يحتقروا ما يبدو لأعينهم حقيراً لأول وهلة ، ولا يتكلموا قبل أن يتفكروا ، وألا يعتزوا بما تعلموا ودرسوا . ونحن إذ نطلب هذا لا نطلب المحال ، ولا نتكلم من عالم الخيال . فقد رأينا كيف نهضت الديار الشامية مثلا فى ابانها ، وأحرزت المقام الأول بعد مصر دون سائر الأقطار العربية ، لما توفرت على احياء قديم لا بأس به ، واعتمدت على سواعد أبنائها أكثر من اعتمادها على الغريب ، وما استطاع المهيمنون أن يزحزحوها عن حياض العلم لما صحت نية أبنائها على المضى فيه ، وما وفق المسيطرون بعد أن اختاروا طبقة من المتعلمين للاحصاء فى الجامعات ليكونوا دعاة لهم ، ورجع أكثر من ذهبوا متشبعين بحب قوميتهم لا يتخذون عن خدمة أمتهم بديلا ، ولا يفكرون فى أن يهجروا أرضهم إلى غيرها حتى قال أحد عظمائهم : ما أدرى كيف تم ذلك ، فشأن من تخرجوا فى جامعاتنا نشأة لا تتفق مع مصلحتنا ، وعادوا من أكثر الوجوه بأفكار كما نود أن يحملوا غيرها

ممـا ينفعها ، ولعلنا أخطأنا فى تركنا الخيار لهم فاختاروا الأصلح لأنفسهم لا لسياستنا .

وفى جيل واحد بدأ سنة ١٩٠٨ بنشر الدستور العثمانى وقوى بعد سنة ١٩١٨ ، وقد غادر الترك الشام ، وضعت أسس التعليم الابتدائى والثانوى والعالى والصناعى والتجارى ، وأنشئت دور الكتب والمكتب فى الحواضر وخزائن الأسفار فى المعاهد العلمية ، وتخرج مئات من الأطباء والحقوقيين والمهندسين والماليين والزراعيين والمعلمين والمتأدبين ، ومنهم من أتموا علمهم العالى فى جامعات الغرب ، وأتقنوا بعض لغات العلم وأحكموا النقل عنها ، وأتوا قومهم بما لم يعهدوه من معارف غيرت فى كيانهم .

ودخل النظام الحديث على البيوت المالية التجارية والصناعية وعرف أهل المدن فائدة الشركات فنموا من أصنافها ما ساعدتهم حالتهم عليه . وكان يندر فى القرويين من يحسن قيد حساباته ، فغدا بعضهم يمسكون دفاتر لدخلهم وخرجهم ، ويدركون حوالة الأسواق وتصريف حاصلاتهم ، وأصبحوا يستكثرون من غرس الأشجار يستجيدون لها أصنافاً لا عهد لأرضهم بها ، ويختارون بذوراً وأسمدة وطرق حرث وكرث كلها جديدة ، وبذلك كثرت الثروة كما كثر عدد السكان بانتشار المعارف ومراعاة مبادئ الصحة ، وظهرت أمارات الغنى على بعض أهل القرى ، فاستجدوا البيوت وتأنقوا فى فرشها على نحو ما فعل أهل الحواضر ، وانقلبوا يتجملون بالثياب المطيفة ، وجاروا أهل المدن بأزيائهم وهندامهم .

ومن أعظم مظاهر هذه النهضة ارتقاء أحاديث العامة ، ودخول تحسين كثير على لهجاتهم ، وكلامهم اليوم أرقى من كلام بعض الخواص فى القرن الماضى ، وكتابتهم أرقى من كتابتهم ، وقد شاعت الكتابة بالعربية ، وكان لا يحسنها غير أفراد قلائل

فى المدن ، كما شاعت معرفة كثير من اللغات الغربية ، تعلموها فى أسفارهم وأخذوها من المدارس ، وما صدر بالعربيـة من التآليف خلال ربع قرن فى الفنون المختلفة برهان حق على أن الذكاء الذى كان مدفوناً انكشف لما صقلته التربية الحديثة ، ومن ذلك رغبة جميع الطبقات حتى البوادى فى تعليم أبنائهم وبناتهم ، وكانوا إلى عهد قريب يبعدون بهم عن التعلم لاعتقادهم أنه يضر بمعتقداتهم ويعبث بآدابهم . وكان بعضهم فى القرن الماضى يحتالون حتى لا يعلموا أبناءهم وغدوا فى هـذا القرن يلجأون إلى أنواع الحيل ليعلموا أولادهم على ما يحبون وتقتضيه حالة العصر .

أنف الناس المطالعة إلى اشتد غرام المتعلمين بها ، وكثر اختلاف القوم إلى الأندية العامة لسماع المحاضرات والخطب مع ما يستمعون إليه كل يوم من أحاديث الاذاعات العربية المتنوعة الموضوعات ، وأولعوا بشهود روايات السينما وسماع الموسيقى ، وأنشئت الجمعيات والشركات المختلفة المقصد تعلم الفقير واليتيم ، وأثبت الشامى كفاءة فى أكثر الحرف والصناعات ، وكلما صحت نيته على الجمع بين القديم والحديث تستقيم له أداة تمدن لا تنزع منه مشخصاته ، وتقربه من كل ما فى مدنية الغرب من حسنات .

مشت الشام على أثر مصر وأخذت العراق أخيرة تحذو حذوهما فى نفس أسباب الترقى ، وتخلفت الأقطار العربية الأخرى حيث نكص عن اللحاق بالأقطار الناهضة ، والرجاء مع هذا ألا تمضى أعوام قليلة حتى يشترك كل قطر عربى فى الأخذ بمذاهب هذا التمدن ، ويلحق اللاحق بما سبقه إليه السابق فيظهر النبوغ فى أكمل مظاهره على ما كان فى القرون الأولى للاسلام .

استمد العالم العربى من كل قوة جاءته من العرب ، لأنه كان وما برح كالصلة والعقد بين المعروف من قارات الأرض القديمة ، وأثر ذلك فى عمران هذه الأقطار

تأثيراً حسناً . وكان على نسبة أخذ القطر الواحد بحظ من هذه المقدمات تتبدل طرق حياته ومناهج تفكير بنيه . وما نراه من تنظيم طرق الري وطرق الحديد ورقي الزراعة والقضاء في مصر ، وما يظهر من جميل هندسة البناء وتجويد بعض الصناعات والأعمال الزراعية في الشام وتونس ، كله من آثار العلم الذي لقفناه وتمثلناه .

إن زراعتنا اليوم غيرها بالأمس ، وتجارتنا اليوم غير تجارتنا البارحة ، وهكذا قل في صناعتنا وأعمالنا الحرة والاتكالية ، ونحن ما زلنا نبحث للوصول إلى الكمال ، لنستر مواطن النقص ، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال ، والجهر بالقول أقرب مرحلة إلى بلوغ الأمل من العمل ، وخير النهضات كخير الثروات ما قام بأيدي أصحابه ، وسار بسير القانون الطبيعي ، وكل ثورة اجتماعية أو فكرية هي محصول الكتاب والكتّاب ، والعقل العربي الذي شاد في القديم قصر غمدان وسد مأرب ، وعمر في الإسلام أموي دمشق وقصى البيت المقدس وقصور سامرّا والفسطاط ، وقصر الحمراء وجامع قرطبة وسدود بلنسية لا يستحيل عليه يوم يتمثل المدنية الحديثة حق التمثل أن يعمل أكثر مما عمل ان شاء الله .

القول فى تهافت طباعنا

سأل سائل لماذا تحب فلاناً وفلاناً ولا يبدو منك ميل إلى فلان وفلان ، وكلهم فى الظاهر أبناء حرفة واحدة وسمعة واحـدة ، وأحوالهم متشابهة ، فكان الجواب أن ميزة الأولين عفة النفس والتفكير فى خـير الأمة ، أما تركاهما فآخران يعتقدان أن الأعمال العامة لا يقصد من توليها إلا ملء الجيوب من الطيب والخبيث ، والحياة عندهما لا تتطلب من صاحبها إلا أن ينظر لنفسه فقط .

ولقد كنت وما زلت أعلل ما يبدو من أخلاق بعضهم بقانون الرجعة أو مماثلة الجدود ، والرجعة ميل الأحياء الحية للرجوع إلى صورة الأجداد البعداء ، وبتأثير هذا القانون يعود الإنسان على صورة أجداده الأولين ، ومن شأن هـذه الرجعة أن تحلى الأخلاق بالصفات التى تجلت فى الأسلاف ، صفات تنتقل أو تنمو بتأثير البيئة والعادة . والولد الذى يشبه جده ولا يشبه أباه أهون مثال فى هذا الباب .

لا جرم أن قانون الرجعة ظاهر الظهور كله فى الخلق ، وكثيراً ما رأينا التربية الصحيحة تتغلب على بعض الناشئة فيخرجون أحسن سيرة من أهليهم ، ولو زادت العناية بالأبناء لجاء منهم رجال أرقى من آبائهم ، فارتمى العالم بتكثير سواد النافعين فيه ، وإن كان من الصعب أن يأتى من النذل تقى ، ومن اللص أمين ، ومن الفاجر برّ ، إلا بمرور عدة أجيـال ، وتوالى بطون كثيرة ، ولا عبرة بالشواذّ . وما كان

التعليم وحده ليجبر هذا الوهن فى الخلق ، وما كان لدم ملوث أن يطهر إلا بمعالجات طويلة .

عرفتُ اثنين من أُسرة غنية تعلما تعليماً عالياً ، وظهر الذكاء على مخائلهما منذ أول نشأتهما ودارت الأيام فرقى كلاهما إلى منصب سام كان يظن فيهما أن يجوّدا عملهما ، فإذا التعليم العالى لم يعدهما إلا جرأتهما على الباطل ، وإذا بقانون الرجعة يتجلى فيهما رغم الألقاب والشهادات ، وإذا النفس هى نفس أولئك الأجداد الذين جمعوا أموالهم بالنهب وسفك الدماء . ونشأ هذان المتعلمان يستحلان كل ما يتوهمان فيه نفعاً معجّلا لهما ، لا فرق بينهما و بين اللصوص إلا أنهما لصان اكتسبا الكسوة المدنية ، وركبا السيارات ، وجلسا إلى موائد حديثة ، ونزلا الدور المجددة .

تأملت تربية هذين الشخصين وتدبرتُ ما صدر عنهما ، ومنه ما يخجل منه أسقط الناس مروءة ، فما شهدتهما يخرجان عن تربية أجدادهما ، وربما كان هؤلاء أقرب إلى السذاجة ، وما خلَوْا من صفات طيبة . وزاد المتعلمان من أبنائهم لؤماً جديداً إلى لؤم قديم ، وجسرا على العبث بالقوانين ، وما وصلت قريحتهما إلى أبعد من أغراضهما المادية .

وشهدت أديباً نشر كثيراً من الشعر والنثر ودعا إلى الفضائل ، ينهب فى شبابه كبير رؤساء دينه ، ويسرق فى كهولته أوراقاً لأحد كبار السياسيين وكان نزيله ، أُخرجت الورقة المسروقة من فمه وكان يريد أن يبتلعها ، والله أعلم كم سرق مدة خدمته فى الحكم . وقد خلف ولدين سارا على طمع سيرة أبيهم ، يغتصبان كل ما طالت أيديهما إليه ، وقد سقطا مرة فى أيدى القضاء باتهامهما بسرقات وسجنا مدة ثم تخلصا . وعرفت

رجلاً من رجال الإدارة كان فساده على نسبة ذكائه كان كله ضرراً على الناس حتى أولاداً أورثهم ذكاءه وفساده، وأبناء اللصوص لصوص ولا تلد الحية إلا حية.

وفى قُطَّاع الطريق من هم أعف نفساً من كثير من المجلين العاثمين ، لأن من السآمة من يدعوهم فقرهم إلى ارتكاب ما يرتكبون بمارض نفسى خبيث ، قد يعرض مثله لمن كان فى أرقى من طبقتهم ، ولا يأخذون من عَرَض الدنيا أكثر مما يسد حاجتهم.

قص على أحد قدماء الأشقياء قصة استعرتها على ما نحواه : كنت فى عنفوان الشباب ، وأنا ممسوس من فرق لى قدمى بالشقوة ، ورمح بى العوز ذات يوم ، فانفتح لى باب رزق هدتنى إليه الفاقة ، وذلك أنى علمت أن فلاناً (من كبار المزارعين) قد باع شيئاً من حاصلات مزرعته ، وأن كيس الدراهم الكبير قد جعله فى عربته تحت مقعد الحوذى ، فعرضت له فى الطريق وهو آيب مساء إلى داره ، وكان معى بعض رفاق انتحوا ناحية عنى ، فلما مرت العربة أشرت إلى السائق بالوقوف فوقف، وأشرت إليه أن يبتعد عن مقعد السائق فبعد ، وفتحت الكيس وأخذت منه أربعة ريالات لى ومثلها لكل من رفاقى . فقال السيد : زد يافلان ، فقلت له ياسيدى هذا ما نحتاجه ، فقال لى : تعال غداً إلىّ فبن لى شيئاً معك ، فجئته وأعطانى وأعطى كل واحد من رفاقى جُوالق حنطة ، وقال لنا إذا احتجتم إلى شىء أخبرونى لأعطيكم ما تحتاجون إليه . أليس هذا الشقى أشرف من أولئك السادة لممدين ؟ ومعاملة المزارع الكبير له ولرفاقه ما خلت من مروءة ومرونة .

قام فى العهد الأخير شاب متعلم فوقع فى مهاوى الشقوة ، على صورة لم يتبين الدافع لها ، وأخذ يقطع الطريق ، ويعتدى على الأغنياء ويُفضِل على الفقراء ،

وقصوا من أحاديثه الصحيحة ما يعجب ، قص على أحد الأدباء أنه كان فى جملة قافلة السيارات يوم اعترضهم ذاك الشاب مع بعض أعوانه فى بعض الأودية فسأله عن حاله، فلما علم أنه من بيت أدب أعفاه من أخذ شىء من ماله ، وقال له : إن العلماء والمشايخ والقسس يجب ألا يضايقوا ، بل ينبغى أن يعطوا ولا يؤخذ منهم شىء ، لأنهم وقفوا أنفسهم على خدمة الخلق ، وكان من جملة المخدرات المسفرات فى هذا الركب إحدى ذوى قرباى ، فأخذ منها بواسطة زوجها أساورها فقط . ذكروا من جملة حكايات ذاك الشارد أنه اجتاز به شاب مع عروسه ، فسألهما عن المكان الذى يقصدان إليه ، فقالا : إنهما ينويان قضاء شهر العسل فى القرية الفلانية ، فسألهما عن المبلغ الذى أعداه لذلك ، فذكراه له ، فطلب منهما أن يرياه ما فى حقيبتهما من دراهم ، ولما أيقن أن المبلغ ضئيل قال لهما : هـذا لا يكفيكما ، وأخرج من جيبه مبلغاً لا يستهان به وقال لهما : خذا هذا تستعينان به على نفقة الشهر على ما يجب ، ودعا لهما بالهناء والرفاء. أليس هذا الشاب الذى وصفوه بالشقى ، وما هو به فى فطرته ، أشرف من بعض من يتصدرون فى المجالس ويتبجحون بالصيانة والدين وهم طبقة ما نديت أكفها بكرم، ولا هزت نفوسها أريحة .

حدثنى العلامة طه الراوى العراقى قال : أخبرنى شيخ قبيلة لمدع من المنتفق أن شيخاً من شيوخهم يقال له حمود غزا قبيلة من قبائل العرب فاستولى على أموالهم ومواشيهم ، وانهزم رجال القبيلة ونساؤها من أمامه ، واحتل الغازى بيت الشيخ ، وبينا هو جالس إذ أقبل هودج على جمل ولم يزل يقرب حتى أنيخ الجمل أمام بيت الشيخ ، فسأل الشيخ عمن فى الهودج فإذا صوت امرأة تقول إنها جاءت لتلحق

يخوّل الشيخ لأنها لا تستطيع أن تعيش بين نساء قبيلتها ، والسبب فى ذلك أنها عروس بُنى بها بالأمس ، ووقعت المكنة على قبيلتها صباح اليوم التالى أى غداة ليلة البناء ، فأصبح النساء يتشاءمن بها فلم تجد بداً من الالتحاق بالشيخ حمود ليجعلها ضمن السبايا . فسكر الشيخ قليلاً ثم نادى فى أعوانه أن ارتحلوا فى الحال ، ولا يأخذ أحدكم شيئاً من أموال القبيلة وأنه وهب جميع هذه الغنائم لهذه العروس ، فعليها أن تطمئن مع زوجها ولا يتشاءم بها نساء القبيلة . ورحل تاركاً وراءه الغنائم كلها ، والعروس لا تزال فى هودجها ، لم يهتك لها ستر .

ومن الأشقياء من كانوا يعفون عن ركوب الخنا ، وتبدو منهم أخلاق قد لا ينطوى على مثلها بعض أولئك الذين ندعوهم بالراقين ، ورأينا كثيرين من الأشقياء تسمح نفوسهم للفقراء مما كانوا يسلبونه من الأغنياء ، ومنهم رجل اشتهر فى إحدى الولايات التركية كان مثل الأخلاق الفاضلة والسماحة العجيبة ، وما كان هدفه غير الأغنياء ، ثم هو ينصفهم إذ يسلبهم ، وما تعدى على عِرض قط ، ولا أراق دماً بدون حق ، ولذلك أعجز القبض عليه حكومة تلك الأيام ، وكان الأهالى يعجبون بأخلاق ذلك الشارد ويخبئونه فى بيوتهم .

وعرفت شاباً سار على طريق نهب السابلة مدة ، فاعترض فى بعض غزواته راهبات كن يقصدن ديرهن ، وكانت بينهن راهبة جميلة الطلعة ، فأحب أحد رجال العصابة أن يعتدى على عفافها ، فصرخ فيه صرخة دوى لها الجبل والوادى وقال له : يا فلان إنا نريد ما عليهن من الذهب فقط ، فلما جىء به إلى المحكمة مع الراهبات سُئلت الراهبة الجميلة عما إذا كان رئيس العصابة هذا الشاب هو الذى استلب منهن

صلبانهن ودراهمهن ، فتأملته باسمة وقالت : لا ، ليس هذا ، مرأته المحكمة . فلما رأى ذلك الشارد من مروءة الراهبة ما قدم هو مثله معها يوم قطع طريقها ، ذهب من الغد إلى المكان الذي كان دفن فيه الصلبان والذهب ورده برمتها إلى الراهبات المحترمات .

ولهذا الرجل قصة وقعت لي معه ، ذلك أني كنت في جريدتي أكتب حوادث اعتدائه على بعض أبناء السبيل ، وأحث الحكومة على القبض عليه . وكان هو ممن يقرأ الجرائد ، ويعرف ما يقال فيه ، وساقته الأقدار إلى أن يختبئ في دار أحد أصدقائي في قريتي ، ورآني أكثر من مرة وأنا ممتط فرسي وهو مختبئ في طريق وسط السياج في بعض الحقول البعيدة عن المزرعة ، وبيده بندقية ، وما أحب أن يطلق عليّ عياراً ناريا منها وقال إن هذا الرجل وإن كان يؤذيني في جريدته إلا أن القوم يحبونه ويتبعون ما يكتب . وهو من أسرة ما كانت الشقاوة إلا عارضة في ابنهم هذا ، وتاب بأخرة وحسنت سيرته .

وإذا جئنا نحلل روح أولئك الذين يزعمون لك أنهم من أبناء بيوت نابهة ، وقدنا بعض أولئك الذين غلا الدم في الضرب على أيديهم ، نجد فروقا جوهرية بين الفئتين . فمن بين من كتب لهم ظهور ونجوا من طائلة العقوبات وهم يستحقونها وبين من يعدون في العرف من الطبقات الدنيا بونا في الأحايين ، وفي هؤلاء قد ترى مسحة من فضيلة عريت منها نفوس بعض أولئك العيون . إن المجتمع قد يعلي من لا يستحق إلا الخفض ، أو من هو حري بالصفع ، وقد يسقط من هو أهل أن يقام له بعض العذر فيما صار إليه .

لقانون الرجعة سلطان مبين على الرجال والنساء، لا تخفف وطأته إلا التربية الصالحة، ولا بد مع ذلك من توالي بطون حتى يسلم الدم، وتمحو الأمشاج، وتلطف الأخلاط. ذكروا أنه وقع لكافور الإخشيدي ملك مصر وكان عبداً زنجياً، ما أنكره منه حاشيته وأنكره هو من نفسه، فتداركه بحزمه ودهائه، ذلك أنه عزفت الموسيقى يوم الحفل مرة فأخذ يحرك كمه كما يحرك العبيد أكمامهم إذا طربوا وتواجدوا، فتفطن لذلك وزيره بطرفه المستنكر، فأدرك كافور غلطه، وأن حركة كهذه لا يليق صدورها من ملك، فما كان منه إلا أن داوم على هذه الحركة عند سماع الأنغام وعند انقطاعها، حتى اعتقدت رعيته أن العادة في كمه مستحكمة، طبيعية فيه، وما أتاها أول مرة من خفة تلحق بالعبيد.

قيل إن تحكمت عادة الوراثة حتى بعد قرون طويلة. في إحدى قرى غوطة دمشق أسرة تعرف ببيت السفياني نسبة لأبي سفيان بن حرب جد بني أمية، وكان جدهم السفياني قام بعد ذهاب ملك أهله في القرن الثاني يدعو لدولتهم، ويجاذب العباسيين حبل السلطة. ولا تزال هذه الأسرة تحافظ على آدابها العربية القديمة، ما حدثت لهم دية، ولا تجرأ أحد على إيذائهم، ولم تعط حصص في حقلهم وحقوقهم لا يسهون فيه جيرانهم، ويبدو النبل في شمائلهم، فهم لا يشتمون ولا يسبون ولا يجدفون ولا يحلفون بالطلاق، ولا بالأيمان المغلظة عند كل حديث، هم مثال ظاهر من الوراثة والرجعة ومصداق المثل الافرنجي «الدم الطاهر لا يكذب».

ومن تأثيرات الرجعة أن تجد النساء على اختلاف طبقاتهن وأعمارهن وعصورهن

مولعات بالزينة إلى حد الجنون . وقد تصل حب الزينة فيهن منذ كانت الدنيا إلى أن يأذن الله بفنائها .

ومن الرحمة مثل في الناس والحيوان في الخَلق والخُلق . وصحيح ما قاله قديماً إن العرق نزّاع والعاقل لا ينظر من الناس إلى صورهم فقط ، بل يتدبرهم في كل ما طرأ عليهم ، ويطيل النظر في أمورهم ويقيس حاضرهم بغابرهم ، ولا عبرة بالثوب الظاهري فقد قيل في الأمثال الفرنسية : ليس الراهب بثوب نفسه ، ولا الحساء الجيد بما كتب عنه من إعلان .

القول فى ثوراتنا

الثورة عصف على معنى رجعى ، لتحقيق حاضر فيه تجديد ، وفصل بين وضع جديد . وقطع الرجاء من عودته ، والاستعاضة عنه بآخر يرجى الخير من تجديده نشب لا لإبدال حكم حر مطلق بحكم فرد مستبد أو بنقض على عقائد ثبتت ، أو مذهب سياسى يطمع فى نشره أو لغير ذلك من مقاصد

ومن أنواع الثورات ما يدعاه غوستاف لوبون ثورة العلمية قال إنها من أهم ضروب الثورات ، وتحمل نتائج ذات شأن أكثر من الثورات السياسية ، وهى أحدر أن تدعى ثورة بخطر نتائجها ، منها أن تدعى ثورة ، وذلك مثل نظريات داروين التى قلبت علم الحياة ، واكتشافات باستور التى غيرت علم الطب ، ونظرية فناء المادة وكان الاعتقاد السائد أن الذرة جزء لا يتجزأ .

ما جرت العادة أن تقلب الثورة عين الأشياء ، بل تعدلها وتدخل فيها روحاً جديداً ما كان لها . والثورات أبداً وليدة الشدة والعنف ، لا هوادة فيها ولا ضعف ، شوكها أكثر من وردها ، وجنيها على الجملة أقل من بذرها .

ليس فى الأرض شر محض ولا خير محض . فقد نعتقد فى أمر شراً ويسفر عن شىء من الخير ، ورب أمر اعتقدت صلاحه ، وإذا هو ينطوى على شرور . وأمور العالم لا تتصرف كل حين على قواعد المنطق ، ولا تحد بحدود العقل والبصيرة .

رب ثورة كان أمرها أكثر من حدث، وأنتجت ما لم يكن ينتظر منها. وكم من مغامرة ظن صاحبها يهذي فإذا هو يؤسس بحركته دولة، ويشيد لأمة مجداً. وكم من دولة قد عني بتدبيرها وحفظها الحكماء حقبة، فذهبت في ساعة ما تعب المؤسسون في إنشائه أعواماً.

تقذف الثورة من غمرة سرعان ما يجري فيها إلى البعيد والقريب، وتتناول الوادع الآمن كما تتناول المتعصب المحنق. وقد يدخل فيها الثائر مرغماً أحياناً وراضياً أحياناً، وموقناً بالغرور أحياناً وموقناً من كل ضر أحياناً. ويستبسل فيها من يستبسل ويرى الموت عياناً، ولا يجوز أمسه عار الهزيمة. وقد يهلك فيها الأبرياء وينجو الثائرون. ورصاصة الثورة طائشة عمياء ليس لها دليل تتحرى مواقع الرمية.

الثورة قرينة الفتوة، والثوار فتية أغمار على الأغلب، يقل فيهم الكهول وبدر الشيوخ. وفي كل ما عرف من ثورات العالم كان حظ الشباب أجزل من حظ غيرهم. وهذه ثورة الإسلام إنما كان الشأن الأعظم فيها للفتيان نصروه بأنفسهم وأموالهم، وهونت عليهم أصعب المكاره في نشر دعوتهم؛ ولما حدت المطامع شبانهم على الاستئثار بالمظاهر والمغانم، كما استأثر بها الشيوخ بزعمهم، فشلت ثورتهم، وبخاصة لأنها كانت للدنيا، والدين يلوح به تلويحاً. كانوا في ثورتهم الدينية جد مخلصين، وما كانوا كذلك في ثورتهم الدنيوية.

وفي العادة أن سوء الثورات الوطنية بالحيلة متى بدت من الثائرين أمور تنافي العهد الذي عاهدوا، والرأي الذي بثوا. وهذه الثورة الفرنسية لما أخرجها رجالها عما كان فيها من معان شريفة، وراحوا يقتتلون لمآرب لهم، وأمسى شعارهم الظاهر والباطن ذلك القول المشهور عندهم: «تنح أنت حتى أجلس أنا مكانك» لما أتوا ذلك

كانت سيئات ثورتهم أكثر من حسناتها ، وكان الواجب على من قاموا قومتهم الجريئة ألا يخلطوا فى ثورتهم غير ما قصدوا له ، وأن يتركوا المجال لأرباب الأعصاب الهادئة يقضون ويحكمون .

النجاح مضمون للثورات التى تقوم على البصيرة تركيبها ، ويسلطن الحق من ورائها يؤيدها . والثورات التى تعرو الرعونة أركانها ، ويضعف لأول عارض إيمانهم بدعوتهم ، وتتحول عسية من يتولون كبرها فى الآخر إلى ما لم يكونوا عليه فى الأول أنذرها بالخيبة والاخفاق .

فى الثورات تحكم العواطف ، ويتراجع المنطق السليم ، وقد يطاش منهم الثائرين فيضطهدون العقل ومن يخاطبهم بعقل ، ويصيبهم الغرور فلا يرون فى الوجود غير أنفسهم . وكل ثورة تجمع إلى العاطفة الحادة القوة المادية تسير الهدية ، ومتى تغلب العملاء على الجهلاء أتى الدماء المطلولة والأموال المنهوبة تعطل التقدم ، وإذا أصبحت الكلمة العليا للرعاع ، جاءت النتيجة حقيرة مثلهم ، والحقير حقير فى كل ما يأتى ويذر .

يقول غستاف لبون : مهما كان الداعى إلى الثورة فهى لا تثمر الثمرة المطلوبة إلا إذا نزلت إلى روح الجماعة . ومعظم الثورات ثورات الأخلاق والأفكار ، وعقلية الشعب لا تتبدل بتبديل اسم الحكومة ، ولا يعد قلب أوضاع أمة تجديداً فى حياتها . وقد حاول رجال الثورة الفرنسية للمرة الأولى منذ كانت الانسانية أن يقيموا الناس والمجتمعات باسم العقل ، وأعظم ما ناله الشعب استمده مخقوق ما كانت له ، ولكن الربح الذى تم بقتل هذا الخراب العظيم كان يمكن الحصول عليه مدحين بفعل التمدن ، وقد علمتنا وقائع الثورة أن كل شعب تخلص من القيود الاجتماعية وترك للدوافع

الفطرية فيه لا يلبث أن يسقط في وحشية الأجداد ، وكل ثورة شعبية نجحت كان نجاحها عودة موقتة إلى البربرية اهـ .

* * *

تقوم الثورات بحساب ، شأنها في ذلك شأن أعمال العلم ، وما لم يقم على هذه الطريقة كان فيه الضرر أكثر من النفع . انظروا إلى الثورتين الأخيرتين في مصر والشام تشهدوا النجاح قرين الثورة المصرية الأخيرة لأن القائمين بها كانوا ممن نجذتهم التجارب ، ودرسوا ثورات الأمم ، واعتبروا بالثورات المصرية التي أخفقوا فيها ، ولما عادوا يروضون ثورتهم برأي حصيف ، مقدرين الممكن وغير الممكن ، عامدين إلى السياسة يستخدمونها أولا ، وكان مقدار العقل في حركتهم أكثر من العاطفة ، أثمرت لهم ثورتهم بعض ما كانوا يرجونه منها .

أما الثورة الشامية فكانت العاطفة أكثر مما يجب ، ارتجلت ارتجالا قبل أن تمهد لها الأسباب . وكان فيها تخصص شديد الدس ، وعدمت الموازنة بين قوة الثائرين ومن ثاروا عليهم ، وليس في صفوف الزعماء وحدة في الرأي ولا في العمل . وما استطاعت الدولة التي كانت تحكم على ثورتها أن تجدد جهرا ما حققت ، خلافا للثورة التركية الأخيرة فإن من زادها من تذوب عوامل زمانها على خصومها معونة فعلية ، وما قدر للدولة التي دفعت بجيوشها التركية إلى الخروج أن تأخذ بيدها إلى النهاية . وكان عدو الأتراك الظاهر دولة شجاعة ودربة وأريحية . وهل كان الثائرون إلا أمام دولة حربية قوية ، ومن جيش مدرب ، يستشيرون موقفه ، ويصدقون عدوهم ، ويقفون في تراجعهم فيها ، وفي وثباتهم بخلاف غيرهم حتى ظهر ، وأوقعهم على غرق من الحق ، وأخذوا في دفاعهم عن ثورتهم فضعف عنهم من يحبهم ومن لا يحبهم . أما محاربوهم

فحاربوا تؤزهم ثورة اعتداء مغرورين بوعود حلفائه . ونجح العراقيون فى ثورتهم لأنهم كانوا مخلصين فيها ، وقامت بعض أصقاع العراق بها بعامل دينى وقومى .

ونجح ابن سعود بثورته فأسس ملكاً واستولى على بلاد أجداده نجد والأحساء ، ثم على الحرمين الشريفين وما إليهما . ولم تنجح الثورات التى ثار أهلها على ابن سعود لأنها كانت عوامل مجهولة المقصد ، وهو قوى بجيشه وسمعة حيلته ، فرق شمل المتآمرين عليه الثائرين على سلطانه ، كما لم تنجح ثورة الأشوريين فى العراق وإن قيل إن أيدى قوية كانت تعضدهم .

قد لا يوافى النجاح المرتجى الثورة فى سبيل فكرة أو عقيدة إذ عمد فيها إلى السرعة ، وهذا النوع من الثورات تعوزه الروية والأناة . ورأينا ثورة الترك على كل ما رأى أنصار الجمهورية القضاء عليه من أوضاعهم لاقتباس كل ما هو غربى ، والمبالغة فى نزع عقائدهم عن نزعها على من اعتقدوها ، لم يكتب لها الظفر المطلوب لدوام دعاتها أن القوة المادية هى كل شىء ، وسواء أكان من تسلل ما يعوزه الزمن ليعمل عمله ، أكثر مما يقتضيه سن قانون جديد وإبطال آخر متأصل فى اللحم والدم . والأمة التى تسحق كثيراً بنشر القوانين ، تعطل منها وثبت مسرعة ، تركن إلى تثاقل فى حياتها .

لما ثارت مصر والشام على الجمود ، ونجحت بنية وحدة الرأى فيهما على الأخذ من مدنية الغرب ، مع الاحتفاظ بمقدسات الأمة نجحت ثورتهما ، لأنها كانت مقرونة بهدوء وبصيرة فصح أن ندعى نهضة ونشوءاً ، لا ثورة تأتى على الأخضر واليابس راعى رجال هذه الثورة العسكرية اعتبارات كثيرة وأدخلوا إصلاحهم على أمتهم

متدرجين فيه ، متوقعين من الزمن تحقيق رغائبهم الباقية ، ولئن أبطأ تأثيرها بعض الشيء لقد كان ما دخل منه راسخاً رسوخاً يتعذر استئصاله .

هم رجال الثورة التركية بكل ما أتى من طريق العرب ، وعدوا اقتباسه سعادة وما عداه شقاء وضربوا القديم ضربة لم يبق معها فيه غير أمور ما أمكن التحلل منها ، فكان شأنهم شأن من أعوزته لغة جديدة وفرضوا على أمة تعلمها في الحال ، وقالوا لها : انسي لغتك الأصلية ، وتحدثي بما صنعناه لك من لغة مرتجلة . وشتان بين أمة ركبت تركيباً مصطنعاً ، وأخرى صنعتها الأيام وكفلت نسمة الترقي الطبيعي .

كانت مجموعة مدنية مصر والشام أرجح في الميزان من مجموعة مدنية تركيا ، إلا الجيش فإن الترك مقدرون بجيشهم منذ كانت لهم دولة . وكانوا في كل عصر عبارة عن معسكر لا عملية لأهله إلا ما كان ذا علاقة مباشرة بالقتال والصيال . أما الجيش بمصر والشام في العصر الأخير فقد ضعف بعض القائمين بالأمر ، وكانوا يحاولون نزع روح الجندية من أهل القطرين . وكان هذا الروح ظاهراً الظهور كله في الأعصر المتقدمة . وما قوة جيش محمد علي بخافية على العربيين ، فقد كان أرقى من جيش الدولة العثمانية صحة ادعى الحربي العظيم ، وما كانت مصر يومئذ غير ولاية من ولايات السلطنة .

ولنا أن نقول بعد هذا إن الثورات الفكرية قد لا تسرع نتائجها كما تسرع الثورات السياسية ، وثورة الفكر لا تتوقف على القوة فقط ولا بد فيها من الأخذ بقوى أخرى . الثورة السياسية هبة وسكون ، والثورة الفكرية متوقفة أبداً على استعداد طويل ثم تهب من ذاتها ريح طيبة .

من مقومات الحياة فى الأمم ما يتوقف نجاحه على النشوء الطبيعى يجرى حكمه فيها . فقد حرص رجال الثورة التركية أخيرة على إدخال الروح التجارى والزراعى والصناعى فى أمتهم فلم يحصلوا على كبير أمر بعد عمل نحو ربع قرن . وظل العرب أرقى من الترك فى هذا المعنى ، شهدت لذلك معارض تركيا ومعارض الشام ومصر ، وأيد ذلك الواقع المحسوس . والمظنون أن رجال الترك لن يوفقوا إلى بلوغ الهدف الذى يتطلعون إليه من دفع أمتهم إلى مجاراة الشعوب الأوربية قبل مضى أجيال كثيرة .

مثل كل الأمم لا تستحيل قوية إن لم تكن حرارة الترقى منبثة فى الجسم كله ، والنقص فى الخلق والخلق لا يتغير فى سنين .

مثلما أوردنا بأمثلة مدركة قريبة منا ، ولا يعدم الناظر فى التاريخ العام عشرات من الأمثلة من هذا القبيل يستأنس بها فى حكمة الثورات ، وقيام الجماعات .

القول فى صحافتنا

كان فن الصحافة أو نشر صحف الأخبار فى جملة ما أخذناه فى القرن الماضى عن الغرب . ولما كانت الثقافة العامة يومئذ ناقصة ، والأمية عامة والجهل مطبقاً ، جاءت الصحافة عندنا فقيرة ضعيفة . ولم تنشأ بالعرب صحافة بالمعنى الذى تدل عليه فى أوربا وأميركا إلا فى مصر على عهدها الأخير ، ثم فى الشام . وسار العراق مؤخراً على قدم هذين القطرين ، فكانت له صحافة كالصحافة الشامية ودون الصحافة المصرية . ولم تقم فى جزيرة العرب صحافة ولو ضعيفة لأنها تكاد لم تخرج إلى اليوم عن البداوة ، ويقل جداً المثقف من أبنائها ثقافة عصرية . والصحافة فى شمالى إفريقية لا تعد راقية للضغط على الأفكار والاستبداد بالحرية .

أتت الصحافة بفوائد جلى عرف بها من كتب لها ، لرواج بينهم معنى المدنية ، وأطلعتهم على أحوال الأمم وخصائصها ، والدول وسياستها ، وحملت إليهم مجالات من العلوم والآداب كان يتعذر الوصول إليها على غير أرباب الاختصاص من العلماء ، فالصحافة كانت مدرسة سيارة جمعت فأوعت ، أنارت الأفكار وجعلت من قرائها طبقة راقية يصح عدها فى الأمم المتمدنة . وأخرجتهم عن عزلتهم فعرفت بهم كل أمة ما عند الأخرى .

صحافة كل أمة مرآتها ، يتجلى فيها علمها وجهلها ، ومليحها وقبيحها ، وقوتها وضعفها . وإذا كانت فقيرة بمادياتها أو معنوياتها أو بكليهما معاً وجدت الحكومات

والأحزاب والشركات ميلاً إلى أفسدها، تعطيها قليلاً لتفسده كثيراً، فيضيع الغرض الأسمى منها.

ومن البلاء أن يعتقد العاجزون عن تحصيل رزقهم أن الصحافة مورد عيش هنيء يبرز فيه حتى من ليست له أهلية سابقة، ومن لا يحسن قراءة جريدة كيف له أن ينشئها ومن فقد أبسط الدعائم قياماً للأعمال أنى يتأتى له النجاح في عمل عظيم يتوقف على معرفة ومران ومال وتنظيم.

وتساهلت الحكومات بمنح امتيازات الصحف لبعض الطفيليين على هذه الصناعة الشريفة، ولو عرفت سوء عاقبة ما ارتكبت لساقتهم إلى الفحص أولاً كما يفحص الأطباء. ذلك لأن الضرر الذي يحدثه الصحفي الجاهل في العقول ليس أقل مما ينجم عن يد الطبيب الدجال في الأجسام. وكم من صحفي طماع أو جهول جرع قراءه السم الزعاف ولو علم لأنالهم الترياق النافع، وكم من صحف ورطت بأمتها في حرب كان منها تراجع أمرها وخلقت لها مشاكل سياسية أعيا الحذاق حلها.

ولذلك وجب على الصحفي أن يكون على علم كثير وخبرة واسعة، وأقل ما يتحلى به اتقان لغة أو لغتين من لغات العلم والسياسة، وأن يكون من طبقة تحسن استعمال عقلها، ولاحتفاظ بكرامتها، وممن عنى بالبحث والدرس وتذوق الشرائع، وأحاط بتاريخ أمته ومجتمعها وحياتها الاقتصادية، وثروتها وصحتها وقوتها وضعفها وأوضاعها وأحزابها ونقاباتها وشركاتها.

والصحيفة المفيدة هي التي تنشر كل ما يهم الاطلاع عليه، وتذكر إلى جانب أخبارها السياسية مقالات صحيحة في فنون مختلفة تعلم القراء وتسليهم، ويلزم فيها البساطة في الأداء، فيتيسر لمن لم يسعدهم الحظ بالدراسة الواسعة، أن ينتفعوا فيها

ما يحتاجون إليه فى تنمية ثرواتهم وتحسين ماسكاتهم ، وما يتريبون ببحثه فى مجالسهم وفى بيوتهم إذا خلوا إلى بنيهم وبناتهم وزوجاتهم، أى بنشر ما تلد تلاوته، وتستسيغه الأذواق وتهضمه النفوس .

وقد حاولت الصحف الكبرى فى مصر أداء هذا الغرض ولم تبرح مقصرة عن صحف الغرب الراقية ، لأن عدد مشتركيها قليل بالقياس إلى القراء الغربيين ، والجرائد الكبرى فى أعظم عواصمنا لا يبلغ مجموع ما تطبع كل يوم مجموع ما تطبعه جريدة واحدة من جرائد الولايات عندهم . وجرائدنا متخلفة من حيث مظهرها الخارجى فلواجب التفنن فيه والعناية بفن الطبع والوضع والتحبير والتصوير ، وتنويع أساليب العرض لمرى . وأنه يراعى فيها أمر المقالات فلا يكون منها المطول الممل ، ولا القصير المبهم ، و تتوخى فيها السهولة والوضوح أبداً . أما المقالات العلمية والأدبية المطولة فهى من غرض المجلات الدورية وكل ما ينشر من أبحاث فى الصحف السيارة يختار فيه الايجاز .

بقيت الإشارة إلى مسألة لها شأن فى تصنيف الجرائد وهى نزعتها السياسية فالأمة تصنها جرائدها كما يصنعها سحر أحزابها وتلاعب ساستها وقادتها ، وانتشار شهوة المال فيمن بأيديهم موتها وحياتها . هذه فى الأمم التى تتمتع باستقلالها أما فى الشعوب الصغيرة المقطورة وراء غيرها فجرائدها سبب كبير من أسباب بلائها إذا استحت صحفها أن تتسول معونات من عدة دول ، وأن تدعو لأكثر من مذهب سياسى . وهناك صحف تضلل العقول كأن تنقل خرافات على أنها من الدين ، وتنشر الخزعبلات المصرة فى قوالب فصول ظريفة تريد ضعة الأفكار ، وقد يتعمد صاحب الصحيفة نشر السفاهات والمهاترات والهزؤ بالشخصيات ليضحك قراءه .

لسسة الغرب طرق فى الاحتيال لاستخدام الصحف ، وصاحب الجريدة الذى يعتقد أن كل ربح يجيء به صحيفته حلال عليه ، وأن له أن يخدم كل غرض حمل إليه مما كأن يعلن عن المشروبات الروحية وعن بيوت الفجور والخلاعة ثم هو يزعم أنه حران يساوم على شرما يشر دائماً واحده القانون فعمل وقد رأينا موضوعات أباحها القانون فكان فيها بعض الضرر . وعلى الصحف أن تدرك أنه إذا ملك المين من صحيفته فلا يملك روحها وسياستها ، وكيف لصاحب جريدة يبيع شرفه أن يتولى تهذيب أمة ويرشدها إلى طريق سعادتها .

من أجل هذا كان من الظلم أن توكل سياسة صحيفة إلى شخص واحد ، وأن تسير الجريدة على غير منهاج مقرر والأولى توسيد أمرها لجماعة وهذا أشرف لمكانتها وأبعد عن مزالق التحايل ، تصدر برأى ناشريها ومرافقة عمالها ، وعمل الجماعة المنبعث عن مناقشة واستشارة أصح فى الغالب من عمل الفرد وأدعى إلى الثقة والاستمرار .

وكما أن الجريدة الواحدة لا يقوم بعد اليوم بتحريرها وإدارتها الفرد ، وتحتاج حتما إلى أيد كثيرة وكفاءات متنوعة ، كذلك لا يصح أن تعتمد فى سياستها على واحد ، والفرد مهما بلغ من ثقة قومه به مظنة الميل مع مصالحه الخاصة . ولا يخرج عن هذا الحكم إلا الشاذ ، والشاذ لا يبنى عليه قاعدة .

بلغ من فقر الصحف فى بعض الأقطار أن تصدر ستة واحداً سياستها وأخبارها ومقالاتها وحجمها وورقها وطبعها وربما اتفقت بأوقات صدورها ، كأنهم ينشرون نسخة واحدة مختلفة الطبعات والأسماء ، تدار بإدارة واحدة وتحررها يد واحدة . وجرائد كهذه متشاكلة فيما ترويه من أخبار وأفكار تقل فائدتها ويضيع الغرض من نشرها ،

والقراء لا يستفيدون من جرائد ريبة في مظهرها، تنشر ما وقع لها عرضاً، أو ما اقتبسته من جريدة تصدر في بلد آخر، أو ما نقلته من ديوان رسمي ومكتب دعاية، ولا تسمى هي في جنب ما قد يكون أعود على مطابعها، وأجلى قيمة من صحف تصرف على ميدان واحد وتردد نغمة واحدة وتنشر أخبار القصبة وتغفل عن أنباء ديارها.

كان يذكرنا هذا الضرب من الصحف بجرائد الولايات على العهد العثماني، وكان قصاراها أن تنشر مقررات الحكومة المحلية وأنباءها وإعلاناتها الرسمية، وغايتها التسبيح بحمد الوالي الأكبر وعظمته، والابتهال إلى رب السموات أن يحفظه ورجال دولته، وليس فيها شيء من الفكر ولا ما يرجى منه نفع في رفع مستوى التهذيب، تقرؤها فتقرأ حروفاً وجملاً وسطوراً، وبدا عصريتها كانت عصريتها بلا زيادة. ولكن العهود تختلف، وأمة يقال لها مستقلة تحتاج إلى لون من الصحف ما كانت تحتاج مثله أيام كانت تابعة لغيرها.

لو كنا نعرف كيف يجتمع أرباب البصيرة فيؤمون شركاتهم، ويربحون بالمساهمة ما يتعذر على الفرد أن يقوم بمعظمه لصحت يتم على توحيد هذه الصحف أو أكثرها وإصدار جريدة أو جريدتين متقنة في كل صورها، والربح من مثل هذه الصحيفة أضعاف ربح الصحف الفقيرة، وعلى تلك النسبة تعظم تأثيراتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية.

مضى على الصحافة العربية نحو جيلين كان لها دور حضانة ودرس، وها قد وصلت الآن إلى دور الفتوة، تعلمت في مدرسة قاست فيها الأمرّين من المحن التي أتت عليها في فترات صعبة على الأقلام، وكانت الحروب والثورات، وتحكمات جهلاء المراقبين أقلّ ما عاشت في مصائبه ومصاعبه. أما وقد أصبحت تتمتع بحرياتها بعض الشيء

فواجب رجالها أن ينعموا بنعمة هذه الحرية ، ولا ينسوا ما مرّ بأهل صناعتهم من خطوب ، وعليهم أن يعملوا لأمتهم على توجيهها إلى خيرها لا تعميه عليهم أهواء غيرهم يعملون لسحق من أمتهم لا يعز عليهم على اتساعه ناسبة العمل ، ولصوص المال .

الصحفي قاض يتجدد على الأيام ما يعرض عليه من القضايا ، ويقتضيه أحكامه ذوقاً سليماً ، ونقداً عادلاً ، وأدباً عفاً ، وقضاياه أبداً معجلة لا مؤجلة ، تنظر في أحكامه محكمة الرأي العام . الصحفي حامي أمته ومحاميها ، وسيدها وخادمها ، ومعلمها ومهذبها . وهو صاحب دعوة تفسد دقّ هوى تنتهيه . ومربي عقول ونفوس ، ومنشئ أمة وعمران ، وليس هو بالتاجر العادي إذا ربحت عروض تجارته فقد بلغ سؤله .

الصحافي معلم لا انتهاء لمهمته إلا بانتهاء عمره ، ومهمته تتلوّن كل ساعة بلون ، ويطلب من صاحبها أبداً أن يطلع على قرائه كل يوم بجديد . هو يجمع إلى عمل القاضي عمل الباحث ، وإلى صنعة الفنان صنعة النقد ، وإلى صنعة الأديب صنعة الاقتصادي ، وإلى مرح الأدباء حكمة الحكماء ، ويحتاج إلى بديهة وإلى روية وإلى سرعة وإلى أناة . يراقب كل صاحب سلطة ، ويدافع عن كل مظلوم ، وينفذ إلى أحشاء كل أمر . هو صديق الحكومات وعدوها ، وخطيب القوم ولسانهم ، ومؤرخهم ومؤدبهم ، يثقف ذوقاً ، وينفح عقلاً ، ويدعو إلى واجب ، يردد ما يرضي وما يغضب ، لا يكتم حقاً ولا ينشر إلا عرفاً ، يزيد مريدوه مع الزمن ، ويستجيب له أهل كل نحلة ، وأرباب كل أدب ، وأصحاب كل طريقة ، ويتوقف إرضاؤهم كلهم على أن يصدقهم لا يكذبهم ، ويعلمهم ولا يضللهم .

قال بعض المدركين من الإفرنج: ليس الصحفي كاتباً من الكتّاب بل هو كاتب محول تحكم صنعته على أن يكتب على طريقة خاصة وأن ينظر إلى الأمور بضرب معين من النظر وأن يعبر عن ذلك بلسان مخصوص فهو لا يدرس المسائل في ذاتها ولذاتها ويهمه منها ما يحسبه إلى القصد الذي توخى به فائدة القراء لا ما تحمل من فائدة ونادرة. وليس الصحفي مؤرخاً ولا فيلسوفاً وإذا كان هكذا في مكتبه فيكاد لا يذكر ذلك وهو في حجرة تحرير جريدته. وقد يكون الصحفي عالماً ولا يكتب مقالة كتابة العالم. والعالم مأخوذ قبل كل شيء بحقيقة ما ينظر فيه فهو يبحث ويتردد ويتلمس ويتحسس ويتقدم بخطى قصيرة ويرجع أحياناً قبل أن يصل إلى النتائج وكثيراً ما يشك ولا يستخرج. ويوجب الصحفي أن يستنتج أبداً ولا يحق له أن يشك ويتردد وعليه في حالة عدم معرفته أن يظهر أنه عارف وهو يجب أن يكون على ثقة فيما يقول حتى ينال ثقة الناس ولا سيما بخصوص ما فيه من الأمور التي تهم الجمهور وما يعرضه عليه ويريه في نظره.

وسواء كان الصحفي مقلاً أو مكثراً فهو خطيب على الأيام يُعنى بإرضاء سامعيه ويكلمهم باللسان الذي يريدون، لسان أوهامهم وشهواتهم، وهو إلى ذلك يحاول إصلاحهم وتنبيههم ويعرض عليهم الحقيقة والإصلاح في صورة مقبولة. وليس الصحافي أستاذاً، فقصارى ما يطلب التلاميذ من الأستاذ حفظ الحقائق وتطبيق ما يقول على ما يستفيدونه لا على ما يوافق أوهامهم. وشأن الصحفي على العكس من ذلك لأن سلطانه على قرائه متوقف على حسن التفاتهم إليه فهم لا يعتقدون ما يقول ولا يولونه ثقتهم ولا ينتهون بالتسليم له في كل ما يلقي عليهم إلا إذا وفق إلى جلب رضاهم فهم كالذين يستمعون إلى خطيب بمحض اختيارهم وينصرفون عنه إذا لم يعجبهم ما يلقي عليهم.

وعلى الصحفي أن يتملك سامعيه ويقيدهم بسلاسل منمقة من بيانه وبلاغته. وهذا من البلاء في هذه الخدمة، والبلاء في أن الواجب لا يكتفي بمراعاة الأميال والأهواء وعدم الاصطدام بالأوهام وأن يحس صاحب الصحيفة على الدوام أنه تحت سلطان الجمهور وتأثيرات أهوائه، والمصيبة فيه أن يقدر مع هذا على الاستقلال مع شهوات القراء وعلى كبح جماحهم متظاهراً أنه يراعي الأوهام ويمشي مع الرغائب وهو يتحدى جهلهم، وفي وسعه أن يحمل إلى النفوس شعاعاً من الحق وشعلة من العقل وأن يفتح القلوب في مصارع كريمة ويزرع في الأفكار بذوراً من العقل والمنطق. فصفات الصحفي في المطبعة هي صفات خطيب وشاعر واحد، وهو خطيب يحمل نفسه إلى مسامع الجمهور بطبع ما يقول بأسود على أبيض لا بلغة الكلمات وجرس الصوت وتنوع الأوضاع والحركات. والصحفي خطيب مضطر أبداً إلى الارتجال وأن يكون على استعداد للخوض في كل شيء، وذكر كل شخص في أي حرف وفي أي موضوع. وليس له من وقته ما يساعده على الاعتماد على الورق، وهو يكاد لا يستطيع معاودة قراءة ما كتب ومع هذا يكتب ويبقى ما تخطه يداه ويقضى بأن يعود قراءة ما خطه قلم الصحفي وأن يتفحصه ويتدبره. ويتمكن كل حين الرجوع إلى ما كتب والبحث عنه في مجاميع. وعلى الصحفي أن يكتب ويسلم من نقد قرائه ومن تحامل خصومه ومنافسيه وأن يتجنب المتناقضات الظاهرة بين ما كتبه أمس وما سيكتبه غداً وكتبه اليوم ولا ينسى ما يكون لمقالاته من تأثير. ويجب أن يكون واسع الاطلاع صحيح الذاكرة جم المعلومات حصيفاً في آرائه حذراً في تنبؤاته سريعاً في عمله. هذه هي الصفات التي يجب أن يتحلى الصحافي بها أو بأكثرها، وإذا أضيف إليها صفات المفكر والفنان في التعبير

والتصوير جاء معه الصحفي المطبوع الموهوب ، ولم يوفق فيه ألا يستخدم هذه الصناعة التي يتصف بها في طريق الخير والتحصيل في سبيل العدل والحق اهـ .

وفي كتاب الصحافة اليوم Le journalisme d'aujourd'hui أن نقابة الصحافة الوطنية وضعت دعوة للصحفي الذي يستحق هذا الاسم وهو أن يأخذ على نفسه تبعة كل ما كتب حتى ولو كان بدون توقيع، وأن يعتبر النميمة والتشهير والاتهامات المكذوبة من أخطر غلطات المهنة، وعليه أن يعمل ما يتفق مع شرف صناعته ولا يرضى أن يستخدم أقل من الأدب ولا صفة من الصفات الموهومة بغية الوصول إلى التوظف ولا يقتنص مالاً من خدمة عامة أو مشروع خاص يستغل بذلك صناعته الصحفية وينتفع بنفوذه وعلاقاته ، ولا يوقع باسمه مقالات هي محض إعلان تجاري أو مالي ، ولا ينتحل كلام غيره وينسبه إليه ولا يتطلب عملاً كان يتولاه بعض زملائه ويطلب نسبه بجهة يجاريه في عمله بشروط أقل من شروط صاحبه ، ويحافظ على سر المهنة ولا يسيء استعمال حرية الصحافة بقصد منفعة خاصة .

الصحافة من أعظم أدوات التمدن الحديث ، إذا صلحت ، كانت لنا من أعظم المعونات على الأخذ بقدر أوفى من هذه الحضارة . نطيب بها الحياة ويحلو بها العيش .

والصحفي الحق من كان على مثال أخلاق صديقي الأستاذ أمين الرافعي صاحب جريدة الأخبار المصرية عليه الرحمة . خدم الصحافة وخدم مصر والإسلام بقلمه وعبقريته وروحه وما سأل معونة من أحد ولا من حكومة . أرسل إليه يحيى إبراهيم باشا رئيس الحكومة المصرية ـ وقد رأى تأخر حالته المالية ـ حوالة عشرة آلاف جنيه مع كتاب يقول له ما خلاصته : أرسلت إليك مبلغاً تستعين به على ما أنت بسبيله وهو

من أصل ما لك في ذمة الحكومة من دين قد أسلفته لها من خدمة صادقة فنقدت إدارتها وسياستها نقداً خاصاً ، وهذا تمام رسالته يحيى ابرهيم القاضي لا يحيى ابراهيم رئيس الوزراء ، وإنه يرجوه قبوله على أن يظل على ما كان عليه من نقد الحكومة لتستفيد من آرائه الخ . فقد كان من صحب الأحرار إلا أن رد المال معتذراً بأنه ما أخذ حياته شيئاً من أحد ولا يحب أن يعود نفسه الآن أخذ شيء من أحد .

وجاءه مرة أحد كبار رجال السياسة الوطنية وعرض عليه أن يتكفل له مع جماعته وفاء ديون الجريدة ويأتونه بمحررين يدفعون لهم مشاهراتهم وتطبع له الجريدة على نفقة الحزب وتدفع إليه كل شهر مئة جنيه ويكون له نصف ربح الجريدة ويكتب كما يشاء لا يتقيد بشيء ، فأبى إجابة هذا المقترح أبداً . وبعد خمسة أيام اضطرت صحيفته إلى التوقف لأسباب مالية قاهرة مفضلاً صاحبها تعطيلها بيده على صدورها بيد غيره . قالت إحدى كبريات الصحف الإنجليزية يوم علمت بتعطيلها : فهو رجل قلائل في رجال العالم من رزقوا أخلاقاً كأخلاقه ، أما في مصر فلا ، وسيرة هذا الصحفي العظيم يجب أن تكون نصب عين كل صحفي .

القول في الكذابين والمنافقين

ما خلا زمان من أناس من الدجالين والمداورين يحورون الفلسفة فيما لا يلائم هواهم ، ويخترعون لأنفسهم من أنفسهم تعاليم ، لا يرون حرجاً في مخالفة الشرع ، ويتحذلقون في إيجاد المخارج لارتكاب محظورات لا تبيحها الضرورات ، ويتحللون من كل أيمان وعهد ، كأنه لا يضيرهم أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، وكأن التوبة تمحو الذنوب ولو نقضت مائة مرة

من هذه المحظورات داء الكذب اللعين ، وقد أجمعت الأديان السماوية والقوانين المدنية على تحريمه ، فأصل في أفعال هذا الجيل أصلاً عريقاً ، وقد فشا منكراً حيف منه على كل طاهر ، وزادت به الأخلاق وانحلت عرى المروءة . ومن المؤلم للنفس أن نتكلف هذا الكلام في أمر هو من البديهيات عند المربين ، وكان الواجب أن يراعيه كل شريف من نفسه ، ويدعو من تهذيبه وتربيته .

حدثني صديق من علماء التربية في مصر أن أحد مدرسي الأخلاق في سويسرا حاول أن يشرح ذات يوم لطلبته أضرار الكذب وفوائد الصدق ، فعجبوا من هذه المحاولة ، وعدوا كلامه من النوع المفروغ منه ، لأن القضية مسلم بها وليس في التعرض لها إلا شغل الوقت بالعبث من القول . وكانوا يسألون معلمهم وهو يمعن في بيانه ، ولم يكذب الكذاب وأي فائدة يرتجيها من كذبه ؟ فيجيبهم بما يحضره من

التعليل فيقول مثلاً : إن الذي يسوقه الى ارتكاب هذه الرذيلة إما سلب مال من كذب عليه ، أو إضاعة حق له أو تحصيل نفعه في أمر يريده أو غير ذلك ، فيقول تلاميذه : ولِمَ يأتي هذا ؟ وهل في الخلق من يهون عليه سلب مال أخيه الإنسان ، أو ارتكاب ما يمس بالمروءة ويضيع الحق على صاحبه ؟ قال : وتمت حصة الدرس وما استطاع الأستاذ أن يشرح للأولاد ما أراد . ثم ذهب يعلق على شئون التربية ونفوذ الحكم في السويسريين : وأن من مظاهر ما تشبعت به نفوس أولادهم ، ومنافع الفنون تقدر بقدر ما بعد من أحكامه ، والأمم التي تقل دواعيها وتطابق منها ما يمكن تطبيقه هي أقرب إلى السلامة من أمم تكثر دواعيها وتكتفي بحفظها في أدراج وصحف ، تقرؤها للمعرفة وتذكرها للمفاخرة .

ولو كان للأمهات يعرفن معنى التربية ولا يلقنّ أطفالهن الكذب لصدّهم بذلك عن مطالبهم ودفعهم عما لا يردن صدوره منهم ، لشبّ ناشئنا على غير ما نشأ عليه اليوم ، ولما عدّوا يكذبون على من يكذب عليهم في ساعات مبكرة من الحياة ، ولو أمكن الأمهات أن يفهمن بصدق ما حسروا — وهم على الفطرة — أن يردوا الكذب بكذب مثله ، وما قويت فيهم هذه الملكة الخبيثة حتى لا تعود منكرة عندهم ، وهي التي ما كانت منكرة عند أمهم وأبيهم ومن رباهم ، وطالما سمع الأطفال أمهم تكذب على من حولها ، وتجري معهم فعلمت إذا جد كذبها عليهم ، وكذلك حال أبيهم ، وعامة من فتحوا أعينهم عليه من مربيهم . ومن لقن ابنه الصدق من يوم أن وعى ، وشب وهو يراه متمثلاً في والده في المدرسة أيضاً جاء معه رجل صدق على مثال أولاد السويسريين لم ينزع بعد ذلك إلى الكذب ومراميه في أذهانهم .

الكذاب مهما كان لونه منخوب الفؤاد ، كافر بالشرائع ، هزئ بكل وازع . وسواء كان الكذب عن عبث ودعابة ، أو عن جد وحقيقة، فهو بالغ الضرر ، وأضر أنواعه الكذب الذي يؤذي الفرد والجماعة ، و تتداول وتبنى عليه أحكام .

ولقد ملئت الكتب بالحث على الصدق والابتعاد عن نقيضه ، وما جعل الباحثون حداً بين الصدق والكذب عمداً كان أو خطأ . وقيل ان بعضهم جوّزوا الكذب في حالات مخصوصة مثل الكذب للنجاة من القتل ، أو لإصلاح ذات البين ، أو لاتقاء أمة خطر عدوها . وهذا كما جوزوا أكل الميتة إذا برّح الجوع بإنسان فكاد يهلك . وقالوا إن في المعاريض مندوحة عن الكذب . وتساهلوا مع السياسيين فرخصوا لهم الكذب في حالات معينة ، وعلى هذا بنو قولهم (اكذب واكذب وا كذب فلا بد أن يترك كذبك أثراً في النفوس) .

يقول الجاحظ : الكذب جماع كل شر ، وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده . ويقول الراغب في الذريعة: إن الصدق أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم ارتفاعه لما صح نظامه وبقاؤه ، وهو أصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى ، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع . ولهذا قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » . قال : والاختصاص بالكذب انسلاخ من الإنسانية ، وخصوصية الإنسان النطق ، فمن عرف بالكذب لم يُعتمد نطقه ، ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع ، وإذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء ، بل يكون شراً من البهيمة فإن البهيمة إذا لم تنفع بلسانها لم تضر ؛ والكاذب يضر ولا ينفع . وقد ورد في التنزيل العزيز لعن الكاذبين كما ورد لعن الكافرين والظالمين ومن نقضوا الميثاق . ولم يجوز رسول الله الكذب في جد ولا هزل . وقال الحكماء :

ليس لكذاب مروءة، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه، وأبدع ابن المقفع في قوله:
رأس الذنوب الكذب وهو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ويتلون ثلاثة ألوان
بالأمنية والجحود والجدل، يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت
فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة فإن أعياه ذلك
ختم بالجدل، فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج والتمس به الشبهة، وكابر الحق
حتى يكون مسارعاً بضلالة ومكابراً بالفواحش.

رأيت أناساً كانوا في ظاهرهم على الفضل والأدب يصطنعون لمن عصمهم الله من
الكذب أن يكذبوا حتى يرضوا رؤساءهم ومرؤوسيهم، ويحوزوا رضا العامة،
ويتيسر لهم الوصول إلى الغنى والترقي. قال لي أحدهم وأنا في وزارة المعارف، وحادثة
منكرة مدبرة عليَّ في الصحف، أوشى بي أحد رجال طائفته أن يقدم حساباً عن
دائرته العظيمة: إن هذا الرجل يدس عليك، ويكذب عند أصحاب السلطة العليا،
فدس عليه كما يدس عليك، واكذب عليه كما يكذب عليك، وإنه لا سبيل لك إلى
الخلاص منه إلا إذا قاتلته بسلاحه، فكان من الجواب: إني أعرف نفسي أعواماً
طويلة حتى أنهى استعمال الدس والكذب، فما هذا الكذب قد أوصله إلى
القانون، واستعمال عليَّ ما لي من سلطان لأخذ الحق منه، فإذا نجحت فيها ونعمت،
وإن لم أنجح بقي لي الأعذار من بطنوي صفحاً عن حطاط أموالهم، ورعاية حقوقهم.

وقال لي أحد معارفي أيضاً في مثل الحقبة: قد اتخذت خطة في معاملة من
يراجعونك من أرباب الحاجات تعود عليك بحسن العاقبة: أن تصرح في الساعة الأولى بالحق
الذي تعرفه، وصاحب الحاجة أعرف لا تبسط نفسه إلى كلامك، وأدلى على قلبه
أن تراوغه وتطاوله، ثم كان الأولى لمصلحتك أن تكذب عليه، ولا تقطع رجاءه،

وتركه فى حالة بين الشك واليقين ، يروح ويغدو مراجعاً متوسلاً ، وبذلك تراعى
أمر السياسة أيضاً ، ولا تعرضك لمراجعين . لكن شغل أرباب المصالح المحل أياماً
بل شهوراً ، وضاعة أوقاتهم ووقت صاحب الشأن ، ليس من الأمور ذات البال ،
وحقيقة إلى ما كنت شهدت من صدقهم إلا تجهماً ، وقل فيهم من أدركوا قصدى
وشكرونى أن صدقتهم ولم أغشهم ، بيد أنى كثيراً ما سمعت تحاملاً على من أنف
تسويف المراجعين بطرق مألوفة ، وخصوصاً ولم يغادر صاحب المنصب مقعده ،
وأقل ما يطلقونه من القول على من يعاملهم بهذه الصورة : قبحه الله إنه أشبعنا من
كذبه مدة ، وهو فى باطنه يحدث نفسه ، ويعرف أن مطلبنا متعذر التحقيق .
فمن ربح يا ترى ؟ الذى صدق أم الذى كذب ؟ إصلاح الأخلاق المعوجة من أصعب
الأمور ، فعلى من يحاول نزع حمق سخيف الأيهم أن يدرس كثيراً ، فرضا الناس
غاية لا تدرك .

العالم منذ الأزل لا يخلو من سذج يسهل ابتزازهم ، ويكثر فى كل قبيل من قد
تغرهم الظواهر ، وتنطلى عليهم حيل المحتالين ، حتى فى الطبقة التى تعلو عقول أهلها
عن عقول جيرانهم . كل شىء عرضة للكذب فيه ، والكذب أشكال وضروب ،
وأفظع أنواعه ما دون فى الكتب وسجل فى الدواوين . تعرفون هذا إذا قرأتم كتاباً
كتب فى حيلات المحتالين وأكاذيبهم ، وشطحات المتصوفين وسخافاتهم ، تعجبون
كل العجب من عرض هذه الترهات فى ورق أنيق على الأيام ، وتعجبون كيف تجد
هذه الأفكار من يقرؤها ويؤمن بما فيها من كذب لفقته العقول ليتلى فى زمن وضع
فيه كل شىء من أمور الدنيا والآخرة على محك النقد ، ونظر إليه بعيون العقل والمنطق .
وإذا طالعتم مع هذا كتاباً ملأه الصدق للعلم تقدسون عقل منشئه ومقدار عنايته فى

تجهيز بنات أفكاره حتى يبرزها في ثوب مقبول، وترون أن الأيام ما أنصفت هذا المؤلف المخلص، وبعده يكون القضاء على آراء المؤلف الأول، حتى لا تجد لها من يعيرها التفاته، والمؤلف الحقيقي من يصدق نفسه ويصدق قراءه.

نعم إن الزمن يمحص، وقاعدة الانتخاب الطبيعي وبقاء الأنسب – كما يسميه أهل العصر – يجري حكمها، ولكن حتى يتم ذلك على مقتضى سنة الكون يخدع ألوف، وتفسد عقول، وتمحق أموال، وتذهب أوقات، وينجح الكاذبون. وإذا كهرت المطامع قوماً، وزين لهم الغرور حب المنفعة فقط، فمن الصعب أن ينفع في المفتونين علم العالم، أو ينجع في قلوبهم ما أراد المخلصين نصح الناصح، ولو استجيب لكل عالم، وأطيع كل ناصح، لما بقي في هذه الأرض جهول.

الكاذب في كذبه قد يكون ممن يدرك سوء مغبته عليه يوم يعرف به، والكاذب كالسارق لا بد أن يقع يوماً في قبضة القضاء، والسارق يسرق المال والمتاع، والكاذب يسرق العقول والجمعة، لا جرم أن من الأمور ما تتجلى عاقبته ولو بعد حين للعاقل والجاهل، والكذب من هذا الضرب لا ريب، ومن قيل له كذاب فقد وصف بأشنع الأوصاف، ولكن المولى الهادي نصب الكائنات ودبرها بأدق الأنظمة يجازي من لا يعمل هذه القوانين، فيأخذ الكاذب بكذبه يعجل له العقوبة في الحياة، وأقل عقوبة له إسقاطه من الأنظار.

تدبرت أمر كثيرين، فتراءى لي بعد من ظواهرهم أنهم على شيء من الأخلاق، وأنهم أهل لأن يتمتعوا بالصفات الحميدة، ويحوزوا مقطع الندب، فما توسمتهم لم أحمدهم، ولما شهدت منبعهم من الصدق لم أعجب أن خانهم التوفيق، على ذكاء فيهم وحسن حيلة، إذاً فلا يستغرب حال إنسان استجمع صفات المنجح، ووفرت

فيه بعض شروط الكمال ، وكان كما طلب العز كمن يزحف إلى الذل برجليه ويديه ، وكما اشتد الغنى اقترب من الدقة والقناعة . وما شهدت الكذاب إلا غبياً في ذاته ، لأنه يعتقد الغباوة فيمن يعرف فيهم ضعف الفطنة ، والغبي كل الغبي من يحتقر جليسه ومعامله ، ويتخذ من الكذب عليهم أعظم أدواته وأمضى سلاحه .

رأيت التاجر يتوسع في عمله مايجاوز طاقته فيفلس ، ويكون العامل الأول في إفلاسه كذبه على نفسه بتقدير ثروته إلى ما لا تحتمل التوسع ، وكذبه على من يعامله باستمرار التدليس عليه ، وشهدت الصانع يدخل الغش في مصنوعاته ، ويكذب في المواد التي يستعملها ، وفي المواعيد التي يعدها ، وفي الثمن الذي يتقاضاه ، فينفض عنه زبنه فيفلس ، ويكون كذبه سبب إفلاسه . ورأيت أمماً من المعدمين والمفلسين يعمدون إلى الكذب تحيس واسع كل حين ، ويكذبون على بعض من له اتصال بهم ، ولا يعتقدون أن في عملهم غضاضة عليهم ولا شراً على غيرهم .

إذا رأيتم محامياً عز عليه استحصال قوته فابحثوا في الحق من حاله يثبت لكم أنه كذاب لا يصدق في عزامه في إملاء جيبه فقط ، لا يهمه إنصاف الخصوم بقدر مايهمه الحصول على مايسمونه أتعاب المحاماة ، ومن أسهل الأمور عليه أن يغش في القضاء والحكومة ويضلل أرباب القضايا والنصفة . وإذا شهدتم طبيباً حاذقاً في المهنة وهو لا يكاد يشبع بالخبز القفار فاعتقدوا أن في فطرته نقصاً أو نقصاً ، ومنها الإعراق في الكذب على من يراجعونه في شفاء سقمهم ، وادعائه أموراً لم يتقنها ، وإيهامه أنه أهل لتشخيص كل مرض ، وإدراك كل علة . وإذا رأيتم أن فلاناً لمع قليلاً أول ظهوره ثم مسخ نوره وكمد اسمه فأيقنوا أنه غش الناس بكذبه ، فانكشف حاله

وأصبح قومه لا يثقون به حتى فى الشؤون التى يصدق فيها الإنسان ، فأفسد عليه عمله السيئ حاضره ومستقبله ، فمحى الحظ وخير العمل .

لا يقعدكم ما ترون من شقاء الشرق ، فتعدوه هو الأصل فيه ، واحكموا لا تمالوا على كل عمل يهزكم روعه ، ثم رأيتموه يميل إلى السقوط والخيبة ، بأن أمره قد قام على شىء من الكذب والتدليس ، فكان ذلك العامل الأعظم فى انهياره . ولهذا أمثلة ماثلة أمام أعيننا كل ساعة ، وتقع عليها فى كل ناحية وحى ومنزلة .

ليس الكذب من خصائص أهل مذهب بعينه ، وليس لنا أن نمنح إنساناً شهادة صدقه لأن دينه سماوى مثلا : فلا عبرة بالمذهب الذى يتمذهب به المرء بل بحسن سيرته وجودة معاملته . حدثنى أحد أدبائنا ، وكان قضى أعواماً فى إحدى المدن الشرقية الكبرى ، أن مما استرعى انتباهه عندما نما إليه الثقات من أن فى مجلس تلك الأمة عشرات من النواب من أهل دين واحد هو دين الدولة ، لا يأتمن بعضهم بعضاً على مال ولا وديعة . وأن الرجل الذى يأتمنونه كلهم هو من فريق ضئيل يدين بدين غير سماوى ، وهو وحده من بينهم عمدة زملائه ، أولوه ثقتهم جميعاً لأنه ما كذب حياته وما اشتهر إلا بالأمانة والعدالة .

وذكر لى بعض من عهد إليهم إحصاء النفوس فى بعض أحياء إحدى المدن الكبرى يجرى على أهلها توزيع الخبز بالعدل خلال الحرب الأخيرة ، أن الأرمن ما كانوا يكذبون فى الإخبار عن عدد نفوسهم ، وأن الإخبار الكاذب يكثر فى فى الأغنياء من السواد الأعظم ليخدعوا من تولوا أمر التوزيع فيأخذوا ضعف

ما يستحقون على الأقل. وسعوا لى بيوتاً معروفة كان عند أهلها من حبوب مزرعتهم ما يمكنهم أن يطعموا منه مئة نسمة طول السنة، ثم هم يسعون لمشاركة الفقير فى خبزه. فانظروا فى هذا الكذب المزرى من هذه النفوس الصغيرة.

لا ينزع ستر الكذاب إلا دانى ما تعود نقمة الكذب فيه على الجماعة. وجزاء الكذاب أبداً أنه من إخفاقه فى نقص ما يحاوله ويتطلع إليه. رأيت تجاراً أمناء صدقوا فى تجارتهم فكانوا يكسبون كثيراً وينعمون بما كسبوا، وما كانت رؤوس أموالهم عظيمة وعاشوا ما عاشوا موفورة كرامتهم، يؤتمنون على الأموال ويفزع إليهم فى الخلافات. وسر كل ذلك أنهم كانوا يبعدون عن الكذب لا يحورونه فى معاملاتهم ومبايعاتهم. ورأيت تجاراً بدأوا تجارتهم وأموالهم كثيرة، وسمعتهم تدل على أنهم أهل الثقة والصلاح، فما إن خاضوا فى معترك التجارة جولات حتى نبهتهم الأيام بما لم يحتسبوا، وضربتهم التجارة ضرباتها، فخسروا ما جمعوا وما جمع لهم. وكانوا هم السبب فى إفقار أنفسهم لأنهم ما صدقوا الحق ولا صدقوا أنفسهم ولا صدقوا الناس، وعدوا الخديعة مهارة، ومراعاة الأخلاق كلاماً لا محصل له، وما خطر لهم ببال أن الأيام قد تنصف المخدوعين من الخادعين، وأن الزمان يفضح المجرمين بما كسبت أيديهم.

إن من يحاول الامتناع عن الكذب فلا يأبه بلذة محسوسة يكون إلى العقل والفضيلة، ويعقل معه من يتمتع معه بثقة. وقد رأيت الصادق يجله حتى الكاذبون، ورأيت الكاذب يحتقره أقرب الناس إليه، بل هو فى باطنه يحتقر نفسه. وعرفت أسراً اشتهر بعض أفرادها بالكذب والتبجح بمناقبات وهمية، واشتهرت بذلك بين من عرفها عن كثب، ولم تنشأ لهم ناشئة صالحة فى الجملة وعرفت سوء

أثر الكذب في أعمالهم حاولوا [illegible] هذا الخلق منهم فتقوا عنه لأن حكم الناس عليهم كان قد [illegible] ، وعرفوا أنهم كانوا ممن لا يتورعون من الكذب ، ومن الصعير فيهم يأخذ سيئات أهله كما يأخذ حسناتهم ولو كان المجتمع أرقى مما هو لكانت عقوبته أوجع لمثل هذه الأسر التي [illegible] الناس و [illegible] .

لو عمدنا إلى الصدق نجعله شعار الباطن والظاهر في عامة أحوالنا لوفرنا على أنفسنا وعلى من يحتكون بنا وعلى المعنيين بالأمر منا أوقاتاً وأموالاً وهموماً وبطالة ، وعشنا وأمانا سعداء لا نقلق ولا نروع ، ممتعين بما نحب ، مدركين بما نأخذ ونعطي ، ونمشي في طرق الشرف ، ونتذوق معنى الإنسانية ، ويعمنا الصفاء وعمنا الرضا .

روى الثقة أن أحد كبار الفقهاء ممن كان يجلس في مصمعه الثياب — وكان كثير من علماء الدين يحترفون ويعيشون من كدهم — هجم عليه شاب مستجيراً به من الشرطيين ، فأشار إليه أن ينزل إلى الحجرة التي كان يعمل فيها ، وجاء رجال الأمن يطلبون الفتى فصحت الشيخ وقال لهم : هو قد خبأته الكم في الحجرة ، فابتسم رجال الشرطة وانصرفوا ، وخرج الشاب من مخبئه منزعجاً وقال للشيخ : ولماذا يا سيدى قلت لهم إني مختبئ في الحجرة ؟ فقد قطعت نياط قلبي بقولك ، فأجابه الشيخ : يا بني أنجيتك بالصدق ، فأدرك الفتى سر هذا الكلام ، وأصلح نفسه فيما كان يأتيه من الكبائر التي تجعل لصاحب الشخصية سبيلا إليه ، وجانب الكذب وتخلق بالصدق .

ولكم سمعت بأشقياء سقطوا في أيدي رجال الأمن وصدقوهم حقيقة أمرهم ، فأعانوهم على تخفيف جرمهم ، ورب قاض أعجبه صدق جان فخفف عنه . وعهدنا

كذابين كذبوا على من أخطأوا الحظ منهم ، وتقولوا عليهم ما لم يفعلوا ، فكانت عاقبة أمرهم أن زجوا في غيابات السجون ، وعاشوا حتى في حين استمتاعهم بحريتهم الشخصية عيش الذليل المهين ، لأنهم كذبوا عندما أريدوا على الإقرار بالحق ، وأضاعوا ذممهم ، وقضوا على مروءتهم ، ونسوا شرفهم .

في المدرسة العظمى في أتون من ضواحي لندن — وفيها يتعلم أبناء أرقى الأشراف من الإنكليز — يجلد رئيس المدرسة بيده في الملأ كل تلميذ كذب كذبة ، وقد نتج عن هذه العقوبة الهائلة أن وقع الرعب في نفوس الصبيان ، وابتعدوا عن الكذب إلى حد لم يبق معه من حاجة إلى تطبيق هذه العقوبة على أحد إلا نادراً . وحبذا لو وضعت كل مدرسة في هذا الشرق هذه القاعدة موضع العمل تجري على من كذب من تلاميذها .

جاء أعرابي إلى الرسول عليه السلام وقال له إنه يريد أن يسلم إلا أنه لا يصبر عن الخمر والزنا وسأله عن مخرج له من ذلك فقال له الرسول : عاهدني على ألا تكذب فعاهده . فما استطاع هذا المسلم الجديد لمكان العهد الذي قطعه على نفسه أن يعود إلى موبقاته السابقة ونجا مما كان يضر به ويؤذيه . وكان إسلامه نافعاً من كل وجه .

* * *

والملق شعبة من الكذب أو هو هو ، شاع شيوعاً فاحشاً ، واستفحل فساده ، وعم الطبقات العالية والدانية ، يتملقون كل من يتوهمون أنه ينفعهم أو من يقع في وهمهم أنه ينفعهم ، يصانعون ويتزلفون حتى يوهموا المصانع أنه من أفراد العالم وهو حقير في ذاته وصفاته ، ويعدون هذا الملق من دلائل الظرف ولطيف الذوق ،

ويقولون إن نفاقنا يأتي بما لا ضرر به علينا، ونحن إذا لم يحصل لنا من النفاق خيره، فربما ينفعنا أمن شره، ونعقل الناس من يحملها، ونسوا أن المحبة غير النفاق.

من ذلك ملق المشايخ للعامة تقريراً لهم على معتقداتهم الفاسدة يرون أنواع البدع في كل مكان، ولا يفتحون أفواههم بكلمة في إنكار ما يعرفون أنه ينافي الشرع، يجارونهم في كل ما يأتون تقية ومداهنة، ولذلك زادت الخرافات التي ألصقت بالدين زيادات عظيمة على الأيام. وكان السبب في ذلك ملق من وفقوا وعددهم من أن يثيروا روح العصر وهدى الدين الصحيح.

ومن الملق ملق المتطفلين على مقاعد العلم والأدب يصفقون لكل ما ترعف به أقلامهم، وتفيض به قرائحهم، مهما كان من الرداءة، ويساعدونهم على نشره فتستقبله الصحف والمجلات بالتقريظ.

ومن أنكد الملق أن تخلو بالرجل فيفيض إليك حقيقة حاله من دون أن تسأله، ويبرأ إليك من كل معتقد ديني يقنعك أنه حر بريء من كل تخريف، ثم يظهر أمام الأمة بأنه معتقد بكل ما ورد وما لم يرد، وما صح وما لم يصح. أما هو فسواء كان من المؤمنين أم من الملحدين فإن إيمانه لا يستفيد منه مستفيد، وإلحاده البارد لا يضر به القريب ولا البعيد، ولكن هو الملق وحب الظهور.

والسلطان وأصحاب السلطان من أكثر من يتملقه المتملقون، يؤذونهم بملقهم ويشقون عليهم بأماديحهم، والسلطان ومديروه في حاجة إلى من يذكرهم بالحقائق لا لمن يحول بينهم وبينها، وإلى من يبصرهم بالعيوب يتقونها لا لمن يطمس لهم معالم الصدق. إنهم ينافقون السُّفْلة كما ينافقون العِلْية، وصيغ الملق تكاد تكون واحدة عندهم يطلقونها على الكبير والصغير سواء.

يصدقون في أحاديثهم وخطبهم ومقالاتهم ويقرّون أنهم مراءون مخادعون.

ومن تملقهم الغبيّ من غريب ضروب الملق، يرفعون مرتبة كأنه بعض الحكماء والعلماء ويعدّون ما يدرّ على لسانه حكمة بالغة هبطت عليهم من السماء. وقد يكون صاحبهم أميًّا وأكبر لص في البلد وحيلة، استحل كل محرم حتى جمع ما جمع. رأيت تاجرًا اقتنى العقارات الكبيرة، اتجر بالورق النقدي سرًّا حتى لا يطعن فيه من يحققون هذه التجارة بالقمار في الحرمة، وهو يحافظ على الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد الجامع. وسقط الورق المتجر به سقوطًا عظيمًا فخسر المتجر الخلق، واشتد قهره على ما ضاع منه فمات كمدًا وما استطاع أن يبوح بسره لأحد، ومع هذا فالذين له المعجبون بشتى آرائه، المؤمنون على عقد ذمته، أن الثقة من البلد يقدحون فيه، وهو ما خرج عن جهول يحسن ضبط نفسه، ومعه أنه لا يتعدى كتابة توقيعه، بيد أنه كان يتقن الاحتيال على ابتزاع أموال المدينين بأكثر من قيمتها، ويحايل يعملها له السماسرة، وهكذا جمع ثروته.

أما تملقهم الأجنبي لدى يكون لديه صديق وله صنيعة فدونه كل ملق، وأملق من يتملقه صنف المستوزرين والمستوظفين، ومن كان للملق وضيعًا في قومه، وليس في درجة كبار الملق، يتوهمون أنهم بذلوا عنف لأخفى عنهم لا تسلم لهم وظائفهم، وأن في إرضائه اتقاء الضربة القاصمة لظهور ذات يوم، حتى لقد قال أحدهم: لو سرى إلى حبلى أن الغريب سيغادر بعد عشرين سنة لأخذت من الآن أفكر من أي أقفى رأي، وأن لا يبقى من هذا الوطن غيره. وهذه الخلة من الخلق لا تعرف عزة النفس ولا تتصور عقولها معاني الوطنية، وإن عُدّت بحسب

الظاهر مثقفة ، ومن بيوت تسلسل فيها الحكم . ومن يسع به الترلف وهو فى منصب الوزارة أن يربط يده ربط حذاء أجنبى كبير أمام الجمهور فهو ساقط مهما كان له من منزلة .

ولبعض الموظفين حظة فى الملق المدعوه لا يكاد يجاريهم فيها أحد من طبقات المتملقين ، ويريد تملقهم كرامة فى ما وراء حد المحظور عندما يكونون على رأس مناصبهم ، فإذا ما انتقل أحدهم إلى مكان بعيد أو أخرج من الخدمة انقلب مدفا آخر ، ذلك أنهم ينسونه ، ويحتقرونه ، وقد يكون من خيرة رجال الدين يجب إكرامهم وهم كانوا يقبلون يده يوم كان فى كامل سلطانه .

ومن أسقط المنافقين من يسرق حديثه فى الحضرة ويحقق به محاسن ليست فيه وإذا نفروا لا يتشبث أن يذكر له من مساوئ قبحه ، وكان مثل ذلك يدفع له من الأماديح كل ما يستميل به قلبه ، ولو كان مثل هذا على شىء من الخير لكان مع صاحبه فى غيبته وحضوره نمطاً واحداً، هذا إذا كان ممن يعرف أن الأنفع أن يذكر له عيوبه فى وجهه ليحمله على الإقلاع عما يزرى به .

ومن الملق ما يغتفره بعضهم ولا يرون فيه ضرراً ، تملقهم النساء حتى ليتراءى لهن أن ما يسمعونهن حقيقة لا ريب فيها ، فيطمعن إلى ما ليس لهن من الحقوق ، وإذا كان من يملقهن ممن يحسن الاستهواء بطلاقة لسانه يتيهن مغرورات فتعتقد الطاعنة فى السن أنها فتاة عزيزة ، وتتوهم القبيحة أنها ملكة الجمال ، وتتخيل الجاهلة أنها سيدة العلماء .

وبما عرفت به البدوى صدق جمهرة الشعراء على الدهر يكيلون لممدوحيهم الثناء بدون وزن ولا كيل ، وإذا سخطوا عليهم اختلقوا لهم من العيوب ما يكسوهم عار الأبد. ومعظم شعراء العرب ولا سيما المخضرمون منهم فقدوا عصمة الصدق بلا جدال ، ويندر المعتدل فى ثنائه وهجائه . أفرطوا فى المدح وغلوا فى القدح . وليس ما نقل إلينا منذ عصر الجاهلية إلا عنوان هوس وصبغة دنست وجه الشعر العربى الجميل محظوظاً أقدمها. وعدت من أحذق المدققين وفى الصف الأول من الكذابين .

القول فى المستهزئين

من عادة المستهزئين أن يستخفوا صحبهم وعدوهم، وممن يعرفون وممن لا يعرفون، واستخفافهم بالأقرباء أكثر من استخفافهم بالبعداء، وبالأحياء أكثر من الأموات، وبالعاملين أكثر من الجاهلين، ويطول استخفافهم كل صاحب فضيلة، ومن قوم ء، لا تحمله حوصلتهم ولا تتسع له عقولهم، يستهزئون بالشيخ والعجوز وبمن به عاهة كفقد بعض جوارحه وحواسه، وهذا من أرذل أنواع الاستهزاء لأنهم يهزأون بمن ليس له يد فى تشويه خلقته، وربما كان من الباقين على هذا النقص الطبيعى به.

ولا يستحى المستهزئ أن يضحك على من يستخف به لنقص أو عاهة يصغر منها من شأنه، مثل عدو لدود صدقت به ميل لا يعتد به، ولا شقشقة لسانه فى صحيفته، والمستهزأ به يكون على الأغلب أعلى منزلة وأوفر رزانة من المستهزئ فيقصر هذا فى وصفه بأشنع الأوصاف يصرعه بزعمه صرعة لا يقوم بعدها.

السخرية كالهجاء لا تصدر على الأكثر إلا عن موتور مغرور. وقد يعرف المستهزئ وهماً فى هزئه ولا يصل منه إلى المستهزأ به إلا رشاشات قليلة، وبخاصة إذا كان هذا ممن لا يهتم لما يقال فيه، أو يعرف أن المستهزئ يزيد فى عشقه إذا ما رأى أن قوله فى المستهزأ به لم يؤلمه. والمستهزئ يظن عند نفسه أنه لم ينل منه من ضرب المستهزأ به فى الصميم، ويحسب أنه كلما أكثر من قذفه استحسن الناس ما صدر عنه ونال من المستهزأ به ما لا ينال منه السلاح الماضى والقذيفة المردية.

وقولوا: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وإن المرء ليشهد حيث أقلب اليوم أحقاداً لا تنطفئ جذوتها، وعداوات يتسلح بها المعادون بسبب ولا سبب. ومنها ما يسعى به هؤلاء من حنق عليه الخلق، وإيذاء المستهزأ به في شرفه وصيته وماله أقل ما يوجهه المستهزئ بمن يريد الحط منه وإذلاله ويرون أنفسهم من الكرام بالقوة وقد حضرت الحمية نفوسهم فدفعوا عن المستهزأ به وصوروا سيئاته وحسنوا حسناته، فكانت من تعمد الكذب على الأبرياء، وما زادوا في إعظام شأن من وقع التحامل عليه، على نسبة اشتداد المتحامل في تحامله، والأمة مهما كثر فيها من يميل إلى سماع الشر لا تعدم فرقة تحب الحق وترتاح للخير.

والاستهزاء قديم في العرب فقد عده القرآن من ضروب الإيذاء التي كانت قريش تؤذي به الرسول عليه الصلاة والسلام في مبدأ دعوته السخرية به. وسمى المؤرخون طائفة منهم [illegible]. وقد كفاه الله شرهم وخذلهم ثم حطت أيديهم وقدمه الاستهزاء. وأما أهل الشام من العرب الذين نزلوه في الفتح منذ القرن الأول يستصحبون رجال الدولة ويلقبون الخلفاء فمن دونهم ألقاباً يقصدون بها السخرية منهم والولع بهم.

ومن جعلوا الاستهزاء ديدنهم وأغرقوا في استعماله لا ينتهون منه إلى حد متى بدأوا به، وقد يؤدي استهزاؤهم إلى الإضرار بالمستهزأ به في ماله وجسمه لا يبالون عاقبة ما يجنون إذا كان في سخريتهم ذريعة إلى الانتقام، أو باب لضحكهم وضحك رفقتهم. ومثال من هذه السخرية المؤذية ما ارتكبه [illegible] الواساني من شعره اليتيمة، وقد غلا في وصفهم في قصيدة له سجل بها ما اجترحوه من سخف

قبل أكثر من ألف سنة ، ولا زال بعض مأثوره مألوفاً إلى اليوم في بعض البيئات الشامية ، والأخلاق تتوارث وتنتقل .

رأيت وسمعت أن من المستهزئين من يشق معطف من يهزأ به أو صدرته أو قميصه أو قفطانه أو سراويله أو طربوشه أو عمامته أو قبعته أو حذاءه أو نعله . ومنهم من يقطع له تكته أو رباطه أو لحيته أو فراشه أو طنفسته أو ستارته أو فوطته . ومنهم من يولع به حب الأذى إذا وجد صاحبه مستلقياً أو نائماً أن يشك أحد أطرافه بمخيط أو دبوس فتتأثر بعض أعصابه عندما يتحرك أو ينهض ، ومنهم من يطعم المستهزأ به لقمة مغموسة بشيء يضر بصحته ، أو تؤذي منه بدنه ، أو يشمه مادة يكثر بها سعاله وعطاسه إلى آخر حركاتهم السخيفة .

واعتاد بعض الحدثاء أن يستخفوا أيضاً بمن يعمل لمعاشه في حرفة يزعمون أنها دنيئة ، وما كان في الصناعات دنيء ، وإنما الدنيء من ثلم الشرف وعدم الكرامة ، وهم يسخرون ممن يقضون حوائجهم بأنفسهم ، وينقلون طعامهم وحاجات أهلهم ، ويحملون أولادهم بأيديهم . وإذا كان من يستخدم لنفسه ذلك من أهل الدولة والصولة عظم عينه في أعينهم وراحوا يستعظمون شأنه ويكبرونه ويمدحونه . سخافة لا تدانيها سخافة ، فهذه الأمور منهم دليل ضعف مدارك لا تقدح بمروءة من يعانيها ، وهي على العكس توجب احترامه .

ومن أشق ضروب الاستهزاء ما خرج إلى المعنويات وصدر عن جماعة ، وكل ما يعيبه الحضري من هذا القبيل يعود بالضرر الشديد على مرتكبيه ، فقد رأينا من دأب عامة أهل الحواضر الهزؤ بأهل القرى يزرون عليهم بجميل أذواقهم ، وسلامة لهجاتهم ، وحسن هندامهم وأزيائهم ، وظريف أحاديثهم وسمرهم ، ويتوفرون على

السخرية بكل غريب ، ويمجون من كل طارئ ، ثم هم يتحاشون السخرية بمن وقر في نفوسهم أنهم من الشعوب الراقية . ولا يقدر غلاة المدن منهم سخريتهم بأهل الريف يعلمون حرباً دائمة على أخزل أجزاء الأمة معاً ، وأن الفلاح يكسر المدنى قتلة كل حين يكيل له الصاع صاعين متى أمكنته الفرصة . يهزأ المدنيون من الفلاحين وكان أعظم رجل في تلك قرية لا يستنكف من مصلحة زراعته بيده يحرثها ويبذرها ويسقيها ويحميها ولا يعد ذلك معيباً وقاره ولا ذاهباً بمكانته .

وقع اختلاف مرة بين روسيا واليابان وكانت اليابان في أول نهضتها مغمورة غير مشهورة في الغرب ، فوقف روس القيصرة من خصومهم موقف الساخر ، وأخذوا يعيرون اليابانيين بقصر قاماتهم ونحول أجسامهم وضيق عيونهم ، وتعدوا ذلك إلى الاستخفاف بعدتهم وعديدهم ، وما إن نشبت الحرب بين الدولتين حتى مزق الأقزام شمل العمالقة ، وقضى العدد القليل المنظم على العدد الكثير المختل ، وكتبت الغلبة لمن جدوا ، والهزيمة لمن استهزأوا ، وأبان اليابان في تلك الدرجة عن عبقرية في فنون القتال البرى والبحرى دهش لها العالم الغربى ، وأقر الغرب للشرق لأول مرة في التاريخ الحديث ببلوغه درجة راقية من التقدم ، وشهد الأوربيون والأميركيون للآسيويين بالشجاعة والإقدام على العظائم والرسوخ في الحضارة ، وكل هذا لا يتم لدولة في نظر الغرب إلا إذا أرهقت أحداً وهزمت نداً . جر هذا البلاء على روسيا استهزاؤها باليابان يومئذ ، وكان مما جرى عبرة لكل فرد ولكل أمة في الأرض .

قد يقول المستهزئ فيمن يحرص على أن تقصر به ومن هذا فلان حتى تشيد الأمة بذكره ، على يقين أن كل ما يعمله أو يقوله لا يد له فيه ، وهل بلغ من قدره أن نظم قصيدة ، أو يكتب مقالة ، أو يؤلف كتاباً ، أو يحرر خطاباً ، أو لا أعتقد أنه

يحسن شيئاً من هذا، على أن ما ينتجه ليس بشيء، فإني عرفته وهو في المدرسة الابتدائية فكيف له أن يدعى الآن ما يدعى. ولا يكون المدى بين عهد المدرسة وقول المستخف أقل من عشرين عاماً، كأن عقدين من السنين لا يكفيان ليتم الذكي خلالهما تعليمه ويتقن صنعته.

وربما نفع المستهزئون من يهزؤن بهم فيكون مما يختلقون عنهم أن يدفع من استهدفوا لسخريتهم إلى التصلب في آرائهم فتحقق بالثبات أمانيهم، وشهدنا من صبر على مرارة الاستهزاء كيف أفلح وخاب المستهزئ، وربما أنزلت تهكمات المتهكمين ببعض صغاف النفوس فصدتهم عن مقصدهم. وقد تفرغ هذه الفرقة الساخرة استهزاءها في قالب النصح والشفقة، أو تسوقه في معرض التخويف والتحذير، والقصد مما تتحيل له أبداً وضع العقبات في طريق من يعز عليها مشاركتهم في مراياهم. وكم من قريحة كبتت بعمل المستهزئين فما استمعت إلى الحد لدى كان مقدراً لها.

أدركت عهداً كانوا يعدون فيه المغنين وأرباب الحرف الحرة من أرباب الصناعات الدنيئة، لا يتمسكون من إعلان سخريتهم بهم، وكانت تهكمون بالموسيقار والمغنى والشاعر كما يسخرون من الممثل والصحفى والمحامى، ومن لم يتقفل عما أسمعوه من عبارات السخرية لم تمض عليه زمن طويل حتى شهد وثبة المستهزئين يقرون جهرة بشرف هذه الصناعات، ويزعمون أنه لا بأس بتعاطيها لمن آنس من نفسه استعداداً لها. وما بهرهم في الحقيقة منهم غير ما نزلوا من الأرباح التي كان يجنيها أربابها.

وكنت أتساءل - وأنا أشهد قحة المستهزئين بالموسيقاريين والمغنين والشاعرين، ثم من الممثلين والصحفيين والمحامين - ألا يهزؤن يا ترى بالمزورين والمرتشين

والمتجسسين ، كأنهم ما وصل إلى سمعهم حديث الموسيقى والغناء والشعر ، وما كان لها من رفيع المنزلة فى الدول العربية الأولى ، وكأنهم لم يبلغهم أن التمثيل والصحافة والمحاماة نوع جديد من الأدب والقضاء والتربية يعد أهلها من أعيان القوم ، وكأن الأديان ما حظرت التزوير والرشوة والتجسس . ولكن كتب للشرق أن يستريح إلى هؤلاء أكثر من حده ، وللمشتغلين منهم أن يسوموا من لا يستحق إلا الإكرام والإعظام.

لما شرع أبو خليل أحمد القباني فى وضع أساس التمثيل العربى فى دمشق ، وأنشأ يضع روايات مسرحية من تأليفه ونظمه وتلحينه ، يمثلها أحسن تمثيل ، كان المشهورون من حساد فضله يصفونه بأوصاف يقصدون بها معنى التحقير ، وما زال أرباب الغباء إلباً عليه حتى استصدروا إرادة سلطانية بقفل مسرحه ورحل إلى القاهرة وفيها ظهر نبوغه.

وقد وقعت لأبى خليل هذا حادثة تبين مرتبته عند المدركين ، ذلك أن أحد الأعيان احتفل بتلاوة قصة المولد النبوى فى ولاية الوالى مدحت باشا ، وكان هذا الوزير العظيم من المعجبين بأدب السيد القباني . ولما حان وقت تلاوة المولد قال الوالى لصاحب الدار : قل لأبى خليل القباني — وكان فى آخر صفوف المدعوين — أن يقرأ هو المولد ، فدهش صاحب الدعوة من هذا الاقتراح ، ورأى فيه افتئاتاً على الفقهاء ، وقد جرت عادتهم أن يتولوا هم تلاوة هذه القصة الشريفة ، يقرأونها فى نسخة مطبوعة مشكولة ألفت فى عهد ضعف التأليف . ثم عاد الوالى التركى فأكد مقترحه مرة ثانية على صاحب البيت فلم يسعه إلا امتثال أمره مستغرباً تقديم الممثل على الفقهاء ، فارتجل أبو خليل قصة من نمط لم يألفوا مثله ، أخذ يعدد صفاته الرحيمة وأثر الرسول فى هداية البشر ، ولم يذكر ما سبق الولادة من العجائب التى اعتادوا إيرادها ، ذلك لأن عظمة الرسول تجلت فى نبوته لا فى طفولته . وكان الوالى يبكى ويشهق طوال ساعة المولد ،

وقد قصد باختصاص القداني بقراءة السيرة الشريفة أن يشير لمشيخ الرسم أن هذا المثل الذي يسخرون منه لا يلحقون غباره في كثير من الصفات ، وإذا عدّوه صاحب بدعة نقصاً وزمتاً فهو فرد في صناعته .

يستهزئ المستهزئون بمن يتوهمونه أهلاً للاستهزاء في نظرهم ، فإذا لم يظفروا بما يسيئه ويجعلون منه موضوعاً لهزئهم اختلقوا ما لا أثر له في غير مخيلتهم . ومن دعوة بعض المستهزئين أن السيد محمد عابدين ، أكبر فقهاء القرن الماضي — وكان من أبناء التجار — تفقه في الدين لا ليتولى القضاء ولا الإفتاء ، ولا لينال الحظوة من الرؤساء والأمراء ، بل تفقه ليخدم الشريعة وينفع المسلمين بعلمه — لما بدأ يؤلف وهو دون العشرين لجأ بعض المتنطعين إلى طريقتهم في الاستهزاء فكان يسمع طنينهم ، ويتجاهل ما يلفتونه عما عقد العزم على المضي فيه . وما زال يصمّ أذنيه عن مهازلهم حتى انتشرت تآليفه وفتاواه في حياته ، وكتب لها الخلود والانتشار من بعده . ولو عبأ ابن عابدين بالمستهزئين لضاع على الأمة علم عظيم من علم فقهها ، كما انقطع عن العلم عشرات من العلماء قبله بخبث المستهزئين .

ولا أزال أذكر ما كان يلقى مؤسس بنك مصر من استهزاء بعض معاصريه عندما كان يدعوهم إلى إنشاء مصرف يحفظ للمصريين بعض ثروتهم ويعاونهم على مسائل اقتصادية ومالية كانت وقفاً على الأجانب يستأثرون وحدهم بثمراتها ، وكان كلما سخر منه الساخرون ازداد اعتقاداً في نجاح دعوته ، حتى وفق إلى إنشاء مصرفه ورفع عن أمته عار الجهل بسياسة المال . وكل مشروع نافع استقبله المستهزئون لأول إنشائه بأسلحتهم المنكرة ، وغض المنصفون الطرف عن تطاول فيهم خاب فيه المستهزئ ونجح المستهزأ به .

الاستهزاء داء من أدواء الشرق وما أكثر أدواء هذا المسكين .

القول فى الهمازين اللمازين

كلما نمات حال اللمازين فى عصرنا – واللمزة من يعيبك فى وجهك، والهمزة من يعيبك بالغيب . أذكر ما وقع لأحمد بن يوسف الكاتب وهو يقرأ الرسائل فى حضرة المأمون، وقول الخليفة له – وقد مرت قصة أصحاب الصدقات – : نظر فى أمرهم فقد كثر ضجيجهم . فقال : قد نظرت فى أمرهم ووزنته ، وكلهم أهل تعدٍ وظلم ، وبالباب منهم جماعة، فقال المأمون : أدخلهم . فدخلوا فناظرهم ، فاتجهت الحجة عليهم، فقال أحمد : هؤلاء ظلموا رسول الله كيف يرضون عنه ، قال الله عز وجل : (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) .

اللمازون جيل عجيب من أجيال الخلق لا تراهم إلا متأففين متبرمين ، عاتبين على الأيام ، حرباً على البشرية ، كأنهم يطالبونها بطوائل لهم وثارات ، ويتربصون الدوائر بمن صفا لهم الزمان ، وأفنحوا نصف الشيء فى تحصيل أرزاقهم وتحسين مظاهرهم. اللمازون يشاركون الممسوسين والموسوسين فى كثير من الأوصاف ، يُنحون عند كل سانحة على من أتى فى زعمهم أنهم حائلون دون تقدمهم ، ويتوهمون أن فى إزالتهم من طريقهم فرجاً لهم ومخرجاً ، يصرون فى قرارة أنفسهم أنه لا حياة لهم إلا إذا عابوا واغتابوا ، وأنهم لا يصلون إلى حقهم المهضوم إلا إذا أكثروا الغمز واللمز ، ويتأصل هذا العيب فيهم حتى لو أرادوا التخلى عنه ساعة ما استطاعوا ، وكلما زاد إخفاقهم

وسدّت فى وجوههم أبواب الرزق ، وحالت بينهم وبين الظهور حوائل اسودت لديها فى أعينهم .

الثائرون ما رضوا عن أحد ولا رضى عنهم أحد ، تشهدهم فى وجوم وحسرة ، سلبوا راحة النفس ، ورضى القلب ، ومطامعهم عظيمة حتى لو نالوا غاية أمانيهم لنشأت لهم من الغد أمانى أخرى ، يخرجون من ضيق إلى ضيق ، ويداخلون القلق بعد القلق ، وحياتهم عليهم وعلى غيرهم لا تخلو من مصيبة ، يعيشون كارهين مكروهين ، من بين عيابين ، يطعنون غيرهم ، ويعتقدون أنهم مطعونون يعترضون على المولى فى أحكامه ، وعلى السلطان فى تصريف أموره ، وعلى الناس وما واطئوا على استحسانه واستهجانه ، يثورون فى كل ما يسمعون ويرون ، لا يخشون من الناس أحداً ، ويعتقدون التفوق على كل إنسان فى كل شىء .

المتكبرون نم سحنات وجوههم عما تكنه أنفسهم ، وتبدو لعينك رعنتهم من حركات شفاههم ، وحركات أطرافهم ، ويودون أن يستكثروا من الباكين والشاكين حولهم ، ويغضون ممن لا يشاركهم فى أحزانهم ، ويشاركهم فى سكنتهم ، وتشايعهم على أفكارهم ، وتعترف بمصائبهم وغصصهم ، وهم إلى هذا يوهمونك أنهم أغنياء عنك وعن غيرك .

وقاعدة (حاف تعرف) مانراه فى الهستر العنيد المولع كله ، يبدو بمظهر غريبة أمام من يحاول إقناعه بصدق حديثه ، وسواء جاز الصحيح والمحكى من كلامه على أهل الصيرة أم لم يجز فهو يصرح عن صدره بالانتقاص من قدر من تقدمه ، أو حاول برغمه دون تقدمه . وقاعدته التى لا يحيد عنها أن يبغض كل الناس وينتقص كل الناس .

اللماز لا يرى لأحد مزية ، ولو كان هذا بالإجماع أعلى منه قدراً وأحكم أمراً .
ومن طمعه أن يهدر الأحياء والأموات ويخص الأحياء بالمقدار الوافى من لمزه ، ذلك لأن من أصول الهمز ألا تثبت لأحد مزية ، ومن خصائص المبتلى بهذا الخلق أن يقنع من حوله أنه منقطع القرين ، وما هو إلا نقمة على كل صاحب نعمة ، لا يتعمد إلا الكبراء بلمزه على الأكثر ، يشير إلى أنه من قوة الشكيمة بحيث لا يبالى بعظمة أصحاب المقامات ، ويحسر عليهم لأنهم فى حكم بعض أقرانه أو فى درجة بعض مريديه ، وما قدمهم عليه إلا سبقهم فى الميلاد ، فشهرتهم ابنة الأيام فقط ، ولو عقل الزمن لجعل له الصدارة فى كل شىء ، ولقصر عليه التوفيق دون سائر لداته ومن كان قبل لداته .

ويالله كيف يبيض ويغيظ نفس الهماز إذا تجاوزه بعض أقرانه إلى منصب راق ، أو إلى الوقوع على رزق أخذه عليه الغيبة ، وهو يعتقد أن كل سعادة يجب أن تكون موقوفة عليه دون غيره ، ولا يدرى أن أرباب العبقريات كثيراً ما تخطوا أقرانهم ، وأن مقاييس السعادة قد تطرد ، وأن للتوفيق أسباباً أخطأها فتخطته إلى غيره .

ويصاب بهذه العاهة أنصاف المتعلمين على الأكثر ، ومن أورثتهم شهاداتهم المدرسية شمخاً فى أنوفهم ، فراحوا يعتقدون أن من تعلم صفحة جملتين ، وحل مسألة أو مسألتين ، حقيق أن يولى لأول ظهوره أرق المراتب ، وأن يصبح من أرباب الجاه ، ويحمل سطورة كل مجلس ، وموضع كل إجلال ، ومثابة كل جلال .

رأيت من هؤلاء الهمازين من يهون عليه انتحال كل مذهب ، والاندماج فى كل حزب ، ومنهم من بدّل لقبه ونحلته غير مرة ، وربما كنت تراه مع المجددين ،

إذا هو فى جملة المتشوبين ، وبينا هو متحذ يجهر بإخلاده لا جلى ، إذا هو من القعد فى زاوية مع أهل الطريق يتواله ويتواجد ، وبينا هو يتقبل كل ما فى المدنية الجديدة قبول حسن ، إذا هو رجعى يفندها عند الرواة . وبعض من كانوا على هذه الأخلاق اعتمطوا قبل الكهولة ، وما حملوا إلى قبورهم إلا الحسرات والزفرات ، ومن طالت أعمارهم انقضت فى سلسلة من الآلام .

شاهدت طوائف منهم كانوا يظنون أن ما جمعوا من معلومات ، وحملوا من شهادات وإجازات ، شىء نادر لا يصل إليه أحد بعدهم وما وصل إليه أحد قبلهم ، وإذا سألتهم وأنتم ماذا عملتم ؟ جمجموا واعتذروا بأن الزمان ما صفا لهم ، ولو سالمهم لتمت على أيديهم العجائب . أما هم فلا يرون فى باب الاعتذار عن قصورهم أحسن تسلية لهم من الطعن فى العاملين ، وهم ما عملوا ولن يعملوا وما عملوا ولن يعملوا .

رأيت لمرة من هؤلاء المتعوبين حتى إلى ما اعتقل قبة الأدب ، دخل على فى وزارة المعارف وهو مستخدم فى بعض مدارسها ، ولم أكن أعرفه من قبل ، حتى إذا أخذ المقعد الأول أمامى بدأ يحكى كلام المغيظ المحنق ، ثم أخرج من جيبه مرآة يتراءى بها ومشطاً يمشط به نجمه ، وأبرز زجاجة يدهن منها شعره المسترسل ووجهه المحفف ، كأنه فى غرفة نومه ، أو فى حانوت مزين . وقبح بهذه الحرية التى تذكرنى بما كان يأتيه أحد الرؤساء من التهتك فى عاصمة دولة أخرى ، وقد كان يشرب علناً فى إحدى الحانات ، ويجمع إليه بنات الهوى يداعبهن أمام المجتبين أمثاله . ولما قلت له إن هذا لا يليق بمن كان فى مثل منصبه أجاب إنها حريته يتمتع بها . فقلت له إنه ليس حراً ما إن تقلد زمام الأمر والنهى ، وقد يطالب منه أن يراعى شعور أمته ،

وقلت له : هل رأيت أحداً قط من كبراء الدولة التي تنزل في أرضها يفعل مثلك ،
أما هو الأحزم أن تستتر في زيك إذا كان لابد لك من هذا الاستهتار .

أطلعني أحد أصدقائي من وزراء المعارف على صورة برقيات وردت عليه من
فريق من الطلبة والمعلمين يحتجون على نقل معلم اقتضت المصلحة نقله إلى بلد قريب ،
فقرأت في هذه الاحتجاجات صورة من صور التربية ، وأيقنت أن أدب الدرس
إذا لم يقترن بأدب النفس لا ينتفع بالمكتسب أهله ولا وطنه ولا ينتفع هو بنفسه . فمنهم
من قال إن الرجل المنقول وقع عليه هذا الحيف لأنه قوى العقيدة وطنى النية ، ومنهم
من قال إنه ينطق في هذا الاحتجاج بلسان الشيوعية ، يوهم أن الوزير صاحبه شيوعى ،
ومنهم معلم صعلوك خاطب وزيره بقوله (أخوك ويحيى) كأن الوزير بعض أقرانه ،
وكان معظم المحتجين من المدرسين ومن الأغمار أحداث المتعلمين .

وقد يكثر المتذمرون في شعب التعليم العالي ، والمفروض فيهم أنهم علت مداركهم
عن مستوى العامة — وهم ما امتازوا عن العوام — إلا بالثرثرة وإطالة اللسان . وربما
كان في هؤلاء من الصفات ما يستحب . والمرء إذا شبّ على فطرته أحسن شيئاً من
الذي أخذ بقشور العلم ، وقعد مقعداً ظن نفسه معه أنه صار حقاً إلى السمو والتفوق

يقول (سانت بوف) إن كثيراً من أمور المجتمع واحدة والعلم الحديث يعمّم
في الهواء ، وفي الجو الطلق ، ويقوى بالاتصال الذي يحدث أمره كل يوم مع
مواطنيه . والاعتماد على النصوص المدرسية فقط للحكم على الرجال غير صحيح ، وهنالك
إلى جانب المعرفة معرفة حسن السلوك مع الناس ، فالمدرس لا تعلّم الطالب تقويم
الذهن ولا توحي إليه الكياسة والذكاء .

عرفت رجلين بلغ الأول أكبر مقامات السياسة ، ووثب الثانى الى مرتبة علمية عالية ، وما شهدتهما إلا نمطاً واحداً فى الفتوة والكهولة والشيخوخة ، قضيا العمر الطويل ولم أقرأ حياتهما لأحد عصابة ، وما حسدا إلا صاحب فضل ، يختلقان المساوئ عنه ويغمطان الحسنات صراحة . ما سمعتهما أثنيا على إنسان ، ولا فرحا لسعادة إنسان ، يعترضان على كل شىء ، ويسخران من كل من فاقهما بالمطبوع والمكسوب من الصفات . ومدحهما وقدحهما عن هوى فى النفس ، فهما مثال التناقض فى عامة أحوالهما ، بلغا سن الشيخوخة وما قصرا عن الغضب على المدركين المتميزين فى بلدهما وغير بلدهما ، يتحسران أبداً لأن الأعمال العظام ما وسدت إليهما ليسعدا هذه الأمة ، وشأنهما شأن مستخرجى الكنوز وأصحاب الكيمياء لو صدقوا فى دعواهم لكانوا أغنوا أنفسهم أولا قبل أن يحاولوا نفع غيرهم .

لم يعمل [illegible] الأول عملاً يذكر به ، وحظه التوفيق فى كل ما حاول من مشاريع منظور بتظاهر أرباب المدارك ، ورأيته يلازم أصحاب المكانة ويداجى الصعاليك ويتحبب إلى المارة فى الطرق ، يسلم على من لا يعرف ، يتودد إلى الأدنى والسوقة ، ويبهر الفضلاء والعلية ، ولطالما شوهد يستزير العامة ويزورهم فى الأفراح والأتراح ، يشيع جنائز من ليس له بهم صلة ، ويحضر الولائم والأعراس ، وهو لا يميز بين صاحب الدار ومدعويه ، ولا يعرف اسمه ولا اسم أحد من أهله .

والثانى كتب أشياء فى صباه ، وكان يرجى منه إذا اطرد عمله أن يكون له شأن فى صناعته ، ولكن طغت الشهوات عليه مقرونة إلى المنفعة فى الظهور بمظهر لم يظهر به أحد معاصريه ، فمكث نصف حياته الأخير لا يكتب إلا ما فيه منفعة خسيسة ، وعاهد ربه أن يطعن فى كل آن بالعرب ويمدح أعداءهم ، بل يسعى لبسط

سلطان هؤلاء على قومه ، ولو تأملته حق التأمل لما رأيته يخرج عن طور رجل استخدم ما تم له من الأدوات فى حرب أمته ، وأتعب قلمه ولسانه طوال حياته فى الغض من جوّدوا أعمالهم .

كنت إذا ذكرت أمام هؤلاء المتدينين حسنة لرجل يرجى أن يتم على يده بعض الخير يحملقان حملقة المنكر الساخط ، ويحدّقان الطرف كأنما أتيت أمراً إدّاً وكان يصعب على سمعهم . إنهم قد يغفرون كل هفوة على أن يسمعوا مثل هذه الإشادة بمن لا يستحقون مدحاً ، وما كنت أنجو من ملامتهم إلا إذا رجعت فى الحال عن قولى واعتذرت عما اجترحت !

وقد صادفت من أبشع ضروب التهور ما صدر عن رجال الدين ، يعرّضون بمن لا يرضون عنهم باسم الإرشاد والهداية ، ويشجع على ذلك ثقة عامتهم وفرط بلاهتهم ، ومن الرجال من يداوون جهالهم بالصبر والحلم لا تتعدى عقولهم مطالب شهواتهم ، وإن محادثة الحوذيين والباعة لأشهى إلى قلبى من سماع هؤلاء المتدينين ، ففى هؤلاء الغرور وفى أولئك التواضع ، وشدّ ما تعب عقلاء من أمثالهم ، حتى قال بعضهم : لأن أزاول أحمق أحب إلىّ من أن أزاول نصف أحمق ، يعنى الأحمق المتعاقل .

وصفنا بعض النواحى من أخلاق الآخرين حتى كاد يدخل هذا الفصل فى باب الأهاجى وما هو منه ، ولكنا قدمناه تذكرة ليستقر فى الأذهان ما تقرر ، والمثل يدعم القاعدة . وما أجمل ما قال أحد الظرفاء : «لقد عييت باعتراض المعترضين ، إذا ذكرت لرجل محاسنه فى وجهه قالوا إنها وقاحة ، وإن عددتها فى غيبته قالوا هذه غيبة ، وإن أوردتها بعد وفاته قالوا أسف قد أُمرنا بأن نذكر محاسن موتانا ، فمتى يا ترى يجوز فى شرع هؤلاء المتزمتين نقد أخلاق الساقطين ؟» .

وبعد فالهمز مرض قتال ، والهماز مجنون مصغر ، وأنجع دواء فى مداواته الإعراض عنه ، والابتعاد عن سمع كلامه ، والامتناع من مناقشته ، فإن عشرته سجن الروح وعذاب النفس . والهماز قد يكون مصاباً بإحدى العاهات الطبيعية كفقر الدم وضعف الأعصاب أو فقد إحدى جوارحه ، أو جاء من أب مدمن أو من بيت تغلب البلاهة على أهله ، فيكون منه مجموعة عصب ونقمة لا يهدؤه إلا النيل ممن كانوا أفضل منه . وورد فى الأثر : الخامل يضم من خاصمه ، ويعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويحكم بغير تفكير .

القول في الخياليين وأصحاب الشذوذ

بين المفكرين والخياليين وجه شبه كبير إلا أن ضرر الخياليين على أنفسهم أكثر من ضررهم على الجماعة وخطبهم على كل حال أسهل من خطب العادين المتهورين . الخياليون يغرقون أبداً في آمال وأحلام ويرون المستحيل ميسوراً ، ويذهبون إلى أن كل شيء ممكن ، ولو عدمت جميع مقدماته ومقوماته ، وأن النجاح على طرف الثمام لكل من تطاول إليه ، والمشاكل مهما صعبت تنحلُّ متى تجهت إليها الهمم ، وأصحاب هذا الخلق يفرضون الفروض التي لا تصحُّ ، ويأخذون بما يتخيلون ، ويقربون البعيد ويحسبون العسير وهم مغامرون إلى أقصى حدود المغامرة لا ييأسون ولا يقنطون ، ولا يخافون من شيء من المهالك .

كتب إليّ أستاذي من القاهرة أن قد جرت مذاكرة مصرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسية فتبين أن أمر المال سهل فإن أحد الحاضرين تعهد بذلك ، وقال إن له إخواناً لا يتوقفون في الإمداد ، والمهم وجود مترجمين يتعهدون بالقيام بذلك إلى النهاية ، فقلت إن هذه لمسألة تحتاج إلى تفكير وبحث شديد . وقد تشبث بهذا الأمر منذ سنين أناس ظنوا أن المال يأتي بكل شيء ، فتبين لهم غلطهم وأعرضوا عن الأمر ، وهو في درجة الإمكان القريب إذا كانت هناك همة ومعرفة بالطريق ، وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر ، في يد الحكومة فطلبنا أن يكتم ذلك عنها فإنه لا يؤمل أن تقدر عليه ، والأمر يحتاج إلى

الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة . وصدق أستاذى فى قوله إن هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة ، فإن للحكومات مشاغل أعظم من هذا ، وتأليف المعجمات ودوائر المعارف من شأن الأفراد ، والحكومات تعاونهم بالمال فقط ، وإلى الآن لم يتيسر مثل هذا الكتاب النافع لأن من فكروا فيه يومئذ كانوا من الحالمين ، ومتى حان وقت تخطى هذه الصعوبة .

كان لى صاحب يحمل شهادة الطب فخطر فى ذهنه ذات يوم أن ينقل إلى العربية من الفرنسية كتاب علم الحياة لفيلسوف مشهور تخيل أنه مقتدر على هذا ، وهو حينئذ لم يترجم سطرين ، ولا يحسن قراءة جملة صحيحة عربية فضلا عن أن يكتبها ، وجئته بعد سنين فرأيت على مكتبه طائفة من الورق الأبيض ، وقد كتب على الطبق الأول اسم الكتاب واسم مؤلفه واسم مترجمه فقط ، وإلى جانب هذه الأوراق المجلدان الضخمان من كتاب علم الحياة . وصاحبى هذا هو أيضاً من أرباب الخيال الذين يتوهمون بأنهم يحسنون كل شيء .

قصدنى غير مرة بعض الشبان يسألونى رأيى فى إنشاء جريدة يومية سياسية وأخرى علمية شهرية ، وتأسيس مطبعة تطبع الكتب والصحف والنشرات التجارية فكانت أجوبتى إليهم تختلف باختلاف حالة المخاطب . ومن أغرب ما يدون أن أكثر من كانوا يتخيلون نشر الصحف الكبرى لا علم عندهم ولا مال ولا خبرة ، ويتوهمون أن الناس يقبلون على جريدتهم أو مطبعتهم فى أول يوم من إنشائها ، ويضمنون لأنفسهم ألوف القراء وألوف الزبن ، وهم لا يعرفون شيئاً من هذه الصناعة الصعبة التى يحاولون أن يزجوا أنفسهم فيها ، وغاية ما عرفوا أنهم حشوا معلومات ضئيلة ، ثم انصرفوا عن النظر فى الكتب ساعة غادروا المدرسة وقد

يكونون ممن تعذر عليهم استحصال الشهادات . ولدى أقدم من هؤلاء الخياليين ولم يستمع للنصيحة أحمق ذو طمع ، وفقد القليل من رأس المال الذي وضعه ، وكان ربحه أن كتب اسمه في ثبت الجرائد المتعطلة . ومثلك ترى في تاريخ الصحافة العربية أن الصحف التي لم يصدر منها إلا أعداد محدودة في أيام محدودة أكثر من الصحف التي عاشت . ومن جميع الصحف التي صدرت في مصر والشام لم يبق إلا صحف قليلة ، وما ذلك إلا لأن الخياليين كانوا أكثر عدداً من العمليين ، والذي ثبت يدين بثباته لمن تولى العمل ، ثم لمعونة الحكومات أو الأحزاب أو الجمعيات .

وهكذا الحال في معظم الشركات الصناعية والتجارية التي قامت في أصقاعنا على غير أساس متين ، سقطت بعد أن أضاعت على مؤسسيها أموالهم وأوقاتهم ، وكان السبب الأعظم في سقوطها كثرة الخياليين من المساهمين فيها ، وتسلط المطربين على العمليين ، فنتج عن ذلك سرقة الأموال والاسراف في النفقات غير المثمرة . ورأيت من هؤلاء الخياليين من لم يحجموا عن البداءة بعدة أعمال في آن واحد ظانين: إذا خسر هذا فالنجاح في ذاك محتم ، وأدت بهم قلة حسابهم إلى أن خسروا ما وظفوه من مال ، انقطعوا في أول الطريق ، بجرأتهم على ما لا يحسنون ، وعادوا بعد الخسارة يسبون البيئة وأهل البيئة التي خلقوا فيها ، ويندبون حظهم ، ويقولون إنهم لو قاموا بهذا المشروع المفيد في بلد غير بلدهم ، أو في أمة غير هذه الأمة لصبت عليهم الأموال صباً ولو عقلوا لألقوا بالائمة على أنفسهم أولاً لأنها لم تعرفهم أقدارهم فأقدموا وكان الواجب عليهم أن يحجموا .

وقد كنت أنصح لمن يحاول القيام بمثل هذه المشاريع أن يبدأ بشيء صغير كأن يدخل أولاً في إحدى المطابع ويتعلم تنضيد الحروف وتحريك الآلة الطابعة وصورة إدارة المطابع ، وأقول لمن يريد إنشاء جريدة أن يدخل في إحدى الجرائد المشهورة عاملاً أولاً ، يدرس التحرير بأنواعه وبعد سنتين أو ثلاث تنشأ له فكرة في الصحف فيعرف من أين يبدأ أو كيف يبدأ ، وكنت أقول لمن يحاول أن يؤسس شركة صناعية أو زراعية أو تجارية أن يبقى نفسه في خدمة إحدى الشركات مدة ليعرف من أين تؤكل الكتف ، وكان أكثرهم يرى أقوالي مما يمس عزة نفوسهم ، وأن هذا التكليف محال ولا يليق بهم أن يتدرعوا بمثله ، وأن الأمر سهل بأن يأتوا بصانع يعمل لهم مقابل قليل من المال يبذلونه له ، أو أن المسألة ظاهرة من ذاتها لا تحتاج إلى كل هذا العناء .

طلب إليّ حيلى من هؤلاء الخياليين أن أتوسط له لدى أحد أعيان المزارعين ليعطيه مزرعة له كبيرة يزرعها له على أصول الفن الحديث ، وكان صاحبي يحمل شهادة ابتدائية بالزراعة ، فقلت له : إنك لم تثبت كفاءة حتى يهون على صاحب المزرعة أن يكل أمره إليك ، فلو كنت بدأت أولاً بزراعة خمسة أفدنة أو خمسين فتعهدتها وزرعتها وغرستها لكان من السهل الاقتراح على صديقي أن يسلم إليك شيئاً من أملاكه ، أما الآن فمن المحال أن يعطيك خمسمائة فدان دفعة واحدة ، وهو يعرف ما ينبغي لها من معرفة ومال ، وإدارتها كإدارة حكومة صغيرة تحتاج إلى أمور كثيرة . ورجع الخيالي الحديثي وهو يقول في سره إني قليل الخير لا أريد أن أتكلف معه جهداً .
وبعد سنين قصدني هذا الزراعي بمصر وقال لي : إن لدى وزارة المعارف وظيفة شاغرة هي مدير مدرسة الصنائع وطلب إليّ أن أعينه فيها ، فقلت له : إنك زراعي فكيف

لك أن تقوم بأمر صناعي يحتاج إلى مران طويل ، وشهادات تثبت كفاءتك لتولى مثل هذا المهم ، وأنت يا هذا لم تقم برهانا على نجاحك فى اختصاصك فكيف لك تتولى أمرا لا تعرف مبادئه . فعبس وبسر .

ولقد كنت آسف لمن يستهينون النصح ويسترسلون فى الخيال ، لاعتقادى أن العاقبة لن تكون ثمرة يسرهم ، وآسف لما يصرفونه من جهد ومال ووقت ، وآسف لأن اخفاق شاب من أول أمره مدرجة إلى انقطاع أمله من الفلاح طول عمره ، وسبيل إلى تثبيط همم العاملين من أهل جيله . ورأيت أكثر من عنوا بالتجارة والصناعة والزراعة كان انبتاتهم وحسن حيلتهم أعظم يد فى تقدمهم ، وعددهم أوفر من المتعلمين ، والخيال يكثر فى طبقة هؤلاء . ومن عادة الناس أن يروا من أنجحوا يشيعون أخبارا مبالغين فيها ، ولا يتكلفون البحث عن عشرات وراءهم أخفقوا ، ولا عن سبب اخفاقهم .

ويعد من الخياليين من حرص على تأليف جمعيات سياسية دواما سرية ، وأقدموا قبل أن يحين الزمن على أعمال خطيرة ، وليس لديهم مال كاف يستعينون به ، ولا أنصار يركن إليهم ، فحدث ما دعوا به متسرعا ، وانكشف أمرهم فوقعوا فى شباك أعدائهم فهلكوا وأهلكوا من معهم . ورأيت من هؤلاء الخياليين شبانا وكهولا كنت فى باطنى أعتقد خطأهم وكان أقل ما يقال لمن يجسر على نصحهم ، ويصرح لهم أن عملهم غير مضمون النتيجة أن يرمى بضعف الوطنية وربما أوذى وشتم . ومن كان على شيء من التقية يمتنع من الإدلاء بشيء فى هذه الأحوال . وأذكر أنى قلت لأحد معارفى أيام الثورة السورية أن غوطة دمشق لا تصلح لحرب العصابات لأنها معروفة الحدود واسعة ، فقال بل الثوار يتجمعون فيها ويفترقون من

أسوار القصبة ، وأصحاب هذه الحرب في العادة يضربون في عدوهم ضربة ثم يفرون من وجهه إلى مكان ممتنع عليه ، فقال صاحبي : وأنت ما يدريك ما هنالك؟ ان الأمر لديه أدخل من أركان الحرب وقتئذ ، وهذا لا يمنع من أن يتلقاهم عدوهم لقط اليد كالعصافير ، وتبدد به قليلة طوق الجيش الثوار ، وقضى على قسم عظيم منهم وكان ما كان من المصائب .

* * *

أدركت طائفة من الرجال كان يتراءى لي أن عقولهم تامة من جانب ناقصة بعض النقص من الآخر . ومنهم من كان به جنة ، وهو في ظاهره سليم العقل ، صحيح الأحكام . كأن الفطرة لا تحب أن تكون سمحة بكل شيء ؛ فلا تجمع الصفات الحسنة كلها في فرد ، كما لو جمع الجمال في امرأة بها تفتن العالم وتستعبده . وشهدت الشذوذ يكثر في المدونين والخطاطين والشعراء والمهندسين ، وبعضهم يتكلفونه ويتزيدون فيه ، كأن الأعمال الحرة من موجبات الفن ودواعي النبوغ . ومن يتطلبون الشهرة من غير طرقها ، ويبالغون في حذلقتهم ، هم أيضاً من أرباب الشذوذ ، وما من كمال إلا كان إلى جانبه نقص .

أطلت النظر في مسرح بصري من أصيبوا بهذه العاهة ، ومنهم صاحبان لي كنت أعجب بذكائهما النادر ، عرف أحدهما بالشعر والفلسفة ، والآخر بالتصوير والهندسة . واشتهر الأول في العراق ، وما تعدت شهرة الثاني الشامات . كان الأول يسده الشعر ، وشب بفطرته يتفلسف في كل شيء ، وينتقد كل شيء ، وعتب على أبيه لأنه دفعه إلى مدرسة دينية ، ولم يتعهد بتربيته إلى إحدى جامعات الغرب ، ولو فعل لجاء منه الفيلسوف العظيم الذي كان العالم يترقب ظهوره ليفقد البشر بتعاليمه من آلامهم ،

وينظم لهم بعقله شئونهم . وقد ادعى في أذكر أن للإنسان رجعة إلى الدنيا بعد مئة ألف عام أو أكثر أو أقل ، وربما تكون عودته بالصورة التي يختارها ، وما أدري إن كان يرجع كلباً أو خنزيراً ، أو قرداً ، أو ثوراً ، أو دباً ، أو إنساناً كاملاً ، أو إنساناً ناقصاً !

وهكذا طغت الفلسفة على قلبه ، ووجد الشذوذ مرتعاً خصيباً في لسانه وقلمه ، وما كنت أهتدي إلى حقيقة دعوته ، ولا إلى أين يرمي باتجاهه . ادعى أنه كان في صباه يسمى المجنون لحركاته الغريبة ، وفي شبابه الطائش لخفته ورعونته ، وفي كهولته الجرىء لمقاومته الاستبداد . وفي شيخوخته الزنديق لمجاهرته بآرائه الفلسفية . أي أنه كان شاذاً من أول أمره ، إلى خاتمة عمره .

وعهدي به في لبنان في الدور العثماني ، يقرأ للإرشاد الروحية ، مذهب أحد مشايخ الدجالين في جامع صنعاء نزعة لا تتفق مع دعوى التجدد ، ولا مع دعوى الفلسفة . وقد ألف في الرد على بعض المذاهب الإسلامية رداً بعيداً عن روح الحق ، ما إخاله هو يعتقد صحته ، واعتذر بأن الداعي إلى تأليفه كان سياسياً .

صاح صيحة عظيمة لإعمال الأمة بإصلاح خطها القبيح الشكل ! واخترع لها خطاً جديداً مقتطعاً من أشياء ما بين رأسه ودعاها إلى قبوله . وجاهر مرة بوجوب الإقلاع عن القوافي في الشعر العربي - وسميت بذلك الأوزان أيضاً - وحمله مطلقاً لأن القافية تقيده ، وأتى من ذلك بموجودات ركيكة سخيفة ، لو كان في باطنه مقتنعاً باستحسان طريقته لجرى عليها في شعره ، ولكنه ما كان يؤمن في أحسب بما يقول ، ويقصد أن يقال عنه فقط إنه أتى بجديد .

أرسل إلىّ بضع قصائد لشعراء بغداديين مشهورين — ومنهم من يعد فى أرق طبقات العلماء — ادعى أنهم نظموها بمناسبة ورود شاعر هجّاء على مدينة السلام ، هجا شعراءها وهجوه هجواً ليس أسمعه منه . وما ظننت أولئك الفحول ، ينظمون مثل هذا الإقذاع . وطلب منى أن أنشر له هذه الأهاجى فى كراسة ، أو فى إحدى المجلات المصرية ، فتنصلت من توسيطى بنشر هذه السخافات ، وكتبت له ما معناه : أصبح المسلمون عبئاً ثقيلاً على الأرض ، ويشتغل الموصوفون الآن بالعلم والآداب من رجالهم ، فى بلد كان ينزل فيــه أمثال بشر المريسى وأبى عثمان الجاحظ بهذه الترهات ، ثم ينشرونها ليثبتوا للعالم أنهم سخفاء .

وبعث إلى مجلة المقتبس أيام كانت تصدر فى القاهرة عدة قصائد فى الدعوة إلى الإلحاد ، والحط من الأديان ، وأوعز إلىّ أن أنشرها باسم المجلة أو باسم مستعار ، فرددتها إليه ذاكراً له إذا كان من خطة المقتبس عدم التعرض لمسائل الدين ، فليس معنى ذلك أنه يدعو إلى محاربة الدين ، وأن صاحب المقتبس لا ينظم الشعر فكيف يجوز له أن يدعى ماليس له .

عدّ بعض المشتغلين بالشرقيات من الغربيين ما صرح به صاحب هذه من الآراء فلسفة جديدة ، وغلا فى تقدير شاعريته . ومن عادة المتعصبين من الغربيين أن يهللوا لكل مسلم حارب إسلامه ، ولكل عربى خرج على قوميته ، ولكل شرقى مرق من وطنيته . يتعمقون فى تأويل كلام من أرادوا الإشادة به ، ويعظمون أقواله وأفعاله ، ويلبسونه من ثياب المديح أضفاها ، وعلى هذا قضت الأمانة على مستشرق متعصب بالاقتصار على ترجمة هــذا الشعر المتعسف فى أمتع كتاب كتب على الإسلام فى

الغرب ، ليقول لأبناء الأجيال القادمة : هذا كل ما أبدع الشرق الأدنى فى القرون الأخيرة ، والعرب أو المسلمون لم ينشأ منهم فى هذا العصر رجل يذكرون .

* * *

أما المهندس المصور فكان من أتراك وعرفته وهو يافع يصور كل شيء بالريشة والقلم والظفر والإصبع والحبر والفحم والطباشير ، وتبدو عليه علائم الذكاء البراق ، وكان أبداً يحاول التفلت من كل قيد ، ومن كل ما يسمى العرف ، ولعله ما كان يخفى عليه أن العرف ينكر عليه ما يرتكب وهو محتاج إلى مراعاة هذا العرف ، ومن ذلك أنه بدأ شذوذه بلبس القبعة ، وهو تلميذ فى المدرسة ، وصور نفسه بها ، وكان لبس القبعة يومئذ يعد من الكبائر ، فصدرت إرادة السلطان بطرده من مدرسته .

أخذ طول حياته يبتدع أشياء لا يوافق العقل عليها ، ونسبته قليل وحركاته كثيرة. وكان إذا وضع لأحدهم خريطة فى أرض اختلف معه ، وسمع البعيد والقريب اختلافاتهم، وإذا صور لآخر صورة يقع الخلاف ولا يعرفه لا الحاكم أو المحكوم ، وإذا عاشر إنساناً لا يلبث إذا اختلف وإياه على أمر تافه أن يخترع له المثالب ، وكان أيام التواصل يخترع له المناقب . مستهتر فى أخلاقه موغل فى إباحيته .

عينته فى وظيفة يشبع منها ويشبع ، وحميته من همومه ، ودرجة كانت الفلوس يومئذ ضيقة على أهلها فاشترك مع أحد العمال فى سرقة، مع أن راتبه يزيد على كفاياته ، ولما نصحت له أن يحسن سيره انقطع عن عمله مع تحذيره من ترك الخدمة . وأشرت إليه أن يكف عن مشاكسة معلمة كانت من تلميذاته ، وكان يقول إنها خصيصته الوحيدة ، ويلتمس أن ترقيها فى الدرجة لأن راتبها ضئيل ، فلما غضب عليها استدعاها إلى المحكمة ، فذكرته بقوله فيها قبل سنة ، ورجوته أن يرحم فتاة ضعيفة

تنتسب إليه ، ولا يليق به وهو أستاذ كبير أن يجعل منها خصيصة له ، تفوه كلامي وحلف بالطلاق ألا يكلمني طول حياته ، ونسي طلاقه بعد أشهر فكان عندي يلقي النوادر الطريفة ، ويشتغل في محاسن الروايات البديعة ، وكان يحفظ من النكات ، ويستظهر من المعلومات ما لو دون لكان عجباً من العجب .

وندع ما صدر عنه لوحاته ، فيها مثال الإبداع بما صور أشخاصاً أو مناظر أو غير ذلك . وكان سريعاً في وضعها وصنعها ، مجيداً في كل ما له اتصال بذلك إجادة شهد له بها حذاق الرسامين ، وقد رسم من ذاكرته رجلاً لا تعرف إليه من سنين ورآه مرة واحدة ، فجاءت صورته طبق الأصل كأنما نقل عن عين الآن . وصور بعض المشهورين فجاءت صورهم كأنها تنطق . وكان يصور الصور الهزلية والجدية ، ويرتجل ويبتدع ، ويحتذي وينتحل .

ولد هذا النابغة في الديار الشامية من أب تركي وأم عربية ، والحال أنه عربي النجيرة والأصل . وكان هواه تركياً طول حياته . وكثيراً ما قلت له مداعباً وأنا في ماطي حديثه : لو سرت سيراً متزناً ، وكنت أنت تعمل بفنك فقط ، لأغنيتك وشهرتك شهرة عالية . وكنت حقاً أستطيع أن أدخله إلى بيوتات عالية ، مثل قصور الملوك والعظماء ، ومتاحف وقاعات الصور الجميلة ، ومعارض التصوير ، بيد أني كنت أحذر أن يغلب الجنون لدى أخيه له شراً علي . ذلك لأن صديقي إن حبته الفطرة بأشياء فقد حرمته أشياء ، كما كان شأنه مع ذلك الشاعر الدمشقي والذي كان يعقد بعض ميمنه ، إذ لم يكن يوده الأذى معه منذ زمن .

القول فى ثروتنا

تنتقل الثروة على الدوام طريقة مطردة بين العمدين ، ولا تدوم لصاحبها إلا إذا أحسن تسميتها بالمعقول ، وأخذ منها وأدخل فيها بالأساليب الطبيعية ، وفى العادة أن يطول بقاؤها فى أيدى الزراع والصناع والتجار خاصة لمعرفتهم حساب دخلهم وخرجهم ، ولأنهم ينفقون منها بالمعروف لا يسرفون ولا يقترون ، فإن كان منهم من تطيشهم المكاسب الفاحشة ، وخرجوا عن القصد والاقتصاد ، أضاعوا ما جمعوا وما جمع لهم . وهذا هو المشاهد فى بعض الوارثين فإنهم قد يبددون ما ورثوا لجهلهم قيمة ما دخل إليهم ، وعدم مرانهم على الكسب والجمع . ولا يشعر بالحرص على المال إلا من تعب فى جمعه ، وكل ما أتى عفواً صفواً استهين به على الأكثر .

ومعلوم أن التجارة تحتاج إلى شىء من المغامرة ، والمغامرة قليلة فى الصغير من الزراعات والصناعات ، وقد يربح مغامر واحد من عشرات من المغمرين فيشتهر ويغرى غيره باتباع خطته . والإفلاس أبداً مصير معظم من لجأوا إلى المضاربات والتجارات غير المحكمة ليغتنوا بسرعة ، وكذلك من تداينوا بالربا ، لأن فائدته تربو عادة على ما تغله التجارة أو الزراعة أو الأملاك ، ولذلك كان محرماً فى الشرائع لما يحمل من مضار ظاهرة .

أنعمت النظر فى طبقات الناس الثلاث فرأيت الغنى يزيد دخله على خرجه زيادة عظيمة ، والمتوسط يتعادل معه الربح والنفقة وزيادة ريعه قليلة ، والفقير لا يعرف له

موازنة بين ما يجنى وينفق، وضيقها أكثر من سعته . وأسعد الطبقات الطبقة المتوسطة لأنها لا تحتاج إلى غيرها، وليس فى مواردها فضل يخرجها عن اعتدالها . والمال مهما قيل فى احتفاظ صاحبه به لا يتملك عن إنفاقه فى غير وجوه صرفه يوم تتسلط الشهوات عليه، ويخدعه حب الظهور والتمجد ، على أن فى إسراف هذه الفئات حكمة ظاهرة ، وذلك أن الغنى إذا جمع كل ما يجبى إليه تعطل الحركة الاقتصادية ، فمن الخير أن يتوسع فى بذخه فإن فى إمساكه جموداً يعود ضرره على الطبقات الأخرى .

وهم بعضهم أن الثروة عبارة عن المحض من الذهب والفضة ، وما الثروة إلا العمل المتواصل المنتج . وإن بيتاً يعمل رجاله ونساؤه وأولاده لبيت مكتوب أهله فى عداد الأغنياء ، وإن لم يملك ربه أوراقاً نقدية ودنانير ذهبية . وبيت لا يعمل فيه غير صاحبه ويجمع لبنيه وَرَقاً ووَرِقاً ليس بذاك . وصعب على مستحصل واحد أن يوسع على عدة مستهلكين ، والفرد ما عمل ولن يعمل عمل عشرة .

ومن جمع مالاً ووظفه فى أرضين وعقارات وأسهم وسندات يعد صاحب ثروة إلا أن ثروته يتحيفها الخطر كل حين أكثر مما يتهدد صاحب رأس المال المتوسط الذى ينميه بتعقل . وكثيراً ما ضاعت ثروات اعتمد أصحابها فى تنميتها على المصارف ونحوها . وصغار اللصوص إذا قبعوا بسرقة لا ألوف فإن كبارهم وهم المصارفون وأرباب الشركات المجهولة لا يقنعهم إلا أن يلتهموا كل ما تصل إليه أيديهم الأثيمة ، ومن هذا الضرب أغنياء الحروب الذين يغتنون خاصة من أقوات الناس وكسوتهم .

لو أحسنت الطبقات الثلاث الانتفاع بالثروة ، ويكون الانتفاع منها بعدم حيف الكبير على الصغير ، لصلحت حال العالم . فالغنى إذا ارفق ببعض ما يفيض عن حاجته ونزل عن الفضل من ريعه يكفيه ما يبقى له يُرَفِّه به عن نفسه . وتدور على

المتوسط كل حركة وتقع معظم التكاليف ، وهو أدنى إلى الاضطلاع بحقوق غيره من ذلك الذى حمل غرامه بالجمع فقط . والذى وقع فى نفسه أن نعمته لا تحق إلا إذا بالغ فى الإمساك ومنع الخير ، ولو تقدر زوال الطبقة الوسطى لانحل أمر الجماعات ، ومتى كثر فى الأرض من يفكر فى إعطاء حق الفقير ، وأيقن الغنى أنه هو والفقير لازم وملزوم يدخل البشر فى طور الإنسانية .

لا جهد أن وزعت الثروة وزيعاً عدلاً فى ديار . وهـذه مصر وهى أعظم الأقطار العربية اقتصاداً مثال ظاهر فى هذا الباب فقد ثبت « أن ثلاثة أرباع المصريين أى اثنى عشر مليوناً من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون فى فقر مدقع يميت معظمهم الجوع والمرض . والثروة الزراعية فى مصر موزعة توزيعاً مجحفاً ، فبينما تجد ملاك الأراضى يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون نجد من هذا نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملكه الواحد منهم على عشرة قراريط فى حين أن أصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثنى عشر ألفاً يبلغ متوسط ما يمتلكه كل منهم مائة وسبعين فداناً أو يزيد » وفى إحصاء جرى أنه بلغ عدد الملاك المصريين ٢٤٧٣١٣٦ مالكاً وبلغ جملة ما يملكونه ٤٧٦٩٦٢٨ فداناً وعدد ملاك الأجانب ٧٢٧١ مالكاً يمتلكون من الأراضى ٤٠٨٦٨٣ فداناً وهناك ١٨١٣٩ وقفاً تبلغ الأطيان المحبوسة لها ٦٦٢٧٠٠ ويمتلك اثنا عشر ألف مالك أكثر من مليونى فدان.

ويشبه العراق فى تقسيم أراضيه حالة مصر فهو قطر الزراعات الكبير ومن يليهم : فقر مدقع ، وغنى مفرط . والخطب أيسر من هذا فى الديار الشامية ذلك لأن ستين فى المئة من الأراضى يملكها صغار الفلاحين ، ومن هؤلاء فى بعض الأقاليم من يعيش عيشاً رغداً أرقى من عيش الفلاح المصرى حتى ولو كان ممن يعمل فى أراضى

الغنى بالأجرة أو المزارعة . فالأرض فى الشام مقسمة فى الجملة ولا سيما فى الأقاليم القريبة من الحواضر . والثروات على كل حال لم تتضخم كما تضخمت فى مصر ، فنعم بها مئات وشق مئات الألوف . وإذا كان الشاميون قد منوا من غزو تجار الأوربيين حفظت لهم بعض ثروتهم لا كما هو الحال فى مصر .

وتمتلك الحكومات فى شمالى أفريقية معظم الأراضى وجزء منه من الأرض ملك أربابه. وقسم للأهلين حق الاستثمار فقط والعين ملك الحكومة ، ومنها ما هو ملك صرف للحكومة وهبت أكثره للمستعمرين كما فعلت دولة الاستعمار فى الجزائر فلم تكتف بإعطاء المستعمرين ما تملك من الأرضين بل أعطتهم ما كان ملكاً للسكان، نزعته منهم بحق الفتح أو حق الغصب أو المصادرة ، حتى خرج جزء عظيم من أيدى مالكيه ولم يرجع إليهم بعضه إلا بالشراء من المستعمر الذى ما أحسن الاستعمار . ثم نزعت الأحباس واستصفتها لنفسها وملكتها للمستعمرين من أبنائها . وحالة الريف فى مراكش الإسبانية من حيث توزيع الأرض على أهلها أحسن من حالة عامة الأقطار التى ارتفع عليها علم فرنسا وإيطاليا أى مراكش والجزائر وتونس من جهة وطرابلس وبرقة من جهة أخرى .

يقول جسل ومارسيل ويرنى فى كتابهم تاريخ الجزائر أنه يبلغ مجموع مساحة الأرض المستعمرة فيها ١ر٦٠٠ر٠٠٠ هكتار أى اثنين من خمسة من الأرض القابلة للفلاحة ومن فساد الرأى بل من قلة الإنسانية تقليل مساحة الأرض التى يملكها الوطنيون لتجعل ملكاً للمستعمرين ، ويقول هردى ان مجموع الأرض القابلة للزراعة فى الجزائر هو ٣ر٨٥٤ر٠٠٠ هكتار ويستثمر الأوربيون منها ٢ر٤٠٠ر٠٠٠ هكتار وللأهالى ١ر٤٥٠ر٠٠٠ هكتار فقط .

إن توزيع الأراضي الواسعة على الناس بالعدل عمل عظيم ما تم في عصر من العصور، ولا تزال تنتقل الأراضي العظيمة في أيدي أرباب القوة، وكان يرجى بتكثير الزراعات الصغيرة في القطر المصري ما بعثت حكومتها أن حيل فاتة عنها أرباب اليسار ومنهم غير مصريين وأحسنت الحكومة صنعاً في العهد الأخير في تفكيرها بتوزيع نصف مليون[1] فدان من أملاكها توزع أكثرها على صغار الفلاحين بيسر الشروط، وخصصت جانباً من أراضيها المستصلحة لتوزيعها على المعدمين على أقساط وكل قسط منها لا يزيد على قيمة الضريبة السنوية المربوطة على الأرض وقررت توزيع جانب من أراضيها على خريجي المعاهد الزراعية وخصصت لمتوسطي المزارعين وكبارهم مساحات كبيرة من الأراضي أكثرها يحتاج إلى استصلاح حتى يساهم الجميع في التوسع الزراعي. وما خرجت مصر عن الخطة التي سارت عليها منذ أقدم العصور أي مراعاة مصلحة القوي قبل الضعيف. فهل تعدل خطتها اليوم والحكمة في تبديلها[2].

ثم كان الجماعات منذ عرف البشر جامعة بين غني وفقير، ولكن أليس من الإنصاف أن ينعم الفقير أيضاً ببعض ما يتمتع به الغني، ولقد كان عمل الصدقات في

---

(١) من خطاب العرش لعام ١٩٤٥.

(٢) لما نشر ما رأيناه في أمر من قرية حديثة عملت مصر بحوث دروس الأول لإصلاح مزارعه الحكومة لتكون نموذجاً لأرباب سعة من المزارعين يسيرون على منواله بعد جهرهم بأحوال جمهور تمهيد به لقرية حديثة ونظر إلى كل ما يعيشها ويعيش عليه على زراعتهم من الفلاحين ووفر لهم أحوال تسعد من مستوى العيش وحصل كل مزارع قدراً من الأرض يستغله وهو يمده بكل ما يحتاجه في غذائه ولباسه وصحته وتعليمه ويحرص على أن تتحول هذه القرية إلى القرى المحدودة المزرعة. ولطالما قال لمن يعرضون على مسمعه مشروعات لهم متى سئمتم الضروب وأريدكم أن تدخلوا في العمليات. نعم لو سار أرباب الزراعات في مصر سيرة مسلكه لتغيرت حالة الفلاح تغيراً محموداً لحسن عيشه وتربيته.

بعض أيام بنى أمية فى الشرق يجمعون الأموال فتأمرهم الدولة بإنفاقها فى فقراء الأقاليم التى أخذت منها فلا يجدون فقيراً يُنِيفُ إلى نوالها . ذلك أن الناس كلهم كانوا يعملون ويعيشون من كسبهم ، ويندر فيهم المعوز مستحق الصدقة أو من يجوّز لنفسه أخذها . وهذا عهد صعب تكرره فى عصور ما عرفت غير التكالب على الدنيا تستحل لها كل طرق الأخذ . وفى العهد الأموى أيضاً كانت جباية القاصية تحمل إلى الخليفة ويصحبها أربعون قسامة يقسمون بالله أن هذا المال فضل ما جمع من الرعية بعد أداء أعطيات الجند وإنفاق ما يجب إنفاقه فى مرافق البلاد ، وهذا من غرائب تاريخنا ما حدث مثله فى شرق ولا غرب فيما نظن .

ولو فكر أرباب الأموال فيما يجب عليهم للفقير لخف الشقاء ، فإذا بالضرورة وبالواجب ينبغى لموسّع عليه أن يتفقد المقتر عليه ، ويدرك أن من الظلم أن يملك رجل واحد مئات أو ألوفاً من الأفدنة أو قرية أو قرى يعجز عن إدارتها إدارة حسنة ، ويعمل له فيها الفقير المحروم ويتمتع هو وحده بثمراتها ، ولا تسمح نفسه لمن هو محتاج إلى جهوده بأكثر من طعامه ، وكثيراً ما يكون من الجنس الردىء ، وربما يعنى اهتمام لعلف ماشيته أكثر من اهتمامه بطعام أجيره .

نعم إن تقسيم الثروة بالعدل مما يتعذر تحقيقه ، ومحال أن يغنى الخلق كلهم ، ولا يتيسر هذا إلا إذا تساوت العقول ، وزالت الفروق بين القرائح ، فكان ذكاء ولا غباء ، وكان علم ولا جهل ، وكان عمل ولا كسل . ولو تيسر العيش الطيب لكل إنسان لانقطعت الرغبات فى العمل . ولو تهيأ الغنى لكل من يريده لقل السعى له ، والفضائل تزيد قيمتها باعتبار ما يناقضها ، وما عزّ وجوده يطمع فى الحصول عليه .

وما دام صغار الفلاحين والعملة يرون الألوف منهم لا يملكون شبراً من الأرض، ويستأثر عشرات بالثروات العظيمة، وما دام أرباب الأموال يتمتعون بما يزيد عن حاجتهم كثيراً، وأرباب الفاقة ليس لهم إلا ما تقتتون به، وشك أن يصاب مال الغني بما لا يخطر ببال، ومن الإنصاف أيضاً الاعتراف بأن بعض هذه الأراضي الواسعة ما كانت إلا مواتاً وبوراً لو لم يتداركها أرباب الأموال بعنايتهم، ولكن كثرت المزارع التي يملكها الأفراد فعجزوا عن تعهدها على ما يجب في بعض الأرجاء، وقست قلوب الأغنياء ولا تسمح نفوسهم حتى بإعطاء الزكاة الشرعية.

سيقولون وكيف السبيل إلى مداواة هذه المحنة، أننزع الملك من مالكه الشرعي لنعطيه إلى من لم يتعب في تحصيله، أو تستبد الدولة بالأرض كلها تمسحها وتستثمرها لحسابها؟ كلا هذا من مذاهب الشيوعية والاشتراكية التي لا تصلح عليها أرجاؤنا.

ونحن نقول بتخفيف الشر ودفع الضرر بالتدريج، فندعو إلى أن تنزل الحكومات للفلاحين عن جميع ما تملك من الأرضين بثمن طفيف أو بلا ثمن، بعد أن تعمرها العمران الذي تكون به صالحة للانتفاع بها من أول ساعة، وتعاون أصحابها الجدد على استثمارها. وإيجاد عمل دائم للمتعطلين أنفع من التصدق عليهم.

وتعالج الزراعات الكبيرة بتحديد المقدار الذي يحق للفرد أن يملكه، كما فعلت رومانيا فحددت الملكية الكبيرة، وكما فعلت فلسطين فقضت بأن يكون ربع كل قرية ملكاً للأهلين من الفلاحين والثلاثة الأرباع الباقية يتصرف فيها مالكها، وكما فعلت تركيا وقضت ألا يملك الفرد أكثر من مئة فدان والمالكون فيها خمسة آلاف والذين لا يملكون شيئاً خمسة ملايين، فقررت أن تعطي المالك الأصلي ما يحق له أن

بتمسكه ، وتأخذ الفضل توزعه على من لم يكونوا فى عداد المالكين وتنجم عليهم ثمنه على أعوام .

وتفاديا من حصر الثروة فى أناس بعينهم يجب أن تستوفى ضريبة الدخل من التجار والمحتكرين والمصاربين والمدلين وهذه ضريبة لا ينكرها القوانين الاقتصادية الحديثة المسلم بهما وبها يقضى العدل ولالحكومات أن تضرب أيضاً ضريبة (حركة العمل) تجبى مع ضريبة الدخل وبذلك يمكن تخفيف المغارم عن المكلف ، والإقلال من الضرائب غير المباشرة فينتعش الفلاح والصانع . وبهذا الترتيب يخرج مالك الأرض العظيمة أو صاحب الوفر الكبير عن بعض الزوائد التى لا يضيره إعطاء جزء منهـا ، وينتفع بأموال من كثرت فى أيديهم وفاضت عن حاجتهم الحقيقيـة .

ثم يشرع بحل الأوقاف الأهلية إذ ثبت أن هـذا النوع من الأحباس عائق للثروة عن النمو وزائد فى عدد الكسالى والمتنبين ، ثم تضرب ضرائب على التركات العظيمة وعلى كل مال عظيم مجموع ، وبذلك يكثر المالكون ويزيد الإنتاج بتقسيم الثروة على النحو الذى يفيد الطبقات بأمرها . ويزيد هذا التقسيم فى حركة التجارة والصناعة ونماء الثروة العامة وإمتاع البائسين بشىء من اليسر . وفرق بين من تكون الأرض ملكاً للقائم عليها وهى له ولأولاده وأحفاده من بعده ، ومن يشتغل بها بالمياومة أو المشاهرة أو المسانهة لحساب غيره . وبهذا التوزيع العادل فيما أرى تتضاعف الثروات المتوسطة وتكثر الملكيات الصغيرة والزراعات الصغيرة ، والخير فى هـذا التقسيم لا فى حصر الثروات . ويلاحظ فى تقسيم الأرض أيضاً ألا تصغر مساحتها عن

حد معين حتى لا يقل الانتفاع به [1]، كما يقتضى أن ينصرف المالك إلى استثمار ملكه، والزارع إلى التوفر على زراعته، ولا يكون لهما عمل آخر فيجمع الموظف مع وظيفته زراعة أو تجارة، ويكون للطبيب مع طبه أملاك وعقارات. عرفت كثيراً من المتعلمين يعملون فى صنعة أمور مثمرة وذلك فى غفلة القوانين عنهم فيقطعون بجشعهم أرزاق عشرات.

لما انتشر المذهب الشيوعى فى روسيا سرى إلى المجر فلم تر هنغاريا لاتقاء الخطر الداهم أحسن من انتزاع مزارع الأغنياء وتوزيعها على الفلاحين تستوفى ثمنها مع ضريبة الأرض فى خمسين سنة. وانقلب أرباب الزراعات العظيمة بالأموال التى صارت إليهم ينشئون الشركات والمعامل وبنايات فى المدن وبهذا دفعت هنغاريا عنها غائلة الشيوعية، وعمرت مدنها وزرعت ضياعها، ومن أمثال الناس ليس بالميسور لكل حكومة فإن فلاحنا جاهل على الأكثر قليل البصيرة يوشك لأول ضائقة تصيبه أن يقع بين براثن المرابين فيسلخون جلده ويعرقون لحمه. ومتى نفض الغنى عنه يده من الفقير، أو نفض هذا يده من الغنى، وخلو كل منهما لاستغناء عن صاحبه تنقلب الحالة من سيئ إلى أسوأ، وما جاز فى بلد لا يجوز فى آخر.

ولما كثر المتعطلون فى ألمانيا بعد الحرب العالمية فزاد عددهم على ستة ملايين واضطرت الحكومة إلى أن تعولهم لم تر بعد أن صمتت سنين بإطعام جزء عظيم من

(1) فى كتاب الحالة الاجتماعية فى مصر للأستاذ مصطفى محمود فهمى أن الحكومة الإيطالية عنيت بمنع تجزئة الملكية الزراعية كما عنيت بتوحيدها عند قروم بعد أن وجدوا أن من حسن السياسة الزراعية والاقتصادية والمالية أن لا تتجزأ ملكية الأطيان إلى أجزاء صغيرة وأن من المصلحة ضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض بسن قانون لازم لشراء هذه الأجزاء على شريطة أن يرد المال إلى الحكومة مقسطاً على آجال طويلة وبفائدة معتدلة جداً. وقال إن علاج هذه التجزئة يأتى من طريق سن تشريع يعطى للبكر من الأولاد أو من يليه حق شراء كل أو بعض حصص باقى الورثة بإجبارهم على البيع وإذا كان غير قادر على دفع الثمن من الحكومة تقدم له المال اللازم وهو يرده بفائدة معتدلة جداً (٢ أو ٣ فى المائة) على أقساط موزعة على عشر سنين أو عشرين سنة.

رعيتها أفضل من أن تنقل المعامل من المدن إلى القرى البعيدة وأن تمنح كل عامل قطعة من الأرض تقوم زوجته وأولاده باستغلالها وتغل لهم بعض حاجاتهم ، وبذلك دفعت عن المدن الخطر الذى يصيبها بتكاثر عوسها إلى ما لا تحتمله . ثم ضربت على الأغنياء ضريبة توازى نصف دخلهم الصافى فوقفت نماء الفقراء من البؤس وظل الأغنياء على غنى معقول .

والذى يمنع فى مصر والشام والعراق وسائر الأقطار تحديد ملاك الملاك ، وأخذ الفضل من أرباب الأملاك الواسعة ومن أرباب التجارة العظيمة ، وبذلك نسلم من العوامل فى الحاضر والمستقبل ، فتضمن القوانين للطبقة العاملة وهى معظم الأمة مستوى من العيش يقضى به العقل والعدل .

القول فى تاريخنا

التاريخ علم حوادث المجتمعات البشرية ، فما كان فى أخبار الحروب والثورات والدول والحكومات والملوك يدعى التاريخ السياسى ، وما كان خاصاً بالترجمة للأشخاص فهو تاريخ الرجل . وإن كان البحث فى أمة أو جزء من أمة فهو التاريخ الوطنى العام ، وإذا تناول الكلام عامة المجتمعات فى الأزمان كافة ، فهو التاريخ العالمى ، وإذا درست فيه النواميس التى يكون لمجرى الحوادث تأثير فيها يسمى فلسفة التاريخ ، وإذا بحث فى زمان معين أو كان خاصاً بمجموعة سياسية أو اجتماعية مذلك التاريخ الإقليمى أو المحلى . ومن ضروب التاريخ ما يطلق عليه تاريخ الأوضاع والأنظمة ، أو التاريخ الحربى أو التاريخ المدنى أو التاريخ الأدبى إلى غير ذلك من الأسماء التى يسمى بها نوع من التاريخ يعنى بعلم خاص أو فن خاص .

وضع العرب التاريخ وهم يعتقدون أن عمر العالم سبعة أو ثمانية آلاف سنة ، وكان الأقرب إلى الصواب لو قالوا عمر الحضارات التى عرفها البشر ، كحضارة بابل وأشور ومصر ، ثم اليونان والرومان والعرب . وقدّر العلم الحديث عمر الأرض بما لا يقل عن سبعمائة مليون سنة ، وقالوا إنه أتى على الإنسان خمسون ألف سنة حتى خلص من الحيوانية الأصلية ، وهذا ما يسمونه عصر ما قبل التاريخ .

كتب العرب تاريخهم التزام الصدق وذكر المصدر ، وكانوا فى وضعه مبتدعين لا مقلدين على الأرجح . هذا، وهم ما عرفوا العلوم التى تعاون على التجويد فيه كعلم

الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم المصادر والوثائق والمراسلات والمفكرات والمذكرات ، فإن هذه العلوم حديثة النشأة كعلم المخطوطات القديمة وعلم الكتابات والرقم وعلم النقود وعلم الأحكام وعلم السياسة الدولية ، علوم انقلب بها علم التاريخ رأساً على عقب ، ووجب على المؤرخ بعد اليوم أن يكون له نصيب منها ، وأن يشارك فيها المشاركة الكافية . لا جرم أن العلم كان بطىء الحركة وظل على حالة ابتدائية إلى أوائل القرن الماضى ومنه بانلم هنا ما يبعث النهضات ويوسع العقول وينهض بالصناعات والفنون . والعلم الذى عرفه اليونان فى أرقى عصورهم هو العلم الذى ما عرف العرب غيره طوال أيام سلطانهم .

ولما أصبح التاريخ علماً برأسه تخلص من خيالات الشعراء ، ومبالغات الخطباء ، ولما تعينت مراتب الاحصاء فى التاريخ رأوا أن مما يوجبه التحقيق أن يصغروا دائرة علمهم ، فحصروا وكدهم فى حدود معينة حتى يكتب لهم التبريز فيه ، جوّدوا الطريقة لكنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا عن العصبيات الدينية والسياسية والجنسية ، ودام بعضهم يعبث بالنصوص على ما يحقق الأهواء ولا يحقق أمانة العلم ، ومن هنا كان تخالف المؤرخين فى حكاية الحادثة الواحدة ، ومردّ ذلك إلى التخالف فى الدار والمنشأ والحس والمحتد . وغرام كل أمة من الأمم الحديثة اليوم أن تكتب تاريخها بما يوليها شرفاً ومجداً .

يقول غستاف لبون : لقد أُحصيت على المؤرخين آراء خاطئة فى تقدير المدنية الإسلامية ، وقسوتا فى الحكم على العلم الإسلامى القديم ، ومنتهى النظر فى تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التى لها علاقة بانتقال المدنية القديمة إلى العصور الحديثة . واستشهد بكلام المؤرخ غيزو حيث قال : إن من تصفح التاريخ من القرن الخامس

إلى القرن الثامن عشر يرى اللاهوت مستولياً على الفكر الإنساني يُصَرِّفه على ما يريد، ويتراءى له أن عامة الآراء مصبوغة صبغة لاهوتية ، لا يُنظر إلى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية إلا بنظر مذهبي ، والفكر اللاهوتي هو الذي سرى في عروق العالم الأوربي إلى أن قام باكون وديكارت .

ونحن، ألا يصدق علينا قول غيرو في بعض عصورنا، ولاسيما في عصور الانحطاط؟ أما كان يُصبغ التاريخ بالصبغة التي يميل إليها المؤرخ ، ويتفق مع مصلحته الخاصة؟ أما كانوا لدواع دينية أو خوفاً من أرباب السلطان يحشون طبهم بالخلافات المريبة، والحكومات الطاغية ، ونُطقهم السياسة في أعدائهم وأوليائهم عما ليس فيهم . ولقد استحال تاريخنا في بعض الأدوار تاريخاً رسمياً صرفاً : يكتبه الوزير ، وينقحه النديم ، ويُقره الملك . ويمنع من الصعب أن يحمل القابض على القلم ليكتب الحوادث بصورة تصدر له من صاحب الشأن ، أما إذا كان هناك مغنم فالمؤرخ ينسى نفسه ويستهويه تهافته ، وهذا ما يدعو إلى أن نتساءل : هل كان المؤرخون أرقى في أخلاقهم من الشعراء ؟ وقد عرفنا هؤلاء وما صدر عنهم من الإغراق في الكذب وإضلال العقول .

وسواء صح فينا رأي غيرو أم لم يصح ، فقد آن لنا أن ننظر في القديم والحديث من تاريخنا بنظر التجديد ، والعلماء اليوم يدعون إلى إعادة النظر في التاريخ كل خمسين سنة ، وها قد مضى على تاريخنا المدوّن قرون تبدلت خلالها طرق البحث ، وغدا العالم غير العالم ، والدول غير الدول ، والعرب غير أولئك العرب ، والإسلام غير ذاك الإسلام . بدّل الزمان كلّ شيء، فوجب تبديل طريقة عرض التاريخ على

نحو ما فعل بعض رجال العصر فدرسوا موضوعات منه دراسة حديثة فأفادوا ، كما أفاد العرب يوم كانوا أعلم أهل الأرض لما سردوا التاريخ بعُجَره وبُجَره .

وكان من أشد العوامل فى تجويد العرب كتابة التاريخ بالقياس إلى عصرهم حرصهم الحرص كله على الأخذ بما صح من الأحاديث النبوية ، فوضعوا لذلك علم الجرح والتعديل ، يعدّلون الرواة ويجرحونهم ، وكما جوّزوا الجرح فى الشهود وشهاداتهم ، جوزوه فى الرواة ورواياتهم ، لقول الرسول «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع» . وكما وضع العرب علم الجرح والتعديل وضعوا أساس فلسفة التاريخ والاجتماع ، وغلوا فى تصحيح السند غلواً لم يعهد فى أمة ، وقالوا : الإسناد قيد الحديث وإن الحديث من غير إسناد كالجمل بلا زمام وخطام ، وقالوا : إن المراد بقوله تعالى أو (أثارةٍ من عِلْمٍ) الإسناد .

من صفات المؤرخ أن يكون أميناً فى النقل ، ضابطاً فى الحق ، متشدداً فيه ، جلداً حازماً ، هادئ الأعصاب ، لايتحامل ولايجامل ، وإلا كان ما يكتبه قطعة شعرية أو خطبة حماسية ، ورسالة أخوية . وليس التاريخ شعراً حتى تغتفر فيه المبالغات ، ولا أفكوهة حتى لا يضرّ به التزيّد ، ولا أسطورة أمتع ما بها الإغراب . وإن تاريخاً تُمليه الأهواء لا يعدو أن يكون صحيفة تدليس ، وليس أفسد للتاريخ من التدليس فيه .

ومن يحرف نصاً لاستخراج ما يلائم غرضه منه عدّ فى زمرة من احتطب صوابهم بخطئهم . وحاجة كل جماعة إلى من يدربهم على سماع الحق ، أكثر من حاجتهم إلى من يكذب عليهم . ومثل من يكتم عن أمته حقائق تاريخها كمثل طبيب يصانع مريضه وهو فى أشد ساعات البُحران من مرضه ، فيسمح له بتناول كل ما تشتهى نفسه .

كانوا أكثر ما يؤرخون للدول ، ينقلون خبر حروبها وشرورها واعتداءاتها ومهادناتها ومحاولاتها يجسمون حسناتها ويغضون عن سيئاتها ، ويخصون الملوك من ذلك بأكبر حصة ، ولو كانوا من السحف على جانب عظيم . ومن نظر في تاريخ بعض العهود نظراً سطحياً يتراءى له أن القوم كانوا في جنة نعيم عدلاً وراحة وهناء ، وكذلك يقال في أكثر من ترجموا لهم من الرجال ، فقد كانوا يصورون من يترجمون لهم صورة لو حُذف من بعضها اسم صاحبها ومولده ووفاته ، لأمكن وضعها على عشرات من الرجال .

وإن مؤرخاً لا يبسط لأمته حقائق ماضيها وحاضرها ، ولا يقفها على حقيقة أمر المحسن والمسيء ، ولا يروض قلمها على قول الحق ، حرى أن يحسب في زمرة المجانبين للانصاف المتجهمين للصواب . والمرء لا يكون كيساً حساساً إذا أغمض عينيه عن ماضيه وعن مستقبله ، فالواجب أن يبحث للوصول إلى ما يقفه على الصلات التي تربطه بأجداده وذريته وبالإنسانية أمس وبالإنسانية غداً ، فالماضي يفسر الحاضر ، وهذا يشرح الغابر ، كما قال العارفون .

كان ما كتبه المؤرخون السياسيون عند العرب أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون ، ومن ترجموا للرجال أمثال ابن سعد وابن خلكان وأبي حيان ولسان الدين وغيرهم موضع عجب العارفين ، حتى قال العلامة براون : إن العرب ألفوا كتباً في الجغرافيا وتخطيط البلدان على طريقة لم تؤلف مثلها ، وكتبهم في التاريخ أوسع الكتب وأدقها بل إن بعض التواريخ العربية لم يكتب على نسقها في أوربا إلى اليوم .

وقال العلامة نيكلسون في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» : إني أوافق السير

ويليام جُونس على رأيه القائل إن كتاب وَفيَات الأعين لابن خلكان أحسن كتاب كتب في التراجم العامة .

أمثال هذه الطبقة الرشيدة في مؤرخينا كتبت ما أملاه الحق على أقلامها ولم تبال الجورة والظلمة ، فلما كانت عصور التدلي أصبح المؤرخون يحاذرون الملوك والأمراء ، ويخشون من شر المشايخ والأعيان والعامة ، فلا يسعهم إلا أن يكتبوا عن بعض الأمور الجوهرية ويكتبوا في التافهات ، لأن من كان يجهر بما اعتقد في ذكره فائدة لا يلاقي إلا عَنَتاً ، وأقل ما يتعرض له تسلطهم على دفاتره ، وإن لم يكن في حياته فبعد مماته ، ولهذا ضاع تاريخ كثير في الأرض العربية . والحق مرُّ المذاق ، والملاق أكثر ذيوعاً في كل العصور . على أن من كانت لهم صلات بأرباب الدولة ، واختلاط بطبقات الشعب ، كانوا أقرب إلى التقاط صحيح الأخبار ممن كانوا بمعزل يكتفون بتلقفها من الأفواه .

ومما يؤلم أن العرب استعاضوا في بعض أدوارهم عن دراسة التاريخ بتخريفات سموها علوماً ، كعلم الجفر والسحر والطِّلَّسْمات والسيمياء والكيمياء ، وزهدوا في علم لا نعرف بغيره حقائق دولهم وملوكهم وشعوبهم ، ولا روح كتابهم وسنة نبيهم وهدى أصحابه ، زهدوا في تاريخهم بعد أن أتت عليهم عصور وهم يدرسونه في الجوامع كما يدرسون الفقه والحديث .

ليس أضر على التاريخ من التقية ، ولا أنفع فيه من الصراحة . وقول بعض الفقهاء من أهل السنة — وهو ما كانوا يدرسوننا إياه في المدرسة الأولى على أنه من العقائد — (وسكت عما شَجَر بينهم) أي بين الصحابة ، كلام من لا أرب له في غير العافية . ولو شايعناهم على هذا الرأي لأضللنا طريق الهدى في قيام أمرنا ، وهل وجب

العقل أن يدعونا حب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم إلى الاغضاء عما بدا من ضعف عثمان فى آخر عهده ؟ وهل من المنطق السليم أن نغض الطرف عن حرص على على الخلافة ، ويدعونا إعظامنا لمكانته ، إلى أن نطوى البحث فى مسائل يستحيل علينا بدون التعمق فيها أن نفهم ما دخل الإسلام من خلل ، وما جلبت التفرقة بين أهل القبلة من الخطوب ، وما جرت من ويلات . شيمة على تعلو فى الخط من بعض الصحابة الكرام ، من الفريق الذى لم يشايع صاحبهم ، وأهـل السنة يفرضون السكوت عمـا شجر بين الصحابة تأدباً أو تزمتاً . والتاريخ لا يخلى عثمان ولا علياً ولا معاوية من ملامـة ، ويرى المنصف أن علياً ومعاوية والسيدة عائشة مسؤلون عما جرى فى وقعة الجمل وصفين . هذه أمور يلزم ذكرها ولا بد من درسها وبسطها لمصلحة التاريخ والحقيقة .

ما رضى بعض من يجتمعون إلى المجمع العلمى العربى خلال خمس وعشرين سنة لاستماع محاضراتى عن صورة عرضى للتاريخ الإسلامى ، ولا عن بعض ما نشرت منه فى كتب ومجلات ، وإن كانت الشواهد تدعمه ، والوثائق تؤيده ، والأرقام تجليه . وما دمنـا نكتب لإرضاء الحق ولا نكتب تاريخاً رسمياً فلا يضيرنا أن نكتب ما تجلى بعد البحث ، ونتمتع بحرية هـذا القرن ، فلسنا من المؤرخين الرسميين ، ولا يطلب من هؤلاء إلا محاباة الملوك لا يدونون لهم إلا ما يروقهم . وشأن مؤرخ الملك كشأن شاعر الملك فى إخراج صور ترضى ولا تغضب ، أما نحن فنحاول أن نعلم التاريخ .

صـدر كثير من المؤرخين عن تصورات لهم ألبسوها ثوباً من نسيج خيالهم كالذين رموا بعض خلفاء الأمويين بما ليس فيهم ، ليذهبوا من ذلك إلى أنهم

لا شيء بالقياس إلى أعدائهم الطامعين بالخلافة ، فقد وضعوا على ألسنتهم أشعاراً وحكايات لا يصدر مثلها إلا عن السفهاء ، وحسبوا ما وقع لهم من الحوادث مع من عصوا عليهم ، وما خلا أعاظم خلفاء بني العباس من مثل هذه التهم الشنعاء ألصقت بهم وهم أبرياء ، فقد وصف صاحب الأغاني أمير المؤمنين الرشيد مستهتراً بالشراب والنساء ، منهوماً في مجونه ، وما كان الرشيد بصدد هذا كله ، وهو الخليفة الذي كان يحج سنة ويغزو سنة ، وما كان له مأرب في غير حفظ دولته ، ومن المتعذر أن يخلو عصر من جماعة يكتبون الحوادث بحسب أغراضهم السياسية والمذهبية ، بيد أن الحقائق مهما أريد طمسها يبقى منها جانب يبدو منه نورها ، رغم من كان وراءه ومن جسروا على قلب الحقائق ولقنوا أمتهم الكذب لم يفيدوا عند المحققين ولا عند أنفسهم شيئاً ، كفعل بعض مؤرخي القرون الوسطى من الافرنج في حكمهم على الإسلام والعرب ، فقد اطرد تمويههم حتى كشف الستر عنه علماء المشرقيات منهم فقاموا يؤلفون متوخين الصدق في الجملة ، فصححوا أفكاراً من أضلهم التعصب الديني دهراً طويلاً ، شرب المؤرخون في الغرب من كأس رجال الدين أولاً ولما عافته نفوسهم ألقوه من أيديهم واستقوا من مصادر أخرى أكثر صفاء ، فظهر الفرق بين الأحفاد والأجداد ، وتميز الكون بين باحث بعقله وآخر بعقل غيره .

قال أناطول فرانس : أنا أعرف أن التاريخ ملفق مكذوب فيه ، وأن جميع المؤرخين من عهد هيرودتس إلى مشله هم قصاص حكايات ورواة روايات ، فقد خص التاريخ حتى يومنا هذا بذكر سير العظماء وغرائب الحوادث ، فالواجب أن يجعل بعد الآن خاصاً بالبحث في حياة الشعوب فيُعنى مثلاً بأسعار الحديد وسعر القطع ، فإن في بحث هذه المسائل من الفوائد ما ليس في نقل حوادث واقعة حربية ،

أو ذكر حديث دار بين عاملين . يريد المؤلف أن يعرف أن ملايين من البشر المجهولين كان من نشاطهم المتواصل نهضة شعب ، يروم أن يحلل هذا النشاط العظيم، وأن يدرسه قطعة قطعة ، بأسلوب محكم ، وأن يسطر ما يعرف، ف هذا هو التاريخ الذي يجب وضعه بعد اليوم وللحكومات الفتية كاوستراليا و زيلاندة الجديدة وكندا ولاإلاتا .ل و لمجتمعات القديمة فى أوربا التى تطمح فى أن تنظم شؤونها على أرقى مثال من النظام والعمل والسلام والحرية أن تتبع هذه الطريقة الجديدة . أما الحالة التى وصل إليها التاريخ بصورته الحاضرة فدراسته غير سليمة وللواجب الشروع فى إصلاحه، فقد انقضى عهد التدوين الأدبى وبدأ عهد التاريخ العلمى الذى سيكون منه وصف حياة شعب على ما يحمل دقة وتعميماً وعظمة . ويرى بعضهم أن التاريخ لا يعيده بعد الآن سير الوثائق من مثل احصائيات الشعوب وتعريفات الجمارك وحالات التجارة ونتائج حسابات المصارف وتقارير السكك الحديدية فإن من نقاد التاريخ من قالوا إن هذه الأمور أدنى إلى الثقة من الشهادات التى يوردها المؤرخون. قال أناطول: وقد يكون صاحب هذا الرأى على صواب فى قوله ، وإن كان الإحصاء فى ذاته محل ريبة كثيرة أيضاً .

ولنا بعد الذى قدمنا أن نحكم على مبلغ التطور الذى حدث فى كتابة التاريخ للانتفاع به المجتمع كله ، وعلى درجة اجتهاد العارفين من أهل العصر فى تحرى مصادره ومستنداته ، والتفلسف فى مراميه ومعاريه . ونحن لا ننتفع بعلم التاريخ إلا إذا قسمناه كما قسمه غيرنا إلى شُعَب ، وسقنا من يحب الاشتغال به إلى تناول شعبة من شعبه الكثيرة بالدرس العميق المجرد عن الهوى . هذا من حيث كتابة التاريخ. أما من حيث تدريسه وتلقينه فالواجب العناية به عناية بالغة، فالطلاب إلى اليوم يخرجون

من المدارس العلية ولا يعرفون من تاريخ بلادهم الشيء الذي يعتد به. وفي كتاب سياسة الغد[1]: إن دراسة التاريخ ناقصة في مصر من عدة نواح، فهي تعنى بالغرب أكثر من عنايتها بالشرق، وتبحث عن الدول الأوربية دون أن تبين الصلة بينها وبين الحضارة المصرية. هذا إلى أن تاريخ مصر نفسه يعرض عرضاً جافاً مختزلا اختزالا مخلاً لا يخرج منه التلميذ بفائدة كبيرة وليس في التاريخ المصري — كما يدرس اليوم — وحدة ولا تناسق ولا ارتباط بين أجزائه المختلفة، وفي توزيعه على هذه الصورة ما يفقده كثيراً من قيمته. ومثل هذا يقال في درس التاريخ في الشام.

عرفت تسعة مشايخ حاول ثمانية منهم أن يكتبوا في التاريخ السياسي ويترجموا للرجال، كان اثنان منهم من العامة، ليس بينهما وبين الأمية سوى درجة، وبينهما وبين العلم درجات، وكان إحداهما ممن يحسن النسخ ويجيد الخط. ادعى الأول أنه كتب تراجم من عاصرهم، وهدد من أحب تهديدهم رمناً بما سيكتب فيمن كان غير راض عنهم، ولما هلك لم يعرف عما كتب شيء. وكان الثاني يتمجد بما يكتب وهو جاهل، ثم ظهرت له ورقة بعد موته مما نسخ ومسخ وسلخ. وجاء شيخان آخران لا يقلان عن الأولين في العامية والأمية ساعدهما الزمن على طبع ما جمعا وجمع لهما، ونشر ما كتبا وكتب لهما، فكان ما أزعجا العالم بنشره دليلاً على جهل مركب ودعوى فارغة.

أما الأربعة الدقون فكانوا على شيء من فقه وأدب، وما عرفوا بالتاريخ، إلا أنهم جسروا على الكتابة فيه، وترجموا لمن أحبهم أن يترجموا لهم فما جودوا التجويد

(١) سياسة الغد لمريت بطرس غالي.

المتوقَّع منهم . واستسهلوا علماً يحتاج معانيه إلى دراسات كثيرة ، قبل أن يخط فيه صفحة . وكأن لسان حال الفقيه والأديب يقول: لا بد أن أعد من المؤرخين ، كما أنا من المتفقهين والمتأدبين ، على نحو ما كان بعض رجال الدين يرون من الواجب أن يكتب كل واحد منهم تفسيراً له ، كما يتحتم على كل إنسان يمت إلى المعرفة بأدنى سبب أن يثبت نفسه فى قائمة الشعراء ، ولو بنظم أبيات قليلة ضعيفة .

وأقدم الاثنان على طبع ما دونا وما كان عرف كلاهما من قبل بغير الأدب . فكتب الأول فى تاريخ بلده ، وأجاد فيه النقل والاقتباس ، ولم يجد فيما أتى به من عنده ، والصناعة ظاهرة فى بعض صفحاته . وكتب الثانى كتاباً يدور أكثره على تراجم أهل مدينته فجود فى الترجمة لبعض من أدركهم ، ووقع فيما وقع فيه معاصره من الإكثار من النقل ، والتبسط فى الحادثة الواحدة ، والاختصار فى أماكن كان الواجب بسطها ولو درس موضوعه حق دراسته واقتصر على اللباب دون النقل المستفيض ، وذلك بطرح الزوائد والاقتصار فى المقتبس من كلام المؤرخين القدماء على الضرورى ، لوفر بهذا الصنيع على القارئ وقته وماله .

وسقط هذا المؤلف فيما سقط فيه من عانوا الترجمة للمشهورين فى عصور الظلمات ، فامتدح من أفراد أسرته ، وأمثالهم كثار فى بلده وغير بلده ، وكان الإنصاف يقضى عليه أن يترجم لغيرهم من أبناء حرفتهم ، وعدَّ من يعرف أحكام البيع والشراء فى العلماء ، وما أكثر تساهله بتسويد من كان راضياً عنه ، وضنانته بتلقيب من لم يظهر له علمه ، وعدَّ فى العلماء من يطالع كتب القوم أى المتصوفة ، ويضيع حياته فى تأويل المنامات ونقل الكرامات ، وترجم للمجانين والممرورين ، وأطال

فى ترجمة أحد المجاذيب ، ولما عوتب على ذلك قال : إن أهله اشتركوا بمقدار نسخ من كتابه فلم يسعه إلا إرضاؤهم وذلك بخلع الصفات الحسنة على جدهم !

أما الرجلان الآخران فكان يعاب عليهما الدقة مع مشاركة فى الأدب ، فكتب الأول فى تراجم من عاصرهم على نسق تاريخ ابن شاشة والمرادى ، حشوه مبهمات لم تكن متوقعة منه ، فترجم لأحد كبار الدجالين ترجمة صوره بها من أعاظم الأولياء والعلماء والأدباء . وكان بين كلامه وبين حقيقة الرجل بون شاسع جداً ، وترجم لصعاليك بعلمهم وأخلاقهم ، وأغفل ترجمة الأعلام الذين عرفهم .

وكتب الشيخ الآخر تاريخ تراجم أيضاً ، فتوسع فى ترجمة بعض ذوى قرباه ، واختصر فى ترجمة إمام الفقهاء والمؤمنين فى عصره السيد محمد عابدين ، ووسع توسعاً عظيماً فى ترجمة جده واختصر فى ترجمة عالم عظيم كان بالاجماع من أكابر العلماء . وليس من التاريخ فى شىء ترجمة أناس ليسوا من العلماء والأدباء فقد أبصرناهم فى الشوارع كل ساعة . وفى طبقة التجار والزراع والصناع اليوم أرقى منهم ، وليس من الأمانة بإغراق المؤرخ فى ترجمة أسرته ، وإلباس أعضائها ثوباً هو فى ذاته ليس لهم ، ولو كانوا على ما زعم لهم من صفات وعلم لطارت فى عصرهم علومهم ، وتناقل العارفون تراجمهم قبل أن يتفضل قريبهم مترجمهم بهذه اللمعات ، وكذلك ما يترجم لأقربائه ومعالاته فى نعتهم ، ينادى صاحبنا : أنا من بيت علم قديم أيضاً وكان من أرباء القرن الماضى والذى قبله أن يدعى الشرف كل من يحاول التمجيد ، وينتسب إلى الرسول أو إلى أحد أصحابه على الأقل ، أما صاحبنا هذا فاخترع لأناس من أهله صفات ليست لهم ، جعلهم سلالة علماء وهم على بركة الله .

وبعد فأين هذه التآليف من تآليف أرباب الطرابيش الذين يضن أرباب العمائم عليهم بلقب عالم ، كأن العلم مقصور على المعممين وحدهم ، وكأن من لا يعرف حيل الفقهاء المتأخرين وسفسطاتهم ، ولا يضع على رأسه عمامة أمتار من الشاش الأبيض ليس من العلم على عرق .

خذ مثلا لذلك العلامة أحمد تيمور باشا من علماء مصر فانه كتب أشياء كلها تنبئ عن تحقيق . لا تجد له سجعة نابية عن محلها ، ولا معنى مبتذلا ، ولا لفظا جيء به للزينة ، ولا فكرا سخيفا مرجوحا ، وإذا قرأ المرء ما نشر في حياته ونشر له بعد مماته وقابل بينه وبين تآليف هؤلاء المشايخ يدرك الفرق بين عالم رحل أتعب نفسه في تحصيله ، ورجل يحاول التهجم على التأليف بدون جهد فكر ولا سهر ليال ، والفرق ظاهر بين من يؤلف في ما يعرف ، وبين من يصنف قبل أن يستعد الاستعداد الكافي ، وبين من لا يكتب قبل الدرس ومن يكتب كيف اتفق ، لا ينقح ولا يصحح ، ولا يبحث ولا يطيل النظر ، ويبتعد عن نقده ونقشه . وكذلك يقال في تآليف العلامة أحمد زكي باشا قريع تيمور ومواطنه وصديقه ، وفي خطبه تعبيه من التحقيقات الممتعة الطريفة وهذا أيضا من المطربشين الذين تتجاهل المعممون ما عندهم من علم . ومن هؤلاء من لا يستطيع أن يقرأ فصلا واحدا مما كتب الأحمدان زكي وتيمور على وجه الصحة ، فضلا عن أن يفهموه حق الفهم ، أو يكتبوا ، لا قدر الله ، مثله . والدعوى ما لم تقم عليها البينات ساقطة باطلة .

اقترح أوسكار الثاني ملك أسوج ونروج ، وكان عالما ومؤرخا ومحبا للآداب ، وضع تاريخ العرب قبل الإسلام وقدم على التأليف فيه من أبناء الشام بعض من لا عهد لهم بهذه الأبحاث ، وما ذكروا خطورة التأليف فيها ، ومن جملتهم شيخ

كتب رسالة ، لو جرت العادة أن توضع علامات للتأليف كعلامات صبيان المدارس لأخذ علامة قريبة من الصفر لرداءة ما كتب . وكتب أيضاً أحد الأدباء تأليفاً من هـذا الطراز وكان أرق من تأليف زميله بقليل ، فما وقع ما كتبه موقع القبول من لجنـة المحكمين ولاحظت على كتابه أنه حرّف آيات القرآن الكريم ، وقالت : إن القرآن يحفظه على وجه الصحة صغار الأولاد في بلاد الإسلام ، فاذا كان المؤلف خان أمانة النقل في القرآن فكيف يجوز أن يؤتمن على تاريخ العرب .

قلت لصديق من الفقهاء يوم كنت أؤلف كتاب (الإسلام والحضارة العربية) : أقسم المشايخ — حفظهم الله — لا يهتموا إلا بمنافعهم المادية على حين أننا جعلنا كلهم ، نجلسهم في صدور مجالسنا ، ونطلب بركاتهم ودعواتهم ، ونعطيهم من الرواتب والهدايا ما ينعمون به لو أنفقوه وما ادخروه ، ونعول على أحكامهم وآرائهم ونحن نعتقد فضلهم ، حتى إذا جاء الوقت الذى أعددناهم له وطالبناهم بخدمة دينهم يسارعون إلى التوارى عن الأنظار ، ويقولون لأرباب الطرابيش من أبناء الجيل : أنتم ردوا على أعدائنا ، وقوموا بما عهد فيكم من البراعة بنصرة ديننا ، بارك الله بكم وعليكم . قلت له هـذا وردت عليه : لقد اضطررت هذه المرة إلى مراجعة الأمهات في الدين ، بعد أن طال عهدى بها لأرد على أعداء الإسـلام والعرب ، وأهل العلم — كما يدعو أرباب العمائم أنفسهم — ساهون لاهون لا يقومون بواجباتهم نحو دينهم وأمتهم وفى مقدمتهم شيوخ الأزهر الأجلاء . فضحك صاحبي من قولى وما وجد له جواباً ولو ضعيفاً يجيبنى به فى معرض الدفاع عن العلماء الرسميين ، ممن حسبوا علينا رجالاً ينعمون بنعم الأمة ، وما هم نافعوها بدرهم ولا دانق .

القول في سياستنا

عرّف بونشلي السياسة بأنها علم حياة الدولة ، ومعرفة الشأن العام ، وفن الحكومة العملي . وقال إن رجال السياسة بحكم مناصبهم أو مواهبهم يؤثرون تأثيراً عظيماً في قيام الجماعات . وعدّ في السياسيين الوزراء وبعض كبار العمال ونواب الأمة وأرباب الصحف . في حين يطلق اسم « رجال الدولة » على أولئك العظماء الممتازين . ويقال زيادة في التعريف : إن السياسة فن الحكم يتولاه أهل البصيرة والعارفون بأصول هذا العلم وقواعده في الدولة . والسياسة العملية تؤثر في السياسة النظرية فتستأثر الأولى بالعمل وحدها في طفولية الدول ثم تشركها الثانية .

لا جرم أن علم السياسة من أدق علوم البشر ، وأشد الناس بلاء من يعانيها . ورب سياسي انصرف إلى عمله أعواماً طويلة ولم يفلح على ما يحب ، وقد يوفق في مسألة واحدة طوال حياته فيخدم بها أمته خدمة لا تنهض بمثلها كل قواها مجتمعة . والناجعون في السياسة قلائل جداً في كل العصور ، وحاجة الأمم إلى السياسة كحاجتها إلى الماء والهواء ، وهي على صعوبة بادية فيها يدعيها الأغرار ويبرز في مضمارها المحنكون. وإذا فرضنا أن معدل من يوفقون في الأعمال خمسين في الأمة ، فما أحراهم في السياسة ألا يعدوا أكثر من واحد في الألف . ولذا ادعى الجاهلون طب الأبدان وطب البلدان ، فعجب العلماء لظهور المتطببين من عوامل أدعياء الطب الجسماني ، ولم ينج من الدخيل السياسي في طب الدول والأمم .

ينبغي للسياسي غوص ذهن، وفرط حنكة، ووفرة دهاء، وثقافة عالية، ومرانة طويلة، والسياسي على كثرة ما يمنح من آراء، وما يصطدم به من مشاكل، أشبه بمجموعة عيون باصرة، وآذان مرهفة، وقلوب واعية؛ وهو مع هذا يحتاج إلى حافظة وذاكرة، وبديهة وروية، وعزم وحزم، خصائص متى جمعت أو أكثرها في فرد غدا ظهوره نعمة كبرى على أمته.

السياسي تنشئه الحوادث، وتُجدده الخطوب والكوارث، والمرء يفيد منها أكثر مما يفيده الكتب والأوراق، وتصفح المجلات والرسائل. ويظهر السياسي في الحكومات الشورية كما يظهر في الحكومات الاستبدادية، ولسانه في الحكومات الديمقراطية الحقة أكثر طلاقة وعمله أحسن ظهوراً. وينشأ السياسي من الطبقات الفقيرة كما يستوي في الطبقات الغنية وأرباب النعمة أولى بممارسة السياسة من المقلين، لقدرتهم على الظهور بمظهر بعيد عن الشبهات، محفوف بالاستغناء والكرامة. والغني مظنة البعد عن مواقف الاستجداء. والمظاهر الخلابة أثر في بعض الشؤون العامة.

يرجح في السياسة الشيوخ على الكهول، لما يفترض فيهم من وفرة التجارب، والتجرد عن الشهوات. وإذا كان السياسي من بيت رياسة ونعمة، يستطيع بتحمل أعباء السياسة أكثر من غيره، لاحتوائه غالباً على ذوق خاص يقدر به ما يصلح وما لا يصلح، ويتهيأ له من حسن ظن قومه به، وبمتابعة سلفهم شيء من الروعة في القلوب، والمهابة في النفوس. وما نجح بنو أمية في السياسة في الإسلام إلا لأنهم كانوا ساسة وقادة في الجاهلية، نشأ الأبناء على غرار الآباء، وتعلم الصغار في مدرسة الكبار، وبأمثال الأمويين أتى العرب في زمن قصير من أفانين السياسة ما هو قرة عين الزمان.

ولما قلّ عظماء السياسيين فى الدول الجامعة ترجع أمر الأمة جمعاء ، أصاب العرب ما أصاب البولنديين من الأمم الحديثة ، فتمزقت دولتهم أولا وآخراً بضعف رجالهم فى السياسة . ومتى أشرف أمر جماعة على الاضمحلال لا يعدمون سائساً غريباً يجيئهم فيتولى منهم ما كان الواجب أن تتولاه خواص الخواص من رجالهم .

ولقد تكثر السياسى المعضلات فإذا لم يتبصر فى ما يعرض له ، ولم تتسع صدره للتوقى من النوازل ، ولم يوطن نفسه على تحمل الأذى ، ولم يجامل أولياءه وأعداءه تنصرف الوجوه عنه ، ويصير إلى حالة يضيع فيها رشده ، ومتى ضاع رشده أضاع أمته ، وهو أعظم ضياع . ومن هذا كان ما يصيب السياسىّ من ظهور وحرمة دون ما يكافىء اضطراب ساعة تمر عليه ، وهو لا يهتدى إلى وجه الصواب فى خطب دهمه ، ومأزق صار إليه .

السياسى الشريف كالتاجر الشريف لا يعمر بحق ائتمن عليه ، ويعز على صاحب الذمة أن يسىء استعمال الأمانة ، وإذا مزجت السياسة بالدين تخرجه عن قصده ، وإذا تسربت إلى العلم تعبث بهائه ، وإذا سرت إلى الإدارة وقع فيها الخلل ، على أنه قلّ أن يستغنى شىء عن قسط من السياسة .

ومنهاج السياسى متشعب منتشر ، كأنه اضبارة قضية خطيرة لا يتيسر للقاضى إصدار حكمه قبل أن تقرأ مئات من الأوراق ، ومع النظر فى دعوى المتخاصمين ودفاع المدافعين ، وربما فتح له منفذ إلى الحق بجملة صغيرة يسقط عليها ، أو نكتة توحيها تجاربه إلى قلبه . ويندر من أحرزوا صفات السياسى ، ولمهدنا بالدول الكبرى المعاصرة مثنى فى العصر بعد العصر نفراً معدوداً من العيار الصحيح منهم .

ولقد كان الساسة عند الإفرنج بعد القرون الوسطى أكثر من العرب إبان تدليهم، وما غلب ملوك قشتالة وأراغون حكومات العرب في الأندلس إلا لتفوقهم في السياسة، ولو كان في ملوك الأندلس ومنذ ساسة محنكون ما انتهى مصيرهم المفجع إلى ما انتهى إليه. ولو نزل صلاح الدين على رأي بعض فقهائه وما راعى السياسة — فعامل الصليبيين يوم فتح القدس، كما عاملوا المسلمين يوم دخلوا عليهم — لوسّع الخلاف بين الغالبين والمغلوبين. فعمل بعقله لا بعواطفه، وجرى على نهج السياسي الحكيم لا على نهج فاتح مغرور.

وكان رحمه الله حريصاً على جاه الذين يرى فيهم مواهب سياسية ككاتبه ووزيره القاضي الفاضل فقد كان يحترمه ويجله وينزل على رأيه، ويعده من أكبر الدعائم في حفظ مملكته وأن ملكه قام ببعض قلمه. ولما أسر الإفرنج أحد قصاد القاضي العسكري فقأوا عينيه ودفع في فدائه مالاً عظيماً، وبث في مصر من كان في أسره من رجالهم ليعود إليه قاصده الأمين. وكان معه كما كان الإمام أبو يوسف من الرشيد العباسي، تزين السياسة بعلمه، ويستفيد الملك من صائب رأيه.

قيل للشهيد أتابك زنكي والد نور الدين محمود: إن هذا كمال الدين بن الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي؟ إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار.

* * *

دخلت السياسة في بلاد الغرب أخيراً طوراً جديداً، ونقصت بأخرة شهرة أفراد أحسنوا الإعلان عن أنفسهم، وعلا في الممالك التي مُنيت بتدخل الغرب من يطلق عليهم اسم السياسي بلا شيء من المجون، ذلك لأن السياسة في أرضهم تكون في قبضة أصحاب القوة من الدول العظمى، وهؤلاء لا يرضون إلا بمن يؤاتيهم على ما يريدون بدون أخذ ورد. وجلّ من يختارونهم من طبقة النفعيين، ممن تهمهم مصالحهم قبل كل شيء، ولا يعرفون السياسة إلا في أنها الغلو في مصانعة صاحب القوة، وهم إلى هذا قد يكون فيهم من عنده مقدرة، ولكن لو وصل إلى التبريز فيها. السياسة عند هؤلاء مقذوفة، ولا يطلب من المتدني الحذق بالمعنى. والأوربيون ما تحققوا بالسياسة إلا لتوفر عامة أسبابها لديهم، وفهم ما يعبر عنه بالسيادة القومية، وربما كان بعض الموصوفين بالسياسة يحسنون صنعتهم في الشرق لو وجدوا المجال حراً، ولا تعرف حقائق الرجال إلا إذا متّعوا بحرية العمل.

جرى العرف على أن السياسة كذب كلها، وهو حكم جائر حمل إليه ما بدا من بعض من تحققوا من مخالفة الصدق في خلواتهم وجلواتهم، حتى انتحالهم مجاميع أكاذيب وأحابيل، وقد أسقطوا بصنيعهم هذا، والمحال أحلامهم، من قيمة أشرف عمل يقدمه إنسان لأمته. ومن الغريب أنه كلما علا السياسي في التلاعب، واسترسل إلى نصب الأحابيل، أكبروه وجمعوا عليه من لا يعرف أصغرها، وأعجبوا به ولا إعجاب أرباب العمى فيمن أسرفوا في قتل البشر من الفاتحين أمثال الإسكندر وجنكيز وأتيلا ونابليون.

لا يلزم السياسي في العادة أن يطلع الناس على سر حركاته وسكناته، ومن الخير له ولهم ألا يقفوا على شيء إن أمكن. ومن أول شروط السياسة الكتمان الشديد،

وكم من سر أدى إفشاؤه إلى مفسدة . والسياسي مهما احتمت الظروف في تقابل أعماله لا يسعه إلا أن يطاول ويحاول ، ورب نجدة أرباب العقول باستدراجه إلى الكلام في غوامض يرى الفائدة في سترها ، وقد يجهل حب الخلوص غرضه إلى ساحل السلامة ، ورب كان خصمه من قومه وغير قومه وجه المطاعن إليه ، وهو أحق الرجال بالاحترام والإعظام .

يقول ماتوران العمل هو المحك الذي يعرف به السياسي ، والواجب عليه أن يجعل من كلامه قوة فعالة يجريها في خدمة المصلحة العامة . ويختلف السياسي الحق Le politique عن السياسي المحترف Le politicien اختلاف السياسة عن المكيدة . السياسي المحترف يعيش من السياسة وعليه منها معاشه ، وإذا عهدت إليه مهمة عدها وسيلة يستثمرها لإملاء جيبه ، واستقامة صحته ، وبسط جاهه ، يرتكب هذا وهو على علم بما ارتكب واحتقب ، إذ ليس همه من نفسه المصلحة العامة ، ولا النظر إلى المستقبل ، ولا يهتم لغير نفسه ، ولا يتوقع إلا إرضاء شهواته من كل ما يدخل فيه من المؤامرات . يعبث ما طاب له العبث ، حتى إذا فاز وربح اغتبط وعد ذلك غاية الغايات ، وهذا لأنه لا أرب له في إحراز مجد ، ولا هو ممن تحدثهم أنفسهم بأن يشقوا لإحراز اسم رفيع ، وذكرى طيبة يجعلها لذراريه . ولا يشبه المحترف السياسي السياسي الحقيقي إلا كما يشبه الممثل السخيف الرجل العظيم . قد يخدع السياسي الحق ، والسياسي المحترف أبداً خداع ، للسياسي خطط وأمانٍ ونظر بعيد ، وللسياسي المحترف ذرائع يتذرع بها ، وأحابيل يحيكها وينسجها . الأول يستخدم السياسة ، والثاني يحيا بالمكائد ، والناس لا يميزون بينهما ، وهما متخالفان وبينهما قرابة ظاهرة ، ومن الظلم عدم التفريق بينهما . ومن عاش زمناً ملدساً لا يقدر أن يرجع عنه ، ولا تطيب له

الحياة بدونه . ولا يُخطَر على السياسى أن يكون على شىء من الدهاء بأن هذه الصفة تُطلب منه ، والمهارة شىء ، والاحتيال شىء آخر ، والدهاء غير الخديعة

قال . قد يكون من الضرورى للسياسى ـ حتى يقف على ما يجهل ـ أن يوهم بأنه عارف حقيقة ما يعالج من أمر . ومن سوء البحث أن يحتج السياسى الصحيح إلى الاستعانة بالسياسى المحترف . السياسى الحق يقوم بواجبه ، و يستخدم من يغامرون معه وفقاً لما يجلبون من المنافع . وقد يحتاج إلى الخونة الماكرين ، أما الشرف والفضيلة والضمير فهي وإن كانت صفات محترمة فقد يستغنى عنها فى بعض الأحوال ، وعمل الخير لا يصلح فى المواطن كلها . ومن الأعمال ما لا تطبق فيه قواعد الفضيلة كل التطبيق ، بل يعمد فيها إلى الدين يستميل به صاحبه القلوب ، ولا مندوحة لبعض أطباق الطعام من مصحبها شىء من الأبازير تطيّبها . ثم إنه لا يشترط فى السياسى أن يكون على رأى ثابت أبداً ، وأن يقضى عمراً فى دائرة معينة لا يتحول عنها ولا يحيد . بل هو مضطر إلى الاستعاضة عن رأى برأى لحل ما يطرأ عليه من المشاكل . وكم من قانون أساسى وقع التعديل فيه بعد إقراره بزمن يسير . ولكل حق وقت وموسم . وليس الثبات من طبيعة الآراء، ذلك لأن النظر إلى الأشياء يتبدل بالتجربة وبحسب الزمان والأحوال الطارئة ، ومن كان من الحزب المعارض فى دولة لا يلبث إذا وصل إليه الحكم أن يُمضى ما يرى فيه المصلحة . وقد قال ميرابو : ما ارتقاء الرجل إلى منصب عظيم إلا بحران يُصيبه فيَشفى من آلام كانت يحسها ويُعْدَى بما كان منه بريئاً من قبل . وقال هوغو : قد تذم الرجل إذا وصمته بأنه ثابت على رأيه السياسى لم يتزحزح عنه منذ أربعين سنة ، فإذا قلت فيه ذلك فكأنك وصمته بأنه رجل لم يستفد من تجاربه اليومية ، ولا من تفكيره ، ولا اعتبر بما مر به من الحوادث . وكأنك وأنت تحكم عليه هذا الحكم ـ تمدح الماء لركوده ،

والشجرة لأنها صوّحت ، ووهم أنت معدل الحار على السعر . فالرأى قابل للتحول ، وما من شيء هو على بطلانه أبداً فى المسائل السياسية ، ويبدل المرء رأيه ولا يخرج عن قانون الشرف ، والعار كل العار فى اطراح الرأى لهوى فى النفس وحب مغنم والذهاب مظهر ، فينتقل صاحب هـذا عندئذ من لون واحد ليصبح ذا ألوان ثلاثة . انتهى .

وإذا كان يجوز ويجيز للسياسى أن يجتهد فى تعديل رأيه حسب الأحوال ، فنحن فى هذا الشرق نشكو من أنه يبدل . وما من له حظ من الرأى أو ما يشبه الرأى ، كدأب بعض زعماء السياسة يخرجون من حزب ليدخلوا فى غيره ، أو ينتمون إلى عدة أحزاب فى آن واحد ، يحملون لكل واحد الأيمان المؤثقة ، يبيعون مذهبهم السياسى كما يبيعون ثيابهم المتسخة ، وأشخاصهم أبداً كالسلعة المعروضة فى السوق يقتنيها من يريد فى ثمنها شيئاً ، فهم وصوليون يتجرون بالوطنية ووطنيتهم سرقة أمتهم ، وتضليل عقول أبنائها . ولو قد كتب لك أن تستمع لما يبدو على لسان بعضهم ساعة يخلو إلى صاحب السلطان إذاً لسمعت جديراً من جدير بالإشفاق يلتهم طعامه القذر ، ولو كشف الغطاء عن وجوه بعض من يدعونهم بالسياسيين لتجلت صورهم واغلة فى التمويه كثيراً ، ولو تركوا أيضاً وشأنهم يسيرون بقرائحهم بدون ردء لهم لظهروا للملأ بقيمتهم الحقة .

وإذا جوّز مكيافيلى فى كتابه « الأمير » للرجل السياسى أن يصطنع القسوة ، ويدوس كل فضيلة ، لإنشاء مملكة ، وقيام دولة ، ونادى منذ القرن السادس عشر أن الغاية تبرر الواسطة ، وتابعه على مذهبه هذا بعض ساسة الغربيين ، فإن معظم رجال سياستنا استباحوا كثيراً من الكبائر فى سبيل مطامعهم الخاصة فقط ، أما الإخلاص فى الشئون العامة فهو مما لا موضع له فى جريدة أعمالهم .

لا يحجبا بعض المتطلعين على السياسة من يحدث اليوم ما سموه أمس ، ومن تسويد الأبيض وتبييض الأسود على هواهم ، هم في الأسواق غيرهم في المجالس ، وفي حضرة الكبراء صورة مباينة لما هم فيه عند الجمهور ، يكذبون على قومهم ، ولا يطرون العطف عليهم إلا يوم يحتاجونهم ، ليجعلوا منهم سلّماً إلى أغراضهم . ومن المتعذر على تلك الفئة أن تخرج خطوة حقيقية من مثلهم ، ذلك لأنها من العريق الذي ما غبط حسبه وعائلته من أمثالهم من يجحد عائبه ويخص منه ، وهم ما أقاموا أحداً قط يحسن حالهم ، ومن مقاصدهم ، ومن أمكن منهم أن يبذل أنواع البذل لإغواء العامة تقوم له الحفلات ، وتهتف له وتصفق في المظاهرات ، وتنوه به في الصحف والمجلات ، وقد كان بعض الساسة يتقوون في حكم العوام ، والشك في هؤلاء ممن لا يعرفون بين سياسة وسياسة ، ولا تميز عقولهم بين حزب وحزب ، وهم كالمجانين يدينون دين إمامهم ، وكثيراً ما رأينا العوام يدعون أن يستحقوهم وهم لا يعرفون ولو شيئاً قليلاً من مبادئ دعوتهم ، ومرامي حركتهم وعصبيتهم ، فكيف بهذا يصح الاعتماد عليهم .

أما من وراءه يعقل في ساسة العرب من وصل إلى ما وصل إليه بالطرق المشروعة ، ومن العبث توقع الخير ممن يبيع نفسه ، ويصنع أبداً ما يؤمر به . أما ساسة العرب فلا يكاد يسمع بواحد منهم ، بالغ ما بلغ ، إلا إذا كان من رجال الكد والعمل ، وعلى جانب من الثقافة النافعة ، يمتع بثقة أمته .

القول فى مشايخنا

قال لى صديق له دالة علىّ : إنك تنظر فى حساب المشايخ الفقهاء بتدقيق يزيد على تدقيقك فى حساب سائر الطبقات ، وأنت إنما حصلت على ثقافتك الأولى من المشايخ ؛ فهلا رعيت طبقتهم على نسبة ما تلقيت عنهم ؟ وما بالك لا تشكر أيادى الأجلة الذين أخذت عنهم وتزودت بأدبهم . فأجبته بأن غيرتى على مقدساتنا تدعونى إلى أن أحاول بكل ممكن إدخال الإصلاح على سمت المشيخة ، لعلمى بأن أصحابها هم رجال المدرسة الأولى للأمة ، وأن معظم الناس يستجيبون لنصحهم وإرشادهم .

أنا لا أبغض المشايخ لأنهم مشايخ ، وإنما مقت بعضهم لأنهم غشوا بواجباتهم ، وكان المأمول أن يكونوا أحسن مما هم لأنفسهم ولقومهم ، فقد تمت شرور على أيدى الحكام الظالمين كان المشايخ العلة الأولى فيها . وأنا أحب على البعد والقرب من كانت نفسه بعيدة عن المطامع الخسيسة ، والظاهر والباطن من سيرته سواء ، وليس بينى وبين المشايخ ثارات ، وكنت ولا أزال أنكر ما بدا من جشعهم ولا يمس دعواهم ودعوتهم .

أحببت كثيرين ممن عاصرناهم من مشايخ الشاميين والمصريين والعراقيين ، وأعجبت بسيرتهم ونوهت بمناقبهم ، لأنهم عملوا الخير وعملوا بمقتضى ما علموا ، وترفعت نفوسهم عن سفساف الدنيا إلا ما لا بد منه لمعيشتهم . أنا أعرف أن للمشايخ كغيرهم واجبات لا بد من قضائها يعوزهم المال وتحدثهم أنفسهم بالظهور ، ولكن طريقتهم

تخالف ما يقرأون فى كتب الدين ، ومنهم من كانوا أبداً أجرأ ناس على انتهاك حرماته ، وهذا ما يزيد كراهتى لهم ، واحتقارى لنزعتهم ، وتزييفى لخططهم .

أنا أكره كل منافق فكيف بمن ينافق فى دينه ، والمنافق فى الدين ألا يعمل به ، وهو يدعى أنه المحفوظ الأمين عليه . وأكره من يدلس فى الدين فكيف يكون كرهى له إذا كان من رجال الدين ، وأكره من يظهر للعالم غير ما يبطن ، ليخدعهم ويمعق عليهم بالباطل . والعلم بالدين أن يدخل هديه شغف القلب وتتهذب النفس بأدبه حقاً وصدقاً لارياء ونفاقاً .

رأيت شيخاً اشتهر عند العوام بالتقوى والعلم كان إذا قبض راتبه آخر الشهر يذهب إلى الصيرفى حالاً يبدل الجنيهات بجنيهات مثله ، لأن الدنانير التى تعطيها خزانة الدولة فيها بزعمه الطاهر وغيره ، أما جنيهات الصيرفى فلا شبهة فيها ! هذا هو الورع الكاذب ، ولو كان صاحب ورع حقيقة لكان كالشيخ عبد الحكيم الأفغانى فقيه عصره ، فإنه عف عن كل مال عُرض عليه ، وكان إذا ضاق به العيش يذهب إلى البكور المجاورة ، ويشتغل عاملا بالطين ، فإذا تجمع له صبابة من المال عاد بها إلى غرفته فى مدرسته ليعيش بها أشهراً . ورأيت مبدل الجنيهات يقيد باسمه فى دار التمليك داراً لا يملك إلا نصفها ، وكان النصف الآخر لامرأة فقاصصته وثبت للقاضى تزويره ، فسأله كيف استحل ما ليس له وقيده على اسمه فقال : نسيت . ورأيت هذا الشيخ أيضاً ما توقف عن أن يشهد لزور ابتغى أحد الكبراء ممن له به شبه اتصال أو قرابة ، فعمرك قل لى كيف يحترم هذا الشيخ ولو ملأ الدنيا علماً ، وطار فى السحاب لكثرة صلاته وصيامه !

عرضت موازنة إحدى الدول فى مجلس نوابها فاستنكف من اقرارها نائب من المشايخ، فسأله أحد زملائه عن سبب استنكافه فقال : إنها أموال جمعت من المظالم والمغارم ودينه لا يسمح له بالموافقة عليها ، فامسك صاحبه بيده ورفعها له فأقرت الموازنة . وماذا تقول لهذا المتشيخ الذى يدين بمقاومة المدنية الجديدة رياء وتصنعاً ويمد يده فيقبض راتب النيابة من هذه المظالم والمغارم .

لقيت والى سورية فى الحرب العامة متذمراً من أحد المشايخ المراقبين وقال انه قال لقائد الجيش :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

وأن حكومة سورية ساهية لاهية ، وشبان العرب يتآمرون على سلامة الدولة ، أى أنه كان يتجسس على قومه . فقال الوالى : أرجوك أن تقول له بأنى أنا الحاكم هنا فما هذا الفضول ؟ أنا لا أستطيع أن أجيبه إلى رغائبه فقد طلب منى أن أسعى له بأن يكون ... عن بلده ومعنياً فيها ، وبلدته ليست من عملى ، فما أن يترك الدخول فى لا يعنيه ، أو أنفيه من هنا ولا تأخذنى به رحمة . ثم قال له : كيف جرأ وضرب حاجبى على صدره ، ودخل علىَّ بدون استئذان ، فما هذه الفحة ؟ فقلت له : إن الرجل مريض فى عقله . وشخصت إليه وبدأته بالكلام على أن القوم تضيق صدورهم ممن يدخل عليهم بدون استئذان فقال : وأنت هل ترضى أن يحجبوك كما يحتجبون عن الصعاليك ، فقلت له : اللهم نعم ، والشرع الإسلامى والاصطلاح المدنى يأمران بذلك ، وعلى من لا يعجبه هذا النظام إلا يكلف نفسه الاختلاف إليهم . وأشرت إشارة خفيفة إلى أن الوالى لا يستطيع أن يعمل له ما يريد ، فلم يفهم فى الغالب ما قصدت ، وما أحببت أن أبلغه كل ما حملته ، لعمى بسوء وقعه فى نفسه .

وكنت أتقي هذا الرجل مخافة أن أزيد في مرضه إذا ناقشته . والوقت أثمن من أن يضاع في مراعاة الأمزجة الغريبة .

وعلمت أن الوالي لم يتبرم وحده من تعجيز هذا الشيخ ، بل تبرم به قائد الجيش من قبل . فقد روى لي : أنه كان يدخل إليه ، ويقضي ساعة بين يديه يحدثه بأخبار صحته ، ويقول له في حماسة ما يقول : إنه تناول أمس مسهلاً ، وإنه خرج ثلاثة مجالس ، وإنه أحس بمغص ، وإنه سيتناول الكينا ، ولكنه يخاف منها أن تحدث من صداع في رأسه ، إلى آخر حديثه الغث السمج ، خصوصاً في تلك الأيام العصيبة ، وكان على عظماء الدولة من التبعات ما تعد معه عليهم الدقائق والثواني .

اجتاز بدمشق بعض السنين شيخ من أهل مصر ونشر رسائل في إحدى الصحف المصرية الكبرى ادعى فيها أنه اجتمع إليّ وأني لم أثنه قط ، وزعم أني قلت له إن متحف دمشق أغنى من متحف القاهرة ، وقال إن كتابي (خطط الشام) ليس إلا كتاب رجل قرأ كثيراً وكتب كثيراً إلى غير ذلك من الآراء ، فضحكت وقلت : ليس هو أول رجل كذب عليّ . وجئت القاهرة فقيل لي إن فلاناً يبحث عنك ليدعوك إلى داره ؛ فسألت عنه وقلت للسائل هل هذا الذي ذكرني في مقالاته ، قال نعم ، قلت : هـذا الرجل ادعى أنه لقيني وأني قلت له كذا وكذا ، وكل ذلك غير صحيح فما لي وله ، ولم يحاول الآن أن يدعوني إلى داره ، فإن كنت شيئاً في نظره فلم طعن بي قبل أن يعرفني ، وإن كنت لا شيء فلماذا يحرص اليوم على التعارف بي ، ألا يكفي في مكارم الأخلاق أني تغاضيت عنه ، فخطّأ الوسيط بقول لا أحتج مسامحته مما قلت ومما قال : إن صاحبه يؤكد أنه مهتد في رسائله بما قلت له ، وهذا أعظم كأني لا أفهم الكلام العربي .

وكنت في بعض الليالي في المقهى فجاء هذا الشيخ وأنا بين رفقة جلوس،
فقام له القوم ولم أقم، وجاء يمد يده إليّ فما مددت إليه يدًا، وقلت له باحتقار: من
أنت؟ أنا لا أعرفك. فصفع ورجع إلى الوراء، وتناقل المقهى ما جرى بيني
وبينه وهم بين مستحسن ومستهجن. حقًا إني لم أعرف سببًا لحرص هذا الشيخ
على إكرامي بعد أن كتبت ما كتبت في زوره ومهنته، إلا أن يكون خاف على
منصبه، وقد رأى ما لي من منزلة في بلده، وما لي من اتصال يقدمني عليه هو لها
تلة العبد الرقيق. فتوهم أني قد أكيد له سوءًا عندهم، كما جرت عادة أمثاله. وقد
علمت من سيرة هذا الرجل بعد أن مات، وتحدث الناس عن حكومته ما زاده من قبله،
فلمته لومًا شديدًا على تحيته من خدمة وحب مدنيه.

وعرفت شيخًا لم يبق له منصبه لديّ إلا بعمل عنايته بصحب الأحبار من
الإفرنج، وقد رأيت ثلة من هؤلاء المشايخ لا يرون في دينهم ما يمنعهم من أن يكونوا
عيونًا على قومهم، ويعتقدون أنهم يأخذون من مال من يتجسسون لهم غنيمة
واستلابًا. وكان ولاة الأمر يرضون عن هذا الشيخ بدون هذا، ولكن هي
النفوس الوضيعة وحب الدسيسة. وسار أخوه على نهجه وهو كشقيقه يستدر رواتب
كثيرة من الأوقاف، وتعدوه من يتجسس لهم كل يتداول رواتبها جمع سنين وهو
متغيب. ومع كل هذا الإحسان كان يظهر بغض من يحسنون إليه جهرة، ويقول
فيهم ما لا يقوله عدو في عدوه. وهذا نمط آخر من أنماط الأخلاق. والأحوال من
أسرة كبيرة يعيش بعضها بالخط ولا تحرر بالطريقة ودعوى التصوف.

وهناك كثيرون تولوا الأعمال الدينية العظيمة كالقضاء والإفتاء، وكانوا على

جانب من الجهل المخيف أدركت منهم مفتياً سخيفاً كان يدعى له مريدوه أنه عفيف لا يرتشي ، وأنا أعرف أن أحد أقربائي قد رشاه بمقدار من الأرز والسكر والسمن ليحكم له بما أراد ، وكان إلى هذا جاهلاً لا يعرف إلا ما تعلمه من فقه الحكم سأله الولي ذات يوم عن معنى قوله تعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » فقال : يُكشف عن معناه في التفسير . فما قول القارئ في رجل مسلم يتولى أرقى منصب ديني ولا يعرف كلمة من سورة ربما كان ممن يقرؤها في صلواته كل يوم . والشيوخ إذا زادوا إلى ضخامة عمائمهم جهلاً يستحيل على أحد أن يوقرهم أو يؤثر فيهم كلامهم . وهذا الشيخ كان ممن يتقرب إلى العوام دون رجال الإصلاح وتكفيرهم وتبديعهم ؛ لأنهم هم الذين يظهرون حقائق أمثاله مثلاً ويعرفونهم أنهم طبول فارغة لا يطرب الضرب عليها ، طبول عملت من مواد غير صالحة ، جلودها كريهة الرائحة ، وحشوها مسوس ، والضارب عليها من كل أخرق أحمق .

وعرفت شيخاً كان معلماً في كتاب يأتي ما يأتيه لمجون ويغتاب ويتم ويلقى الشغب بين صحابه ، فقلت لشيخه : رأيت من احتضموا إلى مجالستك قد حسنت أخلاقهم بعض الشيء حتى الباعة والصناع إلا صاحبك هذا يسمع كلامك ليل نهار ولم يأخذ من سيرتك شيئاً . وهذا الرجل عرض على بدخول المحتبين أن أعرفه إليهم ، وقال انه مستعد ليأتيهم بما يعمهم من الأخبار ، فقلت له : أنا لا أعرفهم ، وليذهب بنفسه يعرض عليهم هذه الخدمة . وقد ارتكب في الوظائف التي وليها ارتكابا لا يصدر إلا عن عرى من كل خلق ودين ، ورأيته يقبل ركبة رئيس أحسن إليه ويطلب رضاه ويذكر جميله معه ، فلما سقط قام يقدح فيه على المنبر في المسجد . ونسأل الله السلامة .

لم يخجل شيخ آخر وهو شيخ معمَّر يدعى الشرف ، وصاحب منصب علمي كبير من قبيل الباطن والظاهر من كف اللصوص السامي ، وهذا الشيخ تولى القضاء فكان يدوس الشريعة في سبيل دراهم يجمعها . عهد إليه في محنة من المحن توزيع مقادير من الحنطة على الفقراء ، فأعطى من أحب إعطاءه ، وحرم من خصومه نصيبه من الحنطة بقدر وقته وخدمه وأتباعه المحاسيب ، عشرات من الأمداد ، وحرم كبار العلماء ، وجمع من هذا الاحتيال مبلغاً ابتاع به عقاراً جديداً ، وذخر المال للأيام السود .

وأدركت شيخاً كان على علم ومعرفة ترميه تحدث الناس فيه وأخطأوا في أمره ، ورأى حساده بعض أسماء صنعته لا يبالي بما عليه في صور مختلفة من مزايدات ونهب ومهاترات . كان سمته سمت الزهد والعبادة ، وعليه ثمل أرباب الدين . ولم يكن كبعض شيوخ الأزهر يعهد ، يلبسون الحرير ويتختمون بالفضة والذهب ، ويركبون السيارات الفخمة ، ويغشون المقاهي والدور . يعرف في العلم ولا إرشاد حسنة طوت بها نقط عليهم ، ولم يضع كتاباً ولا رسالة ولا عرف له رأي ولا مذهب بالمعنى إلا ما كان من دروسه التي أشبهت دروس القصص أو دوت يرى فيها أهل العلم صورة عقله وحقيقة أمره ، وشأنه في ذلك شأن المشايخ عامة في عصره يحفظون ولا ينتجون ، أما هو فله قوام بسمة محفوظة وحسن إلقائه ، ويماشي عمله بما يلائمه حسب الأحوال . وكان هذا الشيخ من أغرب من عاصرت ، روى أحد ذوي قرباه أنه صحح في بعض دروسه أحاديث المهدي وهي موضوعة ضعيفة . وقال إن المهدي المنتظر جاء الملء منذ أيام وصف عند بعضهم . ولما انتهى الدرس لحق به أنجب تلاميذه وسأله عما إذا كان يعنيه برؤل المهدي فابتسم ، وأول بعضهم ابتسامته بأنها إشارة إلى أن الأمر كان كذلك . وادعى هذا الشيخ الخلافة لما رأى حبلها يضطرب ثم عدل عنها لما فقدد . وكان حريصاً

على بقاء السلطان لأهل الإسلام، ويذهب إلى أن الآية الكريمة (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) تنطبق على من يقومون بالكيد لدولتهم ولدعوة قوميتهم. وكانت له مع ذلك شبه علائق مع بعض سادة العربيين ويعطف كثيراً على أبناء الدعوة. وأنكر على أحد تلاميذه تساهله مع إحدى الطرق وبين له أنها تنافي الإسلام وما تعدى إنكاره حد المذاكرة بين شيخ وتلميذه وما أحب أن تشيع أفكاره لئلا تصل إلى مسامع من يحب رضاهم. وأنكر مرة الإسراف في بيت المال وما يعطى منه رواتب صحيحة سكت، وأنكر الأفكار على أعداء الدين حتى نشبت الثورة عليهم، فما رضي عنهم حمد الله في مجلسه على وجودهم وقال إنه بوجودهم حفظ الدين.

وهاكم الآن صورة رجل من غير هذا الطراز تلقى صاحبه دروس اللسان والدين في الأزهر، وقصد إلى الآستانة يطلب منصباً دينياً، وربما كانت نفسه تحدثه أن تنصبه الدولة شيخ الإسلام، وما مؤهلاته دون ذلك، ولما لم ينل ما طمحت إليه نفسه هجا الأتراك ودولتهم. وما أدري بأي واسطة من وسائط الشفاعات صار قاضياً، وكان في سياسته يتقلب كالحرباء: يشدو بمدح كبير يتوهم أنه يحميه، ثم يعرض عنه ويتصل بغيره ويهجو الممدوح الأول. وكانت له أماديح تحت الطبع، كان فيها أشبه بمن كان في مصر يعد القصائد في المدح والتهنئة أو التعزية، ويصف حروفها في المطبعة، فإذا كان هناك من يرى فائدة له من مدحه أو تهنئته أو تعزيته وضع على القصيدة اسمه ونشرها، ونال عليها الجائزة، وإذا لم يمنحها الممدوح أو المعزى أو المهنأ اختياراً منحها اضطراراً، أي بالتهديد والوعيد.

أراد هذا الشيخ أن يظهر بمظهر جديد أمام العوام فأخذ يؤلف ، وماذا يؤلف وهو لا يحسن إلا نظم الشعر ، أخذ يؤلف كتب صلوات ، كأن المسلمين لم يعرفوا كيف يصلون على نبيهم عليه الصلاة والسلام ، حتى جاء هذا الشيخ في آخر الزمان يدلهم على صيغة الصلاة ، ويرشدهم إلى ما لم يهتد إليه كل من قام في ديار الإسلام من العلماء ، وكان يكتب على بعض ما يطبع منها أنها ورد مجرب ، ويطبع منها ألوفاً من النسخ . وإذا صار أحد المتقاضين إلى المحكمة أشار عليه بعض خواص الشيخ أن يبتاع مقداراً من الكتب ، فيشتري المسكين ما لا ينفعه ، وقد يكون المشتري من غير ملة الإسلام .

وحشا هذا المؤلف كتبه بالموضوعات ، يزيد العامة بها جهلاً ، وأذكر أن من مدهشات ما قرأته منذ زمن في بعض كتبه أنه رأى وراء حرج من امرأته ، ففسره بأنها ستلد ولداً يملأ الأرض علماً وعقلاً ، فلم يكذب في حدسه ، وولدت الدرة ولداً ولكن لا من الطراز الذي تنبأ به أبوه . وقد بلغت مؤلفاته نحو خمسين كتاباً ورسالة ، فهو من المكثرين من التأليف بالتأكيد ، إلا أنه على التحقيق ليس من المجودين فيه .

وفي تآليفه صلوات وأحاديث موضوعة ومناقب وكرامات منقولة من الكتب القديمة وغيرها ، وكتب ورسائل مختصرة يحسب دونها . ولو أن امرأً جوّز لنفسه أن يؤلف مثله لكتب خمسمئة تأليف لا خمسين فقط . وكل تأليف من مثل تآليفه لا تتطلب منه أكثر من أسبوع ، يأخذ نسخة مطبوعة ينقل عنها عبارات من تقدمه في الموضوع الذي اختاره ، ويحذف منها ما كان ، ويكتب للكتاب بضعة أسطر مقدمة ويقول هذا تأليف .

ونحمده تعالى على أن أمثال هؤلاء المؤلفين ما غشوا عاقلاً قط ، وكان مرماهم استخداع العامة ، والعامة لا يعرفون من هذه المسائل شيئاً . حقيقة أن هذا الرجل شاعر ولكن شعره من نمط غريب ، فإن لديه شعراً ينظمه كيف يشاء ، وعادته أن الشعر هوى وحيل ، ولديه حق اليقين أكله صاحبه الأعظم ، وما صح أنه جاء عنه يعمل به فقط ويرذل ماسواه .

سمعت أستاذي في بعض مجالسه يقول : يكثر اثنان الكتبة في هذا العصر فيمتحنان بي يكتبان على الإسلام وعلى السياسة أبواباً يعيي العقلاء سدها . أحدهما الشيخ الذي تصدى للرد على الملحدين ، وهو لا يعرف العلوم المدنية ، والآخر فلان الذي يكتب المقالات الطوال في السياسة الغربية تدور حول مقالها ، ويجهل أعداؤها منها ، فقلت له يا سيدي : وأرجو ألا يغرب عن فكركم أنهما ذاك الشيخ المؤلف من مدعاته وموضوعاته تعود بأكبر الضرر على عقول المسلمين ، وأفهمهم الشريعة مقلوبة وكانت حملاته شديدة على كل من يسمع المسلمين ، عادة له اتخذها لأنه لا يرى هذه الصنعة تثبت لغيره . وقد حمل حملات منكرة على الإمام محمد عبده ، والفرق بين الرجلين كالفرق بين النور والظلمة .

* * *

هذا رسم خفيف لحال أهل الطبقة الأولى من المشايخ . فاسمع الآن أمثلة نوردها عمن سمت نفوسهم عن مطامع كانوا على خلائق العلماء ، فتجري مقارنة بين الفريقين .
كان للعلامة الشيخ طاهر الجزائري صديق قديم ارتقى إلى أعلى المناصب في الدولة العثمانية ، وكانت صلات الود مستحكمة جداً بينهم ولما بلغه عنه شيء أنكره ، قطع كل علاقة معه فجأة . فلج ذلك الكبير ليفهم الداعي إلى إعراض الشيخ عنه فأجاب :

قولوا له إنى كنت أعتقد أنه ممن يغارون على أمتهم ويريدون خيرها ، أما وقد وصل إلى مقام يستطيع أن يسمعه وهو لا يفكر فى غير مصلحته الخاصة فأنا لا أعرفه .

وظل على مقاطعته حتى المات وصحبه يتوسلون نوع التوسل ليعود الشيخ إلى ما كان عليه ، وهو يعده ويمنيه وسكن من عرفت نفسه ، كشيخنا ، عن حطام هذا العالم ، لا يخدعه كلام سياسى ولا بريق وعد خلاب .

وقعت فى القرن الماضى حادثة هامة كانت مما يرفع الرأس ، وخلاصتها أن إبراهيم باشا بن محمد على باشا لما فتح الشام ، وتقدمت الجيوش المصرية حتى بلغت كوتاهية ، حسن لدى والده أن يأخذ فتوى من علماء دمشق لاستبدال سلطانه بسلطان العثمانيين ، فجمع الوالى فريقاً من المشايخ يأخذ فتواهم فى هذه المسألة ، فكانوا على أن يضعوا تواقيعهم ، فرضى الوالى ، ولاكن كان الشيخ سعيد الحلبى ضعف الفتوى التى كتبها المفتى ، فغضب الوالى على الشيخ الحلبى ، وبدأ به صلى ابراهيم باشا فى الجامع الأموى وسأل عن الشيخ الحلبى فقيل له إنه فى غرفته ، فجاءه وهو يلقى درسه على طلبته ، فمد رجله فلم يأبه له ولا هش ، ولما انتهى حول وجهه إليه ، وسلم عليه سلاماً بسيطاً ، ولم يتحرك ولا ثنى رجله عن مدها ، وبقى قاعداً كما كان ، وهو فى حلقة طلبته ، فانصرف الباشا مغيظاً جداً ، وأرسل إلى الشيخ من بعد صرة كبيرة فيها دنانير ، مصحوبة معه ، فردها وقال للرسول : اقرأ على الباشا السلام واشكره على عطيته ، وقل له إنى غنى ومن يمد رجله لا يمد يده . قالوا : وكان الباشا أقسم أن الشيخ لو قبل الصرة لأورده حتفه ، وأعجب هو وحاشيته فى باطنهم بهذا الخلق الشريف .

ولما دخل الإنكليز العراق بعد الحرب العامة زار حاكمها البريطانى السيد محمود شكرى الآلوسى العالم المشهور فى منزله ببغداد ودفع إليه صرة من الورق النقدى

ورجوه أن يتقلد أرقى منصب ديني في بلاد الرافدين ، فأبى الآلوسي قبول ذلك وادعى أنه في سعة من العيش ولا حاجة به إلى المال ولا أرب له في تولى عمل . وكانت سيرة صديقنا الآلوسي سيرة السلف الصالح لم يسفّ حياته إلى مال ولا ركض وراء جاه ، وخدم أمته بعلمه حتى الممات .

***

بقي أن نقول شيئاً في علم المشايخ ، وقد رأينا أكثرهم يجمدون على ما تعلموا ، ويكتفون بما تيسر لهم أوان الطلب ، خصوصاً إذا كانت بلادهم تعطي صاحبها شهادات رسمية كمصر ، والشهادة جماع المعرفة عندهم لا يحتاج صاحبها إلى غير ذلك . ورأينا أكثرهم إذا بلغوا درجة توهموها رفيعة يعرضون عن كل ما يثير عقولهم ، ويزيد في ثروتهم العلمية والأدبية ، وقد لا يهتمون بما تجاوز اهتمامهم بالظواهر .

وكنا نرجو من الأزهر أن يخطو خطوة إلى الأمام في عهده الأخير بعد أن قال شيخه في تقريره الأول أمره إن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح المعاهد ، وأن شيخ الأزهر والمعهد بُلّ كل غيور على أمته وعلى دينه ، وصار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغير التعليم في المعاهد ، وأن تكون الخطوة الأولى إلى ذلك جريئة لا يبالي معها بما تحدثه من ضجة وصراخ اهـ. ولما حانت ساعة الوفاء بوعد توقف الشيخ الأكبر عن المضي في إصلاحه ، مع أن الظاهر أنه يجد معونة من أكبر سلطة في مصر ويصدق له كل ما قال ، ولا أزال أعتقد أن من سلفوا من جماعة المشايخ وعملوا أعمالاً عظيمة مثل الشيخ محمد عبده في مصر والشيخ طاهر الجزائري في الشام كانوا فئة من الفلتات .

ويلله عليك أيها القارئ لا تحرجني فتحوجني إلى التصريح بأسماء هؤلاء المشايخ لخير الإسلام فقد صدرت في العهد الأخير نحو عشرة تآليف في سيرة رسول الله كتبها كتاب مصريون من أرباب الطرابيش ولم نر تأليفاً واحداً لشيخ أزهري ولا لغيره من أرباب العمائم ، وشهدنا المستعربين من علماء المشرقيات في الغرب يحيون تراث العرب والإسلام بنشرهم بعض المخطوطات العربية ، ويعلقون عليها ويعارضونها على النسخ المختلفة ، وقل أن شهدنا عالماً أزهرياً عني عناية تشبه عناية هؤلاء الغرباء . أليس هذا عنوان ضعف الأزهريين وإخفاقهم فيما يفترض عليهم ؟ ألا يعد في باب العجز المطلق أن الأزهر إلى اليوم لم يوفق إلى وضع فهرس على منظم لخزانة كتبه العظيمة ؟ كأنه في انتظار أحد علماء المشرقيات من الإفرنج ليضع له فهرست كتبه أيضاً . الأزهريون ومن تشبه بهم وشايعهم من المشايخ مطبوعون بعقلية قديمة لا يرغبون كثيراً في المعنويات وكأن الرحمة لا تكون رغبتهم في غيرها .

حدثني صديقي الأستاذ محمد حلمي عيسى باشا شيخ وزراء مصر أنه كان على عهد الملك المصلح فؤاد الأول في قصر عابدين فسمع صوت الملك عالياً فاقترب من الباب الذي كان جالساً فيه فرأى في حضرته جماعة من مشايخ الأزهر وهو يقول لهم — وكانت الصحف يومئذ تخوض في تحريم لبس القبعة أو تحليله — وماذا أعمل لكم أكثر مما عملت ، كانت موازنة الأزهر سبعين ألف جنيه فجعلتها لكم ثلثمائة وأربعين ألف جنيه وعضدتكم في كل مناسبة معاضدة فعلية ، ومن أجل أحد الدراويش يخرج حفظهم الله فتوى بتحريم لبس القبعة ونشر ذكرها إحدى الصحف .

كتب الأستاذ محمد علي علوبة باشا في كتابه «مبادئ في السياسة المصرية» صفحة جميلة في هؤلاء الأزهريين تصدق على المشايخ عامة ، نعى عليهم توانيهم في خدمة

دينهم ولغتهم، وتساءل عما أنتجوه فى مائة عام فى أصول الدين والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والأخلاق والتاريخ والفلسفة، قال : « وكنا نرجو من رجال الأزهر أن يخرجوا معاجم اللغة العربية لندرس منها منتقة مع حاجة العصور الحاضرة فضاع رجاؤنا واضطررنا إلى الالتجاء فى لغتنا لغة مرآسنا إلى معاجم المستشرقين والآباء اليسوعيين، وكنا نرجو أن يخرج من الأزهر — وقد مضى على تأسيسه ألف سنة — من المؤلفات والبحوث المقننة فى علومه الخدمة ما يحقق لطماع العالم الإسلامى بل إنا نرجو ونطمع أن يخرج منه أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد فى الفلسفة ، والطبرى وابن خلدون والمقريزى فى التاريخ، وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد الكاتب فى الأدب وغير هؤلاء فى التوحيد والفقه والتفسير والحديث والمنطق وما إلى ذلك مما يدرسه الأزهر ويقوم به ».

ونحن لا نقول أكثر مما قال صديقنا الأستاذ المراغى شيخ الأزهر نفسه فيه الرحمة من أن العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا ألا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الجديد ، وجهلوا ما جدّ فى الحياة من علم وما حدث فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الذى الذى خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حماة ولا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين .

القول في الفرق

من كانت له دعوة يحاول نشرها لا يبالي الطرق التي يسلكها للوصول إلى مقصده ، ولا يحفل بما يصيب دعوته في الآجل إذا سلم له العاجل على ما يحب ويرضى . وصاحب كل دعوة مأخوذ بتحقيق دعوته لا يحسب حساباً إلا للحاضر . كانت هذه سيرة دعاة الفرق الإسلامية ، ما همهم غير تكثير سواد أتباع نحلتهم بكل حيلة ، وكانوا يستجيزون وضع الأحاديث لتأييد الدعوة ، ويكذبون على مخالفيهم كما يكذب مخالفوهم عليهم ، وأدنى نظرة في صورة تأليف هذه المذاهب تبين أن [illegible] دعاتها في القديم من أتباعهم وغيرهم لم يقولوا به .

تحامل بعض السنية على الشيعة (والشيعة فرق كثيرة) ، وتحامل بعض الشيعة على أهل السنة والخوارج ، تحاملاً لا يقوم على منطق ، وتحامل الجماعة على الفرق الباطنية ، وهذه مطاعن قصرت في أن تحقق لهم ما لا يقولون . ومعظم السبب في هذا التعادي تحمس كل فريق لدعوته ، ثم ساعد الجهل على اتساع هذا الخرق .

وكان على علماء السنة — وهم السواد الأعظم من أهل القبلة وأصحاب القوة في كل زمن — أن يتساهلوا مع الفرق الأخرى أكثر مما تساهلوا ليحيلوهم إلى الأصل المجمع عليه . ورأينا بعض الفرق الخارجة على أهل السنة كلما حاسبهم هؤلاء تزيد نفوراً ، ويطمعون هذه الفرقة مخافة أن يزول منهم بالاختلاط ما يرونه مبقياً عليهم أمرهم ،

وما كان هدف الفرق الإسلامية غير السياسة بادىء بدء ، طمعوا فى تأسيس دولة وإقامة خلافة .

ليس فى تحقير الفرق على ما يحوره صعف النظر شيء من الحكمة ، ولإهانة لايرضى بها الفرد ، فكيف بجماعة لا تخلو من عزة فى نفوسهم وشمم فى أنوفها ، ثم إن الكثرة الغامرة لا يدرى تسامحها إذا رأت أنها متفقة مع الفرق الأخرى فى الأصول. ومن وافقته فى مئة مسألة وخالفته فى مسألة أو مسألتين لا يعد خلافك معه خلافاً يذكر . ولن يقرب بين الفرق مدة لكن إلا أن يقيموا الصلوات فى مسجد واحد ، ويكثروا من التزاوج بعضهم من بعض ، وبهذا يجرى التآلف بين القلوب المتنافرة ويقضى على دعايات قديمة ما راعى دعاتها الحق والعدل .

غلت فرق الشيعة فى نشر مذهبهم ، وبناء مذهبهم على ثورات وقتلات ، وعلى رثاء وبكاء ، وعلى طلب حق مهضوم ، وعلى دعاية لا ترقد عيون أصحابها ، وعلى ثورة أبداً تتهب شواظها ، وعلى بذل أموال طاعة تجبى من الضعفاء والفقراء . وكانوا إلى عهد لأول أمرهم قد سوادهم كثيراً بهذه الدعايات وما غرسوه فى النفوس بالتكرار . أما أهل السنة فلم يأخذوا أنفسهم بنشر الدعوة ، ذاهبين إلى أن الحق ما دام معهم لا تزيدهم الدعاية قوة إلى قوتهم ، وفى العادة ألا يتذرع القوى بما يتذرع به الضعيف .

* * *

كتب إلى مدرس التاريخ لا أحسن ظنى كثيراً بمعاوية بن أبى سفيان وابنه يزيد وبعض بنى أمية ، وغلو فى حب على بن أبى طالب ، مقلداً فى هذا الحب وذاك البغض بعض أساتيذى ، واستحكم هذا الاعتقاد فى حتى بما قرأته من الكلام

المنسوب إلى أمير المؤمنين في نهج البلاغة ، وقد كنت متأثراً به من كتب التاريخ ، وأكثره من كتب الشيعة ، ونقل عن رواتهم على غير معرفة . فلما طالعت كتب أهل السنة كتصانيف ابن جرير الطبري وأبي حنيفة الدينوري والجاحظ وابن قتيبة وابن تيمية وابن حزم وأمثالهم ، وأخذت أدرس الأخبار كما يدرس الحديث النبوي درس تدبر ونقد ، لا آخذ ما يعرض على أنه قضية مسلمة بادئ الرأي ، تجلى لي أن بعض ما نسب إلى الإمام في النهج ليس له فيه يد ، وأن العقل والنقل يثبتان ما يقوله الناقدون ، وأن من يجوز الكذب على رسول الله تأييداً لدعوته ، لا يتوقف في الكذب على ابن عمه أمير المؤمنين ، وثبت لي غرض بعض مؤرخي الشيعة فيما رووا ودونوا ، رجعت عما كاد يصبح لي عقيدة ، وحدث أن حكمت العقل في الحكم على الحوادث ، وتدبر النصوص ومصادرها ، منزعاً ما ورثته من فكر ، وأخذته بالتسليم من معتقد ، وطالعته في الأسفار ، وما محصته ولا محصه غيري . فعرفت بعد البحث أن علياً (كرم الله وجهه) كان علماً عظيماً ، وامتاز ببلاغته وفصاحته ، وعلى صفات ممتازة يفوق بها أكثر كبار الصحابة ، لكنا لا نرفعه عن الشيخين أبي بكر وعمر ، وأن علي ابن أبي طالب كان من البشر مثل أصحابه يخطئ ويصيب ، وأنه طمع في الخلافة بعد وفاة الرسول على صغر سنه وتقدم الشيخين عليه ، وهما هما بإخلاصهما لصاحب الدعوة ، ومواقفهما المشهورة في نصرة الدين ، وتقويم دولة الإسلام وأيقنت أن الرسول لو كان يؤثر علياً لأوصى له بالخلافة ، وكان الظاهر من أقواله وأفعاله أنه يؤثر أبا بكر ، ومع هذا ترك المسلمين واختيارهم .

ورأيت دعوى أصحاب آل البيت أنهم لا يخطئون ، وأنهم منزهون عن كل ما يتلوث به الآدميون هي من الدعاوى التي ليس لها من الدين ما يدعمها ، نشأت

من البيئة الفارسية ، وكان الفرس يؤلهون الملوك ويقدسونهم . وظهر لي أن الحسين ابن علي (رضي الله عنهما) قد غامر في فئة قليلة ممن معه ، فقابل جيشاً لجباً لبني أمية وأهلك نفسه ، وأن كان الأمويين حاولوا إرجاعه عن قصده ثم يستميلوا أصحابه ، وكان قتله هو ومن كان معه من آل بيته الطاهرين باعثاً على غضب المسلمين كافة . وتيقنت أن الخليفة يزيد بن معاوية (رضي الله عنهما) ما أمر بقتله وإنما أراد صده فقط عن الأمر ، وقد ساءه وساء آل بيته قتله ، فترددت الشيعة في حكمهم على الخليفة يزيد ، وظلموه كما ظلموا أباه أمير المؤمنين معاوية من قبل ، لأنه طالب بدم عثمان واستولى على الخلافة بنزول الحسن بن علي سبط الرسول عنها .

وهكذا رجعت عن كثير مما كان يسري بين المقلدين في مسائل علي وعثمان وبني أمية ، واتخذت أدبي دين المؤرخ لا يتحرى غير الحقيقة ، وشرعت أدون في كتبي ما اعتقدت صحته ، فعزّ على بعض الشيعة سماع قولي ، وأنكروا مني هذا الجهر بالحق الذي وضح لي ، ومنهم من خوفني أن أرجع عن رأيي إذا هم دعوني فظ عنهم . وطلبت إلى عقلاء الإمامية حولي الأعزة في دمشق وبعلبك وجبل عامل والعراق أن ينقدوني نقداً علمياً مشفوعاً بنصوص مقبولة ، وأني نصحتهم لا بالسكوت ، واسترسل المتعصبون في طعن مبهم ، وانتقاد مجمل .

وطالما قلت لبعض أصدقائي من علماء الشيعة الاثني عشرية إني أكتب ما أكتب في بني أمية ، وأنا بعيد عن عوامل التعصب لهم ، غير مأخوذ إلا بما يجب على المتمسك بالحق ، وإني بعد أن ثبت لي أن تاريخ الأمويين إنما كتبه أعداؤهم بعدهم ، وأن الغرض ظاهر في الحكم عليهم ، وليس في الأمهات ما يبرر الحط عليهم كما يريد خصومهم – قلت لو كانت المسألة مسألة حب لبني أمية وبغض

دماويهم انطوت فى التشيع لآل البيت . استمال قلوب مئات الألوف من الشيعة فى الأرض . وإنى لا أبوخى إلا إنصاف بنى أمية ، وليس فى العالم الآن فرد واحد ينتسب إليهم لأرضيه ، فالمسألة ليست مسألة حب وبغض ، ولا تحيز لأموى على علوى ، بل مسألة حق وباطل . والغالبية من الإمامية يقولون إن الواجب أن أسلم بكل ما دوله جماعتهم فى آل البيت المظلومين ، وما رواه الراوون من الأحداث التى جرت ودسوا فيها ما زادهم ، وكان قولى يشق على من اصطنعوا لهم اعتقاداً قديماً ورثوه بالعادة ، ورسخ ما رسخ فى نفوسهم بالشدة الدعاية المتواصلة ، وصموا آذانهم عن سماع غيره .

ثم حاولت أن أزحزح بعض غلاة التشيع عن عقيدتهم ، وأن أجرهم إلى البحث فى هذه المكانة بحث إنصاف فأبوا إلا أن يسيروا نحو طغيانهم ، ويفكروا بعقول غيرهم ، ويسيروا مع الهوى قدماً ، وكان منهم من إذا لقونى أنكروا جرأتى وتقولوا على كثير من أقوالى ، وإذا غبت عنهم اغتابونى ، خصوصاً إذا كانوا فى مجالس العوام ، ورأى لهم أن كلامهم لا يسع مسامع المطعون عليه .

زارنى أحد علماء النجف الأشرف ، وكان هبط مصر وفاوض بعض علمائها لعقد مؤتمر من علماء الشيعة وأهل السنة فى مدينة القاهرة ، للبحث فى إزالة الخلاف بين الطائفتين العظيمتين . والتوحيد بينهما توحيداً معقولاً ، وزارنى بعد حين صديق لى من علماء إيران ففاوضنا بشأن المؤتمر ، وهو مثل صاحبه حد معنى بذلك ويعقد عليه آمالاً كباراً ، وتعاهدنا على العناية بإخراج هذه الفكرة من القول إلى العمل ، ووعدنى السيد الإيرانى إن أنا عنيت مع علماء مصر بعقد هذا المؤتمر أن يحمل على الاشتراك فيه أربعة من كبار علماء إيران . فما كان ممن يرون هوام

في دوام الخلاف بين السنيين والشيعيين إلا أن زعموا هذا المشروع المحمود وشددوا
الوطأة في الضغط على القائمين به من جماعتهم، ودسوهم إلى الأرض، ولكنهم
لم يجسروا أن يتقدموا ولا أن يصرحوا بخطتهم. فقالوا عن هذا المقترح وهو جنين،
شأن الجبناء يحاربون من وراء ستر صفيق بوجوه صفيقة.

لا جرم أن أكثر من يقصدون الغيث في سبيل إبطال الخلافات بين طوائف
من أهل الإسلام متحدة في جوهرها هم من الفرق الذي تأكل منهم هذه التفرقة،
ويعيش بالشقاق وسعة شقه بين أهل القبلة. ولا تزال فئة من الطاعنين تردد
ألسنتهم مسائل هذا الموضوع على غير طائل. وقد كانت الدواعي إلى هذه الخصومة
سياسية محضة ورثت عنهم منذ عصور، وحري بالعقلاء أن يبدوا دونها حججهم
ويعملوا للإسلام فقط، وإلا فقد تحق الفرع والأصل وذهبت ريح أهل السنة
والشيعة من الوجود.

***

أطلت المكير في حبت هذه العداوة على المسلمين فما رأيت السبب فيه إلا
الملوك ومن أعانهم على مقاصدهم من الفقهاء، فعجوا في صدورهم ما خرجت، وجاءت من
المضار الاجتماعية والوطنية والدينية ما عظمت به المصيبة. اتخذوا من هذه الخصومات
أدوات لتأسيس دول، ومنهم أنشأوا الدولة الفاطمية والدولة البويهية والدولة الصفوية
وغيرها. ومن الغرائب لا شك أن ما قام به الفاطميون في مصر من الدعاية نحو
ثلاثة قرون، وصرفوا كل جهد في بث تشيعهم في أهله ما أغنى عنهم شيئاً لما أزالهم
نور الدين على يد صلاح الدين، كأنهم ما كانوا أكثر من حزب سياسي يقبض

على زمام الأمر ولا يعتمد على غير جماعته ولا يفكر فى غير إرضائهم و يبعد من إشراك مخالفيهم فى الحكم والغنم .

ورب مدّع يقول : إن هـذه الدعايات نفعت فى وقتها ، وما نفعت فى الحقيقة إلا أصحاب بعث الدولة نشروا كلمتها وقووا بهـا بعض القوة ردحاً من الدهر . واليوم ما ذا يرجى من مثل هذه الأمور ، والدول قد استقرت فى نصابها ، ومن المتعذر تأسيس دول جديدة باسم المذهب ؟ ومسائل المذاهب نغمة من النغمات كان لها عصور راجت فيها كما راجت فى القرون الوسطى فى الغرب حكومات الرهبان . نعم اتخذت بعض الدول من هـذه المذاهب مطايا لأغراضها ، وذهب الأصل وهو الدولة و بقى الفرع وهو المذهب . أى أنه قامت فى الشرق باسم على بن أبى طالب دول كما قامت فى الغرب دول باسم عيسى بن مريم ، ذهبت الأولى بمـا فيها من خير وشر وخلدت الأخرى تحمل مدنيات وتنشئ حضارات . وكان بعض الخير من المدنيات الصرانية ولم ينشأ مثل ذلك من المدنيات الشرقيـة . ولما تم للساعين ما أرادوه منها لم يبق منها إلا القسم المضر وهو تمزيق شمل الجامعة والجماعة . وأقبح به من تراث شغل الناس بالباطل ، وصدهم عن التعاطف والتراحم . وعجيب أن تنقضى القرون بعد القرون ولا همّ لأصحاب هذه المذاهب إلا نشر مذهبهم ، لا يَنْثَنُون من مناصبة كل مخالف العداء . و بمثل هذه العقلية كيف يتقدم ملك وتزهر حضارة .

قضى الغرب زمناً فى حروبه الدينية العظيمة ، ولما انتبه لما ارتكب من شطط وأدرك سنن السكينة وسرّه تناسى ما حدث وراح يفكر فى سعادته لا يحفل المذاهب وفى الشرق خفت دول التشيع القديمة انقسامات أبدية ، وحزازات باعدت بين

الأهل والعشير من دون ما سبب صحيح . فالواجب على كل عاقل والأمر كما ذكر أن يبذل الجهد لينزع من الصدور هذه السخائم ويأتى على هذه المعتقدات التى تخرج معتقديها من نطاق العقل، ويحارب أولئك الذين يحاولون استبقاء هذا الشقاق لتسلم لهم رياساتهم ويشبوا سمكتهم فى حريق هذه الأمة الذليلة .

أرى عاملين اثنين للخلاف بين المذهبين : داخلى وخارجى، فالداخلى هو الذى أشرت إليه آنفا وجمهرة من يتألف منه جماعة التجار بالدين ومن يجرى على آثارهم من العامة بدون روية . أما الخارجى فمنشؤه الحكومات التى يضر عليها أن يأتلف فريق مع فريق فى الشرق ، فكيف بملايين من البشر أصحاب هذه المدنية وهذا الدين السماوى وهذه الأقطار الغنية .

دعى مرة لزيارة الهند أحد أصدقائى من رجال الإمامية فرأى الشيعة وأهل السنة فيها يتطاعنون فى مجلات لهم وجرائد تطاعناً ممزوجاً بروح العداء الشديد ، فأنكر على الفريقين عملهما واستغرب صدور ذلك من رجال كان المأمول منهم أن يعودوا قبل غيرهم إلى إزالة الخلافات المذهبية القديمة لثبوت مضرتها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فأسر إليه بعضهم أن يكف عن عذل المتقدمين من أبناء المذهبين على ما يأتون لأن ذلك ليس من صنعهم بل من صنع السياسة . وماجرت العادة أن تشفق الدول على الناس إذا كان فى هلاك بعضهم نجاح سياستها .

فقد حدثنا التاريخ أن السلطان سليماً العثمانى قتل على الحدود أربعين ألف شيعى لقيام دولته السنية أمام دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعية، فكم قتل هذا يا ترى من أهل السنة فى بلاده وكانت أكثريتها من أهل السنة ؟

قال بارتولد فى تاريخ الحضارة الإسلامية : إن مؤسس الدولة الصفوية فى إيران آذن بجعل التشيع ديناً للدولة فمكنه أن يظهر حروبه مع العثمانيين جيرانه فى الغرب ومع الأزبك جيرانه فى الشرق فى صورة حروب دينية ، فلقت المنازعة بين أهل السنة والشيعة منذ القرن العاشر الهجرى شدة لم يشاهد مثلها فى القرون الوسطى ، فأخذ أهل السنة والشيعة يكفر بعضهم بعضاً معتمدين على رؤسائهم الدينيين ، وصارت الشيعة المجادلة مادة مقدسة لإيران .

وذكر صاحب العلم السامخ أن سنان باشا فاتح اليمن قد صار اسمه علماً على الظلم والفتك وأولع بسفك الدماء والتفنن بالسلخ والصلب والخوق والجلد ، قال : وبينما هو فى خاصته ذات يوم يتأوه ويبتهل إلى الله فى طلب المخرج من قتله مسلماً فى الروم (بلاد الترك) إذ قيل له إن الجماعة الذين أرسلت لهم حصروا فأشار إليهم أن اقتلوهم من دون اكتراث ولا نظر ولا استثبات ، فقال له بعض الحاضرين فى ذلك فقال : إنما تأوه من قتل مسلم محترم وهؤلاء زيدية تحل دماؤهم بدون هذا ! قال : وكنت أظن أن هذا شىء نادر فى سنان المشئوم وجماعته قلائل وإذا هو مجمع عليه فى من هو فى دولة الأروام ، كأن هذا شىء يقسم الدولة وكأنما نسخت الشريعة اه .

ونحن رأينا الأحقاد بين اليمانيين والترك تزيد بعد اعتيال الفاتح التركى لمن جاءوه ، يلقيها الأب أبناءه أربعة قرون واطردت الفتن العظيمة وكانت المذاهب هى الباعثة عليها .

القول فى الاعلان والشهرة

الإعلان علم جديد قديم فيه نفع وضر ، وفيه خير وشر ، مداره على الارتزاق والارتفاق ، وسبيله الحظوة وتحسين السمعة واستفاضة الصيت . وقد انقسم الباحثون فريقين فى فائدة الاعلان: فريق يقول انه كثيراً ما يجلب ضرراً لما يحمل من مبالغة وخديعة ، فما ابتع مبتاع شيئاً الا غبن ، وما صدّق قارئ ما يراه فى الإعلانات إلا بخس ، ففيها مضار ولها مساوئ . وقال آخر إن لكل سبب من أسباب العمل سلاحاً ذا حدين ، وان ذكاءنا أيضاً قد نصرفه فى الشر كما نصرفه فى الخير ، فلا داعى إذاً لتعنيف المعلنين بحجة أن فى إعلاناتهم خطأ وتضليلا . وليس من العقل أن ينبذ الدين والأدب بحجة أن هناك أناساً من المنافقين والمخادعين ، كما لا يجوز أن يزهد فى سهام المصارف لأن فى بعضها تدليساً وغشاً .

ولا مُشاحّة فى أن الغرب أفرط كثيراً فى الإعلان ، وأساء استعمال الحرية ، ففتحت الصحف فى بعض الممالك صدرها لنشر الإعلان عن الواخير والحانات والبغايا والراقصات ، وأمسى الناس هناك يسكرون بالإعلان ، ويعشقون بالإعلان ، ويتبايعون بالإعلان ، ويقدّرون بأكثر من قيمهم بالإعلان ، ويخدعون بحسن حالهم على لسان الإعلان . والشرق فى ذلك يتقيّل طريق الغرب ويقلده وينقل عنه ، بمقياس مصغر الآن ، وما ندرى إلى ما يصير فيما يستقبل من الأزمان .

عمد العربيون أولاً إلى الصحف والمجلات ينشرون فيها الإعلانات ، وكان هذا النوع من الإعلان من أكمل الأساليب وأوفاها بالغرض ، ثم هبوا يعنون بترقية الإعلان ولا سيما فى انكلترا وأميركا ، فألفوا لذلك شركات نصبوا لها رؤساء وسماسرة ووكلاء يستعملون كل حيلة من وسائط النشر ، وكان من أول من عنى بالإعلان أرباب التجارة والصناعة ثم الأدباء والفنانون ، فغدا الإعلان برد لهفة كل ملهوف ، يلجأ إليه فى نشدان كل ضالة ، والبحث عن كل شريد ، ويركن إليه كل من طلب عملاً يعيش منه ، وأصبح أيضاً مفزع كل آنسة أو ثيب تبحث عن زوج تقترن به ، ومرجع كل امرىء يطلب حليلة توافقه أو حايلة ترافقه . وبدا لهم أن يعتمدوا فى الإعلان بعد الصحف على الجدران ، ومحلات النقل والمركبات والحوافل والميضآت ، ويعلنون فى الأزقة الضيقة والشوارع الفسيحة فى المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفى المصايف والفنادق والمطاعم وأكواخ الباعة واتخذوا من الأدوات الكثيرة الاستعمال إعلانات دائمة كالقرطاس الذى يحمل تحت يد الكاتب وقطاعة الورق والمدى وعلبة الثقاب والمدوى وموازين الحرارة والمسكرات وورق النشاف وبطاقات البريد وحملوا الإعلانات على ستائر دور التمثيل والصور المتحركة ، وعلى إعلانات يسيرونها فى الطرق تجرها مركبات صغيرة بالأيدى أو بالحيوانات ، وعلى نشرات ملونة مجسمة ، وعلى الأنوار الكهربائية يكتبون فيها ما تهمهم إذاعته ، أو يتخذون أشخاصاً عرفوا بطلاقة اللسان يلبسونهم بزة غريبة ليلفتوا الأنظار إليهم فيتوهمهم العامة لأول وهلة من السادة والقادة ، فيرفع المعلن عقيرته فى الجادات والساحات يتكلم فيما يحاول الإعلان عنه ، ومن الإعلان تلك النشرات المطبوعة على ورق ملون يوزعونها فى المقاهى والمطاعم وفى كل محل يغص بالمرتادين .

وإن ما تنفقه معامل الغرب وبيوت التجارة والمال والملاهى والشركات والمقامات على اختلاف ضروبها والحكومات على تلون أوضاعها ، من الأموال على الإعلان لأكثر مما يتصور العقل حسابه . تنفق عن رضى جزءاً مهماً من موازناتها ، وتعتقد أنها إذا امتنعت عن نشر ما تنشر وإعلان ما تنفق تصؤل أرباحها وربما وقف دولاب أعمالها ، وتصاب بالإفلاس والكساد . وكذلك الحكومات فإنها موقنة أنها إذا لم تعمد إلى التأثير فى أمتها وغير أمتها بالإعلان يتراجع أمرها ويتخلى عنها حزبها وتتغلب عليها الأحزاب الأخرى .

ومما كان الاستمداد على الإعلان فى نجاحه الإعلان عن المصايف فإن معظم الدول تعلن عن مصايفها بالطرق الكثيرة ، وتنفق أى نفقة فى تحببها إلى المصطافين من أبنائها ومن الغرباء ، وكان لإيطاليا فى بلادنا يد طولى فى باب الإعلان عن مصايفها فاق بها أهله عامة الشعوب الغربية ، وعاقو فى هذه السبيل حتى صار الإعلان عن جبالهم فى كل لسان من أبناء هذا الجيل ولم يساهمهم فى ذلك قطر من الأقطار . وفى هذه أيضاً مصايف جديرة بأن يفزع إليها المصطافون ولكن أهلها لم يشبعوا بروح الإعلان ، ولم تصرف حكوماتها عنايتها إلى ما يخدم بعض ثروتها من طريق الإعلان .

وبعد فقد رأيتم أن الإعلان على الأسلوب التجارى فى الغرب واقتبسه عنه الشرق فى العصر الأخير هو من مواضعات المدنية الحديثة ، وما عرف نظيره له عند العرب ، فالإعلان وليد الطباعة والصحافة ، وفى العهد الأخير زاد المتلونون من كل فريق وزاد التفنن فى الإعلان ، ومرن دعاته على قول الصدق والكذب ، وعلى التلفيق والتزويق .

كانت حكومات الشرق تنشر أوامرها بإرسال المنادين إلى الأسواق ينادون فيها وفى المدن عما يريد الحاكم إبلاغه للرعية ، وكان شيخ القرية يرسل ناطورها فى هذه المهمة فيقف فى البيدر أو الساحة العامة أو على مرتفعة عالية من مرابعها يعلن السكان عما يريد إلقاءه على مسامعهم . ولا يزال أثر لهذا الإعلان فى بعض القرى إلى اليوم . وكانوا فى الغرب تعلن حكوماته أوامرها بالأبواق ، ينفخ الموقوفون فى الجادات والأسواق فيدرك الأهلون المراد من هذا التبويق . فكان الاعلان إذاً ضيق المضطرب ضعيف الانتشار فى الشرق والغرب .

وليس من المعقول أن تخلو المدنية العربية من مواصفات تشبه الاعلان ولو من بعض الوجوه وتقوم ببعض الغرض منه . كان للشعراء الأثر الكبير فى الاعلان ، وكان بعضهم إذا أراد أن يبث فكراً ويحاول أن يوصله إلى مسامع الخليفة أو الأمير يحتال أن يلقن إحدى الجوارى أبياتاً تلقيها على المسامع فى ساعة الأنس ، فيتسنى المقصود من هذا الاعلان الخاص إلى ما يراد ، ويصل من انتدب القينة إلى التمنى عما لقّنتهُ إلى غرضه .

أما الاعلان العام فليس له عندهم أفعل من لسان الشعراء أيضاً يعطون لهم أبياتاً ، متى كثر سائقها نالوا المرتجى . فقد ذكروا أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخُمُر فباعها كلها ، وبقيت السود منها فلم تنفق ، وكان صديقاً للدارمى الشاعر فشكا ذلك إليه ، فقال له لا تهتم بذلك فإنى سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ثم قال :

قل للمليحة فى الخمار الأسود	ماذا صنعت براهب متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه	حتى وقفت له بباب المسجد

وشاع فى الدس قول الشاعر فلم تبق فى المدينة ظريفة إلا ابتاعت خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراقى منها . وهـذا نوع من الاعلان على البضائع . وكانت الحكومات العربيـة توحى إلى الشعراء أن ينشروا فى الملأ قصائد يقرظون بهـا أو يثلبون على ما تشاء أغراضهم ، وكان الحطيئة شاعر الأمويين ينظم لهم ما يحبون أن يؤثروا به فى الأفـكار ، وكان الدارمى أيضـاً من شعرائهم يرسلونه فى هـذه المهمات . قالوا ان يزيد بن معاوية كان يؤثره ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف ألا يمالئه عليه قومه لـكثرة من يرشح للخلافة، وبلغه فى ذلك ذرو كلام كرهه منهم ، فأمر يزيد مسكيناً الدارمى أن يقول أبياتاً وينشدها معاوية فى مجلسه إذا كان حافلاً ، وحضره وجوه بنى أمية ، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس ، وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه،والأشراف فى مجلسه ، فمثل بين يديه ، ومما قال:

إذا المنبر الغربىّ خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله . قالوا ولم يتكلم أحـد من بنى أمية فى ذلك الا بالاقرار والموافقة .

وفى كتب الأدب والتاريخ أمثلة من هذا القبيل يتجلى فيها بُعْدُ نظر العرب فيما يصلحهم ، وحسن استخدامهم شعر الشعراء فى سبيـل السياسة والإعلان الحاذق . قالوا إن مروان بن أبى حفصة نظم فى مدح الرشيد قصيدة ومما قال فيها :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

فأعطاه من أجل هذا البيت مئة ألف درهم لأنه صادف هوى فى فؤاده وخدم بذلك سياسته .

* * *

ما قامت دعوة إلا بالدعاية لها أى بالإعلان ، وقد أكبر الخلق رجلا إلا كان من جملة الأسباب فى إكباره ترداد اسمه على الأفواه بالخير أو بالشر . والعالم قد يظنون أن كل من تكرر اسمه على مسامعهم هو عظيم فى ذاته ، ويضاعف صيته إن كان على شىء من الأدب ، ويرزق أنصاراً يحبونه ويمجدونه ، ويتطوعون لتعداد مزاياه وصفاته . فاذا كان من رجال الحكم فاهت له بكلمة أو مسألة تبين عن دراية أشاعها فى قومه ، وأشاعها له المأخوذون بالظواهر من المخدوعين به ، فلا تلبث حكايته أن تنتقل من فم إلى فم ، وتزيد بهذا الانتقال شروحاً وحواشى ، وتلبس ثوب الصدر الذى خرجت منه ، والألسن التى نمتها .

ويختلف من اشتهروا بالاستمتاع بالشهرة ، فمنهم من اشتهر فى بيئة معينة ، ومنهم من اشتهر فى أمة ولا يعرف عند جارتها ، ومنهم من يتمتع بالشهرة فى الشرق وآخر مثلها فى الغرب . ولا تتألق شهرة الفلاسفة إلا إذا كان لهم مدخل عظيم فى سياسة العالم ، وكانوا ممن بأيديهم القبض والبسط والحرب والسلم . وربما شاع ذكر الواحد من هذا الفريق أكثر من ذيوع اسم باستور وكوخ واديسون وكورى . وقد اشتهر جنكيز وهولاكو وتيمورلنك أكثر من ابن سينا والفارابى والبيرونى .

يقلّ فى الناس من يعطى الحق لصاحبه وينصف فيما له وعليه ، ذلك لأن العوام ممتحنون بالإفراط والتفريط (والجاهل إما مفرط أو مفرّط) ولا يعرف الاعتدال فى غير أرباب العقل والعلم وقليل ما هم . والعلم كالثروة عارض والأصل فى العالم الجهل ، ولكم شوهد الرجل الذى يتوقع الخير على يديه قابعاً فى كسر بيته ، خامل الاسم منكر الشخصية لا يعرفه غير أهله وأصحابه ، وهذا لأنه ما أحسن الإعلان عن نفسه ،

ولم يبق له جماعة يعلمون عنه ، فلم تتعد شهرته أهل حيه أو من سمعوا به بالعرض .

وطالب الشهرة يحتاج في الغالب من فنون الجرأة إلى أكثر مما يحتاج الرجل المتزن من أدوات الفضل . ومن الأشخاص من اتصفوا بصفات تفيدهم في وجه وتقعد بهم عن آخر . ومنهم من يستسهلون شيئاً لا يقوون على غيرهم القيام به . والأمم كالأفراد تبرز في شيء وتقصر في آخر ، وتعيش شهرتها كما يعيشها حول أبنائها .

قالوا إن الشهرة قد تكذب ، وهو قول لا يخلو من بعض الحق ، ورب تاجر عرف بحسن معاملته وسلامة ذمته ما أولاه مزيد الثقة التي يستحقها ، ولذلك لم يشتهر الشهرة المطلوبة ، وانصرفت الوجوه إلى من هو أحط منه بعامليه وبأعوانه ، وقد يجهرون لموقعه من نفوسهم ، مافقد صدر منه من حيف في معاملاته ، ويغالطون أنفسهم في الثقة به ، وما كان له ذلك إلا بفضل الإعلان الذي برع به التاجر الثاني وقصر فيه التاجر الأول ، والغنم بالغرم ، ولكل شيء سبب .

انظروا إلى المؤلفين في الدهر الغابر وفي هذا العصر تشهدوا أن من وقعت لهم وقائع تأثرت بها أعصاب العامة هم أكثر أبناء صناعتهم شهرة ، وقد تدوم لهم شهرتهم زمناً طويلاً ، والخلق يقلد بعضهم بعضاً في الإشادة بذكر صاحب الشهرة والإقرار بفضله . واشتهر قديماً من كتب لهم أن كانوا في صحبة الملوك والعظماء أكثر ممن عرفت نفوسهم عنهم . ومن حظوا عند العامة أوسع شهرة ممن اعتمدوا في شهرتهم على الطبقات العالية من الخاصة ، وعلى من ركنوا في شهرتهم إلى اقتدارهم الشخصي فقط ، ومن النادر أن يشتهر من ليس على صفات تؤهله للشهرة ، وهذه تتضاعف إذا هيأ لها صاحبها أو هيأت له الأحوال الأخذ بأسباب الاشتهار .

والمؤلفات كالمؤلفين منها ما يدين بشهرته لأسباب خاصة ، فإن كتاب ألف ليلة وليلة أشهر من جميع كتب الأدب العربي ، ومن قرأوه في الغرب والشرق أوفر عدداً من

قرأوا الآداب الرفيعة . وقد نجد في الفن الواحد بضعة كتب اشتهر أحدها شهرة فائقة وإن لم يتفوق على أمثاله بشيء ظاهر ، وقد يتم له هذا وهو مالم يكتب مثلها للكتب الأخرى . ومن الكتب ما أحدث ثورة ككتب روسو وفولتير فإنها اقتحمت وجدانات الناس في عصر صدورها فأعدت العقول للثورة الفرنسية . وفي الأدب الغربي ألوف من الكتب لم تكتب لها الشهرة كما كتبت لرواية دون كيشوت وقصص روبنسن كروزي وجولفر . وأمثالها في الأدب الحديث عند الإنكليز وليس في جيلهم من أحرز شهرة الكاتبين العظيمين ولز وبرنارد شو فهل كان الرجلان منفردين حقيقة بما لم يكتب غيرهما إنتاج مثله أم أن عشرات من الكتاب أنتجوا مثلهما ما سمع الناس بأسمائهم لأنهم لم تكتب لهم الشهرة العالمية ؟ ألم يشتهر شكسبير شاعر الإنكليز وأكبر شاعر في الأرض هذه الشهرة المستفيضة إلا بعد أعوام طوال مضت على موته ، فهل زادت الأيام في قدر شعره ، والعالم الغربي ما اهتدى إلى ما في شعره من بدائع إلا بمرور الزمن ؟

اشتهر من أرباب المذاهب الدينية من عاضد الملوك دعوتهم ، ومن هام العوام بها وعصمتها سيوفهم . وهناك مذاهب اجتماعية لا تقل عن غيرها شأناً كمذهب الظاهري والأوزاعي والطبري ضعفت شهرتها إذ لم تجد لها من يعضدها من الملوك ، ولا من يستهيم بها ويسالم فيها من الخاصة والعامة ، كما وقع لمذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة أوسع مذاهب أهل السنة انتشاراً . واستفاض صيت مالك وأبي حنيفة وابن حنبل لأنهم أوذوا في سبيل آرائهم فكسبوا عطف الأمة عليهم . ونجا ابن جرير الطبري بمذهبه من ظلم السلطان في حياته ، ولم ينج من ظلم العوام بعد وفاته

ومن البدع في الإسلام ما ذاع بما لقي من المقاومة ، وما سكت العارفون عن محاربته

ذاع ذيوعاً طبيعياً لم يتعد المدى الذى قدر له فى عالم الشهرة . وربما كان من مصلحة صاحب الدعوة أن تأمط فيما يدعو إليه بالموافقة أو المخاصمة . وعلى قدر ما يتكلم المتكلمون فى أمر يبقى قبولا . ورب دعوة خمدت فى مهدها لإعراض الخلق عنها ، فما انتشر لها فى الملإ صيت ولا علقت فى الأذهان ، ولا نفذت إلى القلوب . ورأينا من يحرص على الشهرة قد لا يوفق إلى الحصول عليها على ما يريد ، ومن تباعد عنها تكون له غالباً أسرع من ظله . كأن الشهرة غانية حسناء عرفت بالصدود فلا واصل كل عاشق .

* * *

قدما إن الغربيين تفننوا فى إحراز الشهرة تفنناً عظيماً ، وبلغوا من ذلك المبالغ وهم يتعلمون هذه الصناعة كما يتعلم المتعلمون الحساب والكتب ، ساعدهم على هذا التفنن ، وضمن لهم النجاح فيه كثرة انتشار الصحف المتنوعة ، ووفرة العلوم والآداب ، وكان من كثرة اتصال الأمم بعضها ببعض ما نفع الصانعين وما صنعوا ، والتجار وما هيئوا وعرضوا ، والسياسيين وما قالوا ، والمغنين وما غنوا .

تقدم أن من سيئات الإعلان أن سراع التصديق بما يقرأون من أساليبه العجيبة يقعون فى شرك المعلنين أكثر من غيرهم ، فيخدعون ولا يدركون أن حقيقة ما نعى إليهم فاقتنعوا بصحته هو أقل من الواقع . ذلك لأن لهذه الإعلانات ثمناً يستوفيه المعلن من المعلن إليه بافتراض الفرص للانتفاع بمعلنه . ولو رجع كل من يصدق ما يقرأ فى إعلان بنصف ما وعد به أن يحصل عليه لكان الرابح كل الرابح . والأغلب أنه يدلس عليه كثيراً وخسارته أكثر من ربحه . ولا يزال الطامعون يسقطون فى أحابيل المعلنين ولو تكررت هذه الخدع مراراً . فإن من يستهوى مرة

يقع فى نفسه أنه لا يخدع فى المرة الثانية . وصاحب الإعلان يردد فى سره إذا خُدع زيد اليوم فإن عمراً يُخدع غداً ، ولا يخيبه الإعلان من أناس يغشهم ويستثمر سذاجتهم. إن شهرة يحرزها صاحبها باستحقاق قد تدوم له ويورثها عقبه ، وصاحب الشهرة الحقيقية ينتفع بالإعلان ولا يتضرر كثيراً ، إذا أحجم عنه ما دام له من خصائصه ومضيه وحاضره إعلان كاف . وهل أكثر بقاء من إعلان يصدق على الدهر لا يكذب ، وقوامه حق وحقيقة .

حاول كثير من أدعياء العلم فى العصور الغابرة أن يشتهروا بالنيل من علماء اشتهروا فى أيامهم كالجاحظ وابن حزم والغزالى وابن تيمية ، فأكثروا من الحط عليهم وتزييف آرائهم ، فماذا كان من الزمن الذى لا يبقى على غير الصحيح ؟ كان منه أن انقرض أولئك الذين طلبوا الشهرة على حساب غيرهم ، وسلكوا إليها غير طريقها وبقيت آراء هؤلاء الأئمة تقرأ وتتداول ، وتتمتع على الأيام بثقة العلماء والمتعلمين والموافقين والمخالفين .

مثلنا بهؤلاء الأعلام الأربعة والأمثلة من هذا القبيل كثيرة ، ونريد أن نقول فقط إن من ظنوا أن تكتب لهم الشهرة بالإبعاد على أرباب الشهرة يضرون أنفسهم وينفعون المطعون عليهم ، ورب مطاعن لم تورث الطاعنين إلا الخزى ، وبقى بعدها المطعون عليهم لم تزعزع مكانتهم أهواء المبطلين وإفك الأفاكين .

لا يأخذ المرء فراغاً فى هذا الوجود أكثر من حجمه ، ولا ينال حظاً من الشهرة بحسد من اشتهروا ، والاعتداء على شهرتهم ، والمرء وحده ناسج برود شهرته ، وقد تقع له من الأحوال ما تعظم به هذه الشهرة وتصؤل ، ولا تكون له يد كبرى فيها . وقانون الشهرة غريب فى ذاته ، فقد رأى التاريخ بلاداً عرفت بخمولها فاشتهرت

بأفراد خرجوا منها ونشروا بعبقريتهم شهرتها فى الآفاق ، اشتهرت البلدة بالفرد وكان المعقول أن يشتهر الفرد بالبلد . وقد يأتى من أبناء القرى الخاملة أرباب حزم وعزم أكثر من أهل المدن الكبرى . ورب مشهور يحسّن سمعة أمته ، وكم من أمة لا ينيل بنيها ما يستحقون من شهرة لأنها فى مجموعها لا تعد شيئاً . ويعمل فى رفع صاحب الشهرة وخفضه عوامل كثيرة ومنها ماضى أمته التى نبع فيها وكذلك حاضرها إذا كان مما يحمد ويعجب به .

لا يفيد الدعوة الى الاشتهار إذا كان من يدعى له صفراً من المعرفة التى تنبعث عنها الشهرة بقدر ما يفيد الأخذ بالأسباب المشروعة المعقولة لإدراكها . وكل من يلاحق الشهرة عامداً بدون سلوك طريقها المعروف لا يوافيه على ما يريد ويبقى العمر فى حسرة على ما يتوقع من فوائده لو جاءته بالقدر الذى يتطاول إليه . والشهرة قد تكون آفة على صاحبها لما تحمل من عنت وأتعاب ، ولكنها على كل حال مدرجة إلى العلى وذريعة إلى تخليد الذكر .

يقول ابن خلدون إن الشهرة والصيت « قل أن تصادفا موضعهما مع أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم ، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه ، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها ، وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها ، والسبب فى ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما الأخبار ، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل ، ويدخلها التعصب والتشيع ، وتدخلها الأوهام ، ويدخلها الجهل بتطابق الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل ، ويدخلها التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ،

والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون إلى الذيب وأسبابها من جاه وثروة وليسوا فى الأكثر راغبين فى الفضائل ولا متنافسين فى أهلها » .

الاعلان كما قلنا خير وشر ، والعاقل من انتفع بالشق المفيد منه ، وتجرد من الطمع فيما يتعذر عليه نيله . وكم قنية لا تفيد ، وكم من أمور لا ينفع العلم بها ولا يضر الجهل . الاعلان صورة من هذه الدنيا تمثلها أصدق تمثيل ، وما برح العالم فى كل عصر سوقاً يعرض فيه الكذب والتزوير كما يعرض الحق والحقيقة ، فليبصر الانسان أىّ صراط يختار صراط الصلاح أم نقيضه ، صراط الكذب أم صراط الصدق ، أما هو فعليه أبداً تبعة ما يسر وما يعلن .

القول في إرشاد العامة

لو كان من وكلت إليهم هداية العامة يؤمنون حقاً بما يعظون لأثرت أقوالهم التأثير المطلوب ولقلّ معظم ما نراه من شرور . الدين يطهر النفوس ، وإذا أفضى إلى أيدي من لا يحسنون استعماله يصبح عبارة عن رسوم وشعائر لا تدخل الصميم . الدين ينفع في هداية الطفل والبالغ وسلطانه يسري إلى الأرواح والقلوب ، ويجعل بين المرء وربه صلة محكمة تحمله على أن يكون سره كعلانيته وظاهره كباطنه .

نرى المصلين في الجوامع إلى اليوم ليسوا بقليل عددهم ، ولكن هل عملوا كلهم يا ترى بما يتلون وبما يُتلى عليهم ؟ هل هدتهم صلاتهم إلى أن الله تعالى حرم عليهم الكذب والسرقة وأمرهم بالصدق والأمانة ؟ ادخلوا في شؤون هؤلاء المستهترين ، هل ترون أكثرهم عمل بقليل مما أمره به الدين أم هو مسلم جغرافي ، ومسلم تشهد بإسلامه تذكرة النفوس ووثيقة الحوبة فقط .

أرجو ألا أتهم باستعمال الأسلوب الخطابي ، وأنا لا أطلب ممن يتهمني بذلك إلا أن أدعوه ليحتك بالمرتزقة والتجار والفلاحين فيشهد العجب من انحطاط الأخلاق . يرى السارق يسرق بدون تفكير والكذاب يكذب ولا يخجل ، ولو أردنا تصفية أبناء كل حرفة من مخازيهم ما ثبت على محك النقد إلا أفراد قلائل في كل قرية وفي كل حي ومنزلة .

تدبروا أخلاق أكثر أهل القرى وأخلاق أهل المدن تروا بعض الفلاحين والمدنيين سواء فى الفساد وضعف الأخلاق ، لا نكاد نجد الأمين المؤتمن إلا نادراً ، وكان الأجداد على عكس ذلك تغلب الفضائل النفسية على السواد الأعظم منهم فى الجملة . وأكثر من تعتقدون فيهم الأمانة يسرقونكم متى آنسوا منكم ضعفاً أو غفلة ، أما الكذب فلم يسلم منه إلا من عصم ربك ، وأما الغش فما أظن المانع لبعضهم من الاسترسال فيه إلا علمهم بأن اشتهارهم به يؤدى إلى قطع أرزاقهم .

أمثل لكم بمثل واحد أثبت به ما أقول ، وهو تحت نظركم كل ساعة وكل يوم ، انظروا المبايعات والحاجات هل تجدون أشياء كثيرة سلمت من الغش : يغشون فى الكيل والوزن وفى القياس والذرع ، وأكثر مواد الغذاء مغشوشة ، فالغش يدخل الخبز واللحم والسمن والزيت والزبد والقشدة والجبن والدبس والعسل واللبن الرائب واللبن الحليب وماء الزهر وماء الورد . وإذا أرادت الحكومة أن تسيطر على العامة والمرتزقة قد يشترك من تنصبه لذلك مع الغشاشين فيزيد لص كبير إلى أولئك اللصوص الصغار ، وهذا المسيطر قد يكون ممن يحمل شهادة أطول من قامته ولكن نفسيته دنيئة . معظم ما يعمل فى السوق وفى خلوة مغشوش : الأدوية مغشوشة فى الصيدليات ، والقهوة والمرطبات مغشوشة فى المقاهى والحلويات ، والألوان المطبوخة فى المطاعم مغشوشة . وأرباب المدارك من المستهلكين يعلمون هذا ولا يستنكرونه لأنهم هم أيضاً مشاغيل بغشهم .

كان أكثر العامة يتعدون عن الغش فى الوزن والكيل ، وعن غش المأكولات والمشروبات ، وما كان الفلاح يجوّز لنفسه غش الناس عجباً لأنه كان يعتقد أن الله

تعالى يجازيه على فعلته بهلاك يقربه أو عزته أو نعجته ، وما كان يجب أن يخسر الكيل والميزان لأن الله له بالمرصاد يسابقه فى الدنيا قبل الآخرة فيفجعه بأولاده ، ويرزؤه بصحته أو ذاته ، ويسلط الأقوياء عليه ينهبونه ويسرقون ما ادخر من مال ومؤنة ، أو يسلط عليه آفة تأتى على ما جمع . كان هذا الاعتقاد باعثاً حداً فى دفع الأذى يساعد المحتسب على القيام بإبعاد قانونه على الناس فى يسر وسهولة . وفى أيامنا تهافت العامة إلى أن ألحدوا وتزندقوا ، فظلوا يصلون ويصومون ، ولكنهم يسرقون ويغشون فى معاملاتهم . وهذا مما ينذر بسوء المصير .

إنى كلما زدت معرفة بهذه الطبقات يسوء ظنى بالمستقبل وأعزى عن بأن الأخلاق تتردى فى الحروب ، ولا بد أن تتحسن متى انجلت الغمرة وزالت الشدة ، ولطالما تمنيت لو فاجئنى السارق وطلب ما يريد أن يسرقه منى فى سر ، وكثيراً ما قلت لهؤلاء الفلاحين وغيرهم إذا طمعت أنفسكم فى أخذ شىء من أشيائى قولوا لى وأنا أنزل لكم عن نعمة برضى فتأخذونه حلالاً طيباً ، ولا تطمعوا فى أخذ شىء بدون علمى فأنا لا أريد أن أسترقع واستحمق . ولطالما قلت لبعض أرباب الصناعات خذوا أجرة حسنة على أن تعاهدونى ألا تسرقوا شيئاً فى غيابى ، ولكن نفوس أهل هذه الطبقة زين لها الربح من أى طريق أتى . ولكم كنت أعطى العامل وأكرمه وكلما زدت فى إكرامه استضعفنى وغلا فى نهبى .

لا ألوم من لا تدرك عقولهم إلا المنفعة المعجلة وقد تجردوا من الفضائل الكسبية والفطرية ، بقدر ما ألوم من يحيشون فى طبقة أرقى من طبقتهم وهم مناط الرجاء فى الهيمنة عليهم .

رأيت هؤلاء العششة باعة وتجاراً يجمعون أموالًا ويبنون حوانيت وبيوتاً ويقتنون مزارع وحدائق ثم يبدد كل ما جمعوه بأدنى عارض، فكنت أحمد الله على ذهاب أموال جمعت بالسحت وبالغش، وأحسب ذلك عقوبة عادلة لهم. رأيت ثروات من احتكروا أصنافاً من القوت فى الحروب تمزق شر ممزق، وكذلك سيكون مصير أموال من تجردت نفوسهم من كل شفقة واحتكروا ما الناس فى أشد الحاجة إليه.

والآن ماذا يجب أن يعمل لإصلاح هذا الفساد المنتشر أو تخفيف وطأته على الأقل، هنالك ثلاثة عوامل تفيد فى علاج ظاهر الفاسدين وتعيد إلى المجتمع صفوه الذى كان له فى الدهر السالف. العامل الأول تطبيق القانون على من يعبثون بحقوق الخلق بدون مسامحة ولا هوادة، فإن قوانينا الشرعية والوضعية كفيلة بالسعادة، لو جرى تطبيقها على ما يجب ما احتجنا بعدها إلى وازع آخر. إلا أن المسألة تتوقف على إنفاذ تلك القوانين، والقوانين تفنى غناءها بالتطبيق لا بحسن مادتها، وانسجام عبارتها. وفى بعض الآثار: يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن (أى أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى) ولا بد من تضييق خناق المسيطرين على القوانين فى إرشاد العامة إلى الجادة، وأن يطرد المتساهل من عمله ولو كان يعد من الرؤساء، فالسمكة تنتن من رأسها كما يقول الأتراك فى أمثالهم، والتفتيش يجب أن يتدرج من الكبار قبل الصغار، فبأيديهم تسير شئون الناس سيراً حسناً أو تلتوى وتزيغ.

والعامل الثانى الخطباء والوعاظ فهؤلاء من واجبهم أبداً أن يبينوا للفاسدين مغبة عملهم على أنفسهم وعلى الجماعة، يقولون ما يقولون لهم عن عقيدة لا كلاماً لا يتعدى

أطراف الشفاه ، يختلطون بالناس ويبوعون الأساليب لمن بهم الحاجة لإرجاعهم إلى الطريق السوى ، ويحذرونهم الأمة التى عهدوها ، ويدلونهم من طرق العقل والنقل إلى كل ما فيه صلاح نفوسهم والبعد بها عن الكذب والخديعة .

والعامل الثالث وهو الأهم قيام الأمة على اختلاف طبقاتها بهداية الضالين ، وتذكيرهم بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم ، ومقاطعتهم إذا سرقوا وكذبوا ، يبينون لهم السبب الذى من أجله قاطعوهم . وعلى الصالحين أن يعتقدوا أنهم بعملهم هذا يقومون بواجب مقدس ، وإذا هم رحموا حيث لا تحق الرحمة تضيع حقوقهم وحقوق غيرهم ، وعليهم أن يعتقدوا أن واجب كل إنسان أن يعتقد اعتقاداً جازماً أنه هو القانون وهو الحكومة ، وأنه متى تهاون فيما يرى ويسمع من منكر ولم يتقدم لإصلاحه يعد خائناً لأمته وخائناً لنفسه ، لأن الفرد فى معظم الأمم الراقية فى الغرب يعاون الحكومة فى مهمتها ويعتقد أنه إذا لم يهيمن بنفسه على من يخرق القوانين يعد شريك الجانى والمجرم .

وهذا العامل الثالث من أشد العوامل النافعة فى هداية الراغبين من العامة ، خصوصاً إذا أوهم الخواص العوام أنهم ليسوا أرقى منهم كثيراً ، وأن بينهما درجة إذا صعدوها ماثلوهم ، وكانوا موضع الرعاية والحرمة ، ولا يؤلم العامة أكثر من احتقارهم . ومن هنا جاء حسد الفقراء للأغنياء ، وإعراض الجهلاء عن العلماء ، وغيرة الضعفاء من الأقوياء .

إذا اجتمعت هذه العوامل الثلاثة وعملت بإخلاص وجد يتصحح الجزء الأعظم من الأمة ، وبإصلاحه ندخل فى طور جديد ونحمد غب القوانين المرعية ، وإذا بقيت

كما هي اليوم عادت كعلم جاز إقرأ تفرح جرب تحزن . ومن كان صلاحه بيده وهو يهمله لا يبالي فأنذره بمصير من يعلمون ولا يعملون . اهـ

* * *

هـذا عن خطاب ألقيته في المجمع العلمي العربي على طبقات من الناس فيهم أعاظم أصحاب السلطان فانزعج بعضهم لسماعه وقال كثير من فقهائهم : إني قمت بما كان الواجب عليهم أن يقوموا هم به ! وزارني بعض من لاحظوا أني عرضت بهم يشرحون لي فرط غيرتهم على مصلحتهم وأنهم يعملون جهدهم لمنع هذا المثل الماثل في طاق عملهم وانتهى الأمر عند هذا الحد ، لم يغير المغيرون شيئاً ، وكيف يغيرون وهم ما اعتادوا إلا العناية بدخل جيوبهم وعيالهم ، لا يهمهم سواه ولو خربت الدنيا . رأيت أن أضم ما قلت إلى هذه الفصول لتعرف الأجيال القادمة مبلغ بعض الحاكمين والمحكوم عليهم من العلم والعمل في عهدنا .

القول فى بغضنا للأجانب

يتهم بعض أرباب الأغراض من الغربيين سكان بلاد العرب ببعض الغرباء وكراهة الأجانب من الإفرنج خاصة . تهمة كثر تردادها وتعددت ضروبها وقويت مصادرها وما ردّ رادّ عن المتهمين ما عزى إليهم ، وهم ما فكروا أن يدفعوا عن أنفسهم تلك الأباطيل التى لا يحققها الواقع وسكرها البديهة .

والمأثور عن العرب أنهم أكثر الأجناس تحبباً إلى الغريب ومن أعرق الشعوب فى التسامح وأنهم فى تسامحهم آية لا تماثلهم فيه أمة ، حتى كاد أن يعد كرمهم إسرافاً ، وهم إلى هذا العهد لا يفرقون فى قراهم بين عدوهم وصديقهم ، و بين من يعتقد عقيدتهم ومن لا يعتقد ، ويعدهم أن العدو إذا تحرم طعام عدوه كان له بذلك مخرج من ذنب اقترفه نفسه ، فيضطر إلى أن يصفح عن جرمه مهما كان عظيماً ، وكما أنهم ما عرفوا للكرم حداً ما منع دينهم من إعطاء المسلم وغير المسلم من الصدقات .

من القديم اختلط الإفرنج بالعرب وكان أكثر هذا الاختلاط والعرب فى أوج عظمتهم فى الأندلس وصقلية ، ثم التقوا بهم فى الحروب الصليبية فى الشام ومصر ، فدون بعض مؤرخى الفرنجة بعض ما شاهدوه فى ديار المسلمين ، وأشار بعضهم إلى أن هؤلاء كانوا على صفات ممتازة لا يختلف فى التحلى بها عامتهم عن ملوكهم ، وذكروا من سماحتهم ووفائهم ما ناقض ما كان يختلقه بعض رجال الدين عندهم من وصف

المسلمين بالتوحش وضعف العهد ، واتهامهم بأمور مستغربة لم تعهد عند غيرهم من أبناء آدم وحواء .

وكلما كرت الأيام كان التهريج في الغرب يتزايد مما يخترعه القسيسون من أساطير وترهات ، ولما تسلطت بعض الدول على الشرق كان من مصلحتهن إلصاق هذه التهم في العرب تصغيراً لأمرهم ، وصرفاً للنفوس عنهم ، وتبريراً لموقفهن منهم ، وإيهاماً بأنهن ما فتحوا ممالك الإسلام إلا ليحملوا المدنية إلى من هم في هذه الدركة من التقهقر.

حالت صعوبة المواصلات في الأعصر الماضية دون تعارف العرب والإفرنج ، فولد البعد جفاء ، وأورث الإفرنج تعصباً على من لم يتعارفوا إليهم ، وكان من أشد الأمم الإفرنجية بغضاً للعرب خلفاء الرومان من العنصر اللاتيني ، نشأ هذا البغض من استيلاء العرب على ديارهم في الدهر السالف ، وما عهد مغلوب يحب غالبه . ثم إن تلك الشعوب لم تكن يومئذ من الثقافة بحيث تدرك ما امتاز به العرب من مكارم الأخلاق ، وما صفت نفوس جاهلية القرون الوسطى من لوثات التعصب الذميم حتى تنصف محاسنها في الطباع والجنس والدين ، وحرية الأديان وحرية النظر في العلم ما عهدت في الغرب قبل أن يحملها العرب إليه ، أضف إلى ذلك أن أوربا كانت في سلطان الدين قروناً طويلة وكانت رومية المصنع الأول لصوغ ما يوجه من التهم إلى أهل الإسلام.

كان الإفرنج كلما جاء أحدهم الشرق العربي في سفارة أو تجارة لا يعود منها إلى أهله ، قبل أن يملي من محفوظه غرائب مما رأى ، وفي جملة ما يذكر نفرة العرب من الغربيين ، ولعله كان يطمع في أن يقف الأهلون على أقدامهم صفوفاً على الجانبين يسلمون عليه وهو يجتاز الشارع ، ومنهم من قال إنه شاهد الأطفال يهربون منه لما وقعت أعينهم على عينه ، واستغربوا هندامه ، وإن بعض الأحداث في الطرق أسمعوه

كلاماً ، بما كانوا يداعبونه به فوهم أنهم يشتمونه ، وما أكثر ما يرى السائح الشرقى اليوم فى صميم أوربا مثل هؤلاء الأحداث يتجمعون عليه ويصرخون فى وجهه ، يوردون من هذا القبيل حكايات ينسب إلى أرباب السذاجة منهم ، وهى لا تنأى بهم مادة للبغض ولا للحب ، وقد صور فيها العربى صورة كلها بهتان وتضليل .

ومما يستدلون به على نفرة العربى من الافرنج أنه قتل فى العصرين الأخيرين بعض أرباب الرحلات من الغربيين فى ديار العرب ولم يعرف القاتل . ومثل هذه الحوادث طبيعية الوقوع لأن هؤلاء السائحين تسللوا خفية إلى البوادى فى زى منكر ، وهم لا يعرفون العربية فى الأغلب فكانوا موضع شبهة ، وربما كان السبب فى هلاكهم مرضاً أصيبوا به فى تلك القفار . وإذا وقع أن هلك أفراد فكثيرون نجوا وكتبوا فى الأرجاء التى استقروها أموراً مهمة ، وأتوا منها بعاديات وآثار خدموا بها العلم . وعجيب أن يذكروا من قضوا فى حوادث أفرادية تقع للولى والعدو فى كل بلد ، ولا يذكرون عشرات ممن عادوا إلى أهلهم سالمين غانمين .

وما سهل الارتحال على أهل الغرب وعلينا كان سائحهم يأتى مدينة من مدننا فيقص فى العودة من عجائبها وغرائب سكانها ما رأى وما لم ير ، قاصداً الاغراب أو خدمة غاية معينة لا تتحقق نزعته إلا بالكذب . أما هو فما رأى العرب إلا فى الطريق ذاهبين جائين ، وما وصل إلى علمه عنهم شىء فيه ثقة ، اللهم إلا إذا صح عنده ما تلقفه من أفواه التراجمة وعمال الفنادق والحوذيين والسواقين ومساحى الأحذية ، وبعض أصحاب هذه الحرف يصورونا عن قصد صوراً مضحكة ليجلبوا بها السرور إلى قلوب السائحين فتنبسط أيديهم بالعطاء .

ولو كنا في مقام التنظير بين معاملتنا للغرب ومعاملته لنا في القرون الغابرة لقلنا للغرب إن ديارنا كانت تقبل كل من يفد عليها إن لم يكن ممن تخشى جاسوسيته . وأنتم يوم كنتم تغيرون علينا هذه الغارات كنتم لا تسمحون لمن يخالفكم في معتقدكم وهو من جنسكم أن يساكنكم في بلد واحد ، فتطردونه طرد الوحوش الكواسر . وكان من يخالف مذهبه مذهب الدولة لا يعطى عهداً في بلاد إلا بعد بلاد . فهل سجل التاريخ أنا من طائفة كدرنا عيشها مرة واحدة شهدنا كم هذا خلال تاريخنا الطويل ، أو أنا أنزلنا الجواسيس في الأرض بدون موجب في عهد ارتقائنا أو في عهد انحطاطنا ، ويوم كنتم تقتلون في المسجد الأقصى العدد والعدد وتبقرون بحرابكم أحشاء الأطفال ، وتقطعون أثداء النساء كما يحدث مؤرخوكم مما يأمركم به دينكم ، ولم تتركوا دناءة تذهب به ملوككم ولا رجالكم ، كنا في مقام الظافر فأحسنا ولم نسئ ، أما أنتم فأسأتم كل الإساءة يوم كنتم الغالبين .

وبعد فإن العرب لعهدنا في حيرة مع كثير من الإفرنج ، إن تقربوا منهم قالوا يصانعوننا خوفاً منا ، وإن أكرموهم أدوا ضيافتهم ثم وصفوهم بالإسراف وضحكوا من عاداتهم ، وإن هادوهم قبلوا هداياهم وهزأوا بذوقهم وكرمهم ، وإن أعرضوا عنهم قالوا إنهم متوحشون لا يعرفون معنى للعشرة ولا يحبون التمازج معنا وإن ناقشوهم في بعض أغلاطهم احمرت أعينهم ووصموهم ببعض الألقاب . وهكذا حار العرب في استرضاء هؤلاء الغربيين الذين يدعون التفوق علينا في كل شيء .

كان مدير المعهد الفرنسي بدمشق يجمع بعض الرعاع ويلبسهم ثياباً للمساخر ويعلمهم ألعاباً له ابتدعها ويدربهم على مخرقات وشعوذات كان يظنها جميلة مغرية ، ويغوي بعض الأوباش بالمال ليمثلوا له مشهداً من مشاهد مشايخ الطرق ، وهم يلحسون

الحديد المحمى بالنار ، وملاعب الحيات والثعابين ، وكان يأتى بمومسات يجردهن من ثيابهن يرقصن و يتخلعن زاعماً أن هذا مشهد من مشاهد ألف ليلة وليلة . ثم يدعو حضور مهرجانه لمن يطير إليهم من قومه وغيرهم ، ويصور هؤلاء الممثلين والممثلات على أوضاع مختلفة ويخرج منها ماشاء من الصور يرسلها إلى من يلزم فى الغرب ، ويعطى منها من يزور مكتبه من السائحين مدعياً أن هذه هى عادات الشاميين وأجمل مايجب أن يشهد عندهم . وهو لا يقصد من كل ذلك إلا أن يصور العرب بأشنع صورة ، ويقول لمن يطير فرحا إذا سمع سبة : ها هم العرب وهذا تمدنهم ، هم صحيح كما ترون فى أحط دركات الهمجية . وقضى أعواما طويلة بمثل هذه المخزيات ولما ينته من إعداد مجموعاته ، وما برحت دمشق من عبثه إلا لما ثبت عليه أنه سرق دولته .

لم يترك هذا الساقط المروءة فرية إلا افتراها علينا ، وما رأى إلا استحساناً ممن كانوا على شاكلته ، يتعمد الحط من كرامة أمة ، إذا كان فيها شيء من العيوب فللأمم الأخرى مثلها وربما أكثر منها . ولا أعرف كيف يصح له أن يحكم على أمة لا يعرف لغتها ، وما اختلط بالطبقة المنورة منها . وقديماً كان من يعنّ له افتراء شيء علينا يكتفى بكلمات قليلة يسجلها فى رحلته أو جريدته . أما هذا المأفون فكان دأبه يجود الأعيب يمثلها بمال حكومته .

لا جرم أن بمثل هذا العيب وما يقال عنا من سوء القالة تسودّ صحيفتنا فى الغرب ، وصحيفتنا بما اخترع المضللون ليست بيضاء كثيراً فقد قال لى أحد رجال الطليان انه ما برح يعتقد أن المسلمين يأكلون لحم الآدميين حتى زار أقطارهم فى شبيبته وأيقن ببطلان هذه الدعوى عليهم ، وقال : إنه قرأ هذه الأكذوبة فى كتاب مطبوع وهو طفل . ولطالما سمعت فى رحلاتى من أفواه بعض الطبقات الراقيـة فى

أو ما غرائب عن بلادنا ما كانت إلا من مختلقات أمثال ذلك الدجّال ومن اعتادوا تصنيع القصص الملفقة ووضع الأحاديث المنكرة علينا .

يقولون إننا نكره الغرباء ، صحيح أننا نكرهم ، ونحن على حق بهذه الكراهة بيد أننا نكره أمثال ذلك الوقح الذى باع من بضاعته المزيفة مقادير عظيمة حاول أن يحظى بها ويثرى على حسابنا . ونقل عنها صوراً مزورة مزرية ، ولم يكتف بتمثيلها فى عقر دارنا بل توسع فى أداه وعرضها فى بعض معارض الغرب يحاول بها إسقاطنا عند العالم المتمدن جميعاً .

أما فضلاء أهل الغرب فقد كنا ولا نزال نكرمهم ونحترمهم ، بل نبالغ فى إكرامهم واحترامهم ، نحاطبهم بأنفسنا ، ونطلعهم على ما يهمهم الاطلاع عليه من حقائقنا ، ونتركهم على الرحب والسعة بين أظهرنا ، ولكن منهم فئة لا تحب الاختلاط بنا ولا بغيرنا ، ولا تسمح لها حكوماتها بعشرتنا . ولطالما وددنا لو عاشرنا أهل الطبقات الصالحة منهم لما نتوقعه من تخفيف تلك التهم عنا ، وإفادتنا من آدابهم وبالاحتكاك بهم نعرفهم فى صورهم الواضحة ويعرفوننا كذلك ، وهذا يعمل فينا وفيهم ما لا تفعله القوة الغاشمة ولا الدعاية الواسعة .

زاد فى العصر الأخير اختلاطنا بالغربيين ، ووافانا منهم رعيل صالح من علماء ومفتنين وساسة وغيرهم ، ونشأت بينهم وبين بعض أدبائنا وعلمائنا وتجارنا صداقات ، وعقدت بينهم صلات وأصبحوا إذا نفيموا يتراسلون ويتهادون ، يضيف الصاحب صاحبه ، ويقصده فى بلده وتتجلى الصداقة بين الشرقى والغربى إذا كانت صداقة الند للند لا ينظر أحد الصديقين لصديقه نظرة غالب ومغلوب ، فتغيرت بذلك الصور التى كان

صورنا به أرباب الأهواء ، وكانت طبقة الخواص منهم أول من عرف هذا ، وحبذا لو تفضلوا ونفوا ما ألصق بنا ظلماً ، ودونوا مشاهداتهم على حقيقتها يرد بعضهم من عاق فى أذهان شعوبهم عن العرب ، ويعرفونهم أننا لسنا سود البشرة كالزنوج كما يوهم الجهلاء منهم ولسنا بادية تعيش عيش سكان الوبر تأوى إلى الخيام ورعى الأغنام والأنعام وإنا لا نأكل لحوم الآدميين ، ولا نضمر عداء للغربيين .

لما انهزم الجيش الفرنسى أمام الجيش الإنكليزى فى سورية ولبنان سنة ١٩٤١ أبدى السوريون من العطف على المنهزمين ما أدهش القريب والغريب . كانوا يؤوون الضباط والجنود من فلول الجيش المدحور ، ويلاطفونهم ويطعمونهم ويحملونهم زاداً إذا كانت الشقة بعيدة ، ويكسونهم بثياب خاصة ليخفوا قياتهم العسكرية ، ويوصلونهم إلى مأمنهم بالاحترام والإكرام . عاملوا بذلك من استجار بهم ومن لم يستجر من الهائمين على وجوههم فى البرارى والجبال وهم مئات ، حتى لقد أثنى المفوض السامى الفرنسى الأخير علناً على ما بدا من شهامة أهل دمشق ومروءتها . ألا تعد هذه المروءة من بعض الأدلة على أن العربى لا يكره الغريب وأنه يعامل بالحسنى حتى من أساء إليه ! أما الذين أحسنا إليهم هذا الإحسان فقلبوا علينا بعد حين ينسفون مدينة مثل مدينة دمشق بمدافعهم وقذائفهم ويقتلون الأبرياء ويقضون على الثروة ، ولولا تدخل البريطانيين لدمروا القسم الأعظم من مدن سورية .

وبعد فان العربى يعرف اليوم ما عند الغرب صورة ما كان له منها فى القرن الماضى ، فعلى من الواجب على أهل الرأى فى الغرب أن يدونوا الحق كما عرفوا ، فبالحق يعلمون قومهم وغير قومهم ، وينصرون الحقيقة بتكذيب من افتروا ما أضر باسمنا وشهرتنا وشوهت به صورتنا وزيفت أعمالنا وأخر استقلالنا . نريد أن يقلوا عنا أننا نكره كل

من يملي علينا إرادته بالباطل ، وينازعنا في سلطاننا في عقر دارنا ، ويبرئ نفسه من كل عيب ويلصق عيوبه بنا . نحب الغريب على ألا يؤذينا بقدمه ولسانه ، ولا يسمم الأفكار من ناحيتنا في ديارنا ، وأننا نكره من يفتات علينا بما لم نفعل ، ويخترع لنا عيوباً ليست فينا . نود أن يروى عنا أننا حقاً نحب الغرباء ولا نبغضهم ، وأن قرآننا أمرنا بأن نحسن إليهم فقال « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

القول في المبشرين

كانت التربية العامة في هذا الشرق العربي قبل أن يواجهه دعاة التبشير من الغرب تربية مشتركة فيها سماحة الفطرة، وتعطف الجيران، وتراحم أبناء الوطن الواحد. فلما أسسوا في القرن الماضي مدارسهم عالجوا عقول من فزعوا إليهم ليعلموهم ويهذبوهم بأساليب لهم خاصة، فنشأوا منهم جيلاً جديداً ينقسم في جملته إلى معسكرين يباين كل منهما الآخر: الأول لاتيني افرنسي والثاني برتستانتي انكلوساكسوني. صاغ اللاتين تلامذتهم في قالبهم، وأفهموهم معارف ينقصها حرية الفكر وفيها شيء من التعصب والجمود، وصبغ الأمريكان طلابهم بصبغتهم، وصبغتهم أقرب إلى حرية البحث، وكانت وطأة المبشرين في الشام وشمال افريقية أشد منها في كل قطر عربي ويليها في ذلك مصر ثم العراق.

كانت الدعوة الى البرتستانتية بادئ بدء المحور الذي دارت عليه هذه الدعايات أو التي أنشأت هذه الدعايات، فتألفت جمعيات منظمة تصدق عليها أرباب الخير عندهم، وعاونتها الدول ذوات الشأن بنفوذها وسلطانها، وكان للطوائف البابوية في هذه السبيل شدة وصرامة. ذلك لأن البرتستانتية جاءت لتنتزع منها بعض أبنائها كما صبأ إليها بعض أبناء الروم الأرثوذكس، وقلّ في الطوائف الاسلامية من انتحل البرتستانتية بل هم أندر من النادر.

نشرت هذه المدارس أفكاراً أنتجت تراخي صلات الوطنية وانحلال عقدة

القومية وبثت بذور العداوات بين الديانات ، فحركت العرق الحساس في الدين والنعرات على من يصرّ بهم وبغيرهم . واستحال من تخرج بالمبشرين ودرس لغاتهم ومذاهبهم عدواً لمن يخالفه إلا قليلا . وتجلى أثر المخالف في الأكثر بعد الحرب العالمية في بعض الأفكار ، وقد لقي غير المسلم من رعاية الحاكم الجديد ما جرّه على أمور كان منها مخشية من طالما حاسدوه وعاش معهم بسلام .

والحاصل أن مدرسة التربية الحديثة عملت عملاً صالحاً وآخر سيئاً . ومن سيئاتها أنها[1] غيرت من طباع من أخذوا إليها ، وأورثتهم عقلية ما كانت لهم ، وقتلتهم ثقافة بعدتهم عن بلادهم وأهلها ، ونقل ما حملت من ويلات أن أكثر من درسوا فيها هاموا على وجوههم في العالم ، وهاجر معظمهم هجرة قطعية إلى بلد غير عربي فذابوا ونساهم في بوتقتها مع ما حملوا من حطام . ذلك لأنهم شذوا لا عرباً ولا أوربيين يهون عليهم التخلي عن مشخصاتهم والاندماج في الجنسية التي تقبلهم . ومن أثر تلك التربية أن قال أحد رؤساء لبنان ، لمن ذكر له أن هذا الجبل عربي والواجب أن يسير مع العرب : إن القوم قد وجهنا وجوهنا نحو الغرب ولا أرب لنا أن نعود إلى الشرق . أما أنتم معاشر المنادين بالعرب والعربية فالحقوا بالجزيرة التي أخرجتكم . أو ما هذا معناه . وتذرع أحد رؤساء الجمهورية في لبنان بإلغاء مدارس الحكومة بدعوى أن في مدارس المبشرين والمدارس

---

(١) من كتاب تقدم مجموعة الأمم البريطانية تأليف و . ت . هانكوك وهو من المنشورات [illegible] الرسمية : « وليست أنكر عقلية كثير من المبشرين وعدم حساسيتهم وخشونتهم والأضرار التي ألحقوها بكثير من الشعوب التي اخترقوها فإنهم استحقوا بأعماله المجيدة وبعدوا من قدرها الذي كانوا فيه في تقدير مدنيتهم وكان اعتماد بعضهم على القرى حرفي وعلى التراتيل والكلمات المطبوعة أكثر مما كان ينبغي . قال : وهناك حقيقة واضحة لا ريب فيها وهي أن المبشرين البريطانيين كانوا دائماً رسموا صورة مسحة يعتبرون بمصاف شعوب متأخرة .

الطائفية ما يقى عنهم . ومعنى إغلاق هذا النوع من المدارس القضاء على معظم مسلمي لبنان بالجهل الأبدي ، لأن تلامذتها من المسلمين على الأكثر . ومن آثار هذه التربية الكهنوتية أن كتب قسيس لبناني كتاب (ورد صادقة ومحابية) طبعه في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين لديه وفروا على عمر الإسلام في كتبهم ومجلاتهم وجرائدهم ومدارسهم ، حشاه بما يوغر قلوب النصارى من المسلمين ، وقال بدون حياء إن الإسلام أباح حياة غير المسلمين ومالهم وعرضهم ، وأوّل آيات القرآن على غير معناها ، وحمل الآيات الواردة في مشركي العرب على النصارى ، وعمى عن كل ما صدر عن الرسول وأصحابه والخلفاء والأمراء لجيرانهم منذ كان الإسلام . كتاب ما كتب مثله غير بعض رهبان القرون الوسطى ، وما أهمهم إن كان من أثر ما لفقوا نشوب فتن وإيراث حزازات وما كان العقلاء من الفريقين في كل عصر ليرضوا بما تولد هذه السخائم ، ودينهم ما دعا غير الإحسان والمحبة .

حملت حكومة لبنان على المدارس الإسلامية اللدينية لأنها لم تدرس التاريخ على الطريقة التي ترضي السياسة اللبنانية ، ولبنان بفضل مدارس المبشرين أصبح ذا تاريخ خاص لا يعرفه سواه ! وعز على بعضهم أن يقول مؤلف هذا الكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي إن نقد كتاباً عربه أحد قسيسيهم بلغة ركيكة جداً . وأدمج فيه ما ليس من أصله وطعن على العرب وهزأ بالمسلمين — إن مثل هذا التأليف لا يليق أن يصدر من قلم أستاذ البيان في مدرسة كان مدرس بيانها العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي ومن تلاميذه الشاعر العظيم خليل مطران وإن بعض اللبنانيين اليوم يكتبون العربية بمثل ما كان يكتبها أجدادهم ، وكأنهم يحاولون أن يخترعوا لهم لغة خاصة كما حاولوا أن يجعلوا لهم كياناً سياسياً خاصاً . فاغتاظ أرباب هذه الكتابة

السلطة ، وخاف المتوطنون والمتنورون أن يقضى على كيان لبنان بكلمة قيلت فيه بالغرض وشكاة رئيس جمهوريتهم إلى رئيس جمهورية سورية . ولكن أسفر شغب المشاغبين عن تأليف جمعية من كبراء المسلمين والنصارى تنظر في إنهاض اللغة العربية من كبوتها في لبنان .

هذا مثال مما أورثته مدارس المبشرين من نزعات ، وكم أراد عقلاء الطائفتين العظيمتين أن تمد إحداهما يدها للأخرى ، للعمل معاً في المدن الوطنية الكبرى ، يقوم من تشبعوا بتعاليم تلك المدارس يذكون نار الأحقاد ، ويجهرون بما يخالف مصلحتهم الحقيقية ، محكومين لعواطفهم ، وما كان للوطنى أن يتسع مجاله ويبقى محدداً ، وما كان للحر أن يرضى بالعبودية طمعاً بحاراً في دائرة ضيقة ، ويأبى أن يكون سيداً في بيئة عظيمة يسرح فيها ويمرح على ما يشاء ويهوى .

ولنا أن نحكم أن ذلك النوع من المدارس على نفعه في الماديات ، لم تظهر منه فائدة في المعنويات . بل نشأ عنه روح ما كان يعهد الشرق في جاهلية ولا عالمية . ذلك أن مؤسسيها جهدوا ألا يصرفوا العناية فيها إلى تنشئة الناشئة في عشق وطنيتهم ، فحببوا إليهم أوطاناً غير أوطانهم ، وأعظموا في نفوسهم رجالاً غير رجالهم . وقد يعرف التلميذ في مدرسة رهبانية عن رجال فرنسا وبلادها وتاريخها وسياستها ما لا يعرفه عن وطنه وأبناء جنسه ، فإذا جئت تختبر معلوماته عن أمته وجدته يسقط على الجهل المخجل .

وكان على تلك المدارس لو نصحت لمن يدرسون على دكاتها أن تخرجهم معمورة قلوبهم بحب أوطانهم ، وليس مما يدل على سوء ما قدمته تلك المدارس أنك لا تجد واحداً في المئة من غير المسلمين يدرس في المدارس الأميرية الابتدائية والثانوية

فى سورية ؟ لأن مدارس الحكومة تحبب القومية إلى الدارسين فيعلمهم ذلك حب العرب والعربية ، ولا يرضى بعضهم أن يتعلم أبناؤهم التعليم الابتدائى فى القرى التى يسكنها المسلمون والنصارى إلا إذا كان المعلم مسيحياً على الأكثر .

وأنى لأبناء أرض واحدة ينشأون على التعادى والتحاسد أن يرفرف السلام على ربوعهم ، ويطيب المقام فيها لمواطنين مختلفين . وكيف يرجى أن يتشارك المتنافران اشتراكا عملياً فى سعادة ديارهم إن لم يحب أحدهما صاحبه ؟ حقيقة نحن بعيدون عن إدراك معنى التربية المشتركة بما يحمل إليها العرب من تربية لا تنشئ إلا أعداء متشاكسين فى بلد يضم نحو عشرين نحلة ومذهباً .

وكيف لعمرى تتماسك فئتان فى أرض وكلتاهما حرب على الأخرى . وكيف تتعاونان فى جلب الخير ودفع الضر إذا كانتا على هذا النحو من التنافر . والناس منذ وقع اجتماعهم لا يستغنى الأبعدون منهم بعضهم عن بعض فكيف بالأقربين . ألا ساءت التربية تربية تلقن أبناءها التباغض والتدابر . وتعساً لمن ما نحرا فى ذاته وأصحابه يسعون إلى تقسيمه ، ويتعدون عما لا يقوم لهم شأن إلا به .

كثيراً ما قلت لبعض أصحابى من عقلاء النصارى لو كنت مكانكم لسعيت إلى تعليم أولاد المسلمين قبل أن أعلم أولاد النصارى ، ذلك لأنى إذا كنت فى وطن لم يعم التعليم معظم أهله فأنا منغص فى حياتى ، غير آمن على حقوقى وراحتى ، وإذا لم تستحكم المشاكلة والتفاهم بينى وبين جارى فأنا كل ساعة عرضة لأن يسطو من مخطاطه ، ويصيبنى مكروهه من حيث يدرى ولا يدرى ، ولا يغنى مع حالته هذه على ومالى ، ولا تعصمنى من انحطاطه دولة ولا طائفة ، وربما اضطررت فى الآخر إلى أن أرحل عن مسقط رأسى إلى مكان يحلو فيه العيش .

لا المسلم راحل عن هذه الأرض ، ولا النصراني زاهد في سكناها ، فهي ملكهما الأبدي ، وتراثهما الذي لا حياة لهما بدونه ، يتنعمان بخيراتها ، وعليهما تحمل أعبائها وتبعاتها . أعجبتني كلمة فاه بها أحد فضلاء الكاثوليك ، وقد أريدت طائفته على أن تكتب محضراً تطلب فيه حمايتها من المسلمين بحماية إحدى الدول ، قال والغضب آخذ منه : أيُّ غضاضة علينا أصعب من إنفاذ هذا الاقتراح ، إنا وإخواننا المسلمين شركاء في هذا الوطن لا دخلاء عليه ، ومن العار أن نطلب إلى الغريب أن يحمينا من أخينا وابن عمنا . وهذا الرجل درس دروسه الثانوية والابتدائية في مدرسته الطائفية والمدارس الطائفية المسيحية لا تخلو من روح الوطنية وليست هي كمدارس المبشرين تغرس التفرقة في القلوب ، وتلقى دروس الحقوق في مدرسة وطنية ، وعرف المسلمين على غير ما وصفهم به صاحب كتاب (فرنسا صديقة ومحامية) الذي كذب حمرة بقوله إن الإسلام أباح المسلمين مال النصارى وعرضهم ودمهم .

تجمع النصارى والمسلمين عدة جامعات ، تجمعهم جامعة الأمة الواحدة ، وتجمعهم الأخلاق الواحدة والعادات الواحدة ، وجامعة الجامعات هي هذه الأرض المباركة التي أنبتتهم ليعيشوا على أديمها كما يعيش أبناء أم واحدة عيش بر وحنان . ولقد شهدنا من الدول المتمدنة اليوم ما ليس بين سكانها بعض هذا التجانس ، وبفعل التربية المشتركة ألفوا دولاً وشادوا عزاً وأحرزوا عظمة ، ومنها ما كانت اللغات فيها متباينة ، ومنها ما لا تربطه رابطة من دين ومذهب وعنصر . وما استقام أمرهم في الواقع إلا عندما نبذوا ظهرياً ما يوسوس به دعاة دينهم وعملوا لأممهم ما ينبغي لها مشتركين متماسكين .

ولو كان فى التربية الرهبانية صلاح العالم ما زهد فيها الغرب نفسه ، وأصحاب هذه التربية بحسب الظاهر يخدمون مقدساته . رأينا شعوب الغرب لما سارت نحو العلى تضرب على أيدى المبشرين وتنزع منهم كل سلطة دنيوية كانت لهم ، ولكن صناعة التبشير كما قال أحد وزراء فرنسا من صنائع التصدير محرّمة فى الغرب محلّلة فى الشرق ، ذلك لأن المبشرين أعوان المستعمرين .

فى اليوم الذى تصبح الدولة فيه على أصول تربية واحدة يتحد أبناؤنا فى كل مظاهرهم ، وأعظم ما تتم لهم وحدتهم فى أساليب تفكيرهم ، يعملون يداً واحدة للحصول على أمانيهم الوطنية ، ولا تعود ابتلاط هذه الفوارق المشهودة بينهم لآن . فإن أمة تعيش فى صعيد واحد وأعضاؤها متفككة محكوم عليها بالفناء ، عيشها منكد وسلامها أبداً مهدد .

حمل أقباط مصر على مشاركة مواطنيهم من المسلمين ليؤلفوا منهم حزباً ارتجاعياً فأبت عليهم وطنيتهم أن يغتروا بأحابيل السياسة ، وعادوا يعملون بقلوب واحدة ، ويعلمون أبناءهم تعليماً مشتركاً ، وعاشوا مع إخوانهم متمتعين باستقلالهم ، وظلوا مصريين وما أصيبوا بأذى فى دينهم . ولقد رأيت من عطف المسلمين على القبط وبالعكس ما أرتق الفريقان به على من يخدعون فى الدين درجة عالية ، وآخر ما صدر عن القبط من مراعاة حرمة مواطنيهم أن أعيانهم تقدموا إلى نجاشى الحبشة ـ وكنيسة الحبشة تابعة لكنيسة القبطية بمصر ـ أن يمتع المسلمين فى مملكته بحقوقهم فأجابهم إلى ما طلبوه ، ومن مطالبهم نصب قضاة مصريين يحكمون بين رعاياه المسلمين .

إلى الآن سارت مدارس المبشرين على هواها لا تسيطر عليها حكومة ، ولا يراقب أعمالها مراقب ، فكانت تأثيراتها ما رأيتم . فهل فى الحكومات العربية اليوم يا ترى

من تقوى على إرجاع تلك المدارس إلى الصواب ، تضع لها منهج دروسها وتلزمها بالسير عليه بما يوافق شريعة الوطنية ، ويقول لها : كفى أن أنشأت ممن نهلوا العلم من مناهلك آلات صماء فى أيدى الغرباء ، وأوقفاً تنادى على الدوام ببغض ذوى القربى.

ولقد لاحظت وزارة المعارف المصرية أن بعض المدارس الأجنبية بها تدرس لتلاميذها كتباً تشتمل على عبارات تثير الأحقاد السياسية والدينية بنوع خاص مما يخالف المبادئ الأساسية التى ينبغى أن تقوم عليها العلاقات بين الشعوب ، وهى مبادئ المودة والتعاطف وتبادل الاحترام . وأن عصبة الأمم عنيت بهذه المسألة عناية شديدة وطلبت إلى الدول المشتركة فيها أن تراقب الكتب الدراسية من هذه الناحية بحيث لا يكون فيها ما من شأنه إيجاد لأحقاد أو إبقاء الأحقاد القديمة . وأخذت مصر تراقب كتب التاريخ والجغرافية والأدب وعلم النفس والتربية . وعسى أن يكون من هذا مقدمة خير فتراقب المدارس العربية كلها فى البلاد العربية .

القول فى الغربى والشرقى

ليس فى هواء الغرب ولا تربته ما يدعو إلى أن يتأخر الشرق ، وإذا زعم زاعم أن البرودة تسبب نشاط الغربى ، والحرارة داعية كسل الشرقى ، فالعرب فى القديم لم يحل هواء بلادهم ولا تربتها دون إنشاء مدنية إن لم تفق مدنية الرومان بقوتها ، فقد فاقتها برحمتها ، وسر النهوض متوقف على مسائل أخرى لا دخل للحرارة والبرودة فيه . سر مدنية الغرب دؤوب دائم أحقاباً مطرد الأول بالآخر ، ونظام نافذ لا يبقى على جاهل ولا ضعيف ، وعناية بالدقيق والجليل من ضروب المعارف البشرية .

رأينا الغربى يحتفظ بالقديم ويتهالك على اقتباس الحديث ، والشرقى يجمد على قديمه ، وقلما تحدثه نفسه بأن يأخذ الحديث إلا بحيطة شديدة وبطء مستطيل .

وإذا جئت تنظر فى الهمم والمضاء بين الشرقى والغربى فهناك يتفاوت البون بين الخلقين والجيلين . الغربى يعمل عمل من يعيش أبداً والشرقى يعمل عمل من يموت غداً .

وإنا لنشهد الغربى على كثرة ارتقائه فى نُظُمه السياسية لا يزال مستمسكاً بعظمائه يصدر عن آرائهم ويصاخ إلى مشورتهم ، وقد يقيم لهم المعاذير إذا غلطوا ، ويعفو عن هفواتهم إذا هفوا . أما فى الشرق فالكل يكادون يعدون أنفسهم فى مستوى واحد ، لا يرون الخضوع للكبير إلا إذا كان ذا سلطان وبطش ، يتأففون من القانون جائراً كان أم عادلا ، ولذلك ضاع ملكهم وقضت عليهم دعواهم العريضة .

ومن أسباب تفوق الحضارة الغربيـة على الحضارة الشرقية أنه قام فى الغرب طبقة من الخواص ليس للشرق مثلها ، وخواص كل أمة متمدنة علماؤها وحماة صناعاتها ، أما طبقة العامة فمتشابهة عندنا وعندهم ، ولا يفوق عوام الغرب عوام الشرق إلا بأخذ العامة هناك ببسائط المدنية . وقد يكون فى عوام الشرق من هم أقرب إلى الفضائل من بعض عوام الغرب الذين أهلكتهم المسكرات والمخدرات ، وظلوا على شىء من همجيتهم القديمة .

العبرة بالخواص فى قيام المدنيات ولا نعنى بالخواص هنا رجال الدين فهؤلاء يدعون إلى الآخرة ، والمدنية ابنة الدنيا ، ووليدة أمور لا تدخل مناهج الديانيين . ومن الخواص نشأ الاختصاص فى المدنية الحديثة ، وكلما كثر عددهم تنوع هـذا الاختصاص ، حتى لنجد العلم الواحد أو الصناعة الواحـــدة اليوم مقسم إلى عشرة أو عشرين فرعاً .

فى الغرب يفنى الفرد فى المجموع ، وفى الشرق يعبث الفرد بالمجموع . و بحق ما قال بعضهم (الغرب هو التسلط على الطبيعة بالعمل ، والشرق هو استثمار الإنسان للإنسان) . وما وقع فى الأدوار التى مرت بالإنسانية أن تسلط الإنسان على الطبيعـة كما هو متسلط اليوم فى الغرب ، وما عهد أن نهض ابن الغرب على قياد ابن الشرق كما هى الحال فى العصرين الأخيرين ، تسلط الغربى لما تفوق على الشرقى بعلمه وعمله .

وفى الواقع إن الممالك كانت تقوم عنـدنا بالأفراد النابهين إذا ذهبوا انقطعت أعمالهم ، وممالك الغرب تقوم بالجماعات إذا هلك الفرد لا يكاد يشعر به ، ويأتى بعده من يتناول ما بدأ به فيتمه ، ولا يخطر بالبال أنه هضم حق نفسه لأنه سار على سَنَن من تقدمه ، والغرب أقرب إلى تسلسل الفكر أو قل أقرب إلى القانون .

وإذا قيل إن مدنية الغرب مادية صرفة لأنها تضم المعنويات كثيراً فمدنية الشرق كثيرة المعنويات وشأن الماديات فيها قليل ، أو هو فيهما متساوى . والماديات هى السلم الموصل إلى بلوغ القوة وهى معنويات لن تجرد من المادة ، وهل من عناء للضئيل فى الجماعات كالقوى .

دهشت من كل ما وقع بصرى عليه من أعمال الإنسان فى أول رحلة رحلتها إلى الغرب فعلمت أنى أصبت بداء الاستحسان ، لا تقع عينى على شيء إلا استحسنته ، وظلت هذه الدهشة يدخلها التعديل الحين بعد الآخر كلما زادت المعرفة بالغرب ، وتحدثت النفس بسر هذه العظمة التى يشاهدها المرء فى كل جيل من أجيال الإفرنج ، وفى كل صقع من أصقاعهم ، وقد لامنى بعض أصحابى لأنى دونت من مدنية الغربيين فى كتابى (غرائب الغرب) كل جميل وسكت عن غيره . وقال : كان الأولى أن تذكر الحسنات والسيئات . وعذرى إليه وإلى من قال بقوله أنى كنت أريد أن أعرف قومى بالحسنات ليسجون على منوالها ، وما كنت لأطمع فى أن أشغل الأذهان بأمور لا يجهلونها بلد الخط أو الرقى . وعندنا من سيئاتنا ما لا نستطيع تدوينه ونحمر خجلا من ذكره . ومن العدل أن نقول إننا بقدر ما نرى فى المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل ، والفضائل تربو على عيوبها كثيراً . والأمثل بقومنا أن يقتبسوا الخير ويغضوا الطرف عن الشر .

أتت أوربا بهذه المدنية الساحرة فاستمتعت بما أنشأته الإنسانية جمعاء ، ويغتفر النقص القليل فيها فى جنب ذلك الكمال . ولا نقول الكمال المطلق لأنه لا يرجى أن يكون هذا فى البشر ولا وقع فى عصر من العصور التى انتهى إلينا خبرها .

اخترعت أوربا وأميركا أموراً جمعت بأمراض الإنسان ، واخترعت ما يعجل في إزهاق روح الإنسان ، اخترعت أدوية قللت من عدد الوفيات كعلاج الجدري والحميات والأوبئة والأمراض الزهرية والسكر والحدق والنقرس الخ . وكثرت بالمدنية أمراض السرطان والسل وأوجاع الأعصاب والكلى والأمراض العصبية والعقلية. وكان معظم انتشار هذه الأمراض من ازدحام السكان في بقعة واحدة ، ومن رغبة الفلاحين في مغادرة القرى إلى المدن وتتخذها سكناً . فالمدن في الغرب يزيد كل سنة سكانها بمن يهاجر إليها من أهل القرى لأنهم يدعون إلى أن العيش في المدن أرفع وأرفه ، والشرق يسير على هذه السنة ، تضج مدنه بإغرائها سكان القرى على ترك مزارعهم .

رأى القرن التاسع عشر البخار والكهرباء ومنها نشأت أكثر أدوات هـذه المدنية الحديثة ، فكان من أبرك العصور على الإنسانية ، واخترع أشياء في الطب والجراحة خففت من ويلات الطواعين والأوبئة والأمراض الوافدة والأوجاع المؤلمة، ولكن بدأ فيه استعمال المورفين ثم تممه الكوكايين والهيروين وكثرت السموم من المشروبات الروحية فأضرت بالعقول والأجسام . ورأى هذا القرن أنواعاً من الاختراعات عرف الراديوم والراديو واخترعت الطيارات والسيارات والغواصات إلى غير ذلك .

يقول رجال الطب والصحة إن هـذه الحياة الشديدة ، والنشاط المتواصل ، والحرص الذي استولى على النفوس سيؤدي بالمدنية الحاضرة إلى البوار . ذلك لأن أهوية المدن مشبعة بالغبار والمركبات الضارة وقليل الأوكسجين فيها . وفيها تكثر الأمراض وتنتقل من السقيم إلى السليم بسرعة وتكثر المسكرات والموبقات ومعظم هذه العيوب خاصة بالممالك الصناعية، وللصناعة أدواء كما للزراعة أدواء. وكيف تجود الصحة مثلاً في

مدن لم يكتف أهل الغرب أن بنوا على سطحها وأخذوا يبنون بيوتهم فى جوها . وفى مدينة نيويورك يوجد دار مئة طبقة ، وقد قدروا عدد السكان فى كل كيلو متر واحد من هذه العاصمة العظيمة بثمانين ألف ساكن . أما المدن ذات الطبقات العشر فى أوربا فهى من الشيء العادى الذى لا يوجب دهشة ولا استغرابا .

قللت الصناعة فى الغرب من رغبة الناس فى الزواج لأن العاملة لا تستطيع أن تكون زوجة وأما وهى تكد طول نهارها وجزءا من الليل فى المعمل ، وقللت الرغبة عن تجنب الموت والأسر والتفريق بين السنين ، والرحيل إلى انتشار المهر ، فقلت المواليد فى فرنسا أولا ثم أصيبت بهذا النقص أخيرا بريطانيا العظمى وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة ثم أوستراليا وسويسرا .

وأصبح بعض أهل المدن لا يفكرون فى الزواج ، وإذا تزوجوا تحيلوا لإفساد طرق التناسل مؤثرين العقم على كثرة النسل . أعرف عشرات من الرجال المذكورين فى الغرب وقد بلغ بعضهم سن اليأس أى بلغ الشيخوخة ولم يتزوج ، ونحو العشر ولد أولاداً وتسعة الأعشار الباقية عاش أربابها عقماء . وربما أدى نقص عدد الرجال لكثرة ما أفنت الحرب فى الغرب إلى اضطراره أن يقضى بزواج اثنين فى المستقبل لأن الحروب الأخيرة قضت بأن يزيد النساء على الرجال فى أكثر الممالك بضعة ملايين.

لا جرم أن للإقليم أثرا فى أخلاق الشبان والشابات ومن تأخر سن البلوغ فى شمالى أوربا نشأت منه فوائد . ومن طبع سكان الأقاليم الباردة الصمت والانكماش وأهل الأصقاع الحارة أو المعتدلة يهيمون ويثرثرون ، وسكان الشمال يتماسكون فيتعصبون على أعصابهم بعض الشيء ويغلب عليهم العبوس والتقطيب . وسكان الجنوب يطربون ويهزلون ويضحكون ، والشماليون يداوون جفاء الهواء برياضات جسمية عنيفة

يقومون بها كل يوم، أما الجنوبيون فهم فى غنية عن كل ذلك لحرارة أرضهم ولأن فصولهم معتدلة فى الجملة .

والسر الأعظم فى غنى الغرب وتقدمه أن عامة الغربيين وخاصتهم، أغنياءهم وفقراءهم رجالهم ونساءهم يكدون للتكسب فلا تكاد تجد من لا يعمل أو لا يعمل فى فائدة تعود عليه وعلى أمته بالخير . أما فى الشرق فالعامل من يحتاج إلى رزقه ورزق عياله اليومى ، وتجد فى أهل اليسار من الشرقيين الشاب القوى العضلات والشابة الذكية الفؤاد وكلاهما عالة على أهله . وهذا لا تكاد تجده فى الغرب .

تأملوا حال أسرة مؤلفة من والدين وأربعة أولاد ، الوالد يشتغل فى حرفته والوالدة تقوم على تربية أولادها وإدارة منزلها ، فإذا فرغت شغلت أوقات فراغها فى تطريز أو خياطة أو نسج أو تصوير أو موسيقى أو مطالعة أو غير ذلك ، والولد بعد المدرسة الابتدائية يشتغل فى حقل أو دكان أو مصنع وأخته كذلك . تأملوا هذا وقدّروا ما يدخل تلك الدار من المادة بصنع ربتها وأولادها، لا شك أنه ضعف ما يربح رب البيت وحده عندنا على أقل تعديل ، فكل إنسان هناك مهما كانت منزلته إذا بلغ سن الرشد أو قرب منه يعيش لنفسه بنفسه ، رجلا كان أو امرأة . أما الشرق على الغالب فيلقى أموره على الأقدار ، وهو كالحلمة الطفيلية لا تعيش إلا بامتصاص دم غيرها . ولو كان قانون المواريث عندنا كقانون الإنكليز لا يرث الثروة المخلفة إلا البكر الأولاد وغيره يحرم مال أبيه لمات ربما جوعاً . إذا عرفت هذا صح أن نقول إن جميع قوى الغرب من جماد وحيوان وإنسان مستثمرة منتفع بها وبعض قوى الشرق بحيوانه وجماده وإنسانه ضائعة مبعثرة .

فى اليوم الذى نرى فيه المعلمين فى هذا الشرق القريب ، فى المعامل والمصارف والمخازن والحوانيت يسوغ أن ندعى أن الشرق ارتقى وأصبح أهلاً لأن يجارى الغربى فى معظم مظاهر الحياة . فى اليوم الذى يجد فيه الإنسان عشرات من أهله إلى اللحد بدون انقطاع يصح أن ندعى أن أمة ناهضة ولا من نزعنا هذا اللقب . فى اليوم الذى نرى العالم والعامل فيما يشتغل فيه ساعات لا يبالى التعب ، ويمتنع عن أكثر اللذائذ إذا كان فى ذلك فائدة لأمته ، نرجو أن يتم لنا عمران وحضارة . فى اليوم الذى لا يسل أولاداً إلا بقدر ما يستطيع أن يربى منهم ، ولا نتركهم للطبيعة يموت من يموت منهم ويعيش من يعيش منهم غير متقين صحتهم ونشأتهم ، فى اليوم الذى يصبح به حال المرأة فتدرك أنها قسيمة الرجل فى حياته وشريكته فى بيته لا يفرق بينهما إلا الموت ويعرف الرجل لها حقها الطبيعى لا يعتدى على شىء منه ، فى اليوم الذى يقوم كل منا بوجهه متمكناً مع أخيه بكانف الأمة ، فى ذلك اليوم نعد شيئاً مذكوراً فى مجموعة أمم العالم ، ونستعيد بعض مجدنا السالف .

كتب إلىّ صديقى العلامة جويدى شيخ علماء المشرقيات بإيطاليا فى عصره يقول : وإن كان شاعركم العربى قال :

وماذا تبتغى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعين

فإنى قد ذرفت على الثمانين ولا أزال أعمل فى صحة ونشاط . ولما كتب ذلك كان فى الرابعة والثمانين من عمره وهو كأنه ابن أربعين فى حركته . وسعدت بأن عرفت عشرات فى الغرب من غرار هذا الرجل العظيم فى الدؤوب وهم فى سن عالية ، وقلت لهم الأمثال بين العلماء فى هذا الشرق العربى . والنابهون منهم فى أرضنا ينتظرون

عطف الحكومات ، وقلّ من يعمل في كهولته وشيخوخته في العمل الذي استعد له في فتوته ، لذلك تراهم لا ينتجون .

الغربي يحاذر أن يموت بدون عمل ومن لا يشتغل يعدّ في حكم الأموات . والشرقي إذا أكره على العمل يذهب في أوقات معينة من حياته فيدأب أحياناً فيظهر أثراً صغيراً أو شذرة من أدب وعلم أو يجمع قليلاً من المال اغتبط به ، وعدّ نفسه بلغ أقصى الغايات ، وربما بطر وأسرف وأتلف . ومن الشرقيين من يحبون أن يشتغلوا ولا يتعبون أنفسهم في تحصيل رزقهم .

والعلة في الشرقي أنه لا يتعلم صناعة فيتقنها بل يقف عند حد السهل منها ، لا تحدثه نفسه أن يتخصص فيها تخصص الغربي ، وليس التعميق كالتحقيق ولو طليته بطلاء ظاهر ، وحقيقته قلما تراه خالياً من خلل ، والشيء ما لم تجده من نفسك لا تبرز فيه ، وما نجح إنسان بغير الإتقان .

وعلى الجملة فإن حسنات الغرب في عمله أدعى إلى الإعجاب من حسنات الشرق ، فإنها قلما تجمد عند حد الأقطار أو النظريات ولا يقوم بها القول ، والحديث أمانة ، والإنصاف فيما نقول أحجى ، أن الشرق اليوم ينسج على منوال الغرب ، إذا ضاعف جهوده ، وبعد ذلك ، لا يمضي جيل أو جيلان حتى يتشابه الشرق والغرب في أساليب عمرانهما وطرق تعليمهما وموارد عيشهم ، ولكن هل تكون ذهنية الشرق كذهنية الغربي ؟ هذا فيما يظهر يحتاج إلى زمن طويل ، وربما تبقى في ناحية من نواحي الذهنيتين بعض فروق .

لقد تتشابه عقليات الغربيين على تخالف درجات رقيهم في المدنية . والعقليات ابنة العلم والدرس وكلهم يدرسون ، يأخذ كل امرئ من العلم بحسب طبقته وطاقته

وهذا من أهم أسرار حضارتهم ، وعناية الغرب بالاختصاص في العلوم والصناعات ، وعدّهم كل حرفة شريفة .

ومما أخر الشرق كون بعض أهله يدّعون معرفة كل شيء فكانوا لا شيء . إن دعوى التفوق دعوى باطلة . فحرى بالعاقل أن لا يحكم قبل أن يعلم وينظر بنفسه ، وألا يحكم بما تخيل له وهو لم ير أكثر من بيته وبلده .

رأيت الغربي يفكر وهو صغير السن في موضوع يقع من نفسه موقعاً لذيذاً ويتصور منه فائدة له ولأمته وهو لا يزال على الأيام يتوسع فيه ويتمكن من جميع أطرافه . أما الشرقي الذي في سنه وبابه إذا فكر في شيء من ذلك ، لا يلبث أن يرجع عن فكرته الأولى ، وقد يستعيض عنها غيرها أو لا يستعيض ، ويدخل في عالم آخر وكثرة الذكاء قد تضر بالشرقي ، والذكاء المحدود المنظم مع الغربي .

قل أن رأيت في الشرقيين أناساً يحبون العلم للعلم ، ويبحثون في المطالب العقلية والأدبية حباً بها أو رجاء أن يأتيهم بجديد وتعود عليهم وعلى أمتهم بمنفعة ، أما الغربي فيبحث ويدرس ويتعمق ويغامر للوصول إلى شيء من المجهولات يورثه الذكرى الحسنة في عاجل أيامه وآجلها . وليس عند الغربي وقت معين للتعلم ، يتعلم ما دامت به الحياة ، ولا يمنعه مقامه ولا ماله من النظر فيما لا يعلم . يدقق فيما يهمه ويدوّن ويسجل مخافة أن تضيع أتعابه سدى أو يعرض لتحقيقاته ما ينسيه إياها ، أو لا يتمتع بها من بعده . ولا يخلو الغربي من مذكرة يكتب بها ما يهمه لحاضره ومستقبله ، وما عرفه وما جهله ، وما عمله وما يحاول أن يعمله . أما الشرقي فهذه مسائل يعدها غير حرية بالعناية إذا احتاجها بحث عنها ، وإذا لم يجدها فالخطب أهون مما يتصور

العربي ووضع الجزازات والمفكرات والمصنفات من أعون الأمور على التذكر والتفكر وهي عند الغربيين مألوفة كثيرة .

ولكم رأيت أناساً من الغربيين درسوا لغات جديدة وعلوماً لا عهد لهم بها وهم في سن متأخرة أي بعد الستين وما فوقها من سنيهم ، ولا ضعف من أحداث طبعهم ، وظلوا مثابرين على ما بدأوا به حتى تمت لهم أمنيتهم ووصلوا إلى مقصودهم ، وقد يكون منهم الأرباب والعظماء الذين شبعوا من كل مظهر في الحياة وكانوا يدركون أن الغنى والجاه والسلطان لا تغني صاحبها وغناه قد يبعد ويبعد منه

ما دخلت في الغرب محلاً عاماً في أوقات الفراغ إلا رأيت الكتب والصحف والمجلات في الأيدي ينظر فيها أصحابها بنظر تدبر ، وقل أن دخلت محلاً في الشرق جمع أصنافاً من الناس إلا رأيتهم يحدق أحدهم بالآخر ، و يصرف الوقت في العبث غالباً ، كأنه يريد أن يقطعه بأي حال كان ، أما الغربي فيقطعه في الاستزادة من المعرفة ويأسف على ذهابه جزافاً .

زرت كثيراً من قرى الاصطياف في الديار الشامية وكان زوارها من أهل البلاد والأقطار المجاورة كمصر والعراق ومنهم غربيون من أمم مختلفة فندر أن رأيت عربياً يحمل كتاباً ينظر فيه ، وهو يتبرم بقضاء الوقت وينتظر بفارغ الصبر وقت اللعب أو الطعام أو الرياضة والتنقل ، أما الغربيون في هذه المصايف فرأيت أكثرهم يحملون بأيديهم كتبهم ومجلاتهم وجرائدهم و يسرحون فيها ساعات متلذذين مغتبطين لا يملون ولا يكلون ، أليس هذا دليلاً آخر على ما عندنا من نقص ظاهر وما عندهم من تطلع إلى الكمال ؟ ولو تعلم واحدهم كل يوم مسألة لكان خليقاً بأن يبلغ به درسه بعد عشرين أو ثلاثين سنة من حياته مبالغ العلماء ، والعربي لا يرجى منه الخير عندما

دال على التلهي بالمحال وصرف العمر في الثرثرة وإضاعة الوقت . ذكر بعض أرباب السياحات من المشارقة أن بعض بيوت الفقراء في انكلترا كانوا يصورون على الجدران في غرف الاستقبال صور كتب مجلدة تجليداً حسناً موضوعة في خزانة ليرى الداخل أن لصاحب البيت مشاركة في المعارف، وأن هذه الكتب بعدد صورته ومثاله ، وهو يفاخر بالكتب كما يفاخر أهل النعمة باقتناء العاديات والأعلاق النفيسة أو كأن لسان حال صاحب البيت : إن كانت حالي لا تسمح لي أن أقتني أعيان الكتب وأجملها في خزانة فلا أقل من أصورها وأتمتع بمنظرها الجميل . أما في الشرق فقلما رأينا بيتاً يقتني الأسفار ويضعها على رف أو يحفظها في خزانة ينتفع بها هو وأولاده وأهله للاستفادة .

ووقع لي أن كنت أزين لبعض من أعتقد فيهم استعداداً واستطاعة أن يقتنوا الكتب في جملة ما يقتنون من الأواني والطنافس، وكنت من جملة ما أعمد إليه لبلوغ هذا الغرض تشجيعهم على ذلك بإهدائهم كتباً وأحتال عليهم أن يطالعوها لأحببهم بغيرها، ولطالما حملت بعض أرباب النعمة أن يجمعوا الكتب بالتدريج فما نجحت دعوتي كثيراً لأن الشرقي ابن الجمود لا تحدثه نفسه أن يخرج عنه . وقد شهدت أن كثيراً من المعلمين والقضاة والأدباء والأطباء ليس في بيوتهم كتب ، ثبت لي أن بعض هذه الفئات ودعوا كتبهم في المدرسة وما فكروا أن يقتنوا ما ينير أبصارهم ويساعدهم على إتقان صناعاتهم، وهذا من جملة الفروق بين العربي والغربي .

وحب الاستطلاع حدا الصحف الافرنجية على أن تنشر كل يوم بسائط من العلوم والمعارف في قوالب مقبولة لأن قراءها يطلبون منها هــــذا ليتعلموا منه .

فالجرائد الكبرى عندهم مدارس يومية تلقى على قرائها ما يروقهم و يأخذون منها ما يغير أفكارهم . تحمل فى صفحاتها جميع رغبات الناس ، ولذلك كان مستوى عقول من تعلموا منهم التعليم الابتدائى أرقى ممن تعلموا هذا النوع من التعليم عندنا . ومن أجل هذا كانت جرائدهم غير جرائدنا فى هذا الباب . وفى الصحف الإفرنجية التى تصدر فى مصر نموذج من صحف الغرب الكبرى يسقط القارئ فيها على ما لا يجد مثيلاً له فى الصحف العربية من مقالات وفصول طريفة تسلى وتعلم .

—

القول في خلافة الاسلام

لم يستخلف صاحب الرسالة (عليه الصلاة والسلام) ولم تبدُ منه إشارة إلى أنه يريد أن يعهد من بعده لأحد . ولما اشتد وجعه الذي مات منه قال فيما روى أصحاب السير : ائتوني بدواة وبيضاء فأكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدي أبداً . فقال بعض من حضر إن رسول الله قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . وأكثروا اللغو واللغط فقال الرسول قوموا .

وأدرك أهل الحل والعقد من امتزاج الرسول بأبي بكر الصديق وبما أُشير إليه في القرآن من أنه صاحبه في الغار (ثاني اثنين إذ هما في الغار) ومن طول عشرته له ، ووقوفه على مقاصده ، أنه كان حقاً وزيره وصاحبه المقدم ، خصوصاً وقد أمره في مرض موته أن يصلي بالناس ، فقال الناس إنه ارتضاه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا .

وهناك عدة شهادات في أبي بكر بدرت على لسان الرسول في أوقات مختلفة تشعر بمنزلته من قلبه ، ومنها لما قدم من حجة الوداع ، وكان بلّغ رسالته ، وأوصى بما أوصى به ، خطب وقال : « أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قط فاعرفوا ذلك له ، أيها الناس إني عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض فاعرفوا ذلك » ولهذا انقاد المسلمون لإمامة أبي بكر وبايعوه بالإجماع حتى العباس وعليّ . وقال أبو بكر للعباس : « إن الرسول خلّى على الناس

أمرهم ليختاروا لهم فى مصلحتهم ، متفقين لا مختصمين ، فاختاروني عليهم والياً ولأمورهم راعياً » .

ربى الرسول رجالاً يعرفون ما يصلحهم وما يفسدهم ، فكانوا أحرياء أن يولوا عليهم من يحسن الولاية ، ويقدّروا من هو أولى بالتصدر ، وليس من المعقول أن يعين الشارع شخصاً بعينه لخلافته ودعوته دينية ، وهو ما لجأ فى حياته إلى القوة إلا لما أعجزته الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالقوة تحمى دعوته على نحو ما كان فى النصرانية أول ظهورها فى الغرب ، فيها اضطهدت اضطهاداً كاد يجتث أصولها ، فما واتتها القوة محا دعاتها من الظلم والقتل وتهيأت الطرق لنشر دينهم .

وأوصى أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وجعلها هذا فى جماعة من كبار الصحابة الذين كان الرسول راضياً عنهم ، فاختاروا من بينهم عثمان بن عفان ، فلما قتل بايع أكثر العرب على بن أبى طالب إلا أهل الشام والجزيرة وبعض الأمصار . وبوقعة الجمل انتظم له أمر العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس والجبل وخراسان ، وبقى معاوية فى الشام لم يبايع حتى وقع الاتفاق على التحكيم بين على ومعاوية عقب وقعة صفين ، فخلع صاحب على علياً ، وأقر الحكم عن معاوية صاحبه ، وخرج على من هذه الصفقة خاسراً ، وقد نشأ من الوقعتين المشؤومتين الجمل وصفين مذهب الخوارج خرجوا على على وكفروه بعمله واعتزلوه ، ومذهب الشيعة شايعوه وأقروه على كل شيء .

ولما قتل على كانت كفة معاوية راجحة ، فبايعه الصحابة خوف التفرقة ، وتنازل له الحسن بن على عن الخلافة ، فأنشأ معاوية فى الشام ملكاً مصبوغاً بصبغة دينية كانت الخلافة من جملة مظاهره . وفى خلافة يزيد بن معاوية قتل الحسين بن على ،

وكان أهل العراق ألحوا عليه أن يوافيهم من الحجاز ليطالبوا له بالخلافة فخذلوه لما جدّ الجدّ ، وقتل مع الحسين معظم آله ، فصفت الخلافة لبنى أمية ، خصوصاً بعد أن قضى يزيد على عبد الله بن الزبير الذى كان استخلف فى الحجاز وخطب له فى اليمن ومصر والعراق وفارس عدة سنين .

* * *

كان الخليفة من بنى أمية يعهد فى الأكثر إلى ابنين بولاية العهد ، ولا يعهد إلا إلى الكفء الحصيف ، فعهد معاوية إلى يزيد ، وعهد هذا إلى ابنه معاوية فلم يتقلدها بالفعل ، وما أراد عند موته أن يوصى بها لأحد ، وما رضى أخوه خالد أن يتولاها ، وأخذ مروان بن الحكم الخلافة بالسيف ، وهو أول من فعل ذلك ، ولولا هذا لخرج الملك عن بنى أمية إلى بنى أسد بن عبد العزّى . وجعل الأمر بعد مروان لخالد بن يزيد بن معاوية ولعمرو بن سعيد الأشدق . وأراد عبد الملك بن مروان أن يتوقف فى تقلد الخلافة فهدده بعض آله بالقتل فقبلها .

بقيت نفوس آل علىّ وآل العباس تشرئب للخلافة يعتقدون لأصالتهم وشرفهم أنهم أحق بها من سواهم ، فيردهم عنها سلطان بنى أمية . ولم يبق أمام طلاب الخلافة بعد أن أخفقوا مرات فى طلبها ، إلا أن يعمدوا إلى إنشاء جمعيات سرية ، تتخذ الأسباب لتولى الخلافة ، وكانوا بايعوا لإمامهم محمد بن الحنفية من أبناء على بن أبى طالب . فولّى هو فى حياته ابنه بعده ، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلا . وعلم به خليفة الوقت سليمان بن عبد الملك الأموى فسأله فأنكر ما عزى إليه ، وأتى الحُمَيْمَةَ فى جنوبى الشام ، وبها آل العباس فعهد بالخلافة بعده إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فأقام خليفة سراً حتى مات ، وعهد بالأمر بعده لإبراهيم بن محمد

فقتله الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وقيل إن إبراهيم بن محمد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس .

واختار الخليفة العباسي أن يجعل من خراسان مبعث دعوته ، لبعدها عن عاصمة الأمويين ، ولأن قلوب أكثر أهل خراسان منحرفة عن الأمويين ، وقلوب أهل الشام مجمعة على مناصرتهم ، وتولى أبو مسلم الخراساني كبر هذا الأمر ، وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم أن يقتل من يشك فيه من مضر ، ولا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية ، وأى غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه فليقتله . واشتد أبو مسلم في قتل أبناء المهاجرين والأنصار ، واستمر الشنآن بين العزارية والحمانية ، وتحرب الناس بالمثالب ، فغلب أبو مسلم صاحب الدعوة على خراسان ، ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس سنة ١٢٧ هـ ، وصُبغ أول سواد ابتدعته المسوّدة أي بنو العباس . وكان البياض شعار الأمويين ، وأصبح الناس يقتلون بالألوف بين المسودة والمبيضة ، وما وضع أبو مسلم الخلافة في أيدى بني العباس بالكوفة حتى كان قتل ستمائة ألف إنسان !

وتسلط أبناء خراسان على الدولة ، وصحّ تخوف عمر بن الخطاب من الفرس يوم قال : اللهم لا تدركني أبناء الهمدانيات والاصطخريات ، وعدّد قرى من قرى فارس ، الذين معهم قلوب العجم وألسنة العرب . وانقلبت الدولة الإسلامية فارسية وكانت عربية في كل مناحيها في العصر الأموى . وكان استيلاء أبناء خراسان على الأمر أول ظفر كُتب للفرس على العرب ، بعد أن دك العرب سلطانهم في وقعة القادسية ، وأخذت المجوسية تفنى في دين التوحيد ، وتراجعت الحضارة الفارسية واصطبغت بصبغة عربية .

استولى العباسيون على الملك ، وأبعد آل العباس آل على عن الخلافة » وكان آل العباس وآل أبي طالب شرعاً في المطالبة بالخلافة ، ولذلك سموا شيعة آل محمد ، ولم يكن إذ ذاك بين بنى على و بنى العباس افتراق فى رأى ومذهب » . ونقم الطالبيون على العباسيين لما استأثر هؤلاء بالأمر فأصبحوا الحزب المعارض فى الدولة تثور شيعتهم كلما وجدوا باباً للمطالبة بالملك ، وكيف لهم به وأسباب القوة كلها فى قبضة آل العباس، وكان المنصور خليفتهم الثانى يقتل على الشبهة ويعطى الامان ثم ينقضه .

تولى السفاح الخلافة العباسية على صغر سنه لأن أمه عربية ، وليس فى بنى العباس من أمه من الحرائر غيره . وادعى السفاح وآله فى أول خطبة خطبوها فى الكوفة أنهم ما خرجوا فى طلب هذا الأمر ليستكثروا اللجين والعقيان ، ولا ليحفروا الأنهار ويبنوا القصور ، وأنهم أخرجتهم الأنفة من ابتزاز الأمويين حقهم والغضب لبنى عمهم ، فما هى إلا أعوام قليلة حتى احتجنوا الأموال وأسرفوا فيها ، وأقاموا القصور والمصانع ، وتمتعوا بكل ما فى الحياة من متاع ، وقتلوا بنى عمهم .

* * *

كانت طريقة توريث الخلافة عند العباسيين أيضاً أن يعهد الخليفة لابنه بعده ، ولم يكن الاختيار موفقاً كثيراً ، فيتغلب على الخليفة ما فى طباع البشر من الأثرة وحب البنين ، ومن النادر أن تأتى الكفاة إلى الخلافة ، وأن ينجب النجيب نجيباً . ومن تأمل سيرة العباسيين لا يجد فيهم أمثل من المنصور والرشيد والمأمون والمعتضد ، وأكثر من عداهم كانوا إلى الضعف على حين كان فى آلهم من هم أكفأ منهم ، وإنما ساقت الأقدار فلاناً للقبض على زمام الامامة لأنه بكر أولاد فلان ، فيجىء الضعيف لتولى الخلافة بحكم قانون الإرث أو قانون المصادفات الغريبة ،

ولذلك رأينا القتل يكثر في خلفائهم ، ورأينا خليفتهم يصبح في معظم العصور أشبه شيخ طريقة أو قيم رباط لا إماماً يجمع بين مصالح الدين والدنيا ، يأمر فيأتمر الناس بأمره ، وينهى فلا يراجع ، يجيش الجيوش ، ويقتل أعداء الملك ، ويفوض الأمور إلى الأكفياء يعاونونه في حمل أعباء الحكم ، بعيداً عن المصانعة والخوف إلا من خالقه .

كانت مسألة ولاية العهد من أعظم مشكلات الخلافة ، وإرادة الخليفة في توسيدها هي المطاعة النافذة ، وقد يأتي بما يخالف ما عقدوا وبتّوا . فالسفاح عهد بولاية العهد لأخيه ولابن أخيه من بعده ، فانتزع الخليفة بعده ولاية العهد من ابن أخيه ليجعلها في ابنه ، والرشيد فوض ولاية العهد لثلاثة من أولاده فما سلمت الحال من فتنة عظيمة بين المأمون والأمين ، لأن هذا حاول أن يعهد لابنه الطفل بولاية العهد ويقصي عنها أخاه المأمون المجمع على كفاءته .

ومذ أصبحت الخلافة على العهد الأموي ملكاً عضوضاً ، تقوم على التغلب والعصبية ، وتورث ويتنازل عنها ، كانت الأيدي التي تتداول الخلافة تختلف ضعفاً وقوة . وإذا وصفت خلافة الراشدين بأنها خلافة النبوة ، فإن خلافة من بعدهم من بني أمية وبني العباس جديرة بأن يطلق عليها خلافة الدنيا ثم الدين . ويوم كان أولياء العهد يربون تربية حربية ، ويشتركون منذ الصغر في تولي الأحكام ، كما كان من الرشيد وابنه المأمون ، كان يتولى الخلافة خلفاء يعرفون خطورة منصبهم ، فيعملون كل ما يعمله الرجل العظيم ، ولما ضيق خناق أولياء العهد وسلبوا حريتهم ، وأصبحوا يمنعون عنهم بعض الكتب وما تهفو إليه نفوسهم من ضروب العلم ، وأبعدوا عن اشتراكهم في

إدارة الملك وسياسته ، صار يجيء منهم البله والفسقة ، وخرجت الخلافة عن صورتها الأصلية وكادت أن تكون اسماً بلا مسمى .

أقام العباسيون منــذ أول أمرهم دعاة لهم يبثون المعوس لكل ما يمعهم فى سلطانهم، يحمدون بنى العباس إلى الناس حتى ليقر بونهم من مراتب الربوبية أو نحوها، وبذل العباسيون فى ذلك أنواع البذل ، ولقد أفرطوا فى استغلال هــذا الشرف . فوضعت لهم الأحاديث المكذوبة تأييداً لهم ، وقتلوا كل من خالفهم ولو فى سره ، قتلوا كثيراً من العلماء ، لأنهم ذكروا أشياء تضر بخلافتهم ، وكانوا كثيراً مايتهمونهم بما لم يعملوا ، ويصنّعون عليهم التهم ليستحلوا أمام العامة قتلهم ، أراد المهدى أن يقتل القاضى شريكاً لأنه حدّث بحديث الأعمش عن سالم عن ثوبان أن النبى عليه السلام قال: « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء » .

قضى هولاكو التترى على الخلافة العباسية فى بغداد سـنة ٦٥٦ وأعاد المماليك لبنى العباس خلافتهم فى مصر زمناً ، وكانت الخلافة العباسية كسفت شمسها بعض الكسوف منذ القرن الثانى بقيام بنى أمية فى الأندلس يتخذون لهم خليفـة مستقلاً عن الخلافة العباسية . وجاءت فى القرون التالية ثلاث خلافات « العباسية والأموية والفاطمية » فى آن واحد ، وأتت أزمان كما هو الحاصل الآن وليس للمسلمين خليفة . وكان أكثر من تقلدوا هــذا الاسم الشريف خلفاء بنى العباس ، دامت خلافتهم بالضعف والذل نحو سبعمائة سـنة ، وبالقوة والعز بحيث استحقت صفة الخلافة نحو مئة سنة فقط . وما قضى على العباسيين القضاء الأخير إلا بفتح السلطان سليم العثمانى

الشام ومصر ، وأخذه الخليفة العباسى من القاهرة إلى القسطنطينية ، وبذلك آخر العهد بخلافته .

* * *

كانت الخلافة أيام الراشدين والأمويين فى الشرق والغرب وبعض عهد العباسيين الأول هى الكل فى الكل ، فأصبحت لاشىء أيام الدول الصغرى المنبعثة من الدولة الكبرى . كانت الخلافة كلها قوة ، ولما تراجع أمرها أصبحت كلها ضعفاً . كانت جداً كلها فانقلبت إلى ما يشبه الهزل . وما خلافة لا يؤيدها سيف ماضٍ ، وما دولة ليس من ورائها جيش يحميها ، ولا سلطان مستقل إليه وحده القبض والبسط والخفض والرفع .

كانت الخلافة من أسباب تداعى الدولة الإسلامية بما شبّت فى سبيلها من فتن قضى فيها على صفوة من رجال الأمة . وقدّر الله أن تتدخل امرأة فى السياسة فكانت وقعة الجمل المشؤومة ، حاولت السيدة عائشة أن تعاون معاوية على علىّ ، لأن علياً بدرت منه فى حقها ، يوم رُميت بالإفك وهى بريئة ، كلمات قالها لرسول أحفظت قلبها عليه . فلما قتل عثمٰن رأت أن تعاون على إخراج القتلة ، وعمى آخر أن تظاهر معاوية على أخذ الخلافة ، فكانت وقعة الجمل ثم وقعة صفين ، وبهما ضعفت الأمة ، وهى فى دور أشد ما كانت فيه احتياجاً إلى الاستقرار ، والعمل لما يؤيد الدعوة ، والابتعاد بها عما يوهنها .

لاجرم أن قصة الخلافة الإسلامية فى الصدر الأول مجموعة مآسٍ تكتئب لها النفوس كما ذكرت ، ولابد من تذكرها لأنها أهم مسألة فى تاريخ الملة ، وقد رأينا الأمويين لم يغفلوا ساعة عن أعداء خلافتهم فتتبعوهم شر تتبع ، لم تأخذهم بهم هوادة ،

وكذلك فعل أبناء العباس بخلافهم الأمويين يوم هبوا لأخذ الملك منهم ، وزادوا وبالغوا في النقمة على وجه لم يصور تاريخ الخليقة أشنع منه . وكان أبناء عليّ طماعاً للخلافة في العهدين الأموي والعباسي ، وكلما اشتدوا في الحرص عليها قذفتهم القواذف عنها ، وإذا اتفق أن أسسوا لهم ملكاً ويرثونه باسم الخلافة كما فعل الإسماعيليون من أبناء فاطمة في مصر ، فخلافتهم ما كانت على الأمة أسعد من غيرها . ولا خلاف في أن بني عليّ سادة المسلمين من حيث تبليغ الرسالة ، وأن شؤون الدنيا ذهب بها غيرهم لأنهم عرفوا إلى تدبيرها أكثر منهم ، ولو عرف الرسول عنادهم فيها ما دفعهم عنها.

في الخلافة تشعبت الأمة شيعاً وذهبت مذاهب إلى حيث تبث المتاعب ، فأصبح المسلم يبغض أخاه المسلم الذي لا يرى رأيه في الخلافة أكثر مما يتباغض أهل الأديان الأخرى ، وكان من هذه المحنة الشديدة وهذا الخلاف المزمن طريق للغريب تسلل منه ، فعمل بكيده للإسلام وفض جامعة المسلمين .

ومن أجل الخلافة ضاعت فرص على الأمة كانت من أعظم ما يتمم انتشار كلمة الإسلام في الأرض ، وذلك أن دولة العرب قامت في عصر كانت قد اضمحلت فيه دولة الرومان وأصبحت دولة الروم البيزنطية في حالة هرم ظاهر ، ودكت دولة فارس الشرقية وأصبحت ولاية عربية . وليس في أوربا ولا في آسيا دولة يرهب بأسها وتسمع كلمتها غير دولة العرب الجديدة . ولو لم تشتغل دولتهم بنفسها ، ويدب الفساد في صفوفها، لتقدمت جيوشها ففتحت القسطنطينية ، وبفتحها ينتشر الإسلام في أوربا الشرقية ، كما كان أخذ ينتشر في الطرف الجنوبي الغربي عن طريق الأندلس .

كان الإسلام سلاماً كله ، فاضطرت السياسة أعاظم رجال بني أمية أن يجرح شيئاً

عن بعض قواعده، فتحرك في العرب عرق التعصب للقبيلة، والإسلام قضى على الجنسية والعصبية، وقضى على أهل هذه العصبيات، فجعل من المسلمين كتلة واحدة على اختلاف الجنس وتعدد القبائل، فحاد بنو أمية قليلا عن هذا القانون، وأحيوا بعض عادات الجاهلية، فسمح بإرجاع نغمة العصبية بعض الشيء، وأضاع من جهة أخرى أشياء، عادت نغمة التعصب للقبيلة تتردد فتصير أكثر مما عهد.

استعمل معاوية دهاءه في دفع الحسن سبط الرسول عن الخلافة، وأرضاه بالمال وبامتيازات اعترف له بها، ثم حمل الصحابة والتابعين على مبايعة ابنه بولاية العهد، فتم له ما أراد، ورأى العقلاء بيعتهم له على إرادة اجتماع كلمة المسلمين، لأن بني أمية يومئذ كانوا أصحاب العصبية القوية، ولولا ذلك لكان في الصحابة من هم أفضل من يزيد، ولكن يزيد كان صاحب العصبية، وصاحب السياسة والقوة، وما كان للأتقياء تقلد الخلافة مثل ذلك. ولذا كانت الخيبة نصيب كل من تذرع بالقبض على زمام الخلافة زمن بني أبي سفيان وبني مروان، وكلاهما يمت بنسبه إلى أمية، وكذلك يقال في عصبية العباسيين بعد أن استقامت لهم الخلافة، فكان من الجهل منازعتهم حبل السلطة وهم في أرقى قمم مجدهم وسلطانهم.

إلى منتصف القرن الثالث كان يصدق على المسلمين أن لهم دولة وخلافة، فتشتت بعد ذلك كلمتهم، فكانوا خلافة بلا دولة تارة، ودولة بلا خلافة تارة أخرى. وعلى الصورة الأولى تنطبق خلافة الدولة العباسية إلى ما بعد عهد المعتصم، ومثال الدولة بلا خلافة دولة بني عثمان، فقد كانت أول أمرها خلال حكم عشرة سلاطين دولة استوفت شروط القوة، والخلافة فيها ثانوية، ولذلك لم يذكر العثمانيون الخلافة

ولم يشعروا بها إلا لما جاء عهد الضعف أواخر أيامهم وكان مستندهم على القوة والجيش ودعوى الخلافة لا تكاد تسمع.

كان للخلافة الإسلامية روعة عجيبة في أول الإسلام، ولكن عضدتها قوة موفورة، وبقي لها جلالها ما بقي لأصحاب السلطان قوة يحسب القريب والبعيد حسابها، ولما تراجع سلطان المسلمين بعد القرن الرابع لم تعد دعوى الخلافة تنفعهم وإنما نفعهم وينفعهم اليوم أن يقوموا دولا قوية تقيم العدل وتقضي على الظلم.

القول في الجامعة الاسلامية

انتشر الإسلام في العصور الغابرة في أقطار بعيدة عن منبته على أيدي جماعة من التجار، وبمساعدة المهتدين على مر السنين، فأصبحت كل مجموعة منهم تعادل نفوس أمة من الأمم الكبرى اليوم. ولم تستول الدول الإسلامية على الصين ولا على جاوة، ولا على أقاصي بلاد السودان في إفريقية، حتى نقول إن الإسلام هناك شاع بفضلها، كما شاع في الهند بعد الفتح، وانتشر في البلقان أيام العثمانيين. وكان لطبيعة الدين ويسره أعظم الأثر في الوثنيين والماديين والموحدين، فتقبلوه ورسخ فيهم رسوخه في أرض العرب. وهكذا انتشر الإسلام في إفريقية، وأمسى أهله فيها عشرات الملايين، والمسلمون يعدون في جاوة على ستين مليوناً، وكذلك عددهم في الصين. وبلغوا في الهند ثمانين مليوناً.

بعدت ديار مئات الألوف من المسلمين عن جمهرة أبناء دينهم في جزيرة العرب وفارس والأفغان والترك والمغرب، وكان من القديم يتعذر الاتصال بين عامة الشعوب الإسلامية، وما كان لهم اجتماع إلا بمكة في الموسم. ومن الصعب أيضاً أن يمتزجوا الامتزاج اللازم في أيام الحج القصيرة. وفي الغالب يحج الشيوخ، وفي الشيوخ تضعف الحركة، والميل إلى الأخذ بالجديد.

كان الحج في الزمن الأخير من طبقات العامة، وقلّ أن يحج المتعلمون. وقد حج في السنين الأخيرة نفر من رجال تونس ومراكش المثقفين، وطائفة من أساتذة

الجامعة المصرية وطلبتها وكثيرا من حجوا ، ومثلا صالحا لمن كان فى طبقتهم وود أرباب الصحف لو اقتدى بهم أمثالهم من الشعوب الإسلامية الأخرى ، ليعود فى اجتماع مكة بعض فوائده ، ويحقق مقاصد الشرع من الحج .

إن فى حج الآخذين بمذاهب التربية الحديثة أعظم الفوائد لشعوبهم ، فهم فى الحج غير فريق العامة من المسلمين فيه ، يستمدون من حجهم معارف جديدة ، ويهتدون الى منابع ومقاصد ، ويبثون بعضهم فى روع الجاهلين أفكاراً تبعث فيهم روح النهوض ، ويرجع المسلمون من حجهم يفكرون فى حاضرهم ومستقبلهم .

لا يرجى الآن تعارف المسلمين فى غير الأرض المقدسة ، واجتماعهم بها على ضعفه لا يخلو من فوائد . وحبذا لو تيسر للفئات المستنيرة فى العالم الاسلامى أن ينفذوا كل عام رحلات الى القاصية ، يشترك فيها أهل الطبقات الراقية ، فيتعارفوا الى الشعوب النائية من إخوانهم ، ولكن قومى الى تحول أقوياء فى الذى ضعفاء جماعات ولطالما رجوت أن تعرض الجمعيات المصرية على بعض طلبتها أطروحات عن الممالك الإسلامية ، فيقضى الطالب سنتين أو ثلاثاً فى البلد الذى يرام البحث فيه والإلمام بكل ما له علاقة به .

من أهم أركان الإسلام ولى الاجتماع ، وما قامت اجتماعات أهله فى الصلوات الخمس كل يوم ، وفى صلاة الجمعة كل أسبوع ، وفى الأعياد والمواسم كل عام إلا على غاية سامية ، يقصد بها الشارع دوام ألفتهم ، ذلك لأن البعد جفاء ، والنفوس تتناكر إذا لم تتعارف .

ونقول إن تواتر اجتماع المسلمين فى الحج مما لا ترضى عنه بعض دول الافرنج ، لأنها تنظر الى هذه الصلات بين أهل الاسلام غير نظرنا إليها ، فتقيم العقبات

في سبيل الحاج ، كما وقع من إحداها في بعض السنين الماضية أن حظرت الحج على أهل أقطار عظيمة . فهذا يكون منها لو رأت جمهرة من أهل الأقطار التي وضعت أيديها عليها تجتمع في الحج ؟ وخصوصاً إذا كانت من طوائف شتى وتتكلم ، وتعرف كيف تعمل .

لا جرم أن المسلمين في حكم الدول الغربية قد طالبوا بالطرق القانونية للإذن بالحج ، لا يسع دولة تهتم لمصالح رعاياها ورضاهم إلا إجابة طلبهم المعقول . والزمن اختلف ، واجتمعت السياسة والشدة ما أتت ولن تأتي بخير ، وقد عدا لزاماً على الدول بعد ما جنحت إلى أن تعيش سلاماً أن تصلح منذ اليوم في أمور كثيرة ، وتعامل الناس بالحسنى أبداً ، وتخرج عن الدواوين الجائرة إلى خطة عادلة .

وقد قوى حب القومية في بعض الشعوب الإسلامية كالترك والعجم فمنعت حكومتاهم الحج على المسلمين من رعاياهم خشية من تسرب أموال المواطنين إلى الحجاز لأطماع فقراء الحرمين وطمع شركات النقل في البواخر . وهذا عمل غريب لم تجرؤ أي حكومة على إتيان مثله في غابر العصور ، وقد حدث أن انقطعت بعض الأقطار عن الموسم بضع سنين بدافع طبيعي من قحط وأوبئة ومجاعات .

* * *

إلى عهد قريب كان بعض المتحمسين يدعون إلى الجامعة الإسلامية بدون أن يعدوا لها عدتها ، ويعقدون على أمرها أعظم الآمال . وقد كنت كلما سمعت هذه النغمة أستبعد تحقيق الأمنية . ولذا لم أكتب في هذه الجامعة سطراً واحداً بالتعديل ولا بالتجريح . وكيف لعمري تتحقق الجامعة الإسلامية ، والمسلمون تحت سلطان دول متنوعة ، مشتتون في ثلاث قارات ، تتباعد أصقاعهم ألوف من الأميال ،

ولا يكادون يتفاهمون إذا اجتمعوا ، لأنه قل من يحسن العربية لغة المسلمين الرسمية من الأعاجم ، وقد يعرف أحد من الشعوب الأوربية ما لا يعرف مسلم عن مسلم جاوة والصين والهند وهم أكثر من نصف المسلمين فى الأرض . وأنى يتعارف الهندى المسلم إلى المراكشى ، ومنها من الاختلاف فى المنازع والأمة والثقافة وجميع ما يجمع الأمم ، أكثر مما بين الأوربى والآسياوى . ونشأ هذا من الفردية التى خص بها المسلمون ، ومن عزلة كل شعب عن الآخر عزلة منقطعة . والفردية ما عدت بين أبناء نحلة واحدة ، كان من أكبر مصائبهم أن يجتمعوا ، ويتفاهموا ويتعاطفوا ، وتباعد الأوطان الإسلامية بعضها عن بعض زاد فى البين تماماً ، فجعل كل شعب من عالم آخر غير الذى نحن عائشون فيه . وساعد على هذا أن ملوك الدول الإسلامية فى الأيام الأخيرة ما كانوا يفكرون إلا فى دوام ملكهم ، والاحتفاظ بسلطانهم ، وما كانت عقولهم تصل إلى أبعد من شهواتهم وأغراضهم ، وما ظهرت لهم قوة إلا بالاعتداء على الضعف من جيرانهم . وقل جداً الصالح فيهم المتقن صناعة الملك ، وهى صناعة تتوقف على صفات خلا منها أكثر من ساسوا الشعوب فى ديار الإسلام .

ثم فقدت أكثر عناصر الجامعة الإسلامية لأن بعض الحكومات تقاومها ولو كانت تحكم أوفى عدد من أهل الإسلام لأمور تتوهمها ومنها الخوف على سلطانها وانقطاع منافع المنتفعين ومطامع الطامعين . ومن يستبعدون قيام هذه الجامعة ، وضعف همتهم على الدعوة لها لا يؤمنون به إيماناً راسخاً . أما رجال الدين والرجاء مفقود فيهم فى هذا الباب ولا يرجى منهم أن يخلصوا القصد فى تأليف جامعة الإسلام ما داموا يدهنون لكل صاحب سلطان . وقد كان الإمام المصلح السيد جمال الدين الأفغانى

رأى التعديل فى قيام هذه الجامعة على رجال الدين فأحسن ظنه بهم وتمادى أنهم منذ أجيال ما حققوا بعض ما كان يرجى منهم ، فصار همّ الترامى على أبواب الحكام والخضوع لأرباب القوة .

على المسلمين فى المشارق والمغارب أن يتعارفوا و يتآلفوا ، بهذا أمرهم دينهم وعلى هذا يتوقف دوام سلطانهم فى ديارهم ، وذلك من طريق الحج ، ومن طريق الرحلات ، ومن طريق التجارة ، ومن طريق المصاهرة ، وعليهم أن يقيموا فى كل حاضرة من حواضرهم دار ضيافة تؤوى الراحلين من أهل القاصية ، وتوفر لهم أسباب راحتهم مدة ، على نحو ما كان من مدارس المسلمين فى العصور الوسطى أيام كانت تضيف العلماء الوافدين من الأقطار .

وإذا تعذر توالى رحلة ابن المشرق إلى الغرب وابن الغرب إلى المشرق فلا أقل من أن تكون المراسلات بينهم دائمة ، ووقوف الناهين من أهل كل قطر على ما عند إخوانهم فى القاصية من أفكار ومشاريع تتضمن من الفوائد المعنوية ما يكون الدعامة الأولى فى هذه الخدمة بل يحمل فوائد مادية يستفيد منها الساكن والراحل .

ومما يساعد على قيام هذه الجامعة إنشاء مجلة باللغة العربية فى مصر تبحث حال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ولا يشوبها شىء تشتم منه ريح التعصب الذى فينقل الصينى والجاوى والهندى والتركى بعض فصولها إلى جرائده الوطنية وستكون هذه النشرة أداة عظيمة من أدوات هذه الجامعة .

وعلى ذلك يتأتى أن يتعارف أهل الإسلام تعارفاً مقبولاً ، وعندها تعقد أواخى الجامعة بطبيعتها على غاية الإحكام . ويومئذ يمرح المسلم الآسياوى بفناء أخيه الإفريقى ، ويستفيد أحدهما من الآخر استفادة لا يستفيدها اليوم أبناء صقع واحد من هذه الأقطار الإسلامية الكبرى بعضهم من الآخر .

الجامعة الإسلامية لا تقوم بالجهل ، وما سبق لأمة أن اجتمع شملها بغير العلم .

القول فى الوحدة العربية

فقد العرب استقلالهم منذ القرن الخامس من الهجرة ، فدخلوا فى حكم بعض العناصر الإسلامية ، كالترك والتتر والديلم والكرد والشركس والبربر ، وأمسوا فى أرضهم تابعين ، بعد أن كانوا متبوعين ، تملى عليهم إرادات غيرهم فيطيعون ، وفى أمسهم كانوا يملون إراداتهم على العالم فيطاعون . وضعف فيهم على الأيام الشعور بالقومية ، وسلبت منهم بعض صفات الحكم وعزة الرياسة ، ولولا أن كان من مصلحة من أتوهم من الفاتحين المحافظة على تراث الإسلام الذى لا يضرهم الاحتفاظ به ، ولولا أن ماضى العرب كان وثيقاً جداً بالقرآن لانقرضوا وانقرض لسانهم من كل أرض قاموا فيها ورحلوا إليها .

بقيت للعرب أمارات صغرى من ذاك الملك الضخم ، ممتعة بشىء من الحكم فى أرضها ، كانت أشبه برقعة من ذاك الثوب الجميل ، ربما كان منها بعض ضرر على المجموع المنحل ، ولكن كان العرف جارياً بأن هذه البقاع الباقية مستقلة ، وإن كان من نوع الاستقلال الناقص يحمل فى مطاويه حللا وعللا ، تحاك إدارته بالجهل ، وتقوم سياسة أهله بالظلم والعسف ، وما كان لتلك الأمارات أن تتمثل فى غيرها ، لبعدها عن مراكز الدول القائمة فى الأصقاع العامرة ، ولا أن تمثل غيرها وشروط تفوقها ناقصة ، ذلك لأنها ظلت قروناً وراء حدودها فجمدت عقول بنيها ، كما حصل فى مراكش والجزائر ، وهما على مقربة من أوربا ، والنور يسطع من أرجائها فلا تحدث

أهل الرأى أنفسهم أن يقتسموا قسماً منه . وكذلك قل فى الحجاز واليمن ، أصيبا بالانحلال ، وكانا قبل قرون مهد الإسلام والعروبة ، كأنهما تعبا لكثرة ما عانيا فى قيام الدولة الإسلامية ، ثم دفاعها وتراجعها .

وإنما نتوخى هنا رسم صورة تامة لذلك الانحلال السياسى ، وغاية ما نتوخاه الإشارة الخفيفة لما وقع ، وبهمنا أن نشير إلى التفكك الذى حدث بحكم الطبيعة ، وكيف أخفقت كل محاولة فى توسيع تلك الأمارات . فقد انكمش أئمة الزيدية فى اليمن وراء جبالهم ، وما استطاع أشراف مكة أن يؤلفوا أمارة قوية يرهب بأسها ، على كثرة إخلال المسلمين لبيتهم ، وبقيت نجد بادية ، وحضرموت ومسقط وعمان وما إليها يستولى عليها القوى وهى أشبه بالبوادي ، والشام ومصر والعراق فارسية وعربية وتركية وشركسية وكردية ، وطرابلس وبرقة وتونس والجزائر تتخبط فى أمارات بربرية وتركية ، ومراكش أشبه بالمستقلة واسمها مستقلة . وهكذا يقال فى أمارات السودان وغيرها مما دخله الروح العربى فى إفريقية وآسية .

وقد جرت ثلاث محاولات سياسية قصد القائمون بها جمع شمل الأمة ، وتأسيس دولة يحترمها العدو والولى ، فقام فى الشام الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى القرن الحادى عشر ، وكانت أدواته تامة فى السياسة ، فقتلته الدولة العثمانية ، ثم قام ابن سعود الأول فى نجد ، فقضت الدولة عليه وأهلكته ، وقام بعد حين محمد على فى مصر ، فحارب صاحبها وغلبه عليها ، فحالت دول أوربا دون تقدمه ، وردته إلى وراء حدود مصر ، والعامل الأول فى ذلك بريطانيا العظمى .

وأدرك العرب بعد انتباههم الأخير أن الوقت ضيع ، والحيلة نفدت ، لأن الجزائر وتونس ومصر بُليت بالاحتلال الأجنبى ، ثم تبعتها مراكش وطرابلس وبرقة وسائر

الأصقاع الإفريقية والأمارات الساحلية العربية ، وظلت الشام والعراق والحجاز واليمن ونجد تحت حكم العثمانيين أربعة قرون ، كان فيها الاستعمار التركى منهكاً للقوى مضعفاً لأهلها .

وكنت تسمع منذ نحو نصف قرن بين حين وآخر همساً فى الوحدة العربية صادراً عن أهل البصيرة من العرب ، ثم لا يلبث ذاك الصوت أن ينقطع ، وذاك الرجاء أن يخيب ، إما بمؤامرات بعض دول الاستعمار ، أو بمساعى الدولة العثمانية . وكانت تفضل الخضوع للغريب ، والنزول له عن بعض أملاكها ، على أن تمنح العرب بعض حريتهم . وإذا كانت الدولة العثمانية والإسلام دينها — وقوم بدعوى الخلافة ، وهم شمل المسلمين فى المشارق والمغارب — هذا حالها فى معاداة العرب ، فمن باب أولى أن تكون الدول المستعمرة بعيدة عن العطف على العرب ، وأن ترى من مصلحتها أن تضع أمامهم العقبات التى تحول دون إرجاع سلطانهم ، ودينها غير دين القوم ، ولسانها غير لسانهم ، ومدنيتها غير مدنيتهم .

كانت الوحدة العربية قريبة التحقيق فى ثلاثة أدوار فحلت انكلترا عروتها . المرة الأولى على عهد ابن سعود فى القرن الماضى ، والثانية على عهد محمد على الكبير لما حارب الدولة ووصل إلى كوتاهية ، والثالثة فى الحرب العامة لما وعدت انكلترا الشريف حسيناً بتوليته زمام العرب إن هو سار معها لقتال العثمانيين ، فلما وصلت انكلترا إلى بغيتها ، قسمت هى وفرنسا الديار الشامية سبع دول . مهزلة لم يحدث فى القرن الأخير أغرب منها . ومن يستطيع أن يرفع عقيرته بالشكوى ، ويدعو الدولتين إلى المنطق ، وإلى تحقيق العهود المقطوعة للعرب ، وقد رأى الناس ما حلّ بالحسين

ان على ملك الحجاز لطمأنينته بمعاد الوعد ، ومع هذا اضطر أبناؤه إلى أن يصادموا من اضطهد أباهم .

ولنا أن نقول مع هذا : إن أعداء الوحدة العربية كانوا فى القرون الثلاثة الأخيرة دولاً ذات مطامع ومنافع ، حتى لقد كان أعظم أمير من أولئك الأمراء ، ومنهم إذا شاء ملكاً أو سلطاناً ، يتمنى رضاهن ، ويتقرب إليهن بكل حيلة ، ليبقى له الحكم على أهل إمارته الصغيرة ، وفى الإمارات العربية على شاطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى مثال من هذا الاستخذاء .

إذا تحققت الوحدة العربية ، تصبح قوة لا يستهان بها فى هذا الشرق القريب ، ويكون لها من موقعها المتوسط بين الشرق والغرب ، ومن غنى تربتها ، وكثرة مناجمها واعتدال أقاليمها ، ما يجعل منها دولة شرقية تنفع العالم ولا تؤذيه ، وتعيد مجد أمة كانت على حياة ناعمة قروناً طويلة .

سيقولون إن بعض ملوك العرب لا يرضون عن هذه الوحدة ، لما تؤدى إليه من نزع سلطانهم ، وعندى أن هؤلاء قد علمتهم التجارب أن فى توحيد القوى العربية بقاء بلادهم حرة ، وربما كانوا يحسون أنه أصبح من المتعذر فى الأمم أن تخضع للملوك كما كانت فى القرن الماضى مثلاً . ويعلمون أن ممالكهم إذا كانت مشتتة الأهواء ، يتعادى أمراؤها ويتنازعون مع جيرانهم ، يزدردها كل من آنس من نفسه قوة من الدول ، والمصلحة تقضى على الملوك والأمراء أن يسيروا بعد اليوم بعقولهم لا بعواطفهم ، وأن يعتبروا بعبر الحاضر والغابر ، فإذا فعلوا ــ وما إخالهم إلا فاعلين ــ يحمدون عاقبة أمرهم ، وينعمون بارتقاء شعوبهم ، ويطمئنون على مقدساتهم ، وإذا لم يوافقوا على

ما يراد منهم يضطرون الى التنازل عن عظمتهم كلها ، ويفرق بين ما يعمل بالرضى وما يعمل بالإكراه .

وسيقولون إنه من الصعب أن يحكم ابن نجد كما يحكم ابن صعيد مصر ، وأن ابن حضرموت ومسقط دون ابن الشام بمدنيته ، فيتعذر التئامهما وتفاهمهما . وما عهدت حكومة كان فيها مثل هذا الاختلاف العظيم فى درجات الحضارة . هذا صحيح لو أردنا أن نجرى على كل هذه الأقطار قانوناً واحداً ، أما ونحن عامدون إلى طريقة الحكم الذاتى أى أن نطبق عليهم قوانينهم المحلية الخاصة بادئ بدء ولا يشتركون إلا فى المسائل العامة التى لا مناص من توحيدها ، فنحن إلى النجاح بحول الله ، وسيحققه لنا ما فطر عليه العربى من الذكاء ، وبعد النظر ، وشدة التمثل .

ولا جدال فى أن أمم العرب ستستفيد من هذه الوحدة فوائد رابحة لها ولمن تقوم بأمرهم . تستفيد من استثمار المناجم والأرضين ، وتخلق لصناعاتها مصارف جديدة ، وتزيد المواد الأولية فى الأرض العربية أضعاف ما هى عليه اليوم ، وينزع من العقول دعوى أن بلاد العرب قاحلة لا تستحق العناء . وهى نغمة طالما رددها من لم يدرس طبيعتها وأثبتت الجزيرة بما اكتشف فيها من النفط والمعادن أنها فى الذروة بغنى تربتها .

فى أرض العرب ما يشغل رجال الأعمال والأموال من أهل العرب القرن والقرنين ، يتوفرون على استثمار ما سيكشفه المستقبل فيها من كنوز لا يخطر الآن ببال غير العارفين العثور عليها . وستكون الدولة العربية نقطة اتصال حقيق بين القارات تتبادل فيها المنافع ، وتتمازج شعوب الشرق والغرب ، أكثر مما تمازجت بقوة السلاح ، والاحتيال على صوغ الضعيف بصياغة القوى صياغة تضره ولا تنفعه

تقوم هـذه الدولة الجديدة الحب والإيثار، وبنى قواعدها بسلطان العقل، وتحقق لبنيها أمانيهم وسعادتهم. وسيرى أهل الغرب أنا لا نروم بهـذا الـكلام، ولا نحاول خديعة أحـد، وستبدى لهم الأيام أن معاملة الشعوب بالحسنى من خير ما يبقى على الغالب قوته، والقوى لا يضره الأخذ بيد الضعيف، بل قد يتضرر من اضطهاده، ومصالح هذا العالم متشابكة، لا يستغنى غربى عن شرقى كما لا يستغنى غنى عن فقير.

وعلينا معاشر العرب أن ندعو إلى هـذه الأمنية بالطرق العلمية، ونود لو لا يعرفنا صفحات من ماضينا وحاضرنا، نصرح بذلك على رؤوس الأشهاد، حتى لا ندع سبيلاً للموهين، لتشويه وجه حقائقنا بخزعبلاتهم، وليكون لنا من شعوب أوربا وأمريكا نفسها أنصار يوافقوننا على إتمام رغائبنا التى هى رغائب البشرية، نقتدى فى ذلك بما قامت به كل من ألمانيا وإيطاليا لما نهضتا لتوحيد كلمتهما، وقيام دولتيهما. وما كانت العرب منذ خرجت من جزيرتها، إلا أدوات نافعة فى العالم، لم تحمل إليه إلا ما فيه الخير والسعادة، وإذا ضعفنا بفعل الأيام والمحن، فما فقدنا صفات تأصلت فى جوهرنا الحيوى. نحن لم نفقد الوفاء ولا الـكرم، ولا الذكاء والمضاء، بل تنقصنا أشياء متممة إذا أحرزناها تجلت خصائصنا، وانبعثت قوانا، وانتفعت بنا الإنسانية جمعاء، والعالم لا تضره دولة جديدة ممدنة تقوم مع هـذه العشرات من الدول التى تحـكم الأرض.

لا جرم أن المنصفين من الغربيين يوافقوننا على أن العرب فى مجموعهم لا يقلون رقياً عن أرقى الدول الصغرى فى جنوبى أوربا، وقال المنصفون من الانجليز إننا نمثلنا لمدنية الغربية وإننا كالغربيين بإدارتنا وحكمنا، ومنهم من يعترف أن مصر

العربية الإسلامية أرقى من إسبانيا اللاتينية النصرانية ، وأن الشاميين ليسوا دون اليونانيين ثقافة وحضارة حتى بعد أن أتى على اليونان أكثر من قرن وهم يتمتعون بفضل عطف أوربا عليهم باستقلال تام ناجز . ولا ينسيهم أن يذكروا أن شعوب البلقان وأصحاب دولة الإسبان وإن عدوا في الأوربيين ودانوا بدينهم ، لا تزيد كفاءتهم عند التحقيق عن الشعوب العربية في شمالي افريقية وغربي آسية وأهلها ممن ينتحل ملة الإسلام . فقد أخذ من المدنية الحديثة كل مستعد لها ما لاءمه ، ومن قومه أشياء أن تتعذر عليه ملاقاتها في أعوام معدودات ، وإن كان من العنصر السامي ولونه ضارب إلى السمرة أو الدكنة أو الصفرة !

إنا نود أن يعرف الغرب تاريخنا الحقيقي ودينا الصحيح ، وحضارتنا العربية ، نحب أن نؤكد لهم أننا شعوب متماثلة يمكن ضمها في ملك واحد تريد أن تعيش وتطلب حقها في الحياة ، وترغب في ضم ما انتثر من قوتها ، نقول للعالم إنا أبناء أب واحد يحاولون أن يجتمعوا بعد فراق طويل ، وأن يعودوا إلى الاستمتاع بالدار التي كانت قسمت بينهم على غير رضى من أكثر الشركاء . وبغية أمانيهم الآن أن يتولوها ويستخدموا كل أطرافها ، لاعتقادهم بأن في سكناهم عزتهم والإبقاء على شرف أسرتهم ولا تستوي دار معطلة وقصر مشيد .

* * *

هذا بعض ما أذعته في مذياع القدس قبل اجتماع مؤتمر الوحدة العربية في مدينة الإسكندرية في اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ ايلول ١٩٤٤) للتوحيد بين مصر وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق والمملكة اليمنية والمملكة السعودية (الحجاز ونجد) وقد دعا المؤتمر هذه الوحدة بجامعة الدول العربية ثم اجتمع في الشتاء في القاهرة وقرر تأسيس مجلس حربي وأن تتعاون الممالك الداخلة في الجامعة الجديدة

فى الشؤون الاقتصادية والمالية والتجارية والاجتماعية والثقافية والصحية والجنسية وأن تشترك فى المواصلات والطرق والملاحة والسكك الحديدية والبريد والبرق .

دخل فى جامعة الدول العربية أزيد من أربعين مليوناً من العرب وبقى خارجاً عنها نحو ثلاثين مليوناً وهى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة وأمارات سواحل البحر المحيط الهندى والخليج الفارسى . والرجاء أن تدخل هذه الممالك والأمارات فى الجامعة العربية فتعود وحدة العرب كافة على ألفة شاملة ورأى جميع وتتم نهضتهم بوحدة الأجزاء فى كل ما نهض بالممالك . لا تمضى بضعة عقود من السنين حتى تزول الفوارق من بين أجيال العرب ويشعر كل فرد منهم أنه فى هذه الجامعة الحياة .

إن التفاوت فى الحضارة الذى نلمسه بين سكان مصر وسكان بعض الأقطار الشقيقة مثلاً هو وليد قرون استقل فيه كل قطر وراء حدوده وكان نصيب كل قطر عربى من المدنية على نسبة أخذ أهله من مدنية الغربيين وعلى مقدار قربه وبعده عن حركة حضارة الغرب الحديثة ، فتعطلت بطول الزمن فى بعض الأرجاء القوى التى تقوم بها الممالك ورجع بعضها إلى الجاهلية الأولى . والمدنيـة جسم حى إذا لم تغذه الغذاء الذى تتطلبه يضعف ويضمحل ، وإذا لم تبعثه البعث المعقول يتراجع ويتقهقر .

ومن دواعى الغبطة أن أهل البصيرة ممن كتب فى طبائع العرب عن بينة خاصة لا غرض فيها ما برحوا يؤيدون فكر القائلين باستعداد العرب لقبول المدنية الحديثة . وآخر من كتب فيهم أحد رجال الإنكليز ممن قضو بينهم سنين وعرفهم معرفة حقيقية فأثبت أن البدو من العرب مستعدون للادارة وعلى جانب من معرفة الصناعات

الدقيقة. وأنه كان منهم من ساوا العربيين فى صناعة الراديو والاسلكى وغيرها من الصناعات وقال إن العرب ليسوا بدا منهم دون الغربيين على ما أخذوا ذلك بالعمل .

وهو يريد أن يقول صحيحا إذا تمت هذه الخصائص نائية من العرب وفى أهل الحواضر وقد عانوا الصناعات على وجه لدهم أن يقدر و كل ما يمتاز به الغربيون من أسباب الحضارة .

اتخذت جامعة الدول العربية من مصر مقراً لها ، وأتت ـ وهى فى طورها الأول من تأسيسها بثمرات طيبة ـ ولا يطول الزمن حتى تندمج فيها بعض الأقطار العربية التى لم يكتب لها أن تندمج بها إلى الآن ، وستفتح أمام الجامعة العربية طرق تؤدى حتماً إلى سعادة الشعوب المتآلفة فتتألف منهم أمة بالمعنى الذى يعرفه المعاصرون ، ويقوى بها الضعيف ويزيد القوىُّ قوة ، ويثبت العرب للعالم أن أبناء هذا الجيل منهم ليسوا أقل من أجدادهم ذكاء ومضاء .

قلت لصاحب لى من أرباب الأقلام البريطانيين قبل نشوب الحرب الأخيرة بضعة أشهر : كأنى بحكومتك هذه الأيام تميل إلى إنشاء الوحدة العربية مخالفة بذلك سياستها القديمة . قال : صحيح ذلك وأنا أرى ما ترى . فقلت له إن كان الأمر كذلك فما الذى يعوقكم عن إتمامها لا يضر بمصلحتكم وقد انتفعتم بهذه الوحدة فى الحرب التى نحن مقبلون عليها ، وبذلك تصلحون خطأكم مع العرب لما عطفتم على الصهيونية بما يضر بمصلحة فلسطين والفلسطينيين .

وها قد تمت هذه الأمنية بعد خمس سنين مضت على حوارنا فى هذا الشأن ، وربما لا يصدر هذا الكتاب حتى يكون ملوك العرب اجتمعوا فى القاهرة للنظر فى

المشاكل العربية ، كمشكلة فلسطين والصهيونيين ، واستقلال ليبية وغير ذلك مما يبحث فيه المتقدمون لخير العرب والدول العربية .

حقاً إن الأمور مرهونة بأوقاتها فقد مضى على أمنية الوحدة عشرات من السنين كان معظمهم يعدها حلماً من الأحلام ووهماً لن تحققه الليالي والأيام ، وليس في السياسة مستحيل، الجامد فيها لا يحيا إذا ما منع الحياة عن غيره ، وذلك لا يفيد من إذا لم يفسح لي طريق الاستفادة منك ، وقوة جارين قوة لهما جميعاً ، واختلال حال أحدهما يلحق ضرراً بصاحبه من بعيد أو من قريب . ومحال أن يظل الضعيف على ضعفه إذا كان جسمه نقياً من الجراثيم المهلكة ما دام كل شيء في عالم الكون والفساد عرضة للتبدل . فقد رأينا كيف تتبدل المنازع القومية وتتحول المجاري الاقتصادية والسياسية ، وتضمحل مذاهب الدينية .

القول فى أخلاق العظماء

إذا أراد الله إسعاد أمة قيض لها من رجالها ناسا يحملون من الأمانة دينهم ، ومن العفة عن الدنايا ديدنهم . يفطرون قبل كل نظر إلى من كتب لهم أن يتأمروا عليهم ، يبعدون أبداً عن الأثرة ، ويصطنعون الإيثار ، ويهتمون لأصغر صغير اهتمامهم لأكبر كبير ، ويتخذون من أنفسهم قدوة لمن يليهم ، ويعمل تحت أيديهم . صفات أولية تطلب من كل صاحب سلطان إذا قدّر قيامه بدونها فبقاؤه قليل .

أنعموا النظر فى سيرة العمرين أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) تجـدوا لهما من الصفات ما يعجب به كل إنسان فى كل زمان . فتحت لهما الفتوح أبواب الغنى والرفاهية ، فعزفت نفسهما عن حطام الدنيا ، وزهدا فى كل مظهر ، وآثرا الخشونة والتقشف فى طعامهما ولباسهما وفرشهما . عملا بسيرة صاحبهما ، لم يخرجا عنها قيد شعرة .

كان العُمَران قبل الإسلام موسرَيْن مرفهين ، فأنفقا فى سبيل الله ما ملـكا ، وعاشا ما عاشا فى فاقة . يأكلان ما يأكله الفقير ، ويلبسان المرقعات ، ويحتذيان النعل المرقعة ، وينامان على الأرض ، ويقضيان حوائجهما بيديهما . وإذا تهيأ لهما الحصير من القش والبساط من وبر الجمل والمعز عدّا ذلك نعمة ، ولم يأخذا من بيت المال شيئاً ، وقنعا بما فرض لهما أصحابهما من راتب ضئيل ، وودا لو يعملان فى تجارتهما ليطعما عيالهما كما كانا من قبل لو كان فى وقت الخليفة متسع لتعاطى الأسباب .

بهذا الزهد وهذا العزوف الذي قدمها فيه أصحابهما وعمالهما قامت الدولة العربية على أمتن دعامة تقوم عليها دولة . وقد سار بعض من خلف العمرين سيرة صاحب الرسالة وهذا هو اللائق بالخلفاء الراشدين والأئمة الهادين المهديين .

وإذا رأيتما في التاريخ إلى من جاء بعد ذلك العهد العظيم ، نرى بعض ملوك بني أمية في الشرق والغرب مشوا على قدم الراشدين . وفي سيرة عمر بن عبد العزيز ما يضارع سيرة العمرين : ورث عن أبيه ثروة طائلة قالوا إن دخلها كان بين الأربعين والخمسين ألف دينار فأرجعها كلها لأربابها ، وكانت إقطاعات وأرضين ، ولم يمت حتى لم يبق منها سوى مائتي دينار دخلا سنويا ولو عاش سنة أخرى لردها كلها . ولي الخلافة غنياً ومات فقيراً مبتعداً في خلافته عن كل ما يقال له رفاهية ، وكان مضموماً فيه أيام إمارته . استخلف ولم يتناول دانقاً من بيت المال ولم يخلف عقاراً ولا مزرعة فعاش أبناؤه بعده في ستر ورفعة ، وكذلك عاش أبناء الصديق وأبناء الفاروق .

انزلوا قليلاً في التاريخ إلى العصر العباسي وتأملوا في سيرة أبي جعفر المنصور واضع أساس الدولة تروه على سيرة حسنة يحاسب على القطمير حتى دعي بأبي الدوانيق لإمساكه وتدقيقه في حساب نفسه ، يسمح بعشرات الألوف في سبيل الدولة ولا يسمح لنفسه ولأولاده إلا بالضروري ، وترك لدولته أموالاً تكفيها سنين إذا نطت الجباية، أو صارت إلى ضيق .

وفي أخبار الملوك والأمراء ولاسيما على عهد تأسيس الدول مثال حي من عزوف بعض العظماء عن الرفاهية والترف . هكذا كان هدى أكثر الملوك والأمراء في الدول الصغرى في الشرق والغرب وإذا قل ظهور مثل هؤلاء الأفراد تميل الدولة

إلى السقوط . فالترف كان من بعض العوامل في سقوط دولة بني أمية في الغرب ، والترف كان عاملاً كبيراً في انهيار دولة بني العباس ، ومثل هذا يقال في كل دولة قامت .

ولا نعرض هنا لسيرة العلماء، فقد عرفت منهم ما وجدت الدنيا إلى قلوبهم منفذاً ، ولا عشقوا المظاهر ، ولا حدثتهم أنفسهم أن يدخروا لبنيهم شيئاً من غير حله ، فعاشوا وذراريهم كما يعيش الفقراء ، وكانت سيرتهم مضرب الأمثال على توالي الأجيال . وقام من العلماء أيضاً من باعوا دينهم في إرضاء شهواتهم ، والتقرب من الملوك وأصحاب السلطان ، فنزلوا بسمعة الدهر ، وربح أولئك بالصيت الحسن ، لا يذكرهم أحد إلا ويعجب بهم ويترحم عليهم .

ويهمنا هنا أن نذكر من كانت الدنيا تحت أمرهم من العظماء وقادة الأمم فجعلوها تحت أقدامهم ، ما أخذوا منها شيئاً لحسابهم ، وكانوا أمناء بحق على ما ائتمنوا عليه ، ظاهرهم كباطنهم ، وسيرتهم كسريرتهم ، وماضيهم كحاضرهم ، يرون عزة أمتهم عزتهم ، وسعادتها سعادتهم ، إذا شقيت يشقون بشقائها ، وإذا أخصبت لا يخصبون ، وإذا أجدبت كانوا شركاءها الأمناء .

قرأنا سيرة من عاصرنا ممن يعدون من الكبراء ورأيناهم لم يفكروا في غير رفاهيتهم ، وما طمعوا إلا أن يغترفوا من أتعاب شعوبهم ، ورأيناهم كيف صُرف بعدهم كلُّ ما رتبوه لأنفسهم ، وما استفادوا هم ولا من جمعوها لهم ، إلا كما يستفيد حارس من مال وكلت إليه حراسته . خافوا الفقر فماتوا في الذي خافوه ، وطلبوا السعادة في الجمع فما انتفعوا وما نفعوا .

إن لم يكن العظيم على أخلاق العظماء تزول عظمته، ولا يبقى له إلا ما اجترح، إن لم يكن صاحب الشأن على أخلاق طاهرة حقة يؤول أمره إلى أن يكون والباعة سواء، وربما كان مثله في أصحاب الأسواق أشرف منه عشاً وطعمة.

جاء في هذا الشرق مئات من أصحاب الدولة في كل دولة، انبسط سلطانهم على شعوب وأمم وحكموا بالجبرية، وخدمهم من خدمهم مدة كانت السيوف مسلطة بأيديهم على الرؤوس، فلما زال سلطانهم زال كل شيء معهم، فما سمع لهم بعدها صوت، ولا ذكرهم إنسان بخير.

جاء كثيرون على هذه الشاكلة فما حفظ التاريخ ذكرهم كما حفظ ذكرى نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب. حفظ التاريخ اسم هذين السلطانين لا لأنهما فتحا الفتوح ودفعا صائل العدو عن الأرض المقدسة. فالفاتحون غير قلائل، وكذلك من كتب لهم النصر في وقائع كثيرة، ودوخوا ممالك وأخضعوا أمماً، وكلهم ليسوا من عيار نور الدين وصلاح الدين في العفة عن الأموال، والبعد عن الشهوات، والإخلاص في القصد.

كان نور الدين لا يأكل ولا يلبس من مال الدولة ويعيش من ريع عقار له اشتراه من سهمه من الغنيمة ويهب مئات الألوف لرعيته. اشتكت زوجته الضائقة يوماً لأحد وزرائه فأجابه نور الدين: إذا كانت تعتقد أن ما بيدي من الأموال هو لي فقد ساء ظنها، إن ما عندي هو أموال المسلمين ومرصد لمصالحهم ولا أقدر أن أتصرف منه بشيء، وأعطاها دكانين في حمص تأخذ ريعهما، واعتذر بأن هذا كل ما يملك.

وكان صلاح الدين يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، سامح الرعية بمئات الألوف من المكوس والضرائب، وأعطى مثلها لإنشاء المدارس والجوامع، وللعلماء والقراء،

ومات ولم يخلف سوى قطعة واحدة من ذهب وقطع من نقود النحاس، ولم يملك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة وهو فاتح مصر والشام، استولى على خزائن الفاطميين وصار إليه ما لا يقع عليه الحصر من الأموال والذخائر، ففرقه كله فى قواده وعماله، لم يأخذ منه فلساً. واستولى على كثير من القلاع فى الشام والجزيرة، كانت تحوى أموالاً عظيمة وكل ما ترغب فيه النفوس الشريرة من الأعلاق والنفائس، فما جوز لنفسه استصفاء شيء، ومنها ما رده على أصحابه، ومنها ما وصل به على عفاته. مات هذا حاله، لكنه وصاحبه نور الدين ذكرا بسيرتهما سيرة العمرين، ومضى الملوك والأمراء قبلهما وبعدهما ولا من يذكرهما بخير، ذلك لأن هؤلاء حسبوا حساب أنفسهم قبل أن يحسبوا حساب من وسد إليهم أمرهم.

بهذه الأخلاق أسس نور الدين وصلاح الدين ملكهما، ولا عجب أن استطاعت على الأيام شهرتهما، وعبق أريج سيرتهما الشريفة فى الأرجاء، وأحبهما عدوهما وصديقهما، فكانا لأهل الأجيال بعدهما خير مثل فى التقوى والزهد، عفت نفسهما عن كل مطهر وعن كل ما يتنافس الخلائق فى ادخاره من هذا الحطام الذى يملكه كل من سعى إليه بضرب من السعى.

لما كان سلاطين بنى عثمان يفتحون الفتوح ويدوخون الممالك والشعوب فى أوربا وآسية وإفريقية كان بعض ملوكها الأولين على سيرة طيبة يحبون الخشونة والتقشف، ويبعدون عن البذخ والرفاهية، ويسيرون مع مناهى الشرع، فخفقت أعلامهم وما التوت، وتوجهت إليهم حتى نفوس رعاياهم الذين لم يكونوا على دينهم. فلما خلف من بعد السلاطين المتقدمين خلف أخذوا نشهواتهم، وحموا لأنفسهم

كل ما طالت إليه أيديهم من المغانم ، وناموا عن أمور رعاياهم وسكتوا عما يجبيه حَمَلة عرشهم من الأمراء والقواد والعمال من ظلم العباد سقطت دونهم .

* * *

يحمل تاريخ الغرب من سيرة أعاظم الملوك والأمراء والقواد ما هو موضع العجب والعبرة . ومثل ذلك لم ينحصر في الشرق ولا في العرب ولا في المسلمين ولا في النصارى .

تأملوا في تاريخ مملكة بروسيا وعظماء ملوكها ، وما آثروه من العيش الخشن ، وكيف فطموا أنفسهم عن الشهوات ، ليقتصدوا ما يسر لهم به إنشاء دولة . يقول شارل سينيوبوس في تاريخ الحضارة : إن ملوك بروسيا كانوا يختلفون عن سائر الأمراء في طراز معيشتهم وبذلك كان بخلافهم كانوا لا يسرفون في دخلهم ليصرف على البلاط ويقام به الحفلات والأفراح ، بل ينفقونه برمته على ما يهمهم بدولتهم وعلى الجيش خاصة .

كان لفريدريك الأول بلاط واسع النطاق ، على مثال بلاط لويز الرابع عشر في فرنسا . ولما قام بعده فريدريك غليوم سرح جماعة البلاط مقتصراً على أربعة حجاب وأربعة من النبلاء وثمانية عشر وصيفاً وستة خدام وخمسة فراشين . وجعل لباسه الرسمي المعطف الأزرق والسراويلات البيضاء ، يتقلد أبداً سيفه والعصا بيده ، وما عهد في قصره غير مقاعد وكراسي من خشب ، وليس فيه أثاث ولا طنافس ، ومائدته ساذجة لا إسراف فيها حتى إن أولاده ما كان يشبعهم ما يتناولون على مائدة أبيهم من الطعام . وبهذا التقشف لقب بالملك العاشر « الجاويش » ، وكان ملوك بروسيا ينفقون المال الذي يقتصدونه من مخصصاتهم على جيشهم ، ومقدار نفقتهم الخاصة كنفقة رجل متوسط من الأعيان ، وبذلك كان لهم جيش تحت الطلب أبداً وحاموا

أموالًا كثيرة في خزائنهم. وكان فردريك الثاني يلبس الثياب المرقعة، وقد مزقت كلابه أثاث قصره، وبيع بعد موته جميع ما حوت أصونته من الثياب بألف وخمسمائة فرنك. وغاية ما اقتنى من متاع مجموعة تحتوي على مائة وثلاثين حقة من حقق السَّعوط!

وجوزيف الثاني ملك النمسا كان مثل فردريك الثاني صاحب بروسيا لا يشرب إلا الماء ويلبس ثوبًا عسكريًا أزرق وحذاء بسيطًا وينام على فراش محشو بورق الذُّرة، ووسادة من الأديم أو من جلد الأيل، وحصانه مسرج على الدوام ليمتطيه إلى المكان الذي يستدعي حضوره بالذات، ويكثر الطواف في بلاده، ويسافر على كرسي مع البريد في طرق موحشة، فإذا بلغ المدينة ينزل في الفندق، وينصب فيه منضدة يعمل إليها، وأبطل ما رأى في قصره من البذخ ومصطلحات المدنية التي أبقتها الدول الملكية الخانقة من القرن الثامن عشر، فسرّح الحجاب وأبطل الحفلات وقلب قوانين التشريفات.

نكتفي بهذا المثل الصغير، وفي رجال الغرب كثير من عظمته لم يطلبوا المجد ولا استهواهم الظهور، وعرفت نفوسهم عن الإسراف فزهدوا، وما سكوا من عنان شهواتهم فما اقتنوا مالًا ولا عقارًا، وما فكروا حياتهم في غير مصلحة أممهم. كانوا خدامها يساوون الفقراء وينظرون إليهم نظر عطف ورحمة.

قرأت في مجلة لاروس نبذة في سيرة سالازار رئيس حكومة البرتغال الحالي وما فطر عليه من تقشف وبعد عن المظاهر وعفة عن أموال الأمة، وما قام به من الإصلاحات لأمته. قالت إنه كسرت رجله مرة وهو ينزل من سلم وزارة المالية فأخذوه إلى المستشفى وبعد أن شفي جاء الجراح يطلب أجرته، فلما لم يكن له مال أحب وزراؤه أن تؤدي الأجرة من خزانة الدولة لأنه سقط في سبيل المصلحة العامة

فأتى وباع قطعة أرض له خلفها له أبوه فى قريته ليوفى ما عليه ، وراتبه الذى يقبض به ضئيل جداً ما أظنه يطعمه وأهله غير طعام الفقراء، ولا يلبسهم إلا لباس الفقراء .

أشرت إلى هذا ليكون منه عبرة لمن يتولون فى الشرق أمور أهله ، واقتصرت على من خطروا بالبال من أهل العصور السالفة قاصداً العبرة . ولكل شىء ثمن فى هذه الأرض : للصلاح ثمن وللطلاح ثمن ، وللإخلاص ثمن وللخيانة ثمن ، وللشهرة ثمن وللخمول ثمن . للخلق الطاهر ثمن وللخلق القذر ثمن . والطبيعة فى العادة لا تعطى إلا من يستحق العطاء ، ولا تمنع إلا من يستحق المنع .

القول في حقوق المرأة

هيأ الخديو إسماعيل أسباب النهضة النسائية بأن تقدم أمراء الشرق العربي بإنشاء مدارس لتعليم البنات في مصر . وجاء بعد زمن محرر المرأة قاسم أمين فسقط على كتلة معلمة من النساء المصريات تفهم عنه ما يرمي إليه يوم دعا إلى ما دعا ، وأسفر هذا الانتباه عن إنشاء جمعيات تُعنى بتعليم الأطفال ومؤاساة البائسين والمرضى ، والنظر في مستقبل المرأة نظر من يحسن معرفة الداء ووصف الدواء . وحذت الشام حذو مصر في هذه السبيل مذ أخذت المرأة تتعلم ، وسبق المسيحيات إلى هذه المقاصد النبيلة ثم كثر عدد المتعلمات من المسلمات حتى يسابقن من كان لهن فضل التقدم في هذا الباب ، وما انقضى جيل حتى كان العاملات في الجيل التالي يحاولن التعرف بعضهن إلى بعض ، فيعقدن المؤتمرات في مصر والشام ينظرن فيما يرفع من شأنهن ويبلغهن حقوقهن ، وأهم مؤتمر لهن عقدنه مؤخراً في مدينة القاهرة اشترك فيه نساء الشام والعراق مع نساء مصر ، وتمخض عن قرارات منها النافع المسلّم به لإصلاح شأن المرأة ، ومنها ما يضر بها لأنه يخرجها عن طورها ويأتي على جميل خصائصها .

ومن القرارات الصادرة عن هذا المؤتمر أن يصبح النساء ناخبات منتخبات ، يقعدن في مقاعد مجالس النواب ، ويكون منهن الوزيرات والسفيرات والقاضيات ، وكل ما يتولاه الرجل من سياسة الممالك وتدبير الجماهير ، ويستلزم أعصاباً هادئة

وشجاعة وقوة ، لم تتصف بهن المرأة على غابر الدهر . أردن أن يعاملن على قدم المساواة مع الرجال حذو القذة بالقذة، وطالبن بمطالب يتعذر تحقيقها ولا تفيد إذا فرض تنفيذها .

وكانت الجمعية النسائية المصرية الأولى قبل تأليف الاتحاد النسائى فى مصر طلبت من حكومتها الحد من الطلاق ومن تعدد الزوجات وتعيين سن زواج الفتاة والفتى فصدر القانون على هذا وسجلت به للنساء اللائى سعين لذلك مأثرة وقع الإجماع على استحسانها ، وثبتت النساء أنهن أحدثن يفكرن فيما لم تكن جداتهن يفكرن فى شىء منه ، وأنه اتسع أفقهن للنظر فيما يرجع مستوى بنات جنسهن .

* * *

لم يوفق الغربيون فى إخراج المرأة من حظيرة البيت إلى المعمل والحانوت لتكاثر الرجال ، ونشأت من خراج المرأة عن طبيعتها مفسدة إذا ذكرت أمام أرباب المروءة والشرف من أهل الغرب تصبب عرقهم واحمروا خجلاً ، وقام فى العهد الأخير بعض المذاهب فى أميركا وانكلترا وألمانيا ينكر المغالاة فى الاختلاط ويحرم الرقص والتبذل فى اللباس ، إبقاء على عصمة المرأة وصوناً لها عن التدهور فى مزالق الفتنة .

ولم تنل الدول التى منحت المرأة حق الانتخاب أكثر من إرضاء فريق من المطالبات بهذا الحق الموهوم الذى ما زاد من مكانة المرأة ، وظل الرجل أصحاب الموقف ، ولم يوفق النساء إلا إلى منحهن ما ألححن بطلبه من الحقوق أعواماً . ولم تقم المرأة التى ظفرت بحق الانتخاب بما يدفع أمتها خطوة إلى الأمام وما دفع حنانها ما حل أهلها من البوائق ، وما استطاعت إبطال الحروب وفض مشاكل الأمم من دون الرجوع إلى السلاح ، ولو كان للمرأة صوت مسموع فى سياسة الممالك التى أعطت نساءها حق

الانتخاب لحمهن من ويلاتها ومنها القضاء على المسكرات التي ضجت من أضرارها شعوب تلك الأقطار .

المرأة امرأة وإن ألبستها ثياب الرجال ووسدت إليها أعمالهم ، ومهما جهدت لا تحليها بحق ليس فيها ، ولا تخلق فيها ميزات لم تتميز بها . المرأة كما قالوا ريحانة وليست بقهرمانة ، لم تؤهلها طبيعتها لغير ولادة الأولاد والعناية بتربيتهم وخدمة زوجها والسهر على راحته ، وتولى الخطير والحقير من شؤون بيتها . فروض جسيمة فرضت عليها لو أحسنت تجويدها لكلفتها أن تشتغل معظم ساعات نهارها وردحاً من ليالها . ومن كان عليها مثل هذه التبعة العظيمة كيف تقوى على تولى المصالح العامة فتقضى وتسوس وتشرك الرجال في شؤون اختصوا بها مذ كانت لدنيا . والمرأة اليوم إن أحست من صدرها قوة وقامت ببعض الأعمال الوطنية ، ونفعت قليلاً بالقياس إلى أمها وجدتها، فليس معنى هذا أنها تصلح للشرطة والدرك والقضاء والإدارة ، ولا أن تمارس ركوب الطائرات والغواصات ، وتقود الكتائب وتحمى الصفوف .

وما سبيل النساء في الحرص على الحياة النيابية بدون تعليم سوادهن الأعظم على الأقل ، إلا سبيل من يحاول بلوغ رأس السلم قبل تخطى درجاته الأولى أو بشيد بناء ضخم بدون وضع أساس الطابق السفلى .

قلت يوماً لأحد علماء الترك : أما بلغك أن مدينتنا ستنور بعد قليل بالكهرباء وتسير فيها الحوافل الكهربائية كالعواصم الغربية ؟ فضحك وقال : ان حالكم بهذه الزينة الجديدة قام لبذى العرباء أشبه بامبراطور كوريا يلبس على رأسه تاجاً من ذهب ، ولا سراويلات له تستر عورته ، وكان الأولى يا صاح أن تنظم طرق البلدة أولاً ثم تسير فيها الحوافل الكهربائية . وأنا أقول كان الأولى قبل أن تطلب

المرأة حق التشريع فى مجالس النواب أن تتلافى قصورها المخجل فى ميدان العلم والتربيـة .

كان القائلون فى الغرب بوضع المرأة حيث وضعتها الفطرة إلى المعقول أكثر من أصحاب الرأى الذين ظلموها وبدءوا معها حقها المهضوم ، ولو كان من ورائه ما رأوا ثورة هوجاء لا تتجلى عن خير ، فقد دلت التجارب على أن القوانين الوضعية مهما بلغ من إحكامها لا تقوى على القوانين الطبيعية .

يزعم الفريق المتطرف أن العالم سيعمه الهناء والسعادة يوم تتم أمنيته فى توجيه النساء وجهتهن الجديدة . ويورد الفريق المعتدل فى رد رأى المغالين حقائق ما وسع خصومهم أن ينقضوها نقضاً جيداً ، ويقول ان المرأة تمرض أيام شبابها وكهولتها كل شهر مرضاً تكثر به آلامها ويسوء خلقها وتمرض أيضاً أيام الوحام والحمل والنفاس برهة تقطعها عن مباشرة كل عمل ، ومن كانت هـذه حالتها من الصحة أنى لها أن تقوم بأعباء عظيمة ولها من نفسها ما يشغلها عن كل شىء .

ويقول المتفقهون ان تركيب جسم المرأة مخالف لتركيب جسم الرجل ، وان المرأة لم تثبت الى الآن كفاية ذهنها لمباراة الرجل فى صراع الحياة ، فما قام من النساء عالمة ممتازة ولا شاعرة كبيرة ولا كاتبة عظيمة ولا مخترعة ولا مكتشفة ، ولم يتعدَّ ما تمَّ على يدها الأمور البدائية إذا قيس بما أبدعه الرجال من بدائع العلم والأدب والفن والصناعة . فكما أنه لم يخرج من صفوفهن العبقريات فى هذه الفنون ، لم ينشأ منهن خياطة عظيمة ولا طاهية مبدعة ، وما زلنا نشهد هاتين الصناعتين المهمتين حكرة فى أيدى الرجال ، بل ان الرجال يخترعون للنساء أزياءهن وأساليب زينتهن ، وإذا ادعى مدع أن من النساء من أتقن الكتب ومارسن الأدب فيقال له ان معظم

ما عزى إلى المرأة من التأليف هو من صنع الرجال ، وما ساعد في فرنسا على اشتهارها بالأدب وانتشار التعليم فيها بين الجنسين غير « مدام دى سيفينيه » كتبت بقلمها رسائلها الى ابنتها ومدّها العلماء من الأدب الممتع لما تحمل من عواطف ، وما عدا ذلك فكتابات متوسطة وشعر غث .

لم يبرز النساء حتى اليوم في غير تربية الأطفال، وقد أثبتن استعدادهن في طب الأمراض النسائية وفي الكيمياء العملية ، وكن آية في تمريض المرضى وإدارة المستشفيات لما في طبيعتهن من نعومة وصبر وأناة . والرجال لم يوفقوا إلى منافستهن في هذا الشأن ـ ولا يرجى أن يوفقوا ـ لتوقف ذلك على صفات اختص بها النساء دون الرجال .

* * *

الأنثى في حاجة شديدة إلى التعليم الابتدائي حاجة الصبي إليه ، على أن يكون تعليمها ملائماً لبيئتها وطبيعتها . لا تعفى من ذلك ابنة المدينة ولا ابنة القرية ، ويقتصر التعليم الثانوي والعالي كما هو الى الآن على فئة منهن لا يتجاوز عدد الآخذات به واحدة في البضعة آلاف ، إذ ثبت أن معظم من تعلمن التعليم العالي والأوسط ضعف استعدادهن لإدارة المنزل وتربية البنين والبنات ، فخرجن طوعاً أو كرهاً عن غرائزهن ، وفقدن بمظهرهن الجديد دعة البيوت ومتعة الزوجية . وكان من إخفاق النساء في المحاماة والطب دليل ظاهر على ضعفهن وقلة استعدادهن لما خص به الرجال .

تحتاج المرأة إلى إتقان أشغال البيت وهي كثيرة ، وإلى أن تقيد دخلها وخرجها وإلى أن تنشئ كتاباً بسيطاً إلى زوجها وابنها وابنتها وأمها وحماتها، وإلى أن تتعلم

كل ما يزيد بهجة البيوت كتربية الأزهار والورد والأشجار والبقول ، وما يوفر لها حاجة من المصروف إذا حسنت القيام به كصنع الجبن والقشدة والملبن والسمن والمربيات وغير ذلك من الصناعات الزراعية . وهي إلى هذا تدخل السرور على زوجها وأولادها إذا علمتهم آلات الموسيقى وغنتهم ، وطربتهم بآلة موسيقية أتقنتها . وعليها أن تعرف ما لها وعليها من الحقوق ، وأن تتهذب بأدب الدين وأدب الوطن ، أما حاجتها من الأمور الكبيرة فمحدودة وهي في غنية عن أن تجهز بجهاز على واسع تتعلم أكثره بالعمل في مراحل حياتها ، ومنه ما هو أعلق بها من غيره ، والواجب على كل حال أن تكون المرأة قريبة من ذهنية زوجها تعينه على الكدح له ولأولادها ولا يطيب عيش الزوجين إلا بتكافؤهما في الدراية والثقافة الأولى .

قلت : إن المربين من الغربيين يؤكدون أنه لم ينبغ من النساء عدد من كن من عيار من نبغ من الرجال في جميع مظاهر الحضارة ، والحال كان كذلك في الشرق الإسلامي أي كان المحدثات – إن صحت تسميتهن بذلك – في فن الحديث وهذا يحتاج لحافظة ، وفي الشعر وهذا يحتاج إلى عاطفة ، ومن هاتين الخاصتين رزقت المرأة قسطاً عظيماً . وقد شاركن في الموسيقى والغناء مشاركة ما تفوقن فيها على الرجال إلا أنه لم ينشأ منهن فقيهة ولا متكلمة ولا مؤرخة ولا فيلسوفة ولا رياضية ، وكن إذا تدخلن في أمور الدولة تميل إلى الانحطاط ، ولذلك كان عقلاء الملوك يحظرون على نسائهم الاشتراك في ما لا شأن لهن فيه من أمور السياسة .

إن طمع النساء في إحراز الحقوق السياسية طمع في غير مطمع ، ذلك لأن طبيعتهن ما تبدلت ولن تتبدل ، وليت شعري ماذا يرجى من مجتمع أكثر من تسعين بالمئة من نسائه أميات لا يقرأن ولا يكتبن وإذا كانت نسبة المتعلمين من الرجال أكثر

من النساء كيف يستفيد النساء من تشريع جديد يسن لإرضائهن فقط ، وإذا كانت فرنسا وأهلها أهلها في تقدم العلم والمعارف وفي الصدارة في تحسين الظن بالنساء لم تقرر مساواة المرأة مع الرجل كيف يرجى الخير لهذا النوع من الحكم عندنا على حين لا يؤمل رفع الأمية من ديارنا قبل مضي قرن . وعجيب كيف نؤخذ بكلام ظاهر البطلان ونخدع بالتمويه ، ونفرح بالجديد ولو كان بديهي الضرر ، ولا نتعرف إلى ما بطن وظهر من مشاكلنا ولا إلى الأثر الفعال في ضعفنا .

وبعد فلماذا لم يقل لنا المجددون بإعطاء المرأة حقوقها المدنية على مثال الرجال كيف تمسي حال البيوت بعد انقلابهم الذي يتوقعونه . لا جرم أن الشقاء سيخيم على كل أسرة يشتغل رباتها خارج بيوتهن ، اللهم إلا إذا كان في النية أن يعمدوا إلى دفع أولادهم إلى الحكومات تربيهم تربية مشتركة كأنهم بعض اللقطاء من أولاد الدول ، لا يذوقون في هذه الملاجئ طعماً لحياة البيوت ، ولا يرون أثراً للروابط الروحية بين الأولاد والأبوين .

وإذا كانت هذه البراهين لا تقنع المتحمسين والمتحمسات للدعوة إلى المساواة بين الجنسين فإنا نورد بعض ما قاله أناس من الفريقين عسى أن يكون منه مقنع .

قال الدكتور روبرتوتش في كتابه نهضة المرأة : Dr. Robert Teutsch

Le féminisme ما زالت مسألة إعطاء المرأة حقوقها منذ ثلاثين سنة من الموضوعات الطريفة ، ولو كان الأمر يقف عند حد إعطائها جميع حقوقها ولا سيما السياسية التي لم تهيئها لها طبيعتها ولا خلقتها لهذا الأمر ، ولكنهن يقصدن من المطالبة بذلك التفلت من قيودهن وقيود البيت والأمومة خاصة . تريد المرأة إسقاط منزلة الرجل وتطمح

إلى الاستيلاء على كل عمل لم تخلق هي له . تحاول الابتعاد عن المنزل وإهمال شؤونه والإقلال من الأولاد والقضاء على الأسرة مما ينتهى بانقراض العنصر والجنس ، وتأثير الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر فى معظم المدائن المدنية راحت دعاية المغرضين، وكان من ذلك خروج النساء عن طورهن وعملهن على أن يتناسين عملهن أو يستنكرنه ، فصارت المرأة مصممة شمعة عند إرادتها محاكاة الرجل ليكون منها شريكة مبغضة له أحياناً، ومنافسة وخصيمة يخشى بأسها . وهناك نساء سطا عليهن الكبر والحقد فاحتقرن الرجل والزوج والولد وهن قادرات على أن يكن طاهيات ووصيفات وساعورات (ممرضات) ودلاكات ومنظفات أيد Manucures ومنظفات أرجل Pédicures وحاسبات وحارسات وكاتبات ومدرسات وناظرات وسمسارات وقصصيات ومحاميات وطبيبات ، ويتوهمن أنهن أسمى من الرجل أو مساويات لهم على الأقل ، ويحاولن أن يقمن مقامه فى معاناة سائر الأعمال وهن لسن له خليقات .

وما برح دعاة تحرير المرأة ينادون أن المرأة مساوية للرجل ، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط ، وإذا كان الحال كما يدعون فلماذا نرى البقرة غير الثور، والنعجة غير الخروف، واللبوة غير الأسد ، ولماذا يتناسى دعاة هذا التحرير العمل العظيم الذى يؤثر فى طبيعة المرأة وعقليتها ، وما كتب عليها من الحيض الذى يخرجها إلى طور غريب ويؤثر أيامه فى حقيقتها ، وبعض الصحيحات منهن أو المريضات تعاودهن العدة مرتين فى الشهر فيتأثر المجموع العصبى فيهن من هذه الموجات الدموية .

وقد ظهر من أبحاث العلماء فى جميع الأمم أن الطبيعتين الأنوثة والذكورة متخالفتان لا فى ظواهرهما فقط بل فى أعمق تراكيبهما . ويقول الأطباء إن كلاً من الفتى والفتاة ينشأ نشأة طبيعية متخالفة ، كثر الموت والضعف فى الصبيان وتجلى الذكاء والإحساس والحكمة فى الطفلة قبل تجليه فى الطفل ، ولا تزال الفروق بينهما تتزايد من الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة . ويبدو فى الصبيان الاستعداد لتعلم الحساب والعلوم ، كما يبدو فى الفتيات بفضل خصوبة إحساسهن جمال الإنشاء ورقته بالقياس إلى خشونة كتابة الصبيان . وبعد اجتياز هذه السن الصعبة يطرد ارتقاء الصبيان ، أما الصبايا فيقفن فجأة مأخوذات بحياة جديدة ، وكثيرات فيهن من يتركن عندئذ كل عمل .

وادعى بعضهم أن ذكاء النساء يضمحل فى ذلك الدور ليقوم مقامه حس ينصرف إلى الدلّ والغزل والموسيقى والقراءة وأعمال الإحساس ، وكثيراً ما يصادف أحسن التلميذات فى سن الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة من تأخر نموهن . وبينما يكون البلوغ فى الصبى داعياً إلى توسع فكره وحملاً له على الاضطلاع بالمسائل الكبرى فوق الطبيعة تشتغل المرأة بنفسها ، وتتمشى مع إحساسها ثم تفنى فى مشاكل الحب والأمومة .

وقد قرر العلماء أن تشريح الجسمين متخالف كل التخالف ، فالقامة وثقل الجسم أقل فى النساء منهما فى الرجل بنحو الثلث ، وحجم العضلات أقل استعداداً للنمو ، وأدمغتهن أقل وزناً حتى بالقياس إلى الوزن العددى . وقرر العلماء أن حاسة الشم والذوق فى النساء أقل مما هى فى الرجل ، ولذلك قل أن استخدم أرباب المعامل النساء فى الأعمال التى تتطلب التمييز بين الألوان والأذواق ، مثل التفريق بين أجناس

الجمود وأصناف الشاى ومراقبة الحوت وإصلاح «الميزان» . قالت «مدام دى رمورا» : إن الحس أكثر ملازمة لنا معاشر النساء من الملاحظة، واستنتج من هذا أن ذاكرة النساء أقل إحاطة بالمسائل من كل وجه من ذاكرة الرجل ، واضطراب المرأة أعظم بكثير من اضطراب الرجل . وتزيد فى بعض أدوار حياتها اضطراباً حتى تكون فى حالة مرض وعصب ، وتصبح مدة الحمل أحياناً كأنها فى جنون عارض .

وهكذا انفرد الرجل بالذكاء والمرأة بالشعور ، والرجل كل حين يفكر ويقدر، والمرأة تشعر وتحس ، وشعورها هو كل ما لها من آيات النبوغ . فقد أبى المولى أن يرزق النساء قرائح تستجمع كل شعثهن فى القلب ، وانطباعات يقتضين الاستقلال فى الفكر والتعمق فيه فهن أحداث غير موحدات . وقارن المؤلف بين ثلاثة من الكتاب «بوسويه» و «فلوبير» و «بول فاليرى» ، وبين ثلاث كاتبات «مدام دى سيفينييه» و «جورج صاند» و «مدام كوليت» فثبت له أن فى إنشاء الرجل منطقاً سليماً وفكراً مستقيماً كانت منه متانة حججهم ورنة أصواتهم الموسيقية وتساوق المجموع من أقوالهم على خلاف كتابة أولئك الكاتبات المطبوعات .

وذكر جان لارناك فى كتابه تاريخ الأدب النسوى فى فرنسا

Jean Larnac : Histoire de la littérature féminine en France.

أنه لم تبق صنعة للذكور إلا وتخطاها النساء حتى مدرسة المعلمين العليا ومنابر الجامعات، ولم يبق أمامهن عائق يعوقهن عن التعلم ونشر ما يستهوى قلوبهن ويرضى نفوسهن ، وأصبحن فى حل من أن يتعلمن كما يشاء لهن الهوى ، وغدا منهن الأساتيذ والصحافيات ومديرات دور الطباعة وأخذن ينافسن الرجال فى جوائز الأدب والمجامع الأدبية العامة والخاصة ، فتمت لهن كل أدوات الثقافة فى بيوت العلم . ولكن القرائح تخلق خارج

المدارس ، وللنساء أن يتوسعن ما شئن وليس في مقدورهن أن ينتعشن إلى الحد الذي يطمحن إليه ، ولا يسرح النساء ويمرحن إلا في ظل الحرية ، وإذا أخذن من عنان قرائحهن فقدن أجنحتهن ، ولما تبن إلى أول القرن العشرين يمشين على أثر الرجال ولم تحررن التحرر المطلوب إلا في هذا القرن ، حتى لقد قال ستندال : إن ثقة استعداد المرأة لبلوغ مراتب الكمال في المجتمع مستمدة من كونها ما حصرت ذات يوم في تتحلل من قيودها إلا بعد تحول ، ومتى حاول النساء الحرية المطلقة وتمكنهن يخرجن بلا حجاب ، على أنهن بعد هذا خرجن بلا برقع وأحياناً بدون دثار ولا شعار .

والواقع أن النساء تأسرهن عبيدات حواسهن وأعصابهن وقلوبهن ، لا يجد فيهن اعتراض إذا خالف قانون الطبيعة وناموس الحب . وكان الأديبات منهن إذا تحدثن الحب بالمعنى الوجيز يجهلن حب الأمومة على ما تجلى ذلك في مكتوباتهن ، ومع هذا تراهن يتكلمن فيما يسطرن ، وينطقن إلى حواسهن وقلوبهن أن تملي أكثر مما لها ، وما كتبت لهن إلا أن يكن أدوات تحس وتهتز ، وأن يجعلن من العالم مجموعة أحاسيس . وإذا محصت الأدب النسوي لهذا العصر من حيث الإنشاء تسقط فيه على قرائح عظيمة وعلى نبوغ أيضاً ، وقلّ أن تقع فيه على شيء اسمه فن . ويقل إن النساء ما عدا اثنين أو ثلاثاً منهن لا يحسنّ التفريق بين المواد التي تتطلبها الحياة ، فمنهن من تجتهد اجتهاداً تنتج به آثاراً طيبة وكثيرات يرسلن أقلامهن على غاربها كما يشاء الهوى ، لا يحفلن التنقيح ولا سلامة التراكيب ، وفيهن من اتخذن الأدب وسيلة إلى السياسة ، ومنهن من عالجن فلسفة الأخلاق ومارسن فن التربية ، وظللن فيها متوسطات لم يأتين بإبداع وجاء أدبهن خالياً من التجدد .

لم يكتب للنساء التفوق على الرجل لأن التدقيق يصعب عليهن ، حتى إن القصصيات منهن لم تروحين إلا وصف الحب فى كل مظاهره ، جمعه موضوع أقاصيصهن ، ولم يعهد أن ورثت امرأة فى قصة « الدرامة » وما جاء منهن مؤرخة ، والمرأة تحسن أن تضحك من مثيلاتها ، ولكنها لا تحسن الإضحاك . أما الرجل فيحسن نقد نفسه كما يحسن نقد غيره والمرأة تحذر كثيراً من المزاح الذى يأتى على الاعتبار والحرمة والحب وهى مجموعة عواطف . وكذلك كان النساء فى التاريخ فقد شذ منهن مدونات مذكرات كثيرة ، ومامنهن قصصيات ومنهن اليوم أستاذات فى التاريخ وأستاذات فى استخراج المكتوبات والمخطوطات ، وما جاء منهن إلى اليوم مؤرخة من عيار « تيرى » ولا « ميشليه » لأن اللازم لتحرير فى التاريخ معلومات كثيرة ليس فى مكنة المرأة إحرازها ، ولواجب أن يكون لهما فكر نقاد عار عن كل هوى للتمييز بين الحقائق والظنون ، وعقل مجرب لإدراك ألوف من الروابط تجمع الحوادث بعضها إلى بعض ، وثبات حائل من التفصيل فى العواطف ، وقدرة على النظر نظرة واحدة إلى كل عصر ، ولهذا لم ينشأ من النساء عظيمة فى باب النقد الأدبى والفنى ، ولا كان منهن فيلسوفة تلفت النظر .

ومن النساء من كانت لهن مقدرة على الاستفادة من دروس أساتيذهن وليس فيهن واحدة ابتدعت مذهباً ، وما قامت منهن واحدة استطاعت أن تخلف مثل « خطاب فى التاريخ » ولا « لأفكار » لباسكال ، فهن قاصرات فى جميع الفروع التى تستلزم من المؤلف التجرد المطلق من نفسيته ، وما لمعت أعمالهن إلا فى موضوعات لا فن فيها . وقليل منهن من كتب لهن التفوق فى الإنشاء والكتابة دون إرشاد الرجال لهن ، فإن « مدام لافاييت » أشرف عليها « سكرى » و « لاروشفوكولد » و « مدام دى سفل »

صارت سيرة أصحابها المديدين ، و « جورج صاند » قادها عشاقها ، و « مدام كوليت » راقب أعمالها « فيلي » .

لم تتح مواهب النساء الطموح لهن إلى منزلة في الأدب المجرد ، وشهدنا آثارهن أحياناً خالية من الصنعة ، فصح أن يقال أن ليس لهن قدرة على التفكير الصحيح والتوسع اللازم لوضع الفكر المجرد والإنشاء الفني ، ولم يكتب للنساء درجة عالية حتى في فن الطهي ورأينا كبار الطهاة من الرجال لا من النساء ، وترهن في باب الأزياء ، والأزياء من أخص خصائصهن ، يتكلن على غيرهن في باب التجمل فهن أيضاً مقودات بأيدي الرجال بل إن النساء يشككن — كما لاحظ ماريه دوفيلي — قد يفقدن البداهة والعمل الذاتي وما ساعد الرياسات لإسكندرية الانوريج ، وإذ ذكرت كاترين الروسية ذكر معها بطرس الأكبر . وإن إعطاء الحقوق السياسية لم ينتج منه الإصلاح المنشود في شمالي أوربا وفي أميركا وأوستراليا حيث أخذ النساء يتمتعن بحقوق الناخب والمنتخب . وفي الدانيمرك لم تنل النساء شيئاً أحسن مما كان لهن قبل اليوم كان نسوتها يسلمن للرجال مقاليد الأمور ، ولم يقض على الغول (الكحول) في بلاد السويد والنرويج وفنلندا وأوستراليا والولايات المتحدة ، أما الفحش فكثير جداً في هاتيك الممالك مشوباً برياء وتصنع .

خرج المتعلمات في الجامعات الأميركية من البيوت الفقيرة ، وأظهر الفتيات في فرنسا وغيرها اجتهاداً في طلب العلم وقد يتممن بدقة وسرعة كل ما يتطلب إجهاد الذاكرة ويبرزن في المسابقات ، ولسن كذلك عندما يخرجن إلى الحياة ، ويضطررن إلى القيام بأمر يحتاج إلى تفكير وشخصية وصحة حكم . وقل أن ينجحن في المحاماة

والطب ، ويندر أن يقبل أرباب المصالح على توكيلهن في القضايا أو استشارتهن في الأمراض . ومن تزوج منهن من رجال لهم مثل صنعتهن ، كأن تتزوج الطبيبة من طبيب والمحامية من محام ، لم يحمدن عاقبة زواجهن ، لأن التفاوت في قريحتي الزوجين يؤدي إلى أن تحسد الزوجة زوجها على رزقه ووثيقه في عمله فتبغضه وتشنؤه . وثلث المتعلمات في أميركا لا يصلحن للزواج . وكم أخرجن شهادات تخوف الرجال الإقدام على التأهل بهن . وثبت أن من تزوجن في أوربا لم يقدمن على الزواج إلا بعد سن الثلاثين وأحياناً في الأربعين . وكان معدل العقم من هذا الزواج تسعة وثلاثين في المئة لا تحمل صاحبته ولا تلد .

أخذ بعض النساء بعد الحرب العامة يرجعن في فرنسا عن تعاطي المحاماة والطب وثبت الموظفات منهن في الإدارات الحكومية والخصوصية أن المرأة عندما تجلس وراء كوة أو منضدة لتقيم بعمل تصبح أشبه بالحيوانات المفترسة ، وكانت خارج عملها من الساحرات الفاتنات بلطفها وظرفها . قالوا إن النساء إذا شاركن في السياسة يهذبن الأخلاق ويبطلن الحروب ويشرعن تشريعاً نسائياً أكثر من تشريع الرجال ، والواقع خلاف ذلك ، لأن من الموظفات من إذا رضخ لهن شيء من المال يحسن ويغيرن معاملتهن ، فهل تلك تجد لهن إذ عرضت على الواحدة منهن المثل ؟ ومن توابع أنهن لا شأن لهن كثيراً لم ينجحن النجح المطلوب ، ومن يفحص كن تراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال من حيث العضلات والقوى .

وما نجح النساء في تولي الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شيء ويسندون ما عملوا للملكات . وإذا رجعنا إلى تراجم الملكات والأميرات نجد كثيرات منهن على جانب من التهتك والخلاعة ، وما تعففن عن غمس

أيديهن بالدماء ، ويكون ذلك أحياناً لمآرب لهن ، وللتخلص من رجال تمتعن بهم ثم أردن إلغاء ذكرهم . وإذا أردنا أن نذكر شهيرات النساء في الأدب لا نرى غير الرجال يعملون لهن من وراء ستار على الأكثر ، وما تركت فيه المرأة وشأنها من الآثار الأدبية كان إلى التفاهة والفهاهة .

قال : ولقد رأينا محاميات انقلبن خادمات في البيوت، ولدينا براهين كثيرة على أنه خير للمرء أن يحسن صناعة من أن يحمل شهادة حسنة ، فقد نال كثير من النساء لقب دكتورات في الحقوق فأصبحن كاتبات بسيطات على الآلة الكاتبة ، يتعلم النساء علماً كثيراً ولا يعرفن احتياجهن إلى كسب قوتهن .

قال رودون: إن المرأة التي تبتعد عن جنسها تسقط إلى مستوى أنثى مهذارة وقحة كسلانة خفيفة خائنة مسممة ، وهي طاعون أسرتها والمجتمع . وقال لوكوبيه : إن المرأة الطبيبة يتقزز منها ، والمرأة التي تتولى كتابة الصكوك يضحك منها ، والمرأة المحامية يفزع منها . وكان اوجست كونت يعرف النساء كثيراً ويعرفهن كثيراً ، ويخالف في تحريرهن ويعرف أنهن ـ ما عدا القليلات منهن جداً ـ لم يخلقن للعمل ولا للحرية ولا لتحمل التبعات . وكتب جوزف دي مستر في كتاب له إلى إحدى بناته: إن فولتير يدعي أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال وما دعاه إلى قوله هذا غير التقرب من قلوب بعض الغواني الحسنات ، فالنساء لم يأتين بأثر يذكر في ضروب الآداب : فلم يؤلفن الالياذة ، ولا الانيد ، ولا القدس المنقذة ، ولا فيدر ، ولا اتالي ، ولا رودكون ، ولا الميزانتروب ، ولا ترتوف ، ولا زهرة دي دميديسيس ، ولا ابولون ديبلفيدر ، ولا البرسة ، ولا كتاب الأصول ، ولا خطب التاريخ العام ، ولا تلماك . ولم يخترعن الجبر ولا المجهر ولا المنظر ولا مضخة النار ولا صناعة الجوارب الخ .

وما قامت امرأة عالمة جديرة أن تعد بين العلماء، والمرأة ليست في حال تستطيع أن تفوق فيها الرجل إلا نادرتها، وليست سوى قردة إذا أرادت المساواة بالرجل .

قال المؤلف الذي نقلت عنه هذا : أيتها المرأة، إنك مهما فعلت مسوقة بعامل من الكبرياء وعوامل أكرهتك على خوض غمار أزمة هذه الأيام مخرجي من حظيرة جنسك وقطعي صلاتك بمهنتك الأبدية السامية، لن تكوني إلا صاحبة وزوجة وأمًّا، وإذا أنسيت رسالتك في الطبيعة ستتولى عاجلاً أو آجلاً تذكيرك أن الأقدار ما خرجت بك إلا لتكوني شريكة رجل وأم أولاده وحارسة النعم وخفيفه، والحيية الموحية إليه والمنقذة له . أنت أبداً مهد لآلام البشرية، وستبقين على ذلك إلى يوم البعث والنشور اهـ .

وبعد فقد كنت ولا أزال ظهيراً للمرأة، محباً لإسعادها، آسفاً للاستعباد الذي حاق بها، محاولاً تعليمها كل ما يرفع من شأنها، داعياً لإصلاح حجابها الشرعي، ذاهباً إلى أن تخلف المرأة المسلمة عن الأخذ بحظ من التهذيب قذف بالمسلمين من حالق المدنية إلى هوية الانحطاط، وما طلبت إعطاء المرأة زيادة على حقها، وما حدثت نفسي أن أخدعها وأتملقها توقعاً لرضاها، وكنت وما زلت على مثل اليقين أن من يغرون المرأة على مساواة الرجال يخدعونها ويضحكون منها . وصديقك من صَدَقك لا من صدّقك .

القول فى النساء المظلومات

درجت منذ عهد الصبا على البحث عن أسرار النساء ، وكنت أعطف على من خانهن الطالع عطف من شاركهن فى آلامهن ، ومنهن من كن يفتحن لى قلوبهن ، ولا يخفين عنى ماضيهن وحاضرهن ، وكنت أسقط بذلك على العجيب الموجع ، والمدهش المغرب .

كنت قبل الاطلاع على أحوال النساء أجد الرجال على حق فى شكواهم منهن ، فلما تجلى لى بعض أسرارهن ، تحققت أن معظم الحق مع النساء ، وأن أكثرهن مظلومات ، وأن الرجال يخطئون قليلا والنساء يخطئن كثيراً ، وأن النساء [illegible] أخلص من الرجال لأنفسهن ، وأنهن أعف نفساً وأوفر رصانة ، يصبرن عن الرجال أعواماً ، وهؤلاء لا يصبرون عن النساء يوماً ، وطبيعة الجنسين واحدة .

وترجح عندى أنه إذا كانت سيرة بعضهن مشينة ، فالسبب الأعظم فيه الرجال ، وقد لا يكون فيه ذنب للنساء ، وأنه حق على العادات مطاردتهن ، وفى وسع الرجال استصلاحهن ، والعفو عن عثراتهن العفوية واجبة

يرتكب الرجال ما يرتكب من الشهوات فتقبل له الأعذار ويسامح ، ولا تعذر امرأة مجردة كانت أم محصنة ، لأن الرجال مصدر القانون ومورده ، وفى تشريعهم سند للبيوت ، هذا حق لا يخلو من شىء من الباطل ، أنصف فيه الرجل خاصة أو أغفى عنه .

والأصل فى تخفيف جرم الرجل ، وتطبيق أقسى العقوبات على المرأة ، أن الرجل صاحب القوة ، وللقوى إملاء إرادته على ما يشاء ، ويضاعف الجزاء للمرأة ضعفها . والتكليف إنما وقع على الذكر والأنثى سواء .

ومع ما بلغنا من صعود فى درجات المدنية لا نزال نرى أمورًا فيها الغبن الفاحش على النساء . ومن ذلك أن يحرم بعض الآباء بناتهم إرثهن ليحصوا عليهم أبناءهم . وكانت هذه العادة الجاهلية متأصلة فى بعض الأرجاء التى تغلب عليها البداوة ، فسرت إلى المدن المفروض فيها أنها أخذت بنصيب من الحضارة .

يقولون الكفاءة الشرعية ، وهذا باب من أبواب الفقه يقرأ ولا يكاد يعمل به ككتاب الجهاد وباب الرقيق ، وإذا بطل الجهاد والرقيق من الأرض فالزواج ما بطل ولن يبطل . وليت شعرى لم لا تفسخ العقود المعقودة على غير قاعدة الكفاءة ، ولم يقرها صاحب السلطان ، وأقل ما يقال فيها أنها تحمل أحد الطرفين على النفرة من صاحبه ، وعاقبة النفرة ارتكاب ما يحرم ويضر .

قالوا إن الكفاءة هى مساواة الرجل للمرأة فى أمور مخصوصة كالنسب والإسلام والحرفة والحرية والديانة والمال ، ولا أدرى لم لا يعدون فى باب الكفاءة كفاءة الزوجين فى السن ، كأن يشترط على الزوج ألا تتجاوز سنه بضع سنين زيادة على سن امرأته . فقد حددت مصر والشام فى العهد الأخير السن التى يستطيع كل من الزوجين أن يتزوج بها ، وبقى على المشرعين أن يحددوا السن التى يسوغ فيها لكلا الزوجين أن تعقد بينهما هذه الشركة ، حتى لا يتزوج الرجل من فتاة قد تكون فى سن ابنته أو حفيدته .

وما زالت المحاكم الشرعية تعقد لفتاة على شيخ هرم . وحدث أن عقدت لابنة في الخامسة عشرة ، غاية في الجمال ، على شيخ في الخامسة والسبعين ، ولما سمعت خبرها ، وأهلها من معارفي ، ويدعون التدين والتقوى ، قلت لأهلي : قاتل الله هذا الأب الظالم إنه بتزويجه ابنته من هذا العجوز قد قتلها ، ولعمري هلكت الفتاة بعد مرور سنة على زواجها ، ولم يعرف إذا كانت ضرتها سممتها ، أم أنها ماتت قهرًا من زواجها (في الصحيحين : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن) .

أليست مثل هذه الأحداث التي ما زالت تتكرر دليلًا قاطعًا على أن لا يزال [illegible] الفتاة [illegible] إلى [illegible] من دفع ثمنها ، وأن الحق فيها [illegible] الأول [illegible] من يخطبها ؟ كأن المرأة المسكينة لا رأي لها ولا إرادة ولا ذوق ، وكأن كل أنوثتها من حق شخص الرجل وحقهم الذي لا ينازعهم فيه منازع .

من الكفاءة الشرعية تكافؤ الزوجين في الثروة والنسب ، ومن طرف هذه الكفاءة تطابق [illegible] ، [illegible] يتطلع الفقير [illegible] يتزوجها [illegible] فيها ، فلا [illegible] أن يقع [illegible] بين زوجين [illegible] في [illegible] . [illegible] الأخرى [illegible] الذي [illegible] ، [illegible] كل في [illegible] .

وكم من غني طاعن في السن اقترن بفتاة عزيزة [illegible] زوجها ، [illegible] أهلها [illegible] ، [illegible] شاب يحبه [illegible] ، [illegible] العجوز زوجها الأول ، فتطول [illegible] وهو عاجز عن معاشرتها معاشرة مطلوبة ، ومع هذا [illegible] أولاد [illegible] . والقدرة على العشرة الزوجية شرط في الكفاءة كالقدرة على المهر والنفقة بل هو أولى . [illegible] على ذلك كتب الحنفية .

وكم من زوج طاب له أن يجمع من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وقد يعم اليهن إذا كان غنياً وصيفات وخادمات ، فتصبح داره كحظيرة العرائس فيها إلا لفحل واحد ، والرجل إنما رزق قوة واحدة . وحدث ما شئت أن تحدث عن المفاسد التي تجرى في مثل هذه الدور يتولى الخدم من الحرم ما يعجز صاحب الدار عنه .

وكم من رجل اتخذ من زواجه تجارة فتزوج من قبيحة الصورة ، وأزمع أن يرضى نفسه في غير بيتها ، ويجعلها مورد رزقه الدائم . ولا تسل عما يكون من حال هذا الزواج متى سيطر العقل على أحد الطرفين المتعاقدين ، وكثيراً ما رأينا بعض عقود الزواج يقوم على فكرة تجارية محتة ، ومثل هذا الزواج لا يطيب ولا يرجى له البقاء . وقبيح بزوجة تتزوج ممن لا تحب ، وهى تبطن في قرارة نفسها أنها تخدعه متى امسح أمامها المجال . وسواء أرحل بعض الطرف عن كثير من الاعتبارات في زوجته طمعاً في مالها ، وإرادة أن ينعم بالتقلب في أعطاف نعمتها .

* * *

وما القول في أحمق يعضل بناته ، وعروق الحياة تنبض فيهن ، بحذر هذا ألا ينتقل جزء من ثروته بعد موته إلى صهر له في بيت آخر . وهذا ماذا نسميه ، وماذا يقول بناته فيه ؟ لا جرم أن القتل أخف من طمعه هذا ، ففي القتل راحة ، والفتاة التي حكم عليها بسلطان هذا المشؤوم تُقتل كل يوم قتلة ، وتسوء صحتها ويضعف نشاطها ، وتسود الدنيا في وجهها ، وتطفأ شعلة أملها .

عرفت أسرتين على شيء من الوجاهة مع عدد البنات العوانس في الأولى نحو ثلاثين سنة لم يزوجوا منهن واحدة مخافة أن يروح الصهر بجزء من ثروتها وبلغ البنات

في الأسرة الذهبية نحو سبعين سنة لا يتزوجن في الغالب لأن أهلهن يطلبن مهراً كبيراً يلائم مكانة بيتهن، فابتعد الشبان عن طلب فتاة من تلك العوانس المتبتلات، وكنا إذا لاحظ أهل بعض تلك الفتيات خروجاً من إحداهن على الآداب يقتلونهن بدون رحمة، وليس أفراد هذه الأسرة على الأكثر في سعة ليخصوهن ببعض ما يجب أداؤه في السعادة للفتاة التي كان أهلها بحسب الظاهر على شيء من الثراوة. وللقارئ أترك تقدير موقف هذه الفئة في عصر امتد فيه حتى الستين.

وهنا نقول أيضاً في أية مكارة يشتهي أبوها الفتى الراشد لو وسع عليه أن يتزوج؟ وهي في باطنها ترجى زواجه حتى لا تغتصبها الكنة زعامة. وكلما خطب أبوها فتاة وصمتها بكل ما تتخيله من عيوب، وهي بذلك تطمعه فيها تحطب به المرعة الجمال الكاملة الصدف، وتشبعه من وعودها سنين حتى يبلغ الأربعين وأحياناً الخمسين، ولو تأهل في السن التي استطاع فيها أن يؤلف أسرة لأنسل بضعة أولاد. وبعض الحموات في معاملة الكنة تحكمات وتقولات لا تقل عن تحكمات بناتها وتقولاتهن، قد تخرج الكنة عن اعتدالها. والآن إذا طالت عزوبته قد يبتلى بأمراض تقطع نسله ونسل من يتزوج بهن وقد عنيت بعض الحكومات في العهد الأخير بكشف عن الزوجين كشفاً طبياً قبل عقد الزواج ونعمت القاعدة لو جرى تطبيقها بأمانة.

لو كشف لنا عن قلوب الفتيات اللاتي قضى عليهن أولياؤهن القسوة بالتبتل، لقرأنا فيها صفحات مؤلمة، ولكن الرجل متى همته غير نفسه؟ ومتى سعى إلى غير إرضاء شهواته؟ ومتى ترى من أثرته المقيتة؟ ما رأيته على اختلاف القرون والأقطار يعدل مع نفسه، ويجور أبداً على غير أبناء جنسه؟

وما إخال الحيف الذي كان من أثره إبقاء الفتيات عوانس في بيوت أهلهن إلا محتاجاً إلى تشريع جديد، يكره فيه الأب على تزويج ابنته، ومن يأبى الخضوع له من الآباء والأولياء يعاقب بالحبس والتغريم. فقد كان الصحابة الكرام أول الإسلام يعرضون بناتهم على الزوج الصالح لا يرون في ذلك حرجاً، ويعدون هذا عيباً في عصرنا.

جعلت الشريعة للزوج [illegible] الطلاق «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» ومن حرج مع هذا بعض [illegible] هذا الزمن يجوزون ألا يطلقوا من اختلفوا معها أو يبرئنه من مؤخرها، وما تستحقه في ذمته من مال. وربما طلب منها مقداراً من المال لا تحتمل حالتها [illegible] حتى يحملها [illegible] فتطول بذلك مدة الانفصال أعواماً، يتسع خلالها [illegible]، ويمتد [illegible] المعلقة على شدتها، شدة ما يعروها من الاضطراب النفسي. ومن هؤلاء الأزواج من يسقط ويعجز، كما أطال [illegible] امرأته، وقد تحولت عليها [illegible]، وكثيراً ما تخرج بهن في [illegible] العصمة.

شهدت عيني في [illegible] على [illegible] يبرئ عن مؤخر [illegible] منه، ودامت فترة الانفصال أعواماً، وكان من ذلك رجاء تزويج [illegible]، وحرمان [illegible] من [illegible] الزواج، لأن [illegible] شدة الأب فابتعدوا عن خطب بناته. وعلى هذا [illegible] الأب ثلاث حوادث في آن واحد تعطيله للمال على حساب بناته.

وكان على القضاء في مثل هذه الأحوال أن يفصل بين الزوجين حالاً، خصوصاً وقد أخذ القضاة أخيرة يسارعون ما أمكن إلى إصدار أحكامهم الزوجية حرصاً على مصلحة المتداعيين. ومن الخير أن يغلط القاضي في حكم واحد كل مدة، وألا

يسدد في كل قضاياه مع تطويل يحمل عواقب سيئة على المرأة والرجل . لا يكون حب النساء أزواجهن بالقوة ولا بالإكراه ، فمتى عرفن منهم أو عرفوا منهن فالأولى الطلاق .

قرأت في كتاب فقه أن قبح المنظر في الزوج ليس بعيب . فإذا كانت المرأة حسنة وهو قبيح المنظر فليس لها ولا لأبيها حق المطالبة بالفسخ . وفي هذا القول التعسف كله ، لمنافاته الطبائع البشرية . وما جوّزوا الفسخ إلا في الجنون والبرص الخ

وقد جعل قانون الأحوال الشخصية الجديد للمرأة مجرد الخلاص من زوجها إذا ادّعت فقط أنه لا يلائمها وتضمن المحكمة معه ، وهنا تستطيع المرأة أن تطلق زوجها اليوم إذا نزلت له عن مقدمها ومؤخرها أو عن مصروفها . والشريعة صالحة على شرط أن تطبق بحذافيرها .

ومما عمت به البلوى في القطر شيوع هجرة من يهاجرون في طلب المال إلى القاصية ، وما ينشأ من طول هجرهم من بلاء وإرهاق في هذه الأحوال لا يدوم أشهراً بل أعواماً . وكم من فتاة عقد لها على فتى ، أو ابن سيد ، أشهراً ثم غادرها ، وأخذت هي تتوقع أوبته العشر والعشرين سنة ، وهو في غربته يتمتع بأنواع التمتع والمسكينة كل يوم تحترق وتحرق ، والقضاة اليوم يفسخون مثل هذه العقود بعد سنة من عقدها . ولو كنت قاضياً لفسخت دون خشية عقداً مثل هذا بعد انقضاء أربعة أشهر فقط ، لا أفسخه بحجة أن الزوج غائب عنها ولم يترك لها نفقة بل أبني الفسخ على التغيب .

ثم ما أنصف الرجل المرأة الإنصاف الواجب ، وليس معنى هذا أني أطلب إليه أن يكون بقربها ليل نهار ، لا يسافر ولا يغادر ، بل أريده أن يعتقد أن للمرأة

نفساً كنفسه ، وعليه أن يفكر في مصلحتها كما يفكر في مصلحته ، ويعتقد أن سكوتها إذا سكتت لا يفسر أنها راضية بخرق زوجها . أريده أن يتقيد بقيود تعصمها من خديعته وتقيه شر خديعتها ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ أطلب إليه أن يعرف لها قدرها لا دون ولا فوق ، وبذلك تحترمه حرمة حقيقية ، وتحبه حباً خالصاً . وعلى الرجل أن يوقن ما دام يعيش مع زوجه أن الغنم بالغرم ، وأنه إذ تمتع بها شابة فعليه أن يحتملها كهلة ، فتنصرف إلى تربية أولادهم ، ولا تفكر في غير إدارة بيتها ، وإسعاد زوجها وبنيها ، وليس أسقط مروءة من رجل يطلق زوجه متى سئمتها نفسه ، سواء كانت أماً أو عاقراً .

سمعت برجال يجرون على مرأى ومسمع من نسائهم وبناتهم وأخواتهم ، مهزلة فيها صلة تهتك أدنى أعراضهم ، وينشأ بنوهم على الفحش نشأة ، ويستحيل في بيوت لا يعرف أمامها الطارق أن يظهر تربية فيها وخلق . وليت شعري هل حسبوا المرأة جماداً يستعملونه متى حدثتهم أنفسهم ، أو ظنوها خلقت من صخر أصم لا يدرك ولا يحس ، وهي من صنف الملائكة الكرام الذين خلقوا من معدن حساس شفاف رقيق . وهل الأم مرة في شرع العقل إذا رغبت عن الحادثة ، وقد علمها أو يفقه سوء سيرتهم ما ساءت معه سيرتها .

ثم هل يعرف معنى الأسرة من يعرف معظم وقته خارج بيته بين شرب ولعب ، ولا يأوي إلى فراشه إلا قبيل الفجر ، وهو مخمور متعب . ألا يحق في هذه الحال للمرأة أن تطلب زوجاً غيره ؟ وأن تحرص جهدها على الطلاق ، وقد انعدمت العشرة الصحيحة في هذا الزواج .

* * *

ربما يعد بعضهم هذا الكلام من الآراء المتطرفة ، أو ليست العلة مستحكمة مستعصية ؟ وقديماً قالوا : من كتم علته قتلته ، المرض يسري ويستشري فلابد إذاً من تشخيصه ووصف علاج له ، إن لم يكن حسمه . فلا أقل من أن يكون مسكناً ، والخطب أعظم مما يذهب إليه من لا يدرك المواقف .

وأيما فتاة رقيقة قضى عليها أبواها أن تتزوج من لا تميل بقلبها إليه ، فما حصل امتزاج بين القرينين ، إذ لم يكن فيه حظ الروح كحظ الجسد . حدث أن أهل فتاة فرضوا ، كما جرت العادة ، على ابنتهم الزوج الذي اختاروه لها ، وشكت إلى أمها ابنتهم ، أن قلبها لم يحبه ، فهددوها بما تتفتت منه المرائر ، بدعوى أن طلب ابنتهم ذلك مما يسقط اعتبار أسرتهم . ومن العار أن تقول : أفضل هذا وأحب ذاك . وهل تملك الأمة حق التفضيل ؟ أو تستطيع أن تجاهر بالحب ؟

هذا ما وقع لحسناء قصته علي ، والدها قاد على مضض ، ووصفت إليه قولها : إني صابرة على مضض ، ووطنت النفس على الرضا بما حدث لي ، وتحققت من الزواج أن بعلي القريب من البلد ، مولع بتجارته المتعبة ، وكان محل تجارته بعيداً عن بلده ، فكان يفارقني أشهراً لا يسأل عني ، وأخباره تكاد تنقطع أكثر أيام السنة ، وإذا سرني بقدومه فنقضي أياماً قلائل معي ، يهجر خلالها حسناته مع عملائه . وأنا ما كنت أرتاح العيش معه في تلك البلدة التي يسكنها ، وإلى هذا كان يضن علي بالنفقة اللازمة لكسوتي ، أسوة مثيلاتي . والمرأة من عادتها أن تصبر على الجوع ولا تصبر على ما تطمح إليه نفسها من الثياب ، لتظهر بمظهر خلاب . ورب امرأة زين لها الولوع بالتزين أن تتساهل بأعز ما عندها ، وهو شرفها ، لتكتسي ما به ترفع رأسها أمام رفيقاتها !

ثم أصيبت تلك البائسة من زوجها ببلاء عظيم ، يتجافى أشهراً عن مضجعها ، ويشحّ عليها بالنفقة اللازمة ، وهى من الحرائر لمن يرغب الرجل فى مثله . فما هى إلا سنة أو سنتان حتى خرجت الخصال عن إحصائها ، وما رعت حقوق زوج ما أحبه قلبها ، منذ اليوم الذى وقعت عينها عليه ، وزاد شطارها منه ما كان عابه من دمامة وجه ، وكزازة يد ، وخلوّ ذهن من كل ما يرضيها .

ومثل هذا الضرب من التعسات قد لا يقف عند حد ، ولا نكتفى بمثل واحد . فقد أخذت الفتاة تسترسل فى فجورها ، وزوجها لا يفكر فى حتف . وباغتها ذات يوم ، وهى مع أحد عشاقها ، فقتلها فحكم عليه بسجن مدة قصيرة ، ولو كان فى الأرض عدل لحكمت المحكمة أيضاً على أبويها اللذين زوجاها من لا تحب ، وأنذرتهما فما سمعت غير التهديد ، وتحملت العقوبة شديدة ، التى لم ترض أن تسمع من ابنتها كلمة الفراق ، ثم أقرتها مدحين على استبدادهما .

ونحمد الله على أن حجب السيدات قد رقّ فى أكثر المدن ، فلم يعد يرى الوالدان فى الحواضر من العبث أن يرى الخاطب خطيبته قبل العقد ، على ما يسمح بذلك الشرع . وأخذت هذه المسائل تجرى فى مجراها المعقول فى الجملة ، وارتفعت المضار التى كانت تنشأ من زواج الرجال ممن لا يعرف وكان الزوجان يتزوجان بعيون الخاطبات لا بعيونهما ، وبعواطف السماسرة والسمسارات لا بعواطف الزوجين .

* * *

قد يطلب بعض الفساق من المحصنين إلى نسائهم أن يخدمنهم وهم مع غيرهن فى حالة منكرة ، فإذا اعترضن على هذا الأذى هددن بالطلاق ، أو ضربوهن

وأدمومن ، فهل ترى المرأة يا ترى ، وهى المشهورة بغيرتها ، المحافظة على قيود الزواج، مع رجل شهدت قبح ديدنه ، وشقيها بسوء معاملته ؟

من أولئك من يسوقون نساءهم إلى الخيانة سوقاً ، وهن المعدات فى فطرتهن ، عرفت سيدة حميدة الخلق والخلق ، كان أهلها على حالة حسنة من العيش ، فخطب ابنتهم رجل صاحب مشهرة ، فزوجوه حالاً ، وكان عمر الفتاة تسع سنين وعمر الزوج ثلاثين ، زوجوه لأن البضاعة عَرضَ لها من دفع ثمنها فالحزم بيعها ! ويا ليت ذلك القرين كان على صفات تحببه إلى الفتاة . كان شيخ المنظر جداً ، قبيح الخلق جداً ، كان هجيراه السكر والقمار، وكان يجمع فى بيته كما سمت روحه شذاذها، وما كان يرى من جناح عليه أن يدعو إلى بيتها العاهرات ، يرقصن و يرقصن فى الغرفة الملاصقة لغرفتها ، أو فى فناء الدار ، أمام بعض أصحابه ، وزوجته تنظر لما يجرى فى هذا الماخور ، ويضطرها أن تخدم ضيوفه فى ساعات مجونه ، تقدم لهم الطعام والمدام ، وهو إلى هذا لا يقرب فراشها ، إلا إذا عز عليه الظفر بغيرها

وقطع عن هذا الزوج رابطه وصلت به الأسباب ، فكان لعدم مروءته يحمل قرينته على أن تعيش هى له عن عمل ، وهى و تعلمى أن حبيبته سليمة الذوق ، مرهفة الحس ، وأنها إذ صارت إلى الاحتكاك بالرجال مفتون بها ، وهى أيضاً لا تأمن الفتنة ، وعلى عهده أنها كلما ... له فى أوقات غضبها ، إنه سيندم على ماقدمت يداه معها .

فمن ملوم فى هذا الزواج لدى لم يتم فيه شرط واحد من شروط الكفاءة اللهم إلا شرط الإسلام ؟ زواج كان من أوله إلى وسطه إلى خاتمته سلسلة مطردة على تلك العقلية . ألا يلام أهل الفتاة كل اللوم ، لإلقائهم بفتاتهم إلى وحش ضار

ما كان يحل أهلاً للزواج بها ؟ وهم ما كانوا أيضاً بحاجة إلى التمحيص من ابنتهم قبل أن تصلح للرجل ، وتختار هي القرين لدى بلوغها .

كان هذا الزوج عارياً من أنواع الكفاءات ، وفى قريته عامة المؤهلات لتغدو زوجة صالحة ، تعرف كيف تسعد قرينها وتغبطه . وقد صبرت عليه زمان فتوته وكهولته ، قاهرة طبعها ، راضية به على علاته ، مغضية على ما كان يطالعها به كل ليلة من موبقاته . وكانت إلى منتصف العقد الثالث من عمرها تأمل له الإنابة ، والإقلاع عن استهتاره ، وتزم نفسها عن ركوب الفاحشة ، وهى ميسورة لها ، ومعروضة عليها . فلما يئست من زوجها ما قاست ، وجربت أحوال شتى كأحوال زوجها ، وطرت بين ... ت إليه حافة ، تحدث له حبيلا . تحدثت عن زوجها وطلبت على العهد عنه تحره وتحسن إليه ، مستمسكة عنده بعروة عمر ، ولا تنفك تضرع إلى خالقها أن يغفر لها زلتها .

ولكم سمعت من مآسى مثل هذه وفظع وأغرب ، كان فيها الرجل مثال الجور الفادح ، وكنت أقول كلما نمى إلى فاجعة من مثل هذه الفواجع ، هذا ما وصل إلى علمى ، وكم فى البيوت بالقرى من أسرار لم تعلم ، حجبت بحجاب من الكتمان الشديد وكم من مصائب كانت المرأة ضحية عظيمة فيها ، عذبت فيها أنواع العذاب ، وما شعر أحد بما حلّ بهن ؟

حبذا لو قتل المستهترات صبغة يستحق بها التعير على الشرف ، فهلا سأل أهلوهن ، قبل أن يقضوا على حياة من ستهتكت بالعرض وما بالت ، عن السبب الذى حملها على اقتراف ما اقترفت ، ولعلهم كانوا يعطونها بعض الحق فى خطيئتها ، لو حكّموا العقل فيما لهم وعليهم .

قد يجرأ بعض النساء على إدخال السم على أزواجهن، ليفرغن لأهوائهن، فيمتنن على الزوج الذي يحقق رغباتهن، أو يرتكبن هذه الجناية الفظيعة ليخلو لهن الجو فيطلقن على هواهن مع من حلا لهن وعاشرن. وكم جرى تحت طي الخفاء مثل هذا القتل، وما عرف سر موت الزوج. وكم من امرأة انتحرت ولم تحتمل غضبها شطط زوجها خصوصاً إذا تزوج من غيرها

هذه حوادث تحدث في المدن والقرى، وبين الطبقات الغنية والفقيرة على السواء، والعامل الأكبر فيها حيف الرجل، وسيادة في معظم هذه الأحوال لا يحدث الحانق على صعفهن، ولا الرائي لبلواهن وشكواهن. فهل يحمل المستقبل ما يرى فرجاً لهن مما هن فيه، ويعدل الرجال فيه مع أكثر الفساد الذي نرى؟

ربما يبدو لبعضهم أني تشيعت كثيراً للنساء، وألقيت على عاتق الرجال كل شقاء جنسهن وإني حاولت بهذا أن أبرئهن من كل لائمة، وأنا لا أعفي النساء من تحمل التبعات، وأعرف أن منهن الفاسدات الفاجرات ومنهن من ينغمسن في الفساد على غير داع إلا إرادة الفجور، وإذا فحصن فحصاً دقيقاً يبين أن فساد بعضهن ناشئ عن مرض في عقولهن. والفساد أيضاً مرض، ومرض قتال

عرفت امرأة متزوجة في أسرة كبيرة لم تمنع نفسها — وهي متزوجة من أحد كبار ذلك البيت — عن جميع شبان أسرته فجمعت بين الأخ وأخيه وابن العم وابن عمه في وقت واحد وعلى فراش واحد، فهل هذه الفاجرة إلا مريضة؛ ولا كلام لنا مع المريضات. والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا الباب.

وأعرف غير واحدة يدعين دعوى غير صحيحة لتبرير فحشهن ، وليس لديهن أدنى حجة على إيغالهن فى تيه الشهوات ، ولو كان فى رجال هؤلاء النسوة أقل غيرة ما جسرن على ما لا بد أنهم عارفون به من استهتار الزوجات الشريرات . ولا يعسر إغماض العين عن مساوئ زوجاتهم إلا أنهم راضون عن مشاركة غيرهم لهم فى أمر لا يقبل الشركة إلا عند من نزعت من نفسه آثار الشرف والمروءة .

كانت مثل هذه الحالات تقع على الندرة فكثرت فى هذا الجيل ، وتجرد الفاجرات من كل حياء لا يحسبن حسابا إلا لما فيه الحصول على أقصى حد ممكن من شهواتهن

القول في تآليفنا

بدأ التدوين عند العرب أول الإسلام، ثم أعقبه التأليف والتصنيف، ثم النقل والاحتذاء. والتدوين الجمع، والتأليف وصلك الشيء بعضه ببعض، والتصنيف جعلك الشيء أصنافاً وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، والنقل التعريب أو الترجمة، والاحتذاء النسج على منوال الغير. وقد كان التأليف بالعربية لأول أمره ساذجاً لا تعقيد فيه ولا صنعة، مداره على جودة الرواية وتصحيح السند. وأكثر ما دوّن في الصدر الأول كان في الأحكام والسنة والشعر واللغة والتاريخ. وكثر المؤلفون والرواة والمدونون في القرنين الثاني والثالث بقيام المذاهب والأخذ عن الأمم السالفة وتشعب الأغراض والمطالب. فخرج التأليف بالضرورة عن الإيجاز إلى التبسط، وروعيت فيه مدارك الخاصة ومن دون طبقتهم من العامة، واتسع في علوم القرآن والسنة بعض ما له مساس بالدين. وكثرت بين العرب علوم الدنيا أو المعروف من أنواعها ومنذ. وخير ما وقع التأليف فيه من الموضوعات ما كتبه مؤلفوه بين القرنين الثاني والسادس.

بعد المئة السادسة أخذ الضعف يسري في التأليف، وكانت سرايته خفيفة بادئ بدء. والإجادة هي القاعدة العامة في العصور الأولى، وغدا التجويد في العصور التالية من النادر. وكأن التأليف في الإسلام كان قرين السياسة، لما تراجعت هذه ضعف التأليف ونامت الأفكار. ذلك لأن التأليف عاش في ظل الخلفاء

والأمراء والأغنياء، ونشط عطفهم وسخاؤهم، وكان العظيم يرى من العصبية عليه
وعلى سلطانه أن يقرب العلماء والأدباء، وأن يصرف معهم ساعات يحاورهم ويسامرهم
ويعتقد أن من واجبه أن يجود عليهم ويعطيهم. ومن العظماء من كانوا صادقين
في زعم العلماء، ومنهم من كانوا يحاولون أن يتخذوا منهم آلات يستخدمونها في
أغراضهم. وما خلا بلاط كبير من الكبراء من فقهاء وزهاد وحكماء متحققين بعلوم
العلماء، ومن علماء ومؤدبين ومن أدباء وشعراء. وكان يزداد عدد هؤلاء كلما
كثرت الدول المستقلة عن الخلافة استقلالاً ذاتياً، وتعددت العواصم، واشتدت
حاجتها إلى من يزينها من الرجال، ويقوم على سياستها وحكمها من العلماء.

واستولى التتر والترك على بلاد العرب، وضرب هولاكو بغداد وكان جنكيز
من قبل قضى على عواصم العلم في آسيا وخرب بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان
وبلدها ومدنها، وحرق الكتب في بخارى وسمرقند وبلخ وهراة ونيسابور وشيراز
والري وأصفهان وطوس ومرو وغيرها ومدنها. وكانت كل هذه القواعد مراكز
العلم الإسلامي، ومنها كانت تصدر المؤلفات القيمة، كما كانت تصدر من الأندلس
وإفريقية ومصر والشام واليمن والعراق. وبعد ما ابتكرت أخذ كل جيل يسقط
عن سابقه، وكان العرب إلى آخر من الأدوار المظلمة، وعم الجهل الأقطار العربية،
وحبست من الطب والهندسة والفلسفة، وتراجعت الفنون والصناعات وضعفت
مادة التفكير المسلم، وتحققت رغبات الترك في حروبهم من العداء على العرب.

* * *

وبعد سنوات طالت لياليه السود تعلق القدر أن ينبعث عز العرب من مصر،
وكانت بغداد مصدر كل حسد لهم، ومصر لم يسع في عصورها الإسلامية عظماء

في الفقه والحديث والكلام والأدب والشعر والطب والحكمة على مثل ما نبغ في بغداد، ومع ذلك فما حدث في كل عصر من المتوسطين، تعني أن العلم ما انقطع منها ولو على شيء من الضعف. وكان المشهورون فيها الذين اشتهروا شهرة عالية قلائل جداً وبالنسبة لما كان في بغداد دون غيرها قليل في شهرة العلماء، وعظمة علماء مصر وأدبائها على نسبة قوة دولتها.

ثم لم يظهر في مصر في زمن القدماء من أمثال الجاحظ والبيروني والكندي وابن سينا وابن رشد وابن زهر في العلم والحكمة، وأمثال مالك وأبي حنيفة ومسلم والبخاري والطبري وابن [illegible] وابن تيمية في الفقه والحديث، ولا مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وعمر بن أبي ربيعة وأبي تمام والمتنبي والمعري في الكتابة والشعر وما كان في كل عصر من علماء [illegible] لم يجد من السلطان عضداً قوياً، وتعدد [illegible] الطبقات بين الأغنياء والفقراء وتشتت العلماء، ولا [illegible] من سوء الحظ [illegible] عالة [illegible] وفي العادة ألا يهتم أرباب الثروة بغير مصالحهم وشهواتهم، وشهرة الأدباء والعلماء تستفيض بحسب [illegible] وقربه من أصحاب الدولة.

وكتب السيد ابن [illegible] الشريف العربي، وبعضهم [illegible] من حكم الاستبدادي مضت تحته دهراً، والأداة التي [illegible] وهي العربية ضعفت واختلت وحاملوها لأنه كل في حقيقته شيخ بلا روح ولى أمر الماضي [illegible] بين ما [illegible] من مدرسه وأنوف من [illegible] فلا يحسنون كتابة سطر صحيحة من حيث الإعراب، سقيمة من حيث التركيب، ضعيفة من حيث المعنى. والبارع منهم من يحشر نفسه في زمرة المؤلفين وهو لا يحسن إلا إيراد الإشكالات، ومناقشة خصومه ومماحكتهم. والنادر الرقعة من يدعى أنه مؤلف في المبحث الفلاني

والمطبع يكون موضوعه مما أكل الدهر عليه وشرب ، فلا يلبث أن تنهال عليه التقاريظ من زملائه ومصاحبيه ، وهنالك تكثر الإطراءات بعقولهم ، ومعرض سخفهم . وقد يكتفى ذلك المؤلف بالجل مما ورد عليه من التقريظ ، ويبقى شعر كتابه الى يوم الحشر والنشر . وفى تلك التقاريظ يتجلى الهجوم على الحق ، والمبالغة السمجة التى ما عهدت للعرب ولا للعجم .

وما برحت الحال على هذا الشكل مؤلم حتى جاء الإمام محمد عبده ، وعالج التأليف بملاحين اثنين ، كان لهما أبلغ الأثر فى حياة الأمة ، وقضى على أشنع مظهر من مظاهر الكلام ، وأخرج الكتابة من الركاكة والتكلف إلى السهولة والطبع ، وخلص الأمة من السجع الشنع والمحسنات البديعية ، وعمد إلى حذف اللفظ الدخيل الثقيل ، وحييت بفصيح وشوارد كانت من قبل منسية .

وكان الملاح الثانى عنايته بصلاح الأزهر إصلاحاً خرجه عن بعض جموده ، توفر على إبدال منهاج بال ركيك ، بمنهاج جديد أنيق . وقد رأى الزمن يتطلب من رجال الدين عقولاً عامرة بالعلم ، مصحة بالفكر والنظر . وأن العصر يتقاضاهم أن يفكروا تفكيراً صحيحاً ، ويشتوا ما يفكرون فيه على الورق بعبارة سليمة مفهومة . فكان ، وهو زهرى منهم يعرف ما يصلحهم ، وضع الحجر الأساسى فى بناء الإصلاح فى الأزهر ، وكان له رحمه الله أعظم الأثر فى نهضة اللغة العربية وقت فيه الأزهر وما أنشئ فيه بعد من كليات التخصص .

دخل التأليف فى طور جميل ، وبدأ التبويب والترتيب فى الكتب ، وشرعوا فى تقطيع الجمل ، ووضع إشارات الترقيم ، وعنوا بالترجمة لكل باب ، والإشارة لكل فصل ، وضم شتات كل بحث إلى شكله . وكانت المؤلفات فى عصور الانحطاط

محشوة بالمقول كيفما اتفق ، مملوءة بالاستطرادات والمسائل التافهة يكتبها كتابها من أولها إلى آخرها جملة واحدة لا فصل فيها ولا تفريق ، ولا أثر فيها لفكر ولا رأى ، لا لمح فى تصفيفها من نور البصيرة قبساً . والمؤلف الحديث يدرس موضوعه ويتمثله ويمحصه ، ويشير إلى المصادر التى أخذ منها ، ويجهد أن تأتى عبارات المتن منظومة فى سلك واحد لا يشعر القارئ أنها مأخوذة من مراجع عديدة . وهذه طريقة جاءتنا من الإفرنج فاقتبسناها فى جملة ما اقتبسناه عنهم ، ومنها وضع الفهارس المنوعة فى آخر الكتاب ليسهل على الباحث الكشف عما فيه من الفوائد . وجرينا على طرق الإفرنج فى تصوير كتبنا العلمية والأدبية ، وكنا عشنا زمناً تحت سلطان من كانوا يخوفوننا من التصوير ويحرمونه علينا . وكان أجدادنا أيام الارتقاء يصورون الكتب وغيرها دون حرج .

وبقدر ما كان أرباب الأقلام يدفعون عن أمة التأليف ما يضرها ، كانت الأمة تقرب من الرشد والفصاحة ، وتستوى لها ملكة تمثل ضروب الأفكار . ومن أهم ما أعان على إجادة التأليف ما وقع إحياؤه من أمهات كتب القدماء من العرب ، فأخذ الأساتذة والتلامذة من أساليب بلاغتها ما طاب لهم وتمثلوه واستعملوه فى كتاباتهم ومن هذه الدراسات نشأت طريقة عصرية جديدة فى الشعر ، وطريقة جديدة فى النثر ، وسمت اللغة من ركاكتها ، وأظهرها المؤلفون والصحافيون فى مظهر زادت به قوتها فى التصوير والتعبير ، ونشروا بين العامة ألفاظاً ومصطلحات ألفوها بكثرة التكرار فكانت الصحافة مدرسة الخواص والعوام ومدخل المستعدين من المؤلفين إلى تجديد مؤلفاتهم ، ودرجة للجمهور انتقل منها إلى مطالعة الكتب .

وصحيحة قرأوها من مؤلفى القرن الماضى والقرون الثلاثة التى قبله تعارض بأحرى

لمؤلف ثقة من أهل هذا القرن، أو لكاتب في جريدة أو في ديوان تقيسون به مقدار الدرجات التي قطعها الأدب ونطقت بها تآليف الكتب والرسائل والمقالات. ونظرة تجلى في تآليف القرون الأخيرة وتآليف هذا القرن تشعركم بما حدث من رقي في الأفكار وتجديد طريقة عرضها على مطالعيها. وكانت كتب عصور الانحطاط قولاً من كتب سبقها هو غير معتمد عند الثقات، أو احتذاء ضعيف من أمثالها، ولا كتب الأسس ما فيها كثيراً، وتبرمت بها النفوس لما شحنت به من حواش وهوامش تربك الذهن وتعقد العلم.

أنتم الآن إذا تلوتم كتاباً في الزراعة أو الصيدلة أو جغرافيا من مؤلفات أوائل النهضة، وقارنتموه بما نقل من نوعه مؤخراً، ظهر لكم أن ذلك الدور في التأليف كان دور الاستعداد للدخول في هذا الدور السعيد. وأن من تخرج منكم اليوم مكتف بأنهم من حيث سلامة اللغة وسلامة الفكر هم ممن درسوا في مدارس مغمسة باللغة العربية، ومنهم ارتقت لغة القضاء والسياسة والطب والزراعة والاقتصاد، وعنهم تلقاه المصريون من العلوم العقلية.

ونظرة أولى إلى ما تصدره المدارس المصرية العالية من كتب ومجلات، وما تنشره النظارات والجمعيات من مختلف النشرات، تقفكم على ما بلغته لغة التأليف من جمال ورشاقة. ونظرة ثانية إلى الصحف المصرية اليوم ومعارضتها بأحسن الجرائد التي كانت تصدر من سبعين سنة تنبئكم بما تم في العربية من انقلاب في الأسلوب والمعنى. ونظرة ثالثة إلى لغة الدواوين ومقارنتها بما كان يكتب من نوعها في القرن الماضي وما يكتب فيها اليوم تهديكم إلى أن العربية عادت إليها عزتها الأولى أو كادت. ونظرة رابعة في خطب خطباء السياسة وخطباء القضاء وخطباء الجوامع والمعاهد تؤذنكم بارتقاء لغة

التحفظ بيِّن، وأن مباحث البلاغة استحكمت في الدارسين، وكانت من سنين أعظم عاهة، وما أكبهم عليه، وتلك فيهم عمة.

يتذوق أكثر المشتغلين اليوم بالبلاغة، ولذلك لا يرضيهم من المؤلف أن يكتب موضوعه كيفما اتفق، بل يرغبون إليه أن يضع موضوعه في قالب معقول، ويفرض عليهم رياضة فيها تمحيص وتدقيق، ومن ذلك كتب الشيخ محمد بخيت وكتب الشيخ أحمد إبراهيم في الفقه، فالأول على حلاوة ما يرد في هذا الفن، لم يكتب لمصنفاته القبول كما كتب لمصنفات الشيخ الثاني، وذلك لأن الشيخ بخيت لم يرزق من نعمة البيان ما يؤهل كتبه للاستحسان عند المرتقين، وإن كانت مذاهب الآخر موفقة من الدروس لما كتبت به من طرائف وحيل. وهناك ناحية أخرى وهي أن الشيخ أحمد لم يجمد على مذهب معين، وطرق الشريعة في عهد من طرائف الفقه الحنفي، والشيخ بخيت، وهو من قدماء الأزهريين، وقف عند أقوال أهل مذهبه ولم يتحدث بمذهب من علوم العصر، ولا من علوم المحدثين، وتلك تفوق الشيخ أحمد بما معه من بعض فروع العلوم الحديثة، وبينما كان الشيخ بخيت يحرم وبعض فرق الأزهريين يدرس هذه العلوم، ويثورون على الشيخ محمد عبده بعد بثه الدعوة في إصلاح الأزهر، كان أحمد إبراهيم يقرأ هذه الدروس في دار العلوم والشيوخ نيام، وقد أسقطوا رسالة الشيخ محمد عبده بدعوى أن بها كفرًا وهي اليوم داخلة في برنامج دروس الأزهر، وما أعجب ما يفرق بين التحريم والتحليل! وما يقال في كتب الشيخ أحمد إبراهيم يقال في مصنفات الشيخ عبد الوهاب النجار فإنها أحدث من تاريخ ملئ بصحيح الأقوال. وقد راق صنيعه بعض الأزهريين، وأثاروا عليه حربًا وهو لا عيب له إلا أنه تحرر من تحريمات الأزهريين.

بقي أن نقول إن من مؤلفين في مصر على الأغلب هم من المضطرين إلى التأليف بحكم أعمالهم، أي أنهم من عمال الحكومة، ومن الموظفين في جامعتها ومدارسها. وبعيد أن نرى تصنيفاً لرجل صرف جهوداً في ناحية من نواحي العلم الكثيرة مستقلاً فانقطع لنشر تجاربه وأبحاثه ويعرض على قومه ما أداه إليه اجتهاده في مخبره ومكتبه. ولو أقدم بعض الموسرين على نفع الناس بمحصول تجاربهم لغنيت العربية بأسفارها الممتعة. ولو كان كل مؤلف يكتب بعد التفكير كتبه أو رسالة لوجدت كمية تزيد في الميزان، ولوقع المتفقون في خزائن العربية على ما هو متاع للنفس، ووفاء بحاجة الرجل المتحضر المستفيد.

* * *

في الوقت الذي أحدثت مصر تسير في طريقها إلى إحياء اللغة العربية، وتحيي ناحية منها صناعة التأليف، كانت الشام وهي أعرق بمصر من جميع الأقطار، تمشي في دولة الترك، ولسانها بالعربية ولا بالتركية — في تلك الحقبة قام في الشام أحمد فارس مؤلف الكتب اللغوية والأدبية، وأصدر في الآستانة جريدة الجوائب، ونشر عشرات من كتب الأدب القديم، وسعى إلى تعرية الأمة من السجع والسخافات المدعية ما أمكن، ومزج الجد بالهزل في بعض ما كتب، وأحدث أثراً في ممالك المتأدبين في الولايات العربية وعمله وعمل مدارس المبشرين الكبرى وبعض مدارس الأمة، سرت الحركة الأدبية في الأقطار المجاورة وكان يقدر سيرها في كل قطر بقدر ما سبق له أن أنشأ من مدارس، وما رسخ في ربوعه من تعاليم قامت على شيء من علم وأدب.

ولنا أن نقول إن الشاميين والتونسيين ، وإن تأثروا بنهضة مصر ، فقد كان لهم قديم يرجعون إليه ويسيرون على أثره ، لأن العلم لديهم ، وما كانوا يسمونه علم الآلات أي النحو والصرف والبيان ، كان متصلا في تونس بعض الاتصال بفضل جامع الزيتونة ، وفي الشام بفضل بقايا المدارس القديمة ، ومن بعض العلماء يدرسون في الجوامع والمدارس وفي بيوتهم حبا بالعلم ، أو تديناً من أن يزول عنهم الطابع الذي كان لهم ، وبه كانوا يتميزون ، وبه كانت مصادرهم ، ومنه كانت دراساتهم ، ووعظهم ووظائفهم الدينية .

أما التآليف التي صدرت في تلك الفترة وكانت في قاعدة الشام الداخلية محصورة ببعض الكتب الدينية وبعض كتب القدماء ، لم يحسنوا نشرها تصحيحها ، ومن أحسنها كتب مدرسية مطبوعة وضعها أستاذ الشيخ طاهر الجزائري ، وفي الساحل كانت التآليف أشكالا ، ومنها ما كان يبحث عن علم كبعض تآليف المبشرين الأمريكان المستعربين ، ومنها ما كان فيه تقارير عن آداب العربية أو كتب مستخرجة من كتب القدماء ، والشعر ضعيف والنثر ضعيف ، وأكثر الكتب المدرسية تكتب بروح البلد الذي تتدرس فيه ، وعلى الطائفة التي يريد دعاتها تصريف كتبهم على أبنائها . واستعدت الأمة على كل حال من المنافسة بين الطوائف ، وكان المسلمون آخر من انتبهوا لاتخاذه الطلب ، ولذلك قل فيهم المؤلفون يومئذ وقل فيهم الصحافيون .

وما زالت العربية ضعيفة ميتة في الشام والعراق واليمن والحجاز وما إلى ذلك من الأقطار ، حتى وضعت الحرب العالمية أوزارها ، وأخذ كل قطر يفكر فيما يصلحه ، فدبت النهضة وبدأت العراق تخرج مصنفات مطبوعة في اللغة بالصبغة العربية وأهله

في حلل جديدة من التنسيق ، ونجى في ذلك شيئاً من آثار الاقدمين وكان مصنفات العراقيين من قبل كتابة عشر صحائف ، ومناقشات مذهبية لا يريد العقول إلا ظلمة [illegible] كان العراق [illegible] كان مقياس العلم والأدب أكثر من خمسمائة سنة وكأنه لم يحرز [illegible] الأمة أعظم مؤلفين في كل فن ومصنف ، وكان مصنفوهم ما [illegible] [illegible] ساحات العلم [illegible] في هذا [illegible] ، وجراثيمها الحية التي [illegible] يوم [illegible] إلى من [illegible] وهي موضع [illegible] الأمم على الدهر .

والفضل في ذلك للمدارس التي [illegible] على [illegible] القديمة في العلم ، وأصبحت [illegible] لا [illegible] والمنطق [illegible] ، فخرجت [illegible] حين [illegible] جديدة ، [illegible] في الشعر وفنون العلم [illegible] [illegible] في العلم والأدب ، ولا يكاد يخرج مؤلف [illegible] في موضوع [illegible] إلا [illegible] كان في شيء من [illegible] ولا [illegible] ما قدم في [illegible] والعراق أو [illegible] المؤلفون الذين [illegible] الطرق [illegible] ومثل هذا يقال في [illegible] العربية [illegible] [illegible] في [illegible] و [illegible] وتونس والجزائر ومراكش [illegible] بعض الكتب على طريقة القديمة والعربية [illegible] أساس [illegible] ، [illegible] [illegible] شمالي افريقية ، [illegible] التأليف العربي [illegible] العربي ومؤلفات مصر [illegible] في [illegible] الأقصى [illegible] على [illegible] في كل قطر عربي

يكاد يكون [illegible] لأمة العربية — [illegible] [illegible] من كل شيء [illegible] العربية ، [illegible] في باب التأليف . والشعر

محنط والشعر محنط، ولا صحف ولا مدارس. وكذلك يقال عن اليمن وضعف التأليف فيها. وكانت اليمن أنشط مدرسة علم ومشاركة في الأدب في الإسلام، وكان من أبرز حملة العلم، كما يبلغ منها نصف القواد والجنود، وما وصلنا من كتب اليمنيين والحجريين والمجددين صورة من عصر القرن الثاني عشر والثالث عشر. لا جرم أن الاستمتاع بالمؤلف يزيد على قدر أخذه من المدنية الغربية وتأثره بثقافتها، سواء كان بلغتها أو بترجمتها إلى لغته، وعلى قدر حظ المؤلف من ثقافة عيون يكون محصول كتابه المحصول. وجماع المؤلفين في هذا العصر هم ممن درس في معاهد العلوم في المدارس النظامية. وكان شعر ما ألفه في عهده أشبه بالأدب، ولكن من كتب فقد أخذ الشرطين في عمله صفة المؤلف، وأتقن موضوعه، ولا يصح عارياً من كل ما يحببه إلى العين والفكر.

كثر عدد من درسوا العلوم العصرية عندنا، ولدى مصر والشام خريجات من المدارس العليا، على نحو ما عندهم في الأمم الغربية، ولكن لم يكن عدد من رزقوا عمق عقولهم أن هذا العطاء الذي يتبعه فيه التأليف بموهبة لا يرضون أنفسهم بها. قد يجيد التأليف من هم في غير حاجة إلى أن يعيشوا منه، أكثرهم تقضي عليهم مناصبهم أن يتفرغوا، ويحملهم حب الظهور أن يبدو أنفسهم في عداد المؤلفين. والبعد في غير حاجة إلى تأليفه، وكثيراً ما يؤلف على هذه الصورة قد يموت في سنته. وقد يعيش المرء خمسين سنة مؤلفاً. ولا ينجح إلا قليلاً، والإبداع نادر في هذا الشيء القليل. وليست مكانة المؤلف بعدد مجلداته ولا بعدد المدة التي صرفها، والفائدة التي حملتها، ورب كتاب لا تصل إلى آخر سطوره حتى تنفض يديك منه. ورب سفر تعاود قراءته مرات، وكم طرحته من يدك وودت لو تسنى لك تصفحه مرة أخرى

ليست الأقطار العربية في التثقيف على مستوى واحد . فالشام تجيء بعد مصر ، والعراق وتونس بعد الشام ، ثم إن بلاد العرب ومنها الإمارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي تغلب البداوة عليها ، ولا علم ولا تثقيف مع بداوة ، وليس في تلك الأرجاء علماء وأدباء بالمعنى الذي نفهمه من العلم والأدب ، وهي ضعيفة في مصادر حياتها على ما في بنيها من ذكاء نادر ، وكيف تتأتى الاستمتاع بهذا الذكاء وليس هنالك أسباب حضرية لاستغلاله : لا أمراء تعطف عليه ولا أغنياء تجود له ، ولا جامعات ترسم له خطط سيره . والعلم ما زهر ونتج في كل العصور إلا في ظل دولة قائمة أو جماعة من أهل الحضر قطنة ، كانت العرب في القرون الوسطى وفيهم سادة هذا الشأن ، ولم تخرج أمة من العلماء بقدر ما خرجوا ، ولم تنبغ أمة في مدة قصيرة مثلما أنبغوا ، وهي اليوم بالقياس إلى الأمم التي تحيا بها بعدها دون الوسط بعلمائها وعملها وتآليفها وحركتها .

* * *

تتطلب حاجة الشعوب العربية جيشا من مؤلفين لها في كل فن ومطلب ، فيتناول من الموضوعات القريبة من الأذهان ما يستفيد منه قارئهم وسامعهم فائدة عملية ، تسليهم وتفهمهم وتنير طريقهم وتزيد في ثقافتهم ، نريد مؤلفين هضموا وتمثلوا ما تعلموا ودرسوا ، وأخرجوا ما لديهم في ثوب جملة ممتعة ، نريد مؤلفين يتحفوننا بنتائج قيمة بأجمل محصول من قرائحهم وأبحاثهم ، لا مؤلفين يكتبون رسالة أو كتيبا يقدمونه أطروحة لنيل شهادة العلمية ثم يسكتون طول العمر ، على حين نجد المؤلف الغربي لا يفتأ منذ عهد المدرسة الوسطى إلى أن يدفن في التراب يبحث ويدرس وينشر ما اهتدى إليه . نريد مؤلفين لا تكون تآليفهم كبيضة العقر لا يرجى لها خلف .

نريدها أن تبرز شيء جديد يستهوي عقول الكبار والصغار ، وتصبح بحسب مدارك الملاحين والبحريين والتجار والصناع ، تقربهم من الخواص ويزول ما بين الطبقات من فوارق طالما كانت العائق الأكبر عن التقدم حاجتنا إلى مؤمنين يحسنون المطالعة إلى قومهم .

الكتب مقصور تأليفها عندنا على فئة صغيرة جداً ، ويقوم رواجها على أناس مخصوصين ، والمؤلف لا يعيش من تأليفه ولا يرتزق منه ، وجمهور الأمة بمعزل عما يكتب . وليس لنا مؤلفون ألفوا أحراراً وكتبوا أحراراً نريد مؤلفين يكتبون من فهمهم ويفيدهم ، وأرباب عقول ينمون بحال عقولهم

نريد كتباً حية تصبر على حرارة النقد ، ومؤلفين أحلاساً لا يوقفهم شيء عن نقد الكتب نقداً صحيحاً ينفع العلم ومتفهمين من الفئة التي لا تصانع الطامعين ، ولا تخاف صغار المؤلفين ، ونريد صحفاً تجهر بالحقائق تقررها ، والمحاسن تنشرها ، والمقابح لا تسترها .

نريد مجلات لا تحجم على ترويج الكتاب والمؤلفين حلماً من الأشياء لا يستحقونها فيصفونهم بالتدقيق ويصفون من يعتقد الصدق في تلك الأماديح من القراء لأن من المجلات ما أنشئت حتى تسوت تجارة الربح غايتها ووصفتها وعلى الناقدين أن يعرفوا واجبهم في النقد ، وأن يوقن المنتقد عليهم أن الناقدين أحسنوا إليهم بما نقدوه من كلامهم ، وأن خير الكتب ما ينتقد ، وأخسها ما يغفل نقده وأن بعض أسفار القديمة التي طبعت مؤخراً هي من تأليف عصور الانحطاط حشاها مؤلفوها بتحريفات وتحريفات لا تطاق ، ولو طبعت الأمهات فقط التي ألفت أيام جودة التأليف لتوفر على بنينا عناء كبير .

دثرت كتب القدماء وبقيت كتب المتأخرين لاستيلاء البعد على الكتب القديمة بتقادم العهد وجريان حكم الزمن عليها بالمحو والافساد، كما قال العلامة ريتر، ومن ذلك ضياعها وسلبها عند استيلاء الاعداء على البلاد، وحملاتهم على الكتب بالاحراق والاغراق، ومنها عقداء بعض أهل مذهب على كتب مخالفيهم، ومنها انه كان جرت همة معلمين ومدرسين أن يضعوا لو عند كل علم مختصراً فقط فعمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم، وتنسيق المباحث وتبويبها، ووصل كل بحث بما يجانسه، وضم كل فرع إلى أصله، واختصروها بحذف الابحاث والمقدمات، وتسهيلا للتعليم والتعلم، فآثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك، فصارت المؤلفات السالفة كأنها ممسوحة باللاحقة فتركت وأهملت، وسبب حتى تصرف الدهر بنسخها تصرفه.

وعلى أن الخوري ذكر أن أكثر أسباب الف القدماء تسعف همم الطلاب فصاروا يطلبون المختصرات ولا يطلبون المطولات ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها فدثرت الكتب ولم تنسخ.

تريد كتباً تكون قيمة قرائها لا يتركها إلا وقد استوعبها من الدفة إلى الدفة ثم يكررها ويعيد المطالعة فيها. كتباً لصحيفة الحضرة تخرج بمعنى بها من علم الحال لا من علم الخيال. كتباً تحقق أجمل أخلاق العصر لا كتباً تذكرنا بالماضي فقط من الطراز لذي تفتحه باحترام، وتصفحه باحترام، وتطبقه باحترام، وتحفظه في دائماً باحترام، تريد كتباً نرى فيها شيئاً وتعلم وتطلب شيئاً تقدسه يستحق التقديس، وهل أجدر بالتقديس من زبدة عصارات العقول موضوعة على ورق

نبنى بها عزتنا القومية على أساس متين من الآداب ، ونوصل أهل جيلنا بالجيل الذى يليه لاستغلال هذا الذكاء المدد فى أرضنا ونجنى ثمراته الغضة اليانعة فتطلب كتبنا تضم دفتاها ثمن الدرايات الناجحة فى مداواة جهلنا .

التأليف فى أمة مشعل نورها ، ومقياس مفكريها ، ومعيار نهوضها ، ورمز جهادها ، وعنوان حضارتها ، وآية مجدها ، فعلينا أن نفكر فيما يورثنا هذا المجد ، ويعيد إلينا هذه السعادة .

القول في مطبوعاتنا

حدثت الطباعة بالحروف سنة ١١٣٩ هـ بعد أن طبعت الكتب العربية في الغرب بزمن طويل، ولم تطبع بالحروف العربية في مصر إلا في سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) وكان الطبع على ضعف حتى سنة ١٨٢٢ م وهي السنة التي أسست فيها مطبعة بولاق الأميرية وشرعت تطبع الأمهات القديمة وكتب العلوم الحديثة.

وأسست في بيروت مطبعة المرسلين الأميركان البروتستانت سنة ١٨٣٤ م ثم مطبعة المرسلين اليسوعيين الكاثوليك في سنة ١٨٤٨ م، وفي نحو ذلك الزمن دخلت الطباعة بالحروف إلى تونس، ونشأت الحكومات تطبع بها في بعض أنحاء الشرق.

وما بدأ الأفراد ينشئون المطابع إلا بعد مرور زمن على المطابع الحكومية، وكانت عنايتهم بما يطبعون دون عناية الحكومة بمطبوعاتها، ومع أن الطباعة لا شك قد رقت في العلم والأدب، فإن [illegible] المطابع [illegible] أحدث شناعة فيما طبعوا: لا دقة في التصحيح، ولا ذوق في وضع [illegible] الحواشي [illegible] في الكتاب كلمة آخر لا علاقة لها بالكتاب الأصلي، [illegible] الأصول والزوائد، ويختارون أسوأ الحروف [illegible] ويطلبون الرخص في كل شيء، [illegible] من كل [illegible] وروعة.

[illegible] على الأغلب، لأنها أروج من كتب [illegible] على طبع كتب [illegible] والتحريفات

وأشياء سموا كتبها الروحانيات، وأشياء هي من الإسبرتيزم، وكتب أسرار الحروف
والجفر، وكتب الكيمياء، وعمل الذهب، وكتب السحر والجن، وطمعوا وأكثروا
من طبع كتب أبي معشر والديربي وضربائهما.

* * *

وما قويت العربية على الاستكثار من طبع كتب العلم إلا لما عج العارفون
بالشكوى من الكتب المصرية وزاد عدد المتعلمين على الطرق الحديثة فذكروا قصورهم
عن إحياء آثار السلف، فطبعوا في مصر كتب مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة
والغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي وابن قتيبة والجاحظ وثابت
ابن قرة وحنين بن إسحق والآمدي والشاطبي والمرزوقي وابن رشد والباقلاني وابن
عبد البر والسرخسي وإخوان الصفا وابن جني وابن منظور وابن سيده إلى عشرات
أمثالهم من علماء الأمة وحكمائها وأدبائها ومؤرخيها وأطبائها.

واختصت الهند بطبع كتب الحديث ورجاله وما شاكل ذلك من علم الكلام
واللغة والسير، كما تفردت إيران بطبع كتب الإمامية بالعربية وغيرها، وزنجبار
بطبع كتب الخوارج والإباضية، ودمشق وبيروت بطبع الكتب المتنوعة، وخصت
أوربا بطبع كتب العلوم كالطب والكيمياء والأدوية وجر الأثقال والريحات
والأرصاد والهيئة والرياضيات والطبيعيات والنبات والتاريخ والجغرافيا والرحلات
واللغة والأدب والشرع وغير ذلك من العلوم التي نقلها العرب عن أهل الحضارات
القديمة وزادت فيها، أو كانت وقفاً عليهم كعلوم القرآن والسنة واللغة والشعر.

شرعت أوربا من نحو أربعة قرون بطبع ما عثرت عليه من كتب الرازي
والبيروني والبتاني والكندي (الفيلسوف والمؤرخ) وحنين بن إسحق والخوارزمي

ونصير الدين الطوسي وعبد الرحمن الصوفي وابن النديم والفارابي وابن سينا ويوحنا
بن ماسويه والطبري واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلكان وابن الأثير
وأبي الفداء والقزويني وحمزة الأصفهاني والشريف الإدريسي والمقدسي والاصطخري
وابن حوقل وابن خرداذبة والهمداني والبلاذري والبكري وابن عذاري وابن سعد
وابن سعيد ومسكويه وابن جبير وابن هشام والبيضاوي وعشرات من أضرابهم ،
وكلها كتب محررة بذلوا الوسع في مقابلتها على نسخ متعددة ووشحوها باختلاف
الروايات وحل غوامض مشكلاتها ، ووضعوا الفهارس لها ، وسهلوا الانتفاع بها
على الخاص والعام ، [illegible] كل [illegible] وتدقيق وتحقيق ، والغاية من طبعها وإحيائها
خدمة العلم .

طبع [illegible] عشر من الهجرة ، وأهم مواطن طبع الكتب العربية في
الشرق القاهرة وبيروت ودمشق وتونس والآستانة وحيدر آباد الدكن وطهران وفاس ،
وقليل من الكتب [illegible] بتصحيحه العارفون ، ومنها ما نشرته الحكومة المصرية
وبعض الجمعيات العلمية والأدبية . وكان [illegible] في بلادنا من أكثر الوراقين يتحكمون
[illegible] ، [illegible] على [illegible] من الكتب تسهل على
[illegible] الورق والحروف
عرفوا بهم .

وهذا ما دعا [illegible] عدة جمعيات من الغيورين على العلم ، فلم يوفقوا في عملهم
[illegible] في [illegible] ، و[illegible] عن التعصب في اختيار ما يطبعون ،
ومن هذه الجمعيات [illegible] صنعة كتب [illegible] ميدان ، ومنها ما قصد طبع

كتاب [illegible] يحول طبعه [illegible] . [illegible] خمدت [illegible]
على نظام ثابت يضمن لها البقاء .

وأشهر [illegible] من [illegible] في [illegible]
سنة ١٩١٣ [illegible]
[illegible] الكتب [illegible]
من [illegible] من [illegible]
من [illegible] في [illegible] والأدب والاجتماع وغيرها،
ومن كتبهم ما [illegible] عن [illegible] ومنها [illegible]

يتنافس الناس اليوم في اقتناء [illegible] جيدة ، وكان المأمول أن تكتب لها
الرواج أكثر مما قدر لكتب [illegible] ، ومن هذه ما يطبع عشرات الألوف [illegible]
والروايات ، ومنها ما لا يشجع الجمهور [illegible] لأول مرة أكثر من عشرة آلاف نسخة،
وما يقال في الكتب يقال في المجلات . وقد [illegible] كتب دورية — [illegible]
المجلات العلمية الأدبية [illegible] العربية [illegible] ، ومجلات [illegible]
العشرين والثلاثين ألفا ، ومنها ما يطبع [illegible] ، [illegible]
وكان لارتقاء فن الطباعة في الغرب دخل كبير في رقي المجلات العربية ، وما صارت
إليه من التفنن في الطبع والتصوير والكتب تجلد [illegible] ، والمجلات
والصحف ما خرجت عن كونها [illegible] .

* * *

قسم الكتب في مصر إلى قسمين صفراء و[illegible] ، فالكتب الصفراء هي
ما طبع على ورق أصفر من أخس الورق ، وهذه يسمونها الكتب الأزهرية ،

والبيضاء هي التي تطبع على ورق أبيض ، وهي كتب الجمهور على أنواعها وكتب المدارس النظامية. والكتب الصفراء رديئة الطبع رديئة الوضع ، تشوش القارئ وتنغص إليه المطالعة ، بما تحمل من هوامش وقد تبلغ سوء الطبع ، والعكس في الكتب البيض ، مشرقة بما تنسجم فيه الحروف والورق ، وهي خالية من الهوامش إلا ما كان منها داخلاً في الموضوع ، وقد تبذل العناية بتصحيحها أكثر من الكتب الصفراء .

دب الكساد في الكتب الصفراء قليلاً ، وكثر الرواج مع الزمن للكتب البيضاء ، وما زال مع هذا بعض الطابعين في مصر يحبون لأنفسهم الطبع الأصفر كما يطبعون كتب التعمية والدجل ، ويصدرونها إلى بلاد الزنج والملايو ، يطبعون منها مقادير برسم التصدير إلى الخارج خاصة ، ويقع على أنها كتب دين ، والدين لا يعرفها .

لا جرم أن من يبيع من الجهلاء كتباً تزيدهم جهلاً كمن يحمل المخدرات إلى السذج ويزين لهم استعمالها ، أو كمن يسقي السم الزعاف لمن يطلب إليه أن يسقيه ماء قراحاً ، وليست كتب الجهالات في تخريب العقول بأقل من تخريب المخدرات والمسكرات في الأجسام . والحكومات تحظر من كتب فيها ما لا ترضاه سياساتها ، ولا نرى واجباً عليها أيضاً أن تحظر على الطابعين طبع هذا الضرب من الكتب، لئلا يحملوا إلى القراء كتباً غير محررة .

وربما يقول بعضهم إن هذا ما يفتح للحكومة باب التدخل في حرية النشر ، وسلب حق الرعية في الحرية ، ونحن نرى الخير أن يرجع في النشر إلى قاعدة من تطفئ هذه الفوضى على ما يطبع .

* * *

إن ما طبع في مصر من الكتب [illegible] لأن [illegible] وقد [illegible] الكتب رواجاً بين مختلف الطبقات [illegible] من الكتب ويبدلون [illegible] [illegible] إلى الخروج عن الطريق [illegible] [illegible] بذلك كتبهم حرمة وقبولاً .

[illegible] الكتب [illegible] وفي [illegible] أن كل [illegible] مقبول [illegible] ووصفاً مختاراً من القاموس [illegible] الحال بالكتب التي هي [illegible] الكتب العربية [illegible] أن نجد حظاً من الإتقان اللازم [illegible] من طريق [illegible] والنشر مثل ما [illegible] الطابعون والوراقون في البلاد [illegible] مطبوعاتهم

* * *

في يوم واحد ينشر الوراق الإنكليزي الكتاب الجديد في كل بلد يقرأ فيه الأمة الإنكليزية من أصقاع الغرب والشرق ، وفي يوم واحد تكتب الصحف والمجلات نقد الكتاب وتقريظه [illegible] ، وفي يوم واحد يقرأ هذا الكتاب ابن بريطانيا العظمى وابن ايرلندا وابن كندا وابن استراليا وابن زيلاندة الجديدة وابن الولايات المتحدة وابن الهند وابن جنوب إفريقية ومصر والسودان والوراق الإنكليزي لا يحسن ترويج كتبه بين قراء [illegible] في وسعه [illegible] بكل حيلة ، وكذلك سائر الوراقين من جميع الأمم [illegible] طرقهم ، وعلى الوراقين عندنا [illegible] بخمسة وعشرة في المئة [illegible] على [illegible]

الطبع للإعلان عن مطبوعاتهم ، فيخدمون بذلك أنفسهم ويخدمون المؤلف ، ويخدمون المدنية والمعارف .

وربما طبع الكتاب الجيد عندنا وما عرف به من يهمهم اقتناؤه إلا عرضاً وبعد سنين . فهل يحق بعد هذا لمؤلف أن يشكو من قلة الرواج ؟ وهو لو بذل القليل لربح الكثير . ولو صرفت العناية للإعلان عن الكتب وترغيب الناس فيها وعرضها في المدن والقرى وتحسين تقديمها لزاد عدد المطبوع والمبيع بيد الطابع وبيد المؤلف ينشر حضارة أمة فيتقدم او راقون أمرهم

نحن في أشد الحاجة إلى التجدد في مطبوعاتنا ، وأن نجدد في مظاهر الطبع من حروف وأشكال وصور ، وقطع ووضع وورق وتجليد ، ونجدد في المبالغة بتصحيح الكتب والتعليق القليل عما يبين غامضها ، فليس كل الناس يفهمون ما يقرأون ، وعلينا أن نسهل عليهم فهمه ، كأن نشكل دائماً محال الإشكال من الألفاظ ولا نترك غامضاً ولا مبهماً ، حتى لا نغش المطالع ونستميله إلى الإكثار من المطالعة . وبذا نضمن كثيراً عن تلقين المتأدبين أغلاطاً تتأصل في عقولهم فتؤذيهم دون الدين والآداب والمدنية .

* * *

نحتاج إلى التجديد في طرق النشر ، ولا يتم ذلك إلا بإنشاء نقابة أو نقابات تفكر في أقرب السبل الى الإتقان ، وتصدر مجلة توزعها على دور العلم ورجاله وطلابه تفيض في الكلام على ما صدر ويصدر من الكتب ، وعلى ما في القديم منها من الحسنات وغيرها فتكون خير مرشد لمن أراد أن ينتقي الأطيب من الأسفار ، ولا

ينفق فيها أكثر مما تمكنه حالته من إنفاقه ، ويعمل على أن تكون له منها مع الزمن خزانة خاصة يستفيد منها هو وأولاده وأحفاده

العصر عصر الشركات ، وقد رأينا الطابعين أو الوراقين لدينا صغرت رؤوس أموالهم لا يكون شيئاً يعتد به في هذه التجارة ، ورأينا مطابع الكبرى والشركات المؤلفة المنظمة في عالم تربح كثيراً وتفيد أكثر من غيرها ، فلو اجتمع الوراقون في مصر مثلاً ، وألفوا شركة أو شركات تخف شكوى المتجرين بالكتب من قلة الرواج ، وشكوى المؤلفين والمترجمين والمصححين ، وشكوى القراء من سخافة المطبوع والمتون ، وشكوى الكتب من الكساد ، وتدخل في طور إتقان وعناية على النحو الذي رأيناه عليه عند غيرنا من أمم الحضارة لعهدنا .

يتوهم بعض الوراقين عندنا أن الاشتطاط في الربح يوصل إلى الغرض من هذه التجارة ، ونسوا أن الربح القليل من شيء كثير أعود عليهم من ربح كثير من شيء قليل ، ولو أدركوا ذلك ما توقفوا عن تغيير أساليبهم في الطبع والنشر وتقدير الربح ، ولأيقنوا أن من مصلحتهم المهاودة في الأسعار والعناية بتجويد صناعتهم ، والكتاب يطبعه طابعه ويبيعه في مدة قصيرة بربح قليل أنفع له من كتاب يبيعه في المدد الطويلة ليربح منه ما يقدره لنفسه من الأرباح ، وهذا من أيسر قواعد التجارة التي يعرفها الأطفال في الغرب، فعلى الرجال أن يتعلموها عندنا .

من جملة طرق الرواج في الكتب جودة طبعها وحسن خدمتها ، ونقصد بخدمتها العناية بتصحيح أصولها وتخريجها وحل المشكلات من متونها وشروحها ، فقد كان الطابعون في مصر يتوهمون أن كل مخطوط صحيح صالح للطبع لا يحتاج الى أكثر من أن يدفع الى المنضد لتنضيد حروفه وترتيب صفحاته ، ويحمل على الآلة الطابعة

تخرجه ملازم ملازم . والكتب التي تطبع لأول مرة والتي تكرر طبعها تدفع الى رجل أزهري إذا كان على شيء من العلم فيكون من الطبقة التي تعرف الإعراب فقط ، وليس النحو والصرف كل شيء في عالم العلم .

***

رأيت كتباً طبعها أعاجم من علماء الغربيين فخرجت صحيحة سالمة من الشوائب على ضعف ناشريها أحياناً في القواعد ، ورأيت أسفاراً طبعت في أتقن المطابع بعناية أمهر المصححين وبها بعض الأغلاط ، مثل ذلك تاريخ ابن خلدون المطبوع في المطبعة الأميرية ، لو تصفحته لتعوذت بالله مما فيه من تحريف الأعلام ، وسقطات كثيرة قد تكون كلمة أو سطراً أو صفحات ، ولا تخلو صفحة منه من بضع غلطات شائنة تحرف النص وتخل بالمعنى . وإلى اليوم تقع لأعظم المطابع خطراً أغلاط من هذا القبيل

تصحيح الكتب المطبوعة مسألة لم تدخل في فن الكتب ، وكم من كتاب قديم طبع على نسخة واحدة وزاده جهل الطابع والمصحح أغلاطاً إلى أغلاطه ، ذلك لأنه قل أن يعنى أرباب المطابع بانتقاء مصححيهم ، يختارون أكثرهم من الصنف الذي يصحح الملزمة بنصف قرش ، ولو أعطى الطابع المتأدب المصحح يكون على شيء من العلم لكان مغبوطاً ، ولهان على من يتناولون الكتاب أن يتقنوا ما أتقن طبعه وعُني بتصحيحه بإضافة مبلغ زهيد على كل كتاب

كان تحريف جهلة المصححين للكتب وتحريفهم نصوص جهلة الطابعين مما أضاع على طلاب العلم أوقاتهم ليتوفروا على إصلاح ما كان واجباً على غيرهم أن يصححه . أي كتاب لأجدادنا طبعته مطبعة من مطابعنا التي نعدها راقية مثل هذا العهد الجديد ولم تحصر عيبه الأغلاط الكثيرة حتى الأمهات من كتب الشرع واللسان ؟

ولو كانت حكومتنا تفكر لما سمحت لرجل أن يطبع كتاباً وينشره إلا إذا
كان حاملاً شهادة من المدارس الوسطى على الأقل ، فضرر الكتبي الجاهل لا يقل
عن الضرر الذي يأتي على يد الصيدلي الجاهل .

* * *

هذا يوم نرى فيه كل مطبعة كبيرة تعهد إلى لجنة من الخبراء والعلماء النظر
في كل ما تطبع ، وتراقب الكتاب من وضعه وتأليفه إلى صف حروفه إلى وضع
صفحاته إلى تصحيح ملازمه إلى طبعه إلى طيها إلى جمعها وضمها كتاباً تاماً برأسه .

وطبع الكتب يحتاج إلى مراقبة شديدة أهونها ألا يطبع شيء قبل أن تنظر
فيه جماعة تعرف قيمته ، فإن المكررات من الكتب التي لدينا من نوع الأمهات
المعتبرة ، وكتب التخريف والخرافات ، وكتب المجون والغراميات وغير ذلك
لا ينجيها من آفتها إلا المراقبة الشديدة .

لو عرض طابعا كتاب « حلية الأولياء » للحافظ أبي نعيم الأصبهاني المتوفى
سنة ٤٣٠ على عالم بالكتب والمؤلفين قبل أن يتكلفا طبع كتاب ضخم مثل هذا يقع في
عشرة مجلدات ويبلغ صفحاته أربعة آلاف صفحة — لقال لهما إن هذا الأصل الذي
طبعتما عنه وقع في الغالب إلى يد أحد الجهلة فأضاف إلى كل ترجمة من عنده سخافات
ما أنزل الله بها من سلطان ، وما كانت من كلام المؤلف ، وكتابه قد شهد له
الثقات بالجودة ، وهاكم مثالاً من مئات الأمثلة من هذه الزيادات التي شوهت
الأصل ، وحملت الكتاب على ما فيه من الفوائد حملة رقاعات . من ذلك : « وهم
(أي المتصوفة) المصونون عن مراتعة حقارة الدنيا بعين الاغترار ، المبصرون صنيع
محبوبهم بالفكر والاعتبار » هذا يذكر من اشتهر من الصحابة بحال من الأحوال ،

وحفظ عنه حميد الأعمال ، وعصم من الفتور والاكسال ، ووصل الله له العهود والحبال ، ولم يقطعه سآمة ولا ملال » . « وقد قيل ان التصوف السكون إلى المحبوب فى الحنين إلى الحبيب » « ان التصوف استعداد الطوق ، فى معاناة الشوق ، وترجية الأمور ، على تصفية الصدور » « وما عهد منه (سيدنا عمر) فى ملازمته للتجريد ، ومحافظته على معارضة التوحيد ، وان لا سبهه عن معه والتهم المهنة والعديد » وكان (عمر) عن فناء الملاذ منتهياً ، ولدى المعاد منتهياً ، ملازم الشهوات ويعارق الشهوات ، وقد قيل إن التصوف حمل النفس على الشدائد الذى هو أشرف الموارد » « التصوف مرافقة المودود ومصارمة المحدود » « التصوف اسلام العيوب إلى مقلب القلوب » « التصوف الارتقاء فى الأسباب إلى المقدرات من الأبواب » « التصوف العزوف من الحدث إلى رفع الحجب » « التصوف الروح للأحوال والتحفظ من الأثقال » « التصوف الوفاء والثبات والتسمح بالمال والجدات » « وزهد عن التفرغ والتسوف ، وغلب عليه الحنين والتحوف ، وقد قيل إن التصوف طلب النفس فى رياض التقديس » « التصوف المرق المسمومة إلى مقر الكيمومة » « التصوف اقامة الدف المعذب على حفظ الكلف » « الشوف الوطىء على جمر الغضا إلى منازل الأمر والرضا » « التصوف استنشاق النسيم والاشتياق إلى التسنيم » « التصوف مشاهدة المشهود ومراعاة العهود ومحاماة الحدود » « تصحيح المعاملة تصحيح المنزلة » « التصوف تسور السور إلى التحصن بالحور » « التصوف قطع العلائق ، والأخذ بالوثائق » « التصوف التأله والتدله من غلبات التوله » .

وفى الكتاب من هذه المجازفات مثلات ، ومنها المأنوس فى شعر حاول مؤلفه أن يترجم أمثال الأمة فاحتفظ بسميه نفث ذلك الحدث وهو كلام لا يصدر من قلم مؤلف عربى مشهور، وربما تساءل القارئ : وكيف لم يهتد الطابعون إلى ما شان الكتاب ؟ والجواب: هذا من عمل المؤلف لا من عمل الطابعين، ولو وقع الأصل لعارف متمكن لحطه عن القول بما قدمه فى هذه المقول، وأنت لو فتحت أى ترجمة لرأيتها على الأغلب تخلو فى مقدمتها من مثل هذا الهذيان والله بعد أن عرفت درجة الحافظ أبى نعيم فى العلم هل يجوز عليه أن يقول : ومنهم الذاكر الشاكر ، خليفة بن عبد الله المصرى ، كان لمحبوبه ذاكراً ، وإلى مشاهدته ناظراً ، وإن قلت بين هذا تعرف . ووالله لا يقول هذا إلا من اختل ذهنه ولعمرى لا يستحق أن يجعل فى مستشفى المجاذيب من يقول: « التصوف عول حتى الرحيل وحول لا الميل » « التصوف التمتع بالحصور والتبتع للخطور » « التصوف الصمو للرتق والرتو للفتق »

وهناك كتاب آخر ارتكبت فى طبعه مثل هذه المحدثات ، عنيت به « البداية والنهاية » لابن كثير . فقد طبع منه أربعة عشر مجلداً بقطع الكبير ووقع على ما يظهر فى أيدى مصحح لا يعرف التاريخ ولا يعرف الأدب ، حتى ليخيل إليه أن مصححه مصفف حروف أو فراش فى المطبعة . هناك أسماء الأعلام محرفة تحريفاً مخجلاً ، وإنك لتقرأ اسم العلم على صورة فى صفحة من الصفحات ، فإذا قلبت صفحتين أو ثلاثاً تقرؤه على شكل آخر وهو هو ، وكذلك الأبيات الشعرية ، أجارك الله من تحريفها فإنك إذا تلوتها تعسف الشعر وتنكر الأدب ، فإن كثيراً منها لا يفهم ، وبعضها لا وزن له . ألا يجدر بمثل هذا الكتاب الذى يكلف طبعه

المئات من الجنيهات أن يصرف على تصحيحه عشرات من الدنانير ويعهد بتصحيحه إلى أناس يحسنون فن الأدب وفن التاريخ ، طبع هذا الكتاب على هذا النحو يعدّ حرباً على الأدب وتجنياً على العلم والمعرفة .

وقد رأيت بعض النفوس تزهد في الكتب وتستعفي بعض الاستعفاء عن القراءة ، ومن ارتقى عقله يستحيل عليك أن تضطره إلى قراءة مثل «حلية الأولياء» بهذه الزيادات عليه ، والبداية والنهاية بهذا التصحيح السخيف .

القول فى الجمع بين ثقافتين

لما خرج العرب فى الإسلام من جزيرتهم ، ورأوا بلاداً غير بلادهم ، وشعوباً غير شعوبهم ، ومطالب محدثة لا عهد لهم بها ، وقيوداً لا مناص من مراعاتها ، أدركوا أنهم مقصرون فى مضمار الحضارة وأن عيش البداوة لا تقوم به دولة . فأقبلوا يتلقفون كل ما لا يعرفون من أنواع العلوم والصناعات ، ويقلدون الدول السابقة فيما خلت منه أرضهم .

وما انقضى القرن الأول من الهجرة حتى تم بنيان المدنية العربية الجديدة ، واتجهت وجهة بعض الأذكياء إلى التماس علوم القدماء ، فكان من العلماء من يدرسون منذ عهد بنى أمية فى جملة ما يدرسون الحساب والنجوم والكيمياء وحكمة القدماء وغيرها . ويعدون من النقص ألا يلم العالم والكاتب بشىء من هذه العلوم تضاف إلى الحديث والفقه والأدب .

واشتدت حاجة المتكلمين — أى علماء التوحيد أو رجال الدين فى القرن الثانى — إلى إتقان علوم الأوائل والتعرف إلى ما أصاب الأديان الأخرى من أساليب الجدل ليقاوموا أعداء الإسلام بالسلاح الذى كانوا يقاتلونهم به . وكان المعتزلة من أول من انتبه من أحبار الأمة إلى الاستعانة بعلوم القدماء للدفاع عن العقيدة فبرزوا أكثر ممن قصروا علمهم على علوم النقل فقط .

شعرت العرب بعد أن استتب أمر دولة بنى أمية فى الشام ، ونظمت شؤون مملكة الإسلامية وامتدت الفتوح فى الشرق والغرب ، بمسيس الحاجة إلى النقل عن القدماء فبدأ النقل على يد خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ثم جاء منصور ورشيد والمأمون فبعثت الهمم انبعاثاً جديداً لترجمة كل ما حاجت منه نهضة العربية من المعارف . وكان النقل من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ، ومن قصرت دولة الأندلس ونماة صقلية فى سلوك هذا المضمار : تقدّما منذ القرن الثالث كتباً كثيرة فى العلوم ، وأضافت إلى تراث الماضيين ثروة جديدة من المعارف .

ويهدى العلوم الطارئة على أنها تطور فى دماغية العرب ، واتسع أفق نظرهم ، فقدم الأساس الذى بنوا عليه مدنيتهم بعلوم جديدة ما كانت مما يعرفون ، وتمثلوا ما اقتبسوا عمن سبقهم من أصحاب المدنيات ، ولاسيما فارس والروم والهند ، وزادوا فيما نقلوه ، وصححوا ما اقتبسوا ، ووسعوا ما ساعدهم الزمن فى معرفة أسرار الكائنات ، وكشف غوامض ما كان لأجدادهم معرفة بها ، يوم كانوا على عزلتهم فى جزيرتهم .

ومن يقرأ سير رجال الإسلام ، فى قرون ازدهار العلم يلاحظ أن من أثروا أثراً نافعاً فى العرب ، كانوا من الذين عرفت لهم مشاركة حسنة فى هذه العلوم التى نسميها اليوم بالعصرية ، وما هى إلا علوم القدماء ، لأنها نتيجة عصور طويلة ، انتقلت من أمة إلى أمة ، ومن قطر إلى قطر حتى وصلت إلى العرب ، وكانوا آخر من ورثها قبل العصور الوسطى . ثم أخذت أكثر أمم الغرب عن العرب فكانت هذه المدنية الحديثة الغربية .

ومن يدرس فقط كتاب طبقات الحكماء للقفطى ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وطبقات الأمم لصاعد ، والفهرس لابن النديم ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ،

تقف على عناية الخلفاء والملوك والأمراء من العرب بهذه العلوم، ويدلك أن عطفهم على من عاناها معاناة كبيرة من أسماء ذميّهم من النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس واليهود لا يقل عن عطفهم على علماء الدين واللغة والأدب، وكم من وزير أو كبير كان ينفق على استخراج علوم الحكمة ونقلها إلى العربية مالا تقل مقداره اليوم عن موازنة المعارف في إحدى الدول الصغرى، هذا ما كان يعطيه أفراد من أمرائهم الخاصة أمثال بني موسى بن شاكر ومحمد بن عبد الملك الزيات، فما قولك بما يعطيه المنصور والرشيد والمأمون في المشرق، وعبد الرحمن الثالث والحكم الأموي في المغرب، لا جرم أن مجموعه يجاري ما تنفقه دولة من دول الحضارة حديثا على معاهد العلم والصناعات.

وإذا شئتم أن تمثلوا لأذهانكم ما كان يبذله العرب أيام عزهم على العلم والعلماء، ألقوا نظرة على دولة من الدول الراقية اليوم، وعلى ما تعنى به من بث المعارف في أمتها، تستخرجوا صورة من صور العناية بالعلوم في الدول الإسلامية السالفة، وتفهموا مع هذا أن العواصم القديمة كدمشق وبغداد والبصرة والري وأصفهان ونيسابور وغزنة وسمرقند والفسطاط وإفريقية وصقلية وقرطبة ما كانت أقل عناية في هذا الشأن من باريز وأكسفورد وكمبريدج وليبسيك وبولون ورومية وسلمنقه وغيرها من مدن العلم في العهد الحديث، وما كان مقام الكندي وحنين بن إسحق وأولاد بختيشوع وابن سينا والفارابي والرازي وابن رشد دون منزلة أئمة الدين ورجال السنة والفقه والأدب.

ولفرط غرام العرب بالعلوم كان علماؤهم قرؤوا في حذق [illegible]

القرن الثانى إلى القرن الخامس ، ثم نشأت المدارس فى المشرق والمغرب ، وكانت علوم الأوائل تدرس مع علوم الدين واللغة فى كثير من تلك المعاهد ، وكانت دور الحكمة فى بغداد والقاهرة وإفريقية وغيرها أشبه بجامعات تلقى فيها محاضرات فى ضروب المعارف البشرية وتضم كتب العلم والأدب . وعند القوم أن كل علم نافع ، ومن احتقر شيئاً من فنونه استصغروا عقله وسخروا منه .

كان تعلم اللغات غير العربية خاصاً بفئة من المحدثين والحكماء والأطباء والمهندسين والمنجمين والسياسيين وذلك فى العصور التى كان اللسان العربى لسان العلم والسياسة فى العالم . وعند اختلاط الشعوب الإسلامية بالأمم المجاورة لها كثر العارفون من العرب بلغات أخرى ولا سيما فى فارس فى المشرق والأندلس فى المغرب ومن علماء المسلمين من نقلوا معارف جمة مودعة فى هذه اللغات الغريبة مترجمة إلى العربية ، ومن علماء الأندلس أيضاً من كانوا يقرؤون العلوم لبعض الطلاب النصارى الذين يحضرون دروسهم ، ويأخذون عنهم ما يجهلون من صنوف العلم . ومن علماء الإسلام من كانوا يدرسون التوراة والإنجيل لأساتذتهم ويفسرونهما لهم ، ومنهم من كانوا يحفظون مع القرآن التوراة والإنجيل وبه يوسعون ثقافتهم الدينية ، والمقابلة بين الأديان السماوية . ومنهم من كان يبحث فى الأديان والنحل بحثاً علمياً مجرداً عن كل عاطفة مذهبية وقومية كالبيرونى أعظم رياضى فى الإسلام .

وقد رجعت العرب تحس الحاجة إلى الأخذ عن غيرها ، حتى قد كثر من أبناء الأمة يتقنون لغات الشرق ولا سيما الفارسية والتركية والهندية ، أو لغات الغرب الإفرنجية وما تفرع عنها من لغات كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتقالية .

ومما ساعد دولة البرتقال فى مطلع العصور الحديثة على تلقف العلوم التى أصبحت بفضلها أول دولة بحرية فى العالم ، وفتحت طريق الهند واستأثرت بالتجارة الهندية زمناً طويلاً ، كون من هاجروا إليها من علماء الأندلس ومن كان فى أرضها من العرب الذين لم يبرحوا عند استرجاع [illegible] يحسنون [illegible] تلك العلوم ويعلمون من أرادوا تعليمهم من أبنائها بلغتهم لا باللغة العربية فقط ، على نحو ما كانت جامعات الغرب [illegible] تدرس لهم قانون ابن سينا وتصانيف الرازى وابن زهر وغيرهم باللاتينية أولاً ثم تشرح باللغة العامية وكان لأساتذة [illegible] فى [illegible] شرح العلم الذى يدرسه .

والحاصل أن العلم الذى كان [illegible] فى التاريخ مشاعاً بين الأمم كان أربابه [illegible] لا يستنكفون عن الأخذ عن غيرهم ، ولا يحول بينهم وبين غاياتهم دين ولا جنس ولا لسان . ويعرف المذكور من [illegible] أن ثقفهم لا [illegible] العلم المطلوب [illegible] يمدوا أبصارهم إلى أقصى حدود النظر ، ويعرفون ما عند غيرهم كما يعرفون ما عندهم كانت فى ذلك شئونهم [illegible] ، وبقيت خدمة أحد [illegible] العلماء [illegible] فى جميع الأعصار .

ثم ما كان العلماء يهملون درس علوم الحكمة ولا سيما الأدب [illegible] وكثير منهم كان يحسن الطب والكيمياء والحيوان والنبات كالجاحظ فإنه جمع فى صدره علوم الأولين والآخرين وعلوم [illegible] وما عرف لعهده من علوم [illegible] وهذا من نوادر الرجال بل يكاد يكون منقطع النظير فى عصره وكذلك كان أبو حيان التوحيدى الذى نسج فى عصره على منوال الجاحظ كان [illegible] معظم العلوم [illegible] فى الفلسفة كما برز فى علم الكلام واللغة والأدب والتاريخ

وما خلا عصر من جماعة جمعوا بين الفضيلتين فضيلة القديم وفضيلة الحديث ،
ونبغ بين من شهروا من لا يحسن الرياضيات والنجوم والأزياج وعمل الاصطرلاب
والتاريخ والأدب . وما استطاع القرافى أن يجادل مثل ابن رشد إلا لأنه كان
متمكناً من الفلسفة وعلوم الطبيعة والرياضة . وابن حزم الأندلسى ما ألقم خصومه
حجراً إلا لأنه كان اماماً فى الحكمة والتاريخ وعلوم القدماء يحسنها كما يحسن علوم
الشريعة . وكذلك قل فى ابن تيمية وجمعه بين ثقافة الإسلام وثقافة القدماء تتجلى
ذلك من رده على الفلاسفة وعمر الخيام ما كانت شهرته فى الشرق بشعره فقط بل
بما كان يحسن من علوم الدين والأدب وحكمة القدماء والبحث فى العلم بحث عالم
مجرّد عن الهوى . واشتهر ابن سينا بإبداعه فى فلسفته ولكنه كان عالماً دينياً وأديباً
لغوياً قبل أن يخوض عباب أبحاثه العجيبة وهو من أجمل الأمثلة فى الجمع بين ثقافة
العرب وثقافة القدماء . وكان ابن حيّان الفتى رياضياً وطبيباً وفيلسوفاً قبل أن
يتبحر فى علوم الدين حتى أُلّف فى قرآن واحد مع كبار الأئمة وكذلك أبو زيد البلخى
وأبو حنيفة الدينورى والفخر الرازى وكمال الدين بن يونس وغيرهم كثيرون .

وما كان الرجل يعد عالماً حقاً إلا إذا ألمَّ إلماماً كافياً بالعلوم التى سموها العلوم
الانسيكلوبيدية أى المعارف البشرية العامة، ثم يختص بما يغلب عليه من فروع علوم
الشريعة أو غيرها . والقاعدة عندهم أنه لا تخصيص قبل التعميم . فكما أنه لا يكون
المحدث محدثاً حقيقة إلا إذا أتقن علوم اللغة والتاريخ والأنساب كذلك قلما كان
ينتفع بعلم العالم الدينى حق النفع إلا إذا ذاق شيئاً من العلوم التى تقوى ملكة العقل
وتطرد منه الفضول والحشو .

سُبِيتْ كل هذه الاعتبارات فى عهود الجمود والانحطاط وأصبح يعد شيخاً مذكوراً من يحسن تلاوة أحاديث سوية يستظهرها ويلقيها على العامة أو مسائل قليلة من الفقه ينقلها عن غيره بدون نظر . ومما نهض العرب نهضتهم الأخيرة كان من جمعوا الى علوم الشرع شيئاً من العلوم الأدبية فى مقدمة من حملوا علم التمدن الى أمتهم وأخرجوها بدروسهم وآرائهم من جهلها . ولا نمثل لذلك إلا بأشخاص اشتهروا أمثال الامام محمد عبده فإنه لم يرزق هذه الحظوة من أمته إلا لأنه لم يقف عند حد ما قرأه فى الأزهر من العلوم ؛ ولو لم يلقنه شيخه السيد جمال الأفغانى علم الحكمة ويفتح للعلوم قلبه لكان مثل مئات غيره من شيوخ الأزهر لم يسمع بهم غير طلبتهم فى حياتهم ، وما عدوا إلا أنهم كرام لا كغيرهم مروءة . وتعلم الشيخ محمد عبده عده تعلمه لغة أجنبية فى سن الكهولة فأصبح ممن يسهل عليهم الاستقاء من المصادر العلمية الأصلية وهكذا جرى شيخه السيد جمال الدين فتعلم الفرنسية فى الكهولة وأتقنها . وكذلك يقال فى مصلح الشام الشيخ طاهر الجزائرى فان تأثيره كان بما اقتبسه من علوم القدماء وثقفه من لغات شرقية وغربية مضافاً إلى إتقان علوم الإسلام وآداب العرب ومثل ذلك يقال فى العلامة الشيخ محمد بن أبى شنب الجزائرى فقد أتقن علوم الدين والأدب وعدة لغات حية فنشر بها عِلْمَ الاسلام فى أوربا ، وكان برهاناً قاطعاً على أنه ليس فى العلم ما يرغب عنه . وما كان العالمان الكبيران أحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا من أفذاذ الرجال فى البحث العلمى لو لم يجمعا بين الثقافتين الغربية والعربية

وبعد فإن من أفلحوا كثيراً من العلماء ، وكان فلاحهم بتأثيراتهم العظيمة فى الأمة العربيـة فى حياتهم وبعد موتهم ، هم الذين جمعوا بين ثقافتين وأتقنوا مع

العربية نفسه وتعتبر أي من وسعوا دائرة النظر ولم يجمدوا . ولقد عنيت باللغات
الأجنبية التي تقضيها منذ فجر النهضة الحديثة وحركة العلم في ديارنا ، وكذلك
بث الثقافة الشاملة التي اشتركت في الأخذ منها جميع من درسوا الدروس النظامية ثم
ذهب إلى المعاهد الدينية . وهذا لن كنت تعرف من خريج الأزهر أصبحت بعد
مشاركته طلاب العلم المدني في علومهم تشتهي أن تناقشه ويدهشك لأنه يأخذ من
العصر ومن علومه ومعارفه . ومتى تعرف جميع طلبة العلوم الدينية على هذا النمط من
التعليم سيظل لهم دعاتهم الدينية متصلاً ظاهراً . ومتى أخذ طلبة العلوم المدنية بقسط
من علوم الإسلام يعرفون أنه لا يستغني عالم عن علم ، ولا يليق بالإنسان أن يكون
بعيداً عما ينير قلبه وعقله

خاتمة

أطلنا الكلام فيما حاولنا الخوض فيه من هذا الكتاب، وها نحن أولاء نختم كتابنا بقول: إن الدول في الرجال وفي حسن استعمالهم والانتفاع بمواهبهم، وفي حكومات الصالحين يوجد الصالحون من الرجال، والدولة سوف يحسن حالها بما يروج فيها.

ويقدر الناس مفطورون على تقليد كبرائهم، ومن اعتقدوا فيهم فضل التقدم عليهم، فيتشبه بهم عامتهم وصغيرهم بكبيرهم، فإن كان الأمير ممن يغلب فيه التقوى والصلاح كعهد الظاهر جقمق في مصر تكثر الجوامع والمساجد، ويغلب القوم تقليد أهل التقى، ويقربونهم ويتسلطونهم، وإذا كان الأمير ذا لهو وطرب كعهد الظاهر الفاطمي راجت الملاهي وانتشر الإسراف، حتى ليعيَّر كل من دعا إلى الفضائل، ويستهزأ منه ولا يؤبه له.

اشتهر في دولة المماليك أمراء في مصر، كالوليد بن عبد الملك الأموي، بحب التعمير فصار كل واحد في زمانه يحذو حذوه ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن وصار المصريون في عزم بالبناء، وكان منهم إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة عمل على شكره في الملأ ومده في الباطن بالمال والآلات وغيرها، فعمرت مصر في أيامه وصارت أضعاف ما كانت.

نعم ما رجح الصغير يقتدي بالكبير، وكلام العظيم قانون، وفعله يحتذى، وحديثه يتناقل ويتداول ويستظهر، وإن تم صلاح وجامعة إلا على أيد طاهرة تعمل

تامة أجراً لا وازع لهم إلا ضمائرهم ، وتطلق لهم حريتهم في اختيار من يؤازرهم ، يصرّفون الأمور على ما تقتضيه المصلحة والعقل قبل التقيد بالقوانين ، وتراقب أعمالهم مراقبة سرية وجهرية ، ويعلن ملأً بحسن المحسن وإساءة المسيء ، ليعتبر من يبرع في إماتة الحق وإحياء الباطل . أما من تثبت اجرامهم فيعاقبون بحبس طويل ، وبغرامة عينية متكررة ، ثم تحذف أسماؤهم من سجل الاستخدام كما يطرد من الخدمة كل من ثبت أنه فسيق فاجر ، وصلاح العمل بالترهيب والترغيب

من البلاء كثرة القوانين وقلة تنفيذها ، وقانون لا ينفذ حسرة على من وضعه ، ومصلحة الأمة في أن لا يضيع الحق بين أصحابه ، فتبتاعه بالثمن الذي تقدر على أدائه ، تعطي من يخدمونها ما يعيشون به ويفضل عنهم ، ولا تتطلب منهم إلا بذل الجهد في مرضاتها ، وتجويد أعمالهم على ما تقضي به الذمة الطاهرة ، أما إذا ضنّت عليهم بما يقيمهم كما هو الحال الآن في رجال الأمن مثلاً ممن يولون أجراً زهيداً ويستبيحون لأنفسهم مدّ الأيدي لتناول الحلاوين والرشوات ، فإذا لم يصلوا إليها بالتهديد عادوا يستجدون أرباب المصالح بعرض بؤسهم عليهم ، يستدرون رحمتهم ليرضخوا لهم بشيء من المال ، فهذا نقص عظيم يجب تلافيه .

ومسألة أخرى وهي أن يجري انتخاب العمال من دون نظر إلى أحزابهم ، ويمنع كل موظف من العمل في الأحزاب والجمعيات السرية ، لا يشتركون في ذلك اشتراكاً فعلياً ولا اسمياً . والجمع بين الوظيفة وعمل آخر لا يخلو من تناقض كالجمع بين السياسة والإدارة ، أو الجمع بين الضب والنون ، وقد ثبت ضرر اشتراك العمال في الجمعيات والأحزاب لأنهم يتوجهون إلى إرضاء الإخوان والأنصار قبل كل شيء ، وهم على الأغلب لا يتحرجون من مخالفة القوانين إذا كان فيها إرضاء من أنالوهم مغانم

ليس لهم في إحرازه شيء من الكفاية وحرموا ممن يهيمنون عليهم ، وقصارى هذه الطبقة خدمة صاحب القوة لا يهمهم أصحاب الحق بقدر ما يهتمون لأرباب الباطل .

وربما ذهب بعضهم إلى أن تحقيق مثل هذا الإصلاح سهل في القول صعب في العمل ، وهي مزاعم طالما رددتها ألسن المثبطين الكسالى ، ولو سار المصلحون على مثل هذا السخف ما قام في الأرض إصلاح ولا خطت المدنية خطوة تذكر ، ولقد رأينا الفرد برأسه يعمل كل عظيم إذا كان رائده العقل ، وهجيراه العمل ، فكيف بالدول وهي لا تخطئها قوة إذا أرادت إنفاذ أمر في رعيتها ، ويكفي بضع سنين حتى تبدو صلاح ثمرة غرست فسقيتها بحذق ومهارة .

وفقت بعض الأقطار إلى إتمام الشيء الكثير من إصلاح الإدارة ، ويقتضيها الآن أن تصلح عامة من يديرون دفتها وتختار بالقدر اللازم منهم وتوسع عليهم وتحميهم . ومن ثم ما تجب مراعاته ألا يغتر بشهادات طلاب التوظف ، وينظر أولاً في سيرتهم وفي ماضي بيوتهم ، فقد رأينا بعض من يحملون أعظم الشهادات أسوأ مثل في قبح السيرة ، أخذوا الفساد عن أهلهم ، وكان لهم من العلم أداة شر استخدموه في أهوائهم .

إذا عرفنا هذا فالأولى أن يرجح في التوظف أبناء الفقراء على من نشأوا في بيوت معروفة بالفساد على أنواعه . وليس من شك بأن توظيف الصالحين يقلل في كل بلد من عدد المزورين والمختلسين ، ومن دأبوا على التقرب من كل حكومة لتعمى عن سوء أحوالهم . ومتى قلّ المبطلون تستغني الحكومات عن هذه الجيوش من العمال ، وعن إنفاق هذه النفقات تجمعها بالقروش وتفرقها بالألوف على ترفيه طبقة خاصة .

هذا رأى فى اختيار العمال وطريقة يرجى منها أن تؤدى الى إنشاء حكومة عادلة يكون أساسها الشفقة . ثم الحق أن الناس ما زالوا يشكون من حكامهم الظالمين ، ولا عجب فالجور والظلم فاشيان فى هذا العصر ، وأهل كل عصر يقولون بصلاح الزمن السالف وفساد الزمن الخالف .

وما أهل دهر ذاموه بذمه ... من كل ... وأيامه كأيامه

* * *

فى القرن الرابع أرقى عصور الإسلام فى العلم نجد الحكيم المعاصر أبو حيان التوحيدى فى مدينة السلام للوزير ابن العارض وكان من عظماء الوزراء ، فأورد على مسامعه فى أربعين ليلة ما أدهش السامعين من أمور الدنيا والدين ، ومما ذكره له قول أحد العقلاء قبل عصره فى وصف طبقات الناس وما آلوا اليه من انحلال الأخلاق (والله لئن لم يتداركنا الله برحمته لنصبحن فى مصيبة) فقال الوزير : هذا الأمر ؟ قال فإذا كان هذا قوله فى عصره وشجرة الدين على نضارة أغصانها وخضرة أوراقها ويَنْع ثمرها فما قولنا نرى فيه لو لحقنا وأدركنا زماننا ؟ » . وقد روى أبو حيان للوزير ما قاله أحد البلغاء فى وصف أخلاق التجار وما هم عليه من الاحتيال والتلاعب فقال الوزير : « إن كان هذا الوصف على العامة بهذا القول فقد دخل فى وصفه الخاصة أيضاً ، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلا شائعة فى أصناف الناس من الجند والكتاب والتناء والصحابين وأهل العلم ، فقد صار الزمان إلى أمر لا تأتى عليه الصفة ولا تستوعبه الأخبار ، وما عجبى إلا من الزيادة على مر الساعات » .

وفى القرن السادس دهش ابن الجوزى لما اطلع على سِيَر الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم فرأى الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين

فلا عجب أن عبدوا دنياهم ، ولم يؤثروا الآخرة عليها والناس كالعصافير والعصفور يريد الحبة وينسى الحبل . وقد ينشأ على كثير من خلق الناس ميل إلى عاجل لذاتهم وأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشورة العقل .

ثم هكذا كان الناس وهكذا هم اليوم وسيكونون على ذلك غداً ، والناس غير السلطان العادل يروض نفوسهم على الحق ، يطأمن من جماحهم ، ويكون العائد الحكيم على الكبير والصغير . وقد قال أناتول فرانس ما معناه لا يتأتى أن يكون البشر على غير هذه الصورة من الغش والطمع والحسد والشر مداه تركيبهم على ما نرى ، ولا سبيل إلى إصلاحهم إلا إذا تعلقت إرادة الله في خلقهم خلقاً جديداً على مثال آخر وقال ابن المقفع وقد عهد عهداً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها وان خاصة قط لم تصلح من قبل نفسها وانها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك

فهرس

	صفحة
الإهداء	٣
القول فى أقوالنا وأفعالنا	٥
القول فى تمدننا	١١
القول فى وطنيتنا	٢١
القول فى عاداتنا	٣٣
القول فى نظامنا	٥٠
القول فى عاميتنا	٥٨
القول فى اتكالنا	٦٨
القول فى أميتنا	٨٠
القول فى تبدل أوضاعنا	٨٩
القول فى ماضينا القريب	١٠٣
القول فى دور انتقالنا	١٢٢
القول فى انحطاطنا	١٣٠
القول فى نهضتنا الأخيرة	١٤٣
القول فى تهامت طباعنا	١٥٥

	صفحة
القول فى ثوراتنا	١٦٣
القول فى صحافتنا	١٧٠
القول فى الكذابين والمنافقين	١٨٠
القول فى المستهزئين	١٩٥
القول فى الهازين اللازين	٢٠٢
القول فى الخياليين وأصحاب الشذوذ	٢١٠
القول فى ثروتنا	٢٢٠
القول فى تاريخنا	٢٣٠
القول فى سياستنا	٢٤٤
القول فى مشايخنا	٢٥٣
القول فى الفرق	٢٦٧
القول فى الإعلان والشهرة	٢٧٦
القول فى إرشاد العامة	٢٨٨
القول فى بعض الأجانب	٢٩٤
القول فى المبشرين	٣٠٢
القول فى الغربى والشرق	٣١٠
القول فى خلافة الإسلام	٣٢٢
القول فى الجامعة الإسلامية	٣٣٣
القول فى الوحدة العربية	٣٣٩

	صفحة
القول فى أخلاق العظماء	٣٤٩
القول فى حقوق المرأة	٣٥٧
القول فى النساء المظلومات	٣٧٣
القول فى تآليفنا	٣٨٧
القول فى مطبوعاتنا	٤٠٢
القول فى الجمع بين ثقافتين	٤١٥
الخاتمـــــة	٤٢٣

أغلاط

صفحة	خطأ	صواب
٣٠	النقد	الفد
٣٨	حشرته	عشرته
٤٠	تثنها	تُثنها
٤٢	أنت	من أنت
٥٠	يدفهم	يدفعهم
٥٢	الحلبة	الحاكة
٦٢	الورد	لورد
٦٣	إذا لم يفعلا	إذا لم يفعلا
٦٨	يتكلمون	يتكلون (تكررت مرتين)
٧٥	لا يسمع	لا يسع
٧٤	تعرفك	يعرفك
٧٧	المجيبة	الجمية
٨١	حرة	حزة
٨٧	ماذا	ماذا جرى
٨٩	اقتناص	اقتصاص
٩٣	لاتقدر إلا	لا تقدر إلى
٩٥	المسكرات	المسكرات
١٠١	والأمم العربية	الغربية
١٠١	دون أمس	دون أن تمس
١٠٤	كان الغرب	وكان
١٠٦	الضرورى فيها	منها
١٠٧	لمهدى	ولمهدى
١٠٨	الموهونة	الموهومة
١١١	أقفرت	أقفرت
١١٩	المستأنين	المتفانين
١١٩	فى المسائل	فى بعض المسائل
١٢٧	المدنية العربية	الغربية
١٤١	ومثال	مثال
١٤٩	المدنية القروية	القروية
١٥٣	اللغات العربية	الغربية
١٥٦	اكتسبا	اكتسبا

صفحة	خطأ	صواب
١٧٢	وانه يراعى	وأن
١٧٣	الجريدة الذى	الجريدة
١٧٣	بشكريرها	بتحريرها
١٨١	يرجدن	يردن
١٨٦	عمله ما	عمله إلى ما
١٨٩	الشخصية	الشرطة
١٩٣	الجاملة	الحاملة
١٩٩	المحامين	الحامين
٢٠٢	ألقى فى رَوعهم	ألقى فى رُوعهم
٢٠٨	كأنن أتيت	كأنى أتيت
٢٠٨	ما كنت	وما كنت
٢١٢	أيام محدودة	معدودة
٢١٤	يستهينون النصح	بالنصح
٢١٤	يشيعون أخبارا	يشيعون عنهم أخبارا
٢١٦	خطتها	خطها
٢٣٧	تبين السكون	اليون
٢٣٨	لا يفيده	لا يفيد
٢٣٩	احداهما	احدهما
٢٤٤	الفرار	الفراد
٢٦٢	المطامع كانوا	وكانوا
٢٩٢	وإدام	وإدامهم
٢٩٤	بعضناللاجانب	الأجانب
٢٩٦	يصوروننا	يصوروننا
٢٩٩	تسكرهم	تسكرهم
٣٠٢	وظل فى	وقل فى
٣٠٣	الأفكار	الأقطار
٣٠٦	الموافق المخالف	للموافق والمخالف
٣٤٥	يمثل	يمثل
٣٦٠	لا تتجلى	لا تتجلى
٣٧٧	فى السعادة	فى العادة
٣٩٢	القضاء والسياسة	والسياسة
٤٠٣	والقرالى	والغزالى